

مكتبة
السليمانية
بيت يكي بيك في كوش

أليف

أبراهيم فوزي باشا

الجديد الشينا

طبع على نفقة مؤلفه وإدارة جريدة المؤيد

حقوق الطبع والترجمة محفوظة لهما معا

(طبع بمطبعة الآداب والمؤيد سنة ١٣١٩ هجرية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على آلائه. والصلاة والسلام على سيد رسله وأنبياؤه. محمد وآله
وصحبه وأوليائه

وبعد فقد انتهينا في الجزء الاول من كتاب (السودان بين كتشنر
وغردون) الى آخر حادثة سقوط الخرطوم بقتل الطيب الذكر (غردون باشا)
ووقوع البلد في قبضة المهدي ووقوعنا والحامية في أسره. وبقي أن نذكر
من موضوع هذا الكتاب ما تلا ذلك فنقول وبالله المستعان

قيام دولة المهدي في السودان

لما كانت مدينة الخرطوم عاصمة أقاليم السودان المصري فسقطها
في قبضة المهدي صير السودان كله خاضعاً له ولا عبرة باقليم دنقلة الذي
كان وقتئذ مقر الحملة الانكليزية كما انه كانت توجد مدينتان لم تخضعا له بعد
وهما مدينة سنار عاصمة اقليم سنار ومدينة كسلة عاصمة مديرية (التاكا) ومهما
يكن من الامر فان حالة تينك المدينتين كانت منذرة بقرب بسقوطهما
وسياتي تفصيل ذلك كله في مكانه

بلغ عدد القتلى من سكان الخرطوم يوم سقوطها أربعة وعشرين الف رجل وقتل
الاطفال وكل ذكر ولو كان رضيعاً غير ان النساء لم يقتلن وابتدأت هذه
المنذجة عند طلوع الفجر. وقبيل شروق الشمس أصدر الخليفة (شريف) الاوامر

بالسكت عن القتل وأخرج السكان من منازلهم بلباس النوم وأصدر أمين بيت المال أمراً إلى الحاج خالد العمرابي بالوقوف على باب الخندق لتفتيش كل خارج من سكان المدينة الذين أمروا بالبقاء في بقعة بين الخندق ومعسكر ابن النجومى معرضين للبرد القارس والحر المحرق واستولى الدراويش على المنازل وفي اليوم التالي بدأ بتعذيب الناس حيث يستعدون صاحب المنزل وكبار أفراد عائلته إلى منزل الأمين ويتدوّن مكالمته بقولهم له حيث أنك كفرت بالله ورسوله وحاربت المهدي فقد أهدر الله ورسوله دمك وحرّم مالك عليك وصيره حقاً للمهدي والمهدي غنا عن دمك ولا سلامة لك في الدنيا والآخرة إلا بتسليم جميع أموالك حتى الخيط والخياط وسواء أذعن لهذه الأكاذيب وسلم ماله أو لم يسلم فلا بد من ضربه الف سوط والمرأة نصفها وتوثق يده ورجلاه ويلقى على الأرض ويصب عليه الماء البارد في الليل وبقى السكان في هذا المذاب شهراً حتى جمعت الأموال والامتعة في بيت المال

ومن الحوادث التي وقعت يوم سقوط الخراطوم أن رجلاً اسمه (كريب) من أقارب المهدي ومن حراس الخليفة شريف الذين يطلق عليهم اسم (الملازمية) ومعه نحو عشرة من أقاربه دخلوا منزل رجل مصري اسمه إبراهيم له سبعة إخوة فقتلوا الثمانية وفتشوا المنزل فلم يجدوا به مالا وكان لإبراهيم غلام في التاسعة من العمر فاخفته أمه ونساء أعمامه في وسط الامتعة خوفاً عليه من القتل فعثروا به في غضون التفتيش وأخرجوه قترامت أمه ونساء أعمامه على أقدام كريب ورفقائه وقلن له أن والده وأعمامه النسبة قتلوا فنسألك بالمهدي إلا ما تركت لنا هذا الصبي فالتفت لهن وقال كيف

تركه ونحن لم نجد في بيتكن ذهباً ولا فضة وكلكن نساء مسنات ليس
بينكن من تميل النفس اليها ثم صاح برفقائه وقال قطعوا الصبي ثماني قطع
وآركوا لكل واحدة منهن قطعة ولم يتم هذه العبارة حتى تناول رفقائه الصبي
وقطعوه ثماني قطع وألقوا لكل امرأة قطعة ومثل هذه الحادثة يعذبها بالوف
ذكرنا منها هذه للدلالة على اخواتها

وأخذت النساء سبايا وأرسل أمين بيت المال بنحو الف عذراء من بنات
أعيان المصريين فاختر المهدى منهن ثلاثين فتاة من ذوات الحسن والجمال
آبؤهن من وجهاء المصريين سكان المدينة ووزع الباقي على حرسه وذوي
قربته وكلهن كموطآت بملك اليمين

وأرسل أمين بيت المال عدداً عظيماً من النساء الى عبد الله التعايشي
فأبقي لديه العذارى منهن ووزع الباقي على حراسه وذوي قربته ايضاً وصار كلما
قضى وطره من واحدة يهديها الى أحد رجال حاشيته

وأرسل أمين بيت المال أيضاً بمئات من النساء الى الخليفيتين على بن
حلو ومحمد شريف وكان عملهما بهن مثل عمل عبد الله التعايشي. وكثير من
أولئك النسوة امتنعن من الفسق والفجور بهن فعدبن عذاباً ألماً وضربن
ضرباً مبرحاً وحلقت شعور رؤسهن وكثير منهن فضلن الموت على
الحياة ورأيت امرأة أحد الصناجق وهي تركية من جهة أيها وسودانية من
جهة أمها اتخرت تخلصاً من العذاب الذي نالها على أثر امتناعها من تسليم
نفسها لعبد الله التعايشي وضربت امرأة الشيخ محمد السقا شيخ القراء في
الخرطوم وعذبت ستة شهور لا امتناعها من تسليم نفسها الى عبد الله التعايشي
والخلاصة ان عدد النساء اللواتي سببن لا يقل عن خمسة وثلاثين الف فتاة

وشاهد ذلك انك تجد عند اصغر امير من امرء المهدي عشرين فتاة أما الامراء الكبار واقارب المهدي فان اللواتي يأخذهن كل واحد منهم يزيد عددهن على العشرين عددا ولا يظن القارئ انهم يختلسون أولئك الفتيات بل يأخذونهن باسمر من المهدي أو أحد الخلفاء أو أمين بيت المال موضحاً في كل أمر اسم الفتاة واسم أبيها وجدها وأوصافها وأنها أعطيت لفلان غنيمة له يحل له وطؤها بملك اليمين ويجوز له بيعها ما لم تصر أم ولد ومن وجدت عنده من اتباع المهدي امرأة وليس لديه أمر بالبيانات التي شرحناها تصادر أمواله ويقبض عليه ويعامل معاملة سارق .

وكان المهدي أصدر أمراً حظر فيه سبي كل امرأة لها بعل ولكن هذا الامر كان لا يعمل به الا اذا كانت المرأة طاعنة في السن أو قبيحة المنظر لا تميل اليها النفس وكان أمين بيت المال يمسك النساء ويفتشهن بعد خلع ملابسهن فمن وجدت سليمة من العيوب أخذت ومن وجد بها عيب اثيرت وطرقت هذا مجمل ما فعله المهدي بسكان الخراطوم من جهة الاموال والاعراض ذكرته بغاية الايجاز لاني اذا تتبعته التفصيل أفنيت الاعوام. دون أن أوفي حق المقام وأصدر المهدي منشوراً قال فيه ان جميع الذين خرجوا من قبة الخراطوم اي (خندق) الخراطوم لا يعتبر زواجهم شرعياً لانه حصل في زمن الفترة التي كانت قبل بعثته وأمر بمقد زواج كل زوجين من أولئك الاسرى واذا كان في المرأة شيء من الحسن أو بقية من الشباب لا يستأنف عقد زواجها بل تؤخذ غنيمة

وكتب أمين بيت المال الى المهدي يستفتيه في أنه وجد بالخراطوم عتق أعتقهم أو اليهم قبل فتح المدينة بزمن بعيد فهل يعاملون كالأحرار أو الارقاء

فأجاب بان الذين اعتقوا كذا لا يمتبر عتقهم وأمره بمعاملة أولئك العتق
معاملة الارقاء

ذكر مقابلة المؤلف مع امين بيت المال

ذكرت اني أسلمت نفسي ومن معي من الجنود في منتصف النهار
فقبضوا علىّ وأوثقوني كتناً وساقوني الي امين بيت المال يحيط بي نحو مائتي
نفر من الدراويش شاهرين سيوفهم وكاهم يصيحون بي ويقولون يا كافر
يا عدو الله فالقيت به بمنزل أبي بكر الجار كوك أحد اعيان المدينة ووجدت المنزل
مملوا بالنساء وهو مشغل بفرزهن

ولما أوقفت بين يديه كان مشغلا بالنظر الي فتاة فتاة وهي مجردة من
ملابسها ويدها خرقة تستر بها عورتها وهو يقبلها يمنة ويسرة والدموع
تساقط من جفونها وهي تقول « رضينا بقضائك يا الله » وبمدان فرغ من
أمر الفتاة التفت نحوى وقال أعوذ بالله من هذا الوجه الابيض ثم التفت
للحراس الذين حولي وقال لهم من هو هذا الكافر فقالوا هو ابراهيم باشا
فوزي فقال لماذا لم تقتلوه فقالوا تركناه ريثما يظهر أمواله وأموال غردون
والحكومة ثم صاح بي وقال دلنا يا كافر على هذه الاموال فقلت ان أموالى
أخذت من منزلي وأما أموال غردون والحكومة فليست موكلا بحفظها ثم
استل سيفه من غمده وتقدم الي وقال هذا الكافر لا يظهر هذه الاموال
وقتلته خير من استحيائه فامسكه من حوله وقالوا له أرجئه ريثما نمذبه او يدلنا
على الاموال ثم صاح بالمبيد فطرحوني على الارض وجلس واحد منهم
على رأسى وأمسك اثنان السياط وضرباني حتى كات سواعدهما فابدلا

بأشئ آخر حتى سال الدم من جسمي فقلت لهم ليس لردون مال وليس
للحكومة مال غير أوراق البون

وبعد ان تمزق جسمي زجوني في السجن وبقيت ثلاثة أيام فيه يسوقوني
للاستنطاق والضرب في كل غدوة وروحة

وفي اليوم الثالث أخرجوني من السجن موثوق الكتاف يحيط بي
الحراس وأرسلوني الى منزلي فوجدت به أحد الامراء المشهورين بالورع
والتباعد عن غل العنائم فجمع أمتعتي وكتبها في ورقة عرضها علي فلم أجد
شيئا مفقودا منها ثم قال لي ان الاموال الظاهرة كلها استوليت عليها ولم يبق
غير ما يخفي في بطن الارض فقلت اني لم أخف شيئا في بطن الارض فأخذ
يوعظني تارة ويهددني أخرى وأنا يثب علي بالسيف فقلت له اني لم أخف
شيئا ولم يكن لدي مال غير ما استوليت عليه فساقتني ومعي ماخف حمله من
الامتعة الذهبية والفضية والنقود وبعض حلي مجوهرة الى أمين بيت المال
فلما نظرني قال كيف أبقيت هذا الكافر حيا حتى الآن فقال له الامير نحن
نؤجل قتله حتى يظهر لنا أمواله وأموال غردون والحكومة ثم قال أمين بيت
المال لذلك الامير ألم يك عنده نساء فقال له عنده محظيتان حبشيتان أخذتهما
لنفسى فقال أمين بيت المال كيف تأخذها قبل عرضها علي وأخذ الاذن
بهما مني فأجابه الامير اني أخذتهما بسيني ولا أطلب من بيت المال غيرها
فبارك لي فيهما فقال له قد باركت لك فيهما وملكتك اياها فشكره وأنا واقف
وساعداي موثوقان كتافاً

ثم تقدم أمين بيت المال الى الصناديق التي فيها امتعتي وفتحها فوجد
ضمنها صواني وطواقم للقهوة والشاي مصنوعة من التبر على طريقة صناع الحرطوم

الماهرين وهي عبارة عن اسلاك مسبوكة يتألف منها كل واحدة من
 تلك الاواني فالتفت الى أمين بيت المال وقال لي يا كافر يا عدو المهدي ومحارب
 انصاره لما اذا اتلفت ذهب المهدي وفضته وصنعتها اواني مثل ما يصنعه الكفار
 فقلت له انني صنعت ذلك لما كان هذا التبر ملكا لي ولما صار الآن ملكا
 للمهدي فانه يصنع به ما يشاء فقال لي من أين لك انه كان ملكا لك مع انك
 محارب للمهدي وكل ما في الخرطوم ملك حاربته حتى الارواح وضربني
 بسوط كان في يده ضربتني على رأسي حتى خضب بالدماء وجهي ثم قال خذوه
 الى الامير ابي قرجة ليرى من الدنيا . فاخذت بحالة لا أستطيع وصفها حيث
 كان يحيط بي نحو ثلاثمائة درويش شاهرين السيوف والحراب حولي وهم
 يصيحون يا كافر يا عدو الله حتى بلغت منزل ابي قرجة وكان نازلا بديوان
 المديرية فالتفت بالباب جما غفيرا من الناس وسمعت قهقهتهم من البعد وهم
 مزدهمون فادخلوني على الجمع المتكوف فنظرت رجلين مجردين من ملابسهما
 فامعنت النظر فيهما فاذا احدهما حامداً اغا صالح أحد الصناجق وهو ابن صالح
 بك الملك صاحب فداسي الذي تقدم لنا ذكره والثاني من ذوي قرابته والدر اويش
 يطمنونهما بالحراب طمنا لا يهجل موتهما فايقنت اذ ذاك انهم سيفعلون بي
 مثل ما يفعلونه بهذين الرجلين وأخيرا سقط الرجلان مضرجين بالدماء على الارض
 وتطاير دمهما على وجهي وأصاب ملابسني فاجهزوا عليهما وكان ايقافي لمشاهدة
 ذلك المنظر الفظيع بقصد ارهابي لادلهم على ما يطلبونه ثم ادخلوني على
 ابي قرجة فابتدأته بالتحية فرد باحسن منها فاطمأن خاطرني بما توسمت
 فيه من البشاشة فالتفت الى الحراس وقال لهم من هذا فتقدم رئيسهم اليه
 وأسر اليه قولا لم أسمعه فالتفت الي بسكينة وحنان وقال فكوا وثاقه فعملوا

وأمرني بالجلوس على الأرض جلست وكنت وقتئذ في أشد حالات الظأ والآلام
الضرب فقلت له ياسيدي الأمير التجاسر بطاب شربة ماء قبل الممات فقال لي
« أبشرك بكل خير » وأمر أحد غلمانه باحضار شراب من العسل ممزوج بالماء
فقدمه لي فتناوت جرعة منه لم تقم بسد الظأ واشتدت بي الحاجة الى طلب الماء
فاعدت عليه الرجاء بطالب الماء فامرني بماء ممزوج بشيء من خبز الذرة اسمه
(الابريه) ينفذني ويزيل الظأ فتناوت منه بقدر الحاجة وبعد برهة خاطبني وقال
ان الدنيا فانية وان زمن المهدي ليس كما تقدمه من الازمان وان المال أصبح
مكافاً له ومن اخفاه عنه وقع في غضب الله فقلت له ياسيدي ليس لي مال
غير ما أخذ مني وغردون لامال عنده والحزانه الاميرية ليس فيها غير
أوراق البون فقال اتخلف لي بالله العظيم فقلت احلف بالله اني ما قلت الا الصدق
فرفع صوته وقال للجراس الذين جاؤا بي ارجعوا من حيث جئتم فان الرجل
صادق فيما يقول واحذروا من ان يمسه أحد بسوء واعلموا ان من مسه بالماء
أمسه بالسلاح والنفت اليّ وقال لا بأس عليك ليهدا روعك فانت آمن من كل
سوء ثم أمرني بالبقاء في منزله فبقيت به ليلتين كان يقدم لي الغذاء الكافي في
خلالهما وكان كريماً يأكل معه نحو ثلاثين رجلاً من خواصه وكانوا يقدمون لي
الطعام منفرداً فاستعظفني في ذلك وقال انه لا يمنعه من تناول الطعام معي غير
شيء واحد وهو اني لم أقابل المهدي ولم آخذ عنده البيعة فظهرت له رغبتني في
ذلك وانني أصبحت لا أطلب غير شمولي بعفو المهدي وتمتعي برضاه عني

ذكر ما غنمه المهدي من الاموال والذخيرة من الخرطوم
كان سكان الخرطوم أغني أهالي السودان واكثرهم مالا ولما أحسوا

بقدم المهدي عليهم هجرا اكثرهم الحارطوم ولحقوا بمصر وكانوا من الطبقة الرفيعة جدا وأرسل اكثر التجار أموالهم الى مصر وغيب الباقون أموالهم في بطن الارض ولما قتلوا يوم سقوط المدينة ذهبت ولم يهتد أحد لملها ولذلك يقول العارفون إن اكثر الاموال مودعة في بطن الأرض ولم يحصل بيت المال على شيء يذكر من المال. ومن المؤكد ان الامراء كانوا لا يقدمون الى بيت المال اكثر من ربع ما يعثرون عليه ومع ذلك كله بلغ ما اجتمع في بيت المال نحو ثلاثمائة الف جنيه ونحو ثلاثمائة الف ريال من المييدي والنساوي ونحو ثلاثين قنطارا من الذهب المصنوع حليا ونحو اربعمائة قنطار من الفضة أما اثاثات المنازل والرياش والملابس فانها لا تدخل تحت حصر وقد جمعت تلالا يخالها الرائي جبالا

وأما الاسلحة فانها مدفان من كروب و ٣ مدافع متر اليوز و ٢٠ مدفعا جباليا و ٦ آلاف بندقية رامنجتون جيدة و ٤ آلاف بندقية رامنجتون بها خلل وكانت مودعة بالمخازن وعدد لا يدخل تحت حصر من البنادق ذوات الطلقتين ومن طراز آخر قديم
وأما الذخيرة فكما يأتي ٢٠ قنبلة لمدافع الكروب أما المدافع الجبلية فقنابلها موجودة بكثرة و ١٠ آلاف صندوق مملوءة بالحارطوش و ٨ آلاف اناء (برميل) مملوءة بارودا

ذكر قتل فرج باشا الزين

لما دخلت ميسرة الدراويش من ميمنة خنسدق المدينة كان فرج باشا الزين قومندان الحامية وقتئذ واقفا عند باب المسلمية فتكرر ولبس ملابس

جندى بسيط وحذا حذوه القاتمقام سرور بهجت بك واختاطا مع الجنود
السود وخرجا من باب المسلمية فامسكهما حراس ذلك الباب من الدراويش
وفتشوهما ولدي تفتيشهما ارتاب الحراس في أمرهما حيث وجدوا عندهما
ساعتين من الذهب وسلسلتين ذهبيتين ثم وجدوا مع فرج باشا خاتمه المنقوش
عليه اسمه وكذلك سرور بهجت بك فقبضوا عليهما وأوثقوهما كتفا وأرسلوهما
الى أمين بيت المال الذى أرسلهما الى عبد الله التعايشي وهو أمر بضرب
عنقهما فضربا وكان ذلك في اليوم التالى لسقوط المدينة

وذهب كثيرون من الناس أن لفرج باشا الزين يداً في سقوط المدينة
وانه كان خائناً والحقيقة انه لم يخن ولا يده له ألبته في أمر سقوط المدينة غير
انه كان كسولاً يميل الى الراحة ويفر من التعب سبي الإدارة

على ان الذى دعا غردون لتوليته هذا المنصب كونه سودانى الاصل وربما
كانت توليته تجذب قلوب بني جلده الجنود السود لمعاضدته نخب ظن
غردون فيه ولم يتحقق شيء مما كان يؤمله فيه ومراعاة للظروف ابقاه في
وظيفته التي كان بحيت بك بطراق يباشرها بدلا عنه

ذكر مقابلة المؤلف للمهدي

قلت ان الامير أبا قرجة اطلقني من الوثاق وسكن روعى وآوانى في
داره ليلتين ثم أرسل معي مندوبين حافظوا على واجتازوا النهر معي حتى
أوصلوني الى منزل يوسف منصور قومندان طوبجية المهدي وأبلغه المندوبون
ان أبا قرجة أرسلني له ليقدمنى للمهدي فقضيت تلك الليلة في منزله وفي ظهر
الغد رافقني الى دار المهدي ومعنا السيد بك جمعه مدير الفاشر فالقيناه

قد فرغ من صلاة الظهر والناس متكوفون حوله وهو يعظهم فتقدم يوسف منصور اليه وقال له يا سيدي الامام المهدي هاهو ابراهيم فوزي فالتفت اليّ بوجهه باش وقال يا ابراهيم فوزي اتني اعرفك منذ كنت حاكماً في مقاطعات البحر الابيض فلماذا ركنت الى الكفار ولم تسلم لي اولم يكن الواجب علي مثلك اجابة دعوتي فقلت يا سيدي اتني من كبار قواد الحكومة ولا يليق بي ان اتركها في أويقات الشدة وسويقات الازمة وكما اتني وفيت لها فسأوني لك أيضاً فتيسم وقال لي قد عفوت عنك وأمرني بالذنو منه فذنوت فبايني بيعته المعلومة ثم نزع صرقتة وقدمها لي فلبستها وكان ذلك دليلاً على منتهي رضاه عني ثم انصرفت فاحاط بي الناس ليتبركوا بلثم جبة المهدي وبعضهم ناظم على نوالي هذه المنة فكان فريق من الناس يقصدون لثم تلك الجبة وآخرون يقصدون ايذاً باللكم وأخيراً خلعت لهم الجبة ليتبركوا بها ووقفت بعيداً وكانت الشمس محرقة حتى اجتاز بي كبير من الامراء فتقدمت نحوه وسألته ان يساعدي على ارجاع الجبة ففعل ولما دفعها لي أخذتها ووضعها على رأسي ثم لبستها وتوجهت قاصداً منزل يوسف منصور الذي نجا بنفسه وتركني وسط جموع المتبركين واللاكمين وتبعني في الطريق عدد ليس بقليل وكاهم ناظرون على نوالي هذه المرقعة . ثم أبلغت ان المهدي أمر لي بعلاءة للغطاء وانه لطبخ الطعام وقصعة للأكل وجارية رأيت منها التذمر وعدم الرضى بالبقاء عندي فبعثها بعشرين ريالاً

ذكر مقابلة المؤلف لعبد الله التعايشي

لما انصرفت من دار المهدي وعدت الى منزل يوسف منصور قال لي

لا بد لك من مقابلة عبد الله التعايشي فقلت له بلغني ان هذا الرجل مشهور
 بالقسوة وانني أخاف على نفسي منه فقال لي يوسف انه كذلك ولكن اذا
 بلغه انك قابلت المهدي ولم تسع لمقابلته كانت العاقبة اسوأ فقبلت مشورته
 وفي الغد صاحبنى يوسف منصور والسيد بك جمعه الى دار التعايشي الذى
 مكثنا ننظر خروجه علينا ست ساعات وفي منتصف النهار خرج علينا واذا هو
 رجل نحيف الجسم بوجهه أثر الجدري وملابسه مرقعة رثة بالية فابتدره يوسف
 منصور بالتحية فرد عليه ثم قال له يوسف منصور يا خليفة الصديق هذا
 ابراهيم فوزي من الخرطوم عفا عنه المهدي وبايعه فجاء يطلب عفوك أيضاً
 فالتفت اليّ بوجه عبوس وقال ما هذا ثم التفت لمن حوله من الدراويش
 وقال لهم ألسن أمرتكم ان لا تتركوا ذا شارب أو ملتحميا من الذين دخلتم
 عليهم فى الخرطوم ثم قال ليوسف منصور ماهي وظيفة هذا الكافر فى
 الخرطوم فتعلم يوسف منصور وتوقع شرا يصيبني وقال له انه كان ملازما
 بيته وكان غردون يبغضه فقال التعايشي للسيد جمعه ماهي وظيفة هذا الرجل
 فقال كانت وظيفته (باشا) فقال التعايشي (كان باشا الشونة) ومنذ ذلك
 فهمت ان لفظه الشونة كلمة عظيمة جداً عندهم ثم قلت له ياسيدى خليفة
 الصديق ان سبب نجاتي من القتل هي تعلق قلبي بمحبتك ومحبة سيدنا
 الامام المهدي المنتظر وان أنوارك وانوار المهدي هما كانا سبب نجاتي وانني
 أحمد الله على منته على بمشاهدة نورك ونور المهدي وقدصرت الآن لا اكره
 الموت لانعماسي فى ذلك النور فاطرق الى الارض ورفع رأسه وقال يا يوسف
 منصور قد دفوت عنه ثم انصرفنا عنه وعدت الى منزل يوسف منصور
 وصنعت لي كوخاً من الخشيش بجوار منزل يوسف منصور الذى قال لي بعد

انصرافنا من عند التمايشي اذهب بنا لمقابلة الخليفتين علي بن حلو ومحمد شريف
فقلت له اني لا قيمت من التمايشي ما لا قيمته فليت شعري ماذا الاقي من الخليفتين
ثم قلت له لا اذهب اليهما البتة وقد كان من امرى معهما اني ما صاغت
واحداً منهما ولا اجتمعت بهما حتي من الله علي بالخلاص من أسر المهديوية
والحمد لله على كل حال

ذكر دخول المهدي مدينة الخرطوم

في يوم الجمعة ١٣ ربيع الثاني ركب المهدي وخلفاؤه الباخرة (اسماعيلية)
واجتاز بها النهر الى الخرطوم ثم قصد المسجد وصلى فيه فريضة الجمعة ثم خرج
بعد الصلاة وقصد سراي غردون ثم تفقد الترسانة والجبه خانه وكتب أسراً
الى خاله طه محمد بتوليته ناظراً على الترسانة وأمره بجمع العمال الذين كانوا بها
واعادة الاعمال فيها وفوض الى عبد الله التمايشي أمر حراسة الجبه خانه
فانتدب لها رجلاً اسمه عبد الرحيم الطريفى وأمره بجمع العمال واعادة الاعمال
فيها مثل تعبئة الخرطوش واعداد آلات الحروب واصلاح كل متخرب من
البنادق التي في مخازنها ثم زار أمين بيت المال وليث عنده برهة قدمت له
في خلالها المرطبات والقهوة فتناول القهوة ومزجها بالحلوى ليظهر للملا زهده
وعدم اعتناؤه بالمطاعم فقال له أمين بيت المال لا تفعل ذلك ياسيدي فقال له
ولماذا فقال لان ذلك يذهب بلذة الحلوى والقهوة معا فقال قد تركنا اللذات
لأنها معقبة بالحسرات ثم قال لا مين بيت المال اني عازم على الاقامة بعض
أيام في هذا المنزل أي منزل أبي بكر الجار كوك وأمره باعداد ما يلزم لراحته
وكان لصاحب المنزل أبي بكر الجار كوك بنت تزوجت قبل سقوط المدينة

باسبوع وفي يوم السقوط قتل زوجها وابوها مما فامسكها أمين بيت المال وقال
 للمهدي اني أقدمالك في غضون اقامتك في منزل ابيها فقام المهدي ودخل الى
 داخل المنزل ورأى المرأة فاعجبه حسنها ولم يخرج حتى نال وطره منها وكان
 ذلك في اليوم الرابع لقتل زوجها ثم قفل المهدي راجعاً الى ام درمان والمشاورة
 دائرة بينه وبين أهل شورا على جعل الخرطوم عاصمة ملكه وكلهم
 موافقون له على هذا الرأي ما عدا عبد الله التمايشي فانه كان يقول للمهدي انا
 لم نعرف بعد عاقبة أمرنا مع الحملة الانكليزية التي ربما اضطرتنا الظروف
 للتهجر امامها الى كردفان فاذا أقمنا بالخرطوم صار النهر بيننا وبين كردفان
 وما زال التمايشي يثبط المهدي ويقيم له العقبات لينمعه عن سكنى الخرطوم
 وبقي المهدي مدة متردداً في القبول يقيم أسبوعاً في الخرطوم وأسبوعاً في أم درمان
 ويصلي الظهر والعصر في سلامك الحكمدارية وإقامته في منزل ابي بكر
 الجار كوك حتى وافته منيته كما سيأتي

سورة التوبة

ذكر القبض على المؤلف وسجنه بالخرطوم

وبعد مضي شهر على سقوط الخرطوم ارسل الي حسين باشا خليفة
 مدير بربر خمسين ربالاً فاشتريت منها جبة ونملاً وعمامة وأبقيت بعضها للنفقاتي
 وما مضت على ثلاثة أيام حتى جاءني نحو عشرة دراويش يحملون
 الاسلحة فقبضوا عليّ وأوثقوني كتافاً وفتشوا كوخني وحفروا أرضه وساقوني
 الى أمين بيت المال في الخرطوم فدخلت عليه فصاح بي وقال يا كافر يا منافق
 يا لص أنت سرقت من مالك وتوسعت به حيث غيرت ملابسك وعلا رأسي
 بسوط. كان في يده حتى تطاير الدم فقلت له ياسيدي انني لم أسرق شيئاً بل

ان أحدهم ارني أحسن عليّ بخمسين ريالاً فرفع سوطه وقال من هو الكافر
الذي يحسن عليّ الكافر فلما رأيت إلحاحه خشيت أن يكون وراءه مسؤولية
عليّ حسين باشا خليفة فقلت انه رجل من جهات النيل الأبيض كان يعرفني
أما أنا فلم أعرف غير وجهه ولا أعرف اسمه فأمرني الى السجن فمكثت فيه
ثلاثة أيام ثم أخرجني منه وقال لي لاجنّاح عليّ فيما فعلته معك لان الذين
وشوا بك مصريون من أبناء جلدتك فالآن عفوت عنك واطلب منك أن
تجملني في حل مما اصابك منى فقلت له انت في حل فأعطاني عشرة ريالات
واناء للطبخ وآخر للاكل وملاءة وجاربة وقال لي عد الى أم درمان فحملت
الامتعة وذهبت مع الجارية التي أخذت تسبني وتقول (كيف أرضى بولد
الريف تعني المصري سيداً لي) وبينما أنا سائر في الطريق وهي سائرة بجاني
اذ لمحت الجارية جماعة من العبيد الجهادية سائرين في الطريق فاستغاثت بهم
وقالت ان ولد الريف سرقتني فقال لي البييد من أين سرقتها يا ولد الريف
فقلت لم أسرقها بل أعطانيها أمين بيت المال فاستدروني بالضرب بالسياط
وسلبوا كل ماعى من الامتعة والنقود والجارية ثم ذهبوا الى حيث لا أعلم
وجهتهم فعدت الى أمين بيت المال وقصصت عليه قصتي فكان جوابه
لا شأن لي فعدت الى أم درمان في اسوأ حالة لأملك قوت يومي فضلاعماً
أنافيه من آلام الجروح الناشئة من ضرب السياط.

ذكر أهالي الخرطوم بعد ذلك

مكث الدراويش يمدون أهالي الخرطوم ليدلوهم على خبايا أموالهم
بقية شهر ربيع الثاني وشهر جمادى الاولى الى أواخر شهر جمادى الثاني وهم

باقون في البقعة التي بين الخندق وممسكر ابن النجومي معرضين للبرد
والحرارة ووكل بحراستهم الحاج خالد العمرابي فكان يأخذ الرجل أو المرأة
الى منزله في المدينة ويوالى تمديه حتى يدل على ماله وكثير منهم ماتوا تحت
أيدي المذبذبين الذين لا يرثون ولا يرحمون

وقد رأيت كثيراً من النساء أصهبن بالجنون لهول من ما قاسينه من
أليم العذاب وأخريات فقدن العقل عند ما رأين أولادهن وأزواجهن
مذبوحين بين أيديهن وفيهن من فقدت من الاولاد سبعة وثمانية ولقد رأيت
امرأة رجل مصري اسمه عطية كان أمين ورق الثمنه قتل زوجها واخوتها
ثلاثة وأولادها خمسة واحفادها من جهة أولادها ثلاثة وأزواج بناتها ثلاثة
واحفادها من جهة بناتها أربعة وكان عمرها زهاء سبعين سنة فكانت تراها
وقد ذهل عقلها وهي تصف لكل من وقع نظرها عليه مصرع أولادها ثم
تتناول التراب وتضعه على رأسها ثم تصرخ وتهم على وجهها في القلاة وهكذا
كان حالها حتى توفيت بعد بضعة شهور ومثل هذه المرأة كثير يسد بالئات
وأصيب كثير من الرجال بمثل ما أصيبت به هذه المرأة وكثير من
الذين نجوا من تلك المذبحة ماتوا لفرط ما أصابهم من الحزن بعد أن انفطرت
أكبادهم من هول مارأوه في ذلك اليوم المشؤم

ومما يذكر هنا ان محمد باشا حسن مأمور المالية دخل عليه يوم
سقوط المدينة أصداقاه له من جيش المهدي وأحاطوا به وحموه من القتل
فلما خرج معهم ونظر في طريقه الى جيرانه ومعارفه قتلى في شوارع
المدينة قال لأصداقائه الى أين تذهبون بي فقالوا الى خارج الخندق لانه
لإسلامة لك مادمت داخل الخندق فقال لهم قد قتل أهل بلدي كلهم فمع

من أعيش حتى تطلبوا لي النجاة فإنا أقول لكم أيها الاصدقاء انكم لا تحسنون
الى الا اذا قتلتموني بجانب هؤلاء فأخذوا يراجمونه وساقوه بالاكراه فامتنع
وقال لهم اقتلوني أيها الناس فانني كرهت الحياء فتركه أسدقاؤه وامتنعوا من
قتله فقتله غيرهم

ومن أمثال هاته الحوادث أمراة احمد عبد الوهاب وكيل الضبطية
فإنها لما قتل زوجها واخوته الأربعة ترامت على اقدام القتالين وقالت لهم
ألقوني بمن قتلتموهم فامتنعوا لانها كانت فتاة رائحة الجمال وما زالت
تلح عليهم فلم يفعلوا وأخيراً أمسكت سلاحاً وهمت بأولئك القتل فقتلوا
تخلصاً من شرها

وقتل أيضاً امرأة ابراهيم بك لبيب حكمدار بوليس المدينة مع
زوجها لانها احتضنته لما تم الدرايش بقتله. وكذلك امرأة نالته حذت حذوها
فهذه الثلاث نسوة اللواتي ذكرنا خبر قتلهن يوم سقوط الخرطوم أما اللواتي
ذهبن ضحية التعذيب فان عددهن يزيد على الثلاثمائة

وكان في الخرطوم رجل مصري أصله من نهر دمياط. ومن علماء
الازهر الشريف ثم عين قاضياً لبربر ثم عين مدرسا بجامعة الخرطوم ورئيساً
للسانذة المدرسة الاميرية. وكان يتعمم بعامة خضراء لانتسابه لآل البيت
المطهر كما كان في طليعة العلماء الذين كتبوا النصائح تكديماً لدعوى المهديونية
وكان غردون يحترمه ويحمله ويشاوره في كثير من الامور واسمه حسين المجدي.
وفي يوم سقوط المدينة دخل عليه الدراويش وله جاران اسراييليان أحدهما
اسمه بسيون والثاني اسمه اسراييل فلما أحسا بدخول الدراويش قالان ان جارنا
عالم من علماء الاسلام وذوانتساب لآل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ولا بد أن يحترمه هؤلاء الدراويش ولا يمدوا أيديهم بسوء لمن دخل في
جواره فهبنا ندخل منزله وبينما كنا تهيأنا للاحتفاء بالشيخ حسين المجدي
اذ أبصرنا من نوافذ بيتهما جالسا على مصلاهما متعبا بهامته الخضراء يقرأ في
المصحف فدخل عليه الدراويش فضربوه بالسيوف وبتروا يمينه فقال مرحبا
بقضاء الله فقالوا له يا كافر فقال اني أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول
الله وأمتلاً المصحف من دمه فأغشي عليه فتناول أحد الدراويش امرأته وآخر
بنته على مرأى منه ومن جيرانه وفسق الاول بالمرأة وافترض الثاني بكارة
البنات وقال له قد أحال الله لنا دمك وعرضك فقال لهم كذبتم ان الله لم يجعل
دمي ولا عرضي ثم اجهزوا عليه أما الاسرائيليان فانهما قد نجوا من القتل
ولا يزالان على قيد الحياة

وكان في الخرطوم أيضا رجل مصري اسمه الشيخ فايد كان شيخ سعادة
الاحمدية وفي ساعة المذبحة التجأ الى بيته نحو عشرين شخصا من جيرانه من
موظفي الحكومة فدق الشيخ طبوله وحمل رايته فذبحه الدراويش ومن معه
ولم ينج منهم غير واحد اسمه عبد الله ابراهيم سعد كان ضابطا في الحامية
بمد أن اصيب بثلاث ضربات بالسيوف على راسه.

وقتل قناصل الدول كلهم وكان موسيو هنزل قنصل النمسا استأمن
المهدي على نفسه ورعاياه فوعده المهدي باشخاصه الى بلاده اذ اخرج اليه مسلما
نفسه وفي يوم سقطت المدينة ذبح وسبيت امرأته وصارت جثث القتلى مطروحة
على وجه الارض.

ومن أعجب ما شاهدته أن هذه الجثث لم تنتفخ ولم تتغير ملامحها حتى
أنك لتستطيع معرفة الشخص المقتول بمد بضمة شعور ولم تأكلها الطيور ولم

يشاهد حولها شيء من الديدان أو الحشرات التي تناب الاجسام الميتة وقد
 عد شعراء المهدي ذلك كرامة من كرامات المهدي حيث قالوا في أنشودة
 باللغة الدارجة مامعناه «ان اعداء المهدي الذين فتك بهم سيفه عافت اكل لحومهم
 الطيور والديدان والكلاب وسائر الهوام وذلك دليل على كفرهم»

ولم تقف الفظائع عند حد القتل وازهاق الارواح بل كانوا يعمثلون باشلاء
 المقتولين ويجمعون التبع ويحرقون به الجثث

وكان في الخرطوم رجل من أهل خراسان اسمه الشيخ عبد الرحمن
 الخراساني وكان مجاورا بالمدينة المنورة ومعروفا عند أهلها بالصلاح والورع
 وله أتباع كثيرون في السودان فقتله الدراويش وربطوا جثته بحمّة كلب ميت
 ووضعوا فيه على رأس الكلب واحرقوها مما

ومن الذين قتلوا يوم سقوط المدينة الشيخ شاكر الرئيس مفتي السودان
 وكان سوريا قتلته محمد نوباوي الذي دخل على فرعون وقتل ابنه قبله ولما
 هم بقتله قال له احد الحاضرين اتركه لانه رجل فقيه فقال له انه افقي بفتوى
 ضدي منذ عشرين سنة فأنا اذبحه واذبح ابنه قبله تشفيا

وقتل من العلماء أيضا الشيخ موسى مفتي المحاكم الشرعية والشيخ محمد
 حتيك قاضي القضاة وكانا فقيهين محققين كتبوا رسالتين طويلتين كذبا بهادعوي
 المهدي وفندا مزاعمه وقبل سقوط المدينة جاءني الشيخ موسى زائراً ثم اختلى
 بي وقال لي والدموع تتساقط من عينيه اني وأولادي لم نذق طعاما منذ
 ثلاثة ايام ثم كشف عن بطنه فرايت حجرا مربوطا عليها فهالني ذلك وعرضت
 عليه نقودا فلم يقبلها ثم وجدت بمنزلي أقتين من البقسماط دفعت له اقة
 وبقيت لنفسى الثانية واعطيته خروفا من الضأن كنت اشتريته من احد

الصناجق الذين غزوا في ضواحي الخرطوم على احدى البواخر فشكرني
ورجاني أن آذن له بالبقاء ريثما يأكل قليلا من البقسماط ليستعيد بعض قوته
ثم سألتني ان أرسل معه جنودا يحفظونه من الاعتداء عليه حتى يبلغ منزله وفي
الغد عاد اليّ واخبرني أن أولئك الحراس اغتصبوا منه البقسماط. ولكنهم
تركوا الحروف له فدعوتهم لاسألمهم فقابلوني بشراسة خلق وقالوا ألم نصنع
معه من المروءة ما لا يصنعه غيرنا حيث تركنا له الجروف فقلت لهم صدقتم
وطيبت خاطرهم وصرقتم

والحاصل ان المهدي بعد ان صادر جميع أموال سكان الخرطوم وسي
من نساءهم كل حسناء وقاسوا من العذاب أشده ونالوا من الضنك غايته وكانوا
مجبوراً عليهم الكسب وسبل الارتزاق وكان يعطى كل شخص نحو رطل من
الذرة في كل يوم حتى هلك من هلك ونجا من أراد الله نجاته ركب هو
وخلفاؤه ذات يوم ووقف حولهم فرثي لهم وأذن لهم بمبايعته ثم كتب لهم
منشوراً وعظّمهم فيه وضمنه ما يقطع أملهم من إعطائهم شيئاً مما سلب منهم
وهذه صورة المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكرم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
وبعد فن العبد المقتدر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى كافة أحبائه وأصحابه
الذين خرجوا من قفرة الخرطوم ومرادهم السلامة لليوم المعلوم ورضاء الله
الحق القيوم أقول يا أحبائي ان نعمة الدين نعمة لا نعمة غيرها وحيث من
الله عليكم بها وصرتم من عبيد الله الذين يطلبون ما عنده ويمتلون أمره
ويرغبون فيما رغب فيه ويزهدون ويستحقرون ما حقره بعبد ان كنتم على

شفا حفرة من النار فنتقدم منها فشكروا نعمة الله التي انعم بها عليكم واستعظموها
 لتشكروها وتكثفوا بها عن نعم الدنيا ومتاعها لان نعم الدنيا ومتاعها نصيب
 أبناء الدنيا الذين لا نصيب لهم في الآخرة واعلموا ان الله هو المتكفل بالارزاق
 الضامن لها فمن عرف ذلك عرف انه مادام حيا لا يقطع رزقه ولو هرب
 منه للحقه كما ورد « لو ركب العبد الزبح هاربا من رزقه لركب الرزق البرق
 حتى يلحقه » وحيث كان كذلك وان ما وجد في الخراطوم شيء جزئي لا يكفي
 الانصار الذين فتحوه وانعم الله عليكم باعانتهم وقد صرف عليهم جميع ما وجد
 مع غنائم بربر ولم يفضل الا ما يحتاج للترجيح فاصرفوا نظركم عما خرج من
 ايديكم جملة حيث بعم أنفسكم وأموالكم لله وأتم تعلمون ان الصحابة لما
 خرجوا الى الهجرة فارقوا ديارهم وأموالهم رغبة في دين الله وانتم لما أنعم الله
 عليكم بالصحبة التي تمنها لكل السابقين فالخرجوا عن ذلك واكفوا بالله
 وارغبوا فيما عند الله كما البيعة على ذلك فان من لم يخرب الدنيا للآخرة لا يستقيم
 له دينه وقد بعث صلى الله عليه وسلم لحراب الدنيا وعمارة الآخرة كيف وقد
 دعا النبي صلى الله عليه وسلم على طالب الدنيا الذي لا يرضى الا بها فقال صلى
 الله عليه وسلم « تبس عبد الدينار والدرهم والخميصة ان أعطي رضي وان لم يعط
 سخط تبس وانتكس واذا شيك فلا انتكس » ووصف الله المنافقين بذلك فقال
 تعالى « ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها
 اذام يسخطون ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا
 الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون » وأتم أحبائي اكتفوا باندراجكم مع
 المجاهدين وما يطيكم اسوتهم فلا خير في الرقيق حيث يعيش البسد بدونه
 ويتأسف واجده عند فراقه وقد صدق فيه اسم الرقيق لان الرقيق يتقطع

ولا يدوم لمن تملق به ولا يمضه فاعتصموا بالله وتوكلوا عليه وآتوه فانه قال
« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على
الله فهو حسبه » صدق الله العظيم والسلام ٢١ جماد آخر سنة ١٣٠٢

ذكر مقابلة الشيخ محمد الامين الضرير للمهدي ووفاته
تقدم لنا ذكر الشيخ محمد الامين الضرير ونقلنا صورة الكتابين
الذين بهما له المهدي وفي غضون حصار الخرطوم كان الناس اشاعوا
عنه انه جاسوس للمهدي وانه كان يبطن ولاءه وكان أهل الخرطوم
يغضونه لهذه الاسباب حتى شكوه الى غردون فقبض عليه وعلي
قاضي القضاة الشيخ محمد حتيك والشيخ موسى المفتي اللذين تقدم ذكر قتلها
وقبض أيضاً علي عبد الرحمن ارباب أحد علماء المدينة وبالتحري عن شأنهم
ثبت ان الشيخ محمد الامين وقاضي القضاة والمفتي بريثون مما رماهم به أهل
الخرطوم الموصوفون باساءة الظن بكل مواطنيهم الذين لم يكونوا مصريين
من جنسهم

ولكن تحققت المهمة في عبد الرحمن ارباب فقط وبمد ان قضا
أربعة ايام في السجن امر غردون باطلاقهم حتي عبد الرحمن ارباب الذي ثبتت
ادانته وبالغ غردون في الاعتذار الى الشيخ محمد الامين واسترضاه ورفقاه
وفي يوم سقوط المدينة دخل على الشيخ محمد الامين ابن له اسمه علي
كان قائداً صغيراً من قواد المهدي وسأقه الى عبد الرحمن النجومي الذي هم
بقتله واستل ابنه سيفه ليقتله اظهراً لاخلاصه للمهدي وبيناهم كذلك اذ
صر عليهم الخليفة شريف فسأل عن الخبر فتبيل له ان القورم يتآمرون على قتل

الشيخ محمد الامين الضيرير فاخترق الصفوف بحصانه وقال للمتأمرين احذروا
 ان تصيبوا الشيخ بسوء واعلموا ان من أصابه بماه أصبته بسيفي فتفرق الناس
 وأنعمدوا سيوفهم عنبه وقاد على أباه واجتاز به النهر وقدمه للمهدي الذي
 قابله بالاكرام واكثر من لومه ومعاتبته ثم بايعه البيعة المشهورة ثم قاده ابنه
 أيضاً الى عبد الله التمايشي الذي أخش له في القول واسمعه من الكلام
 أمره وأخيراً قال له يا عالم السوء يا من أعمى الله بصره وبصيرته قضيت صمرك
 المشؤم في تحصيل علوم جاء المهدي بنسخها فقد كنتم تقولون حدثنا فلان
 عن فلان باسانيد طويلة ونحن الآن نتلقى الشريعة من المهدي الذي يتلقاها
 مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فاحذر يا شيبية السوء ان أسمع عنك
 انك تعلم الناس شيئاً من العلوم القديمة المنسوخة واعلم انك منذ
 الآن محتاج الى التعليم من أحقر انسان من أصحاب المهدي ثم دعا عبداً
 أعجيباً وقال للشيخ محمد الامين هذا استاذك منذ الآن فصل بجانبه وتلق
 شريعة المهدي عنه اما ما تعلمته قبل الآن فانه منسوخ وخير لك ان تحفر له
 في الارض حفرة تعفيه فيها فسكت الشيخ ولم يجاوبه بكلمة بل خرج من
 عنده وهو يقول اللهم اقبضني اليك غير مفتون فتوفى بعد بضعة أيام فحملت
 جثته الى المهدي فامتنع عن الصلاة عليه وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم
 نهي عن الصلاة على المنافقين وقرأ « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم
 على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » الآية
 ونجا عبد الرحمن ارباب بعد ان هم عبد الرحمن النجومي بقتله فاكرمه المهدي
 وارادفه خلفه ثم مالبت عبد الرحمن ان انكر على المهدي أفعاله ونقم عليه وايقن
 انه كان في ضلال مبين حيث كان مصدقاً بهذه الدعوة ومميناً لذلك الطاغية

ذكر انتقال المهدي الى ام درمان

ذكرنا ان المهدي كان معسكراني جهة النقيح بعيداً عن مرعي المتذوفات
 وفي أوائل جمادى الثانية سنة ١٣٠٢ زعم ان النبي صلى الله عليه وسلم
 أمره بنقل معسكره الى ام درمان وكان يطلق اسم (البقعة الطاهرة المشرفة)
 على كل معسكر حل فيه وفي صبيحة يوم ركب ناقته وقال ان النبي صلى الله
 عليه وسلم أمره باطلاق خطامها حتى تنزل بالمكان الماء ورة بالقاء رحلها
 فيه وذلك كما كان يميره صلى الله عليه يوم دخل المدينة المنورة فدارت الناقة
 المأمورة على زعمه حتى القت رحلها بمكان مرتفع شمال خندق أم درمان
 يبعد عن ضفة النهر بأني متر تقريباً وهناك القت رحلها فضربت اطناب الحيام
 وصنعت الاكواخ من البوص وجعل طول المسجد نحو ستمائة متر في ضمفي
 هذا القدر وصنعت للمهدي مقصورة من ألواح الزنك التي كانت تصنع للامان
 التي تودع فيها المواد الملتهبة ونقل منبر الخطابة الذي كان موضوعاً في سلامك
 الحكمدارية الى تلك المقصورة وكانت بقية المسجد مكشوفة والمصلون
 معرضين للحر والبرد

ولما كان منزله متصلاً بالمسجد كان يصلي الاوقات كلها داخل بيته والناس
 يأمنون به وبينهم وبينه نحو عشرة حجب من الشوك والاطناب والبوص وكان
 لا يصلي في المقصورة الا فريضة الجمعة

وكان ذا صوت جهورى في الصلوات الجهرية يرفع صوته بالقراءة باكياً
 وتساقط الدموع من عينيه وكثيراً ما كان يمسح تلك الدموع في حال القيام
 وقومه معجبون به ويعدون البكاء في الصلاة من علامات اطلاعه على النيب

حيث يزعمون انه يرى اللوح المحفوظ متى أحرم بالصلاة
 وقيامه وسجوده طويلان جداً حيث كان يقوم في قراءة الركعة اكثر
 من عشر دقائق وفي الركوع والسجود نحو ثلاث دقائق
 وصلى في رمضان صلاة القيام عشر ركعات قرأ فيهن جزءاً من القرآن وصلى
 بالناس في ليلة نصف شعبان ما شاء كمة بالقرآن كله رافعا صوته بالقراءة با كيا
 وكان عنده عبيد اسود يؤذن له فقال انه وارث مقام بلال مؤذن النبي
 صلى الله عليه وسلم واعطى مقام ابن أم مكتوم لمؤذن ثان
 هذا وقد قلده كثير من الامراء والاتباع في رفع أصواتهم بالبكاء أثناء الصلاة
 ومن المضحكات ان دنقليا من أقارب المهدي تناول الف ريال من تاجر
 قبطني اسمه جرجس ليصنع له بها سراكب ثم اغتال المال ولحق بالمهدي
 وبمد سقوط الخرطوم زاره نجاران مصريان فقام يصلي واسترسل في البكاء
 فاندش الزاران من هذا البكاء وقال أحدهما ما الذي أصاب الرجل فقال الآخر
 لا أظن شيئاً أصابه غير انه لما رآنا تذكر ما اغتاله من مال جرجس فبكي ظناً
 منه اننا جئنا نطالبه به

حوادث دنقلة

دنقله إقليم من أقاليم السودان المصري وحده من جهة الشمال
 (خور موسي باشا) وهو يبعد عن حلغا بنحو خمسة أميال ومن جهة الجنوب
 حدود مقاطعة بربر واقسامه احد عشر قسماً أربعة منها في الشمال وسبعة
 في الجنوب

وسكان الاقسام الشمالية هم قبائل (سكوت والمحس) والدنقله يسكنون

الاقسام الوسطى. والجهات الشمالية أرضها قاحلة مكسوة بالحجارة إلا ان
النخل فيها كثير ومحصوله جيد وبه قوام عايش السكان خلافاً للاقسام
الوسطى فان أرضها خصبة وطريقة الري فيها بالسواني وهي تجود بمحصول
وافر من الجبوب وفيها النخل أيضاً لكن محصوله لا يذكر في جانب محصول
الجهات الشمالية وسكان هاته الاقسام خليط يطلق عليهم (الداقلة) والغالب
على اخلاقهم الهدوء والسكينة أما سكان الاقاليم الجنوبية فهم قبائل الشايقية
وأرضهم تشبه الاراضي الشمالية والحاصل ان عوائد سكان دنقلة متقاربة متشابهة

ذكر الشيخ المهدي

كان في احدى قرى الشايقية التي بين الخرطوم وشندي رجل اسمه
(الشيخ المهدي) وكان صاحب طريقة وله صداقة مع محمد الخير داعية بربر وبمد
هلاك حملة الجنرال هيكس وفد هذا الشيخ على المهدي فكرم وفادته وقدم له
الهدايا وتلقاه بالاكرام ثم عرض عليه ان يقوم بالدعوة له في مديرية دنقلة
فاجابه بالقبول فكتب له بالامارة على قبائل الشايقية كلها وبالدعوة له في
مديرية دنقلة ثم غادر الشيخ المهدي كردفان مع محمد الخير داعية بربر واشتغل
معه في حصار بربر ثم انفذ خاله (ولد عبود) أحد افراد قبيلة الشايقية الي اقسام
دنقلة الجنوبية فثارت معه قبيلة الشايقية واعلنت خلع طاعة الحكومة ورفعت
لواء العصيان وقبضوا على ستة عشر جندياً واثنين صف ضباط كانوا جياة في
هذين القسمين وقطعوا اسلاك التلغراف وأسروا عماله

ولما وصلت تلك الاخبار الى المدير مصطفى ياور باشا انتدب الضابط
أحمد افندي سليمان ومعه عشرة عساكر من النظاميين لاكتشاف الاخبار

وما كاد يبلغ محل الثارين حتى قبضوا عليه وعلى جنوده المشرة بعد أن اطلقوا النيران على العدو الذي لم يتمكن من القبض عليهم الا بعد ان نفذت ذخيرتهم وبعدها قتلوا بقتل أحمد أفندي سليمان وجنوده ارجأوا قتلهم الى الغد واعتقلوهم في منزل رجل اسمه الخليفة أبو بكر وكان صديقا حميلا لأحمد أفندي سليمان وما كاد الليل يرخي سدوله حتى أطلق الخليفة أبو بكر أحمد أفندي سليمان ومن معه فركبوا دوابهم وفروا وفي الغد فقدوهم فبعثوا خلفهم نحو مائتي راكب فلم يدركوهم وعادوا بغير طائل ولم ينتقموا من الخليفة أبي بكر لما بينه وبين المصاة من روابط الجنسية

ولما وصل أحمد أفندي سليمان الى مركز المديرية رفع الى المدير نتيجة مأوريته فاجبر المدير ومعه مائة جندي نظامية على باخرة قاصداً جهة (الدبة) وكان ولد عبود ومعه زهاء سبعة آلاف مقاتل قصدوا جهة الدبة وكان بها نحو ثلاثمائة جندي بين نظاميين وباشبوزق وما كاد المدير يصل تلك الجهة حتى علم ان العدو منقسم قسمين في جهتين متقاربتين وانهم ممتنعون عن الحرب حتى ينسليخ شهر رجب فاخذ المدير في الاستعداد وهاجم مركزي العدو فكان النصر حليفه حيث انجلى الهجوم عن انتصار المصريين وهزيمة الثوار وعاد الامن الى ربوع دنقلا وقمل المدير راجعا الى مركز المديرية بعد ان حصن نقطة الدبة

ذكر واقعة الشيخ الهدي

لما وصلت أخبار الهزيمة الى الشيخ الهدي في بربر غادرها قاصداً جهة دنقلا وأمدته مائة خير بمائة جندي سبباني من الذين انضموا اليه من جنود

الحكومة واستصرخ في طريقه ببائل الرباط وأولاد قر الذين صاحبه
 رئيسهم نعمان بن قمر والد سليمان بن نعمان قاتل الكولونيل ستوارت فاجتمع
 اليه نحو ستة عشر ألف مقاتل وصل بهم الى الدبة وفي ذات ليلة هجم بهم
 علي مركز الدبة وكان الظلام حالكا فما شعرت الخامية الا بالضوضاء حول
 المعقل فصوبت مقذوفاتها على العدو فسقط منه ألفان وسبعمائة قتيل
 وقتل نعمان بن قر وفر المهدي ومعه نحو خمسة آلاف مقاتل وفر الباقون
 ولحقوا ببلادهم وعسكر المهدي في جبل على شاطئ النهر في جهة (الحتانة)
 وفي ثاني يوم الواقعة وصل المدير ومعه فصيلتان من الجنود النظاميين ثم سار
 الي الحتانة ومعه خمسمائة جندي فابتدره الدراويش باطلاق البنادق فحاط
 بموقعهم وهجم بمجنوده عليهم فلما أبصر المهدي الجنود هاجم عليه ولي
 الادبار ومعه قومه وغنم الجنود معسكرهم وفيه كثير من الاقوات واستولوا
 على عشرين صندوقا مملوءة خرطوش بنادق رامنجتون ثم تأثر المدير العدو
 مسيرة ست مراحل حتى خرج من حدود المديرية وقفل راجعا الى مركز
 المديرية وكانت هذه الواقعة في شهر رمضان سنة ١٣٠١

ذكر مخبرات المهدي مع مصطفى ياور باشا

تقدم لنا ذكر وقائع دنقلة وها نحن نذكر ما فاتنا فنقول
 لما حاصر أبو قرجة الخرطوم وظفر محمد الخير ببربر كتب المهدي
 كتابا مع رسول خصوصي الي مصطفى ياور باشا مدير دنقلة يدعوه فيه الي
 التسليم أو الحرب وكان الشيخ المهدي في بربر يتأهب للمغارة على دنقلة كما تقدم
 فادرك مصطفى ياور باشا حرج موقفه اذ كان جنوده لا يزيدون على خمسمائة

جندي فمولى على دفع البلاء بالخطلة والحديمة فاستدعى المسيحيين الذين كانوا معه في المديرية وأسر اليهم انه عول على دفع شر المهدي بالحديمة ريثما تصل النجدة الانكليزية وانه سيستدعوهم على رؤس الاشهاد في سراي المديرية ويعرض عليهم الاسلام فيجيبونه فصدعوا بما أشار به عليهم ثم استدعى رجالاً من ذوي قرابة المهدي المقيمين في دنقلة وأعلن أمامهم انه دخل في طاعة المهدي وانه صار عاملاً من قبله على إقليم دنقلة ثم دعا المسيحيين للاسلام فأجابوه وكتب الى المهدي كتاباً ضمنه دخوله في طاعته وشرح له كل ما فعله من اسلام المسيحيين واعلانه الطاعة فأجاب المهدي بكتاب سماه فيه مصطفى جابر بدل ياور لانه من أسماء الكفار على زعمه وضمن الكتاب تعيينه أميراً على دنقلة من قبله وأمره ببدال ملابس المساكر بالمرقات التي هي شعار المهدي ثم بعد ذلك حصلت وقائع الدبة والختانة التي تقدم لنا ايرادها

ولقد جاء ما أتاه مصطفى ياور باشا بنتيجة مرضية حيث استطاع حفظ البلاد مع قلة جنوده ريثما وصلت طليعة الحملة الانكليزية وساعد أيضاً على حفظ المديرية من السقوط في قبضة العدو وجود رجال اكفاء قاموا بتدبير الامور وخاطروا بنفوسهم في جميع الوقائع التي انتصر فيها جنود مصطفى ياور باشا ونخص منهم بالذكر أحمد جودت بك وكيل المديرية وقتئذ فانه كان قومندان القوة المدافعة في واقعة الدبة التي انهزم فيها الشيخ المهدي شر هزيمة وقد أصيب وقتئذ أحمد جودت بك بطعنة ربح في جبهته أما الضابط أحمد أفندي سليمان الذي تقدم ذكر وقوده في قبضة العصاة وفراره منهم بواسطة صديقه الخليفة أبي بكر فانه كان قومندان القوة النظامية وشهد كل وقائع دنقلة كما انه شهد كل الوقائع

التي انتصر فيها عبد القادر حلمي باشا في جنوب الخرطوم مما تقدم لنا ذكره
ومن قواد الباشبوزق الصناجق نور الدين بك وماميش أغا وسليمان بك
جبريل ومن الضباط النظاميين الضابط سعد نبيه أفندي ومرسال كوكو
أفندي وغيرهم

ولما وصلت طلائع الحملة الانكليزية الى حلغا كان الشيخ المهدي معسكراً
في جنوب حدود مديرية دنقلة بعد هزيمته من الحتانة وكان قد وصل الى
دنقلة في غضون ذلك رسول الى مصطفى ياور باشا يحمل كتابين أحدهما
من المهدي والثاني من شخص يدعي الشريف محمود من أقاربه وكان مضمون
كتاب المهدي الى مصطفى ياور باشا أمره بتسليم المديرية الى الشريف
محمود والشخص الى الشريف محمود مضمونه انه تعين من قبل المهدي
أميراً على إقليم دنقلة وانه معسكر في بئر تبعد عن النهر بثلاث مراحل
اسمها (أم بليلة) فكتب اليه مصطفى ياور باشا يقول فيه اني لم اكن مصدقاً
بدعوة المهدي وان ما فعلته كان خديعة وحيث انك من أهالي دنقلة
فانت آمن اذا عزمت علي العودة الى وطنك مستظلاً بطاعة الحكومة
ولما عاد رسول الشريف محمود اليه في بئر (أم بليلة) واطلع على ما كتبه له مصطفى
ياور باشا أسرع بالفرار من ذلك المكان ولحق بالشيخ المهدي الذي كان معسكراً
في جنوب حدود مديرية دنقلة في مكان اسمه (كورتى) وأخذنا في الاستعداد
والاهبة للغارة على الحدود وكان مع الشريف محمود حسن خليفة العبادي
ابن أخي حسين باشا خليفة مدير بربر أرسله المهدي للدعوة له في بصعيد
مصر ومعه أيضاً رجل مغربي أرسله أيضاً ليدعو أهل طرابلس الغرب
وهاهي صورة كتابين اخترناهما من الكتب العديدة التي كتبها المهدي الى

مصطفى ياور باشا الاول منهما في شهر رجب سنة ١٣٠١ والثاني في شهر
رجب سنة ١٣٠٢ أي بعد سقوط الخرطوم وفي الاول من اللين والمجاملة مايراء
القارئ وفي الثاني من المهديد والوعيد بان النبي صلى الله عليه وسلم وعد
المهدي بوقوع مصطفى ياور باشا في قبضته عاجلاً، آجلاً ما فيه

الكتاب الاول

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فمن الابد الواثق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الي مصطفى ياور امير مدينة
دقيقة وتوابها كان الله له معين أمين. بيد السلام والاحترام لا يخفى عليك ان
الذي ليست دار راحة وماهي الا ساءة فمن لم يجعلها طاعة ويكتب رضاء
الله تعالى فيها ويكتف بالله ويحمل همه به واحدا لا يسلم من همومها وغمومها
ولا بد أن تذهب ويقع المفرد فيما لا ينجو منه من الاهوال الشداد كما جاء
بذلك الوعيد في قوله تعالى « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع
كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله
شديد » واعلم أني داع الى الله ودال عليه وقد بعثني الله تعالى رحمة لمن اتبعني
من أهل زماني ونعمة على من عصى الله وخالفني واني انذرتك قبل هذا
واوضحت لك الامر جلياً وكتبت اليك بتوليتك اميراني في جهتك وما فعلت
ذلك الا لك وما وليت احدا غيرك كان في ولاية الترك الابد لقائنا والاخذ
عنا ورؤية الصديق منه كمحمد خالد الذي كان مدير « دارا » فانه قد اتانا
عنه فتح مديرية الابيض وصحبنا وتخلق باخلاقنا وتربي حتى تحقق بالصدق

والديانة المرضية على محبة كاملة فلما رأينا فيه آثار الصدق والامانة والعسالة
والنطق باخلاقنا والقيام بامرنا على ما نحب ونرضى وايناء على كافة نواحي
دار فرر ففتحها وصدق في ارشاد أهلها وادخلهم جميعاً في طاعتنا فصدقوا
كامل الصدق فجراه الله الخير والاحسان فقد زاد على ما ظنناه فيه ورقى أصحابه
ومن نواحيه على حسن اليقين والوثوق برب العالمين وإيثار الآخرة وزهد
الدنيا في الانابة الى ما عند الله فجراه الله عنا وعن المسلمين أجراً جزيلاً وأنت
ما وليناك من قبل ان نراك الا لحسن ظننا بك في صدق ديانتك وطلبك
ما عند الله ومعرفتك شؤون الدنيا ودناءتها ومعرفتك قوة الله وقدرته على كل
شيء حتى لا تميل الى شيء الا الى رضى الله فان طاعة الترك بعد ظهور
المهدى كفر وضلال كما هو وارد فان قويت سريرتك واشتد عزمك على
ذلك كما ظننا فيك فانت مؤتمر منا كما أمرناك والا فان علمت من نفسك
ضعف يقين وعدم طاقة على مقاتلة الترك ومناواتهم وقطع الاخبار عنهم
فأت الينا لتزيد يقينا وتمكيناً وتكسب نوراً وتحسيناً حتى يسقط من قلبك
الالتفات الى الاولاد والاهل والخشية من غير الله والطمع فيه بما نراك
اياهم من الارشاد والتربية التي خصنا الله بها دون أوليائه الكرام وهو
ذو الفضل العظيم وقد علمت ثواب الهجرة والجهاد في سبيل الله من قول
الله تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وأنفسهم
أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان
وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها » الآية وقوله تعالى « فالذين هاجروا
وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم
ولا دخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن

الثواب « فمن كان مؤمناً مصداقاً بكلام ربه وعظمة وعده ووقوع ذلك يقينا
 يؤثر ما ذكر على ملك جميع الدنيا وشهواتها ومتاعها ومقاساة الشدائد في ادراك
 الوعد المذكور ومن لم يكن مصداقاً بذلك مؤثراً له فذلك لعدم إيمانه وتصديقه
 لوقوع ذلك وتسفيهه لمن فعل ذلك ممن آمن بالله وآثر ما عنده فاستحق
 ان يكون ماله غنيمة وان يخذل في الدنيا ويحشر الى جهنم في الآخرة قال الله
 تعالى « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم » الآية وقد كتبنا
 اليك ابناً انك ان قت باحد هذين الامرين فهو دليل صدق إيمانك
 وتسليمك والا فلا بد ان تقع في قبضتنا بقوة الله وحوله كما أشار الي ذلك
 سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ونسأل الله ان لا يخب
 ظننا فيك لاننا نحب لك الخير ونعلمك بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ان الترك لو أتوا عدد الشجر والمدر لا تقوم لهم قائمة كما بشرنا بذلك رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وان كثروا كورق الاشجار والرمال لو دخلهم
 احد من أصحابنا يموتون كما بشرنا بذلك الصادق الامين صلى الله عليه وسلم
 هذا والسلام رجب سنة ١٣٠١ (الكتاب الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
 فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى مصطفى ياور وفقه الله
 لطريق رشاده آمين. اعلم وفقك الله تعالى الى سبيل الرشاد وصرف عنك
 خيالات النفس وباعد عنك طريق المناد ان الهدى خير من الضلال وان
 الدار الآخرة لهي الحيوان وهي الدار التي أعدها الله لاصفيائه وأمناء دينه
 وندب اليها عباده المؤمنين في محكم كتابه العزيز بقوله « وسارعوا الي مغفرة

من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين « ولا يخفى عليك
 أني طالما أحسنت بك الظن ورجوت لك الخير وتوسمت فيك. الديانة
 والإمانة وأحببتك في الله وخطبتك خطاب أهل المحبة حتى اني من فرط
 ما حصل لي من محبتك في الله أصدرت لك أمراً بختمي بجملك عاملاً من
 طرفي على عموم دنقاة رجاء أن تكون من الذين باعوا الله نفوسهم بالجنة
 وبذلوا مهجهم ونفاس أرواحهم في احياء السنة فظاهرتني بالقيام بذلك ثم
 نكثت العهد ونقضته ومن نكث فاعما ينكث على نفسه وجاهرت بالعداوة
 وبارزت وقتلت أخياراً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بمكرك وخديمتك
 ولم تحش الله ولم ترع حقوقه مع انك في الحقيقة مغرور مستدرج لم تدر
 عاقبة أمرك ألم تعلم أن الله يمهل ولا يهمل ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين
 فيا أيها الرجل ويحك تدارك نفسك واعتبر بمن مضى من قبلك فان العاقل
 من اعتبر بغيره والسعيد من دبر أمر نفسه ونظر صلاح العواقب والكيس
 من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واعلم ان الله يملئ للظالم حتى اذا أخذه
 لم يقلته فان جميع ما حصل لك فهو استدراج من الله عاقبته الحسرة والندامة
 فأعمل فكرك وأعد نظرك واعلم أن الامر لله يعطيه من يشاء من عباده
 وكفالك ما حصل منك من مبارزة الله بالعداوة وشد أزر أعدائه الكافرين
 والاستعانة بهم على قتال المسلمين أما علمت قوله تعالى في محكم كتابه «يا أيها
 الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم
 منهم فانه منهم » وقال « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموادة
 وقد كفروا بما جاءكم » الآية الى غير ذلك من الآيات الناهية عن موالاته
 الكافرين على ان ما أنتم عليه من نقض اليهود وعداوة الله المعبود والركون

الى المكر والحديمة والحيل الضعيفة الشنيعة لا يفتنى عنكم من الله شيئاً ولا يدفع
عنكم المقدور ولا بد بعون الله من وقوعكم في قبضتنا ولو صدتم السماء
بسلم فانا مبشرون من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالنصر على من يما دينا
ونملك جميع الارض ولا يفرنكم ما حصل لكم من الاستدراج ولا ما رأيتوه
من استمدادكم والنصارى الذين معكم فان قدرة الله لا تقاوم وبطشه لا يصادم
وكم أهلك الله من الائمة قبلهم ممن هو أشد منهم قوة واكثر جمعا ولم يفتن عنهم
ما اعتمدوا عليه من دون الله شيئاً وحيث انك تدعى العقل وتزعم انك من
أهله فاعتبر بذلك واعلم علم اليقين انك ان أنبت الى الله وندمت على ما فرط
منك وأتيتنا نادياً نائباً فانك مؤمن ومعفو عنك في جميع ما مضى منك عفواً
خالصاً لوجهه تعالى ومقبول عندنا غاية القبول ولا نقول لك الا كما قال يوسف
عليه السلام لاخوته «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»
وان أحضرت معك بعضاً من عمدة البلد كمحمد عبد القادر ساتي المشهور
بفقيه تود ومحمد المك محمد بارقو ومحمد بن الفقير محمد ابراهيم وصالح امام
الجامع وسعيد أحمد فرح ومحمد الجميل ومحمد محمد كنيش فذلك أولي عندنا
فاحضبرهم فهم آمنون منا ومعفو عنهم في جميع ما جرى ومقبولون عندنا ولا
خرج عليهم وان أبيتهم بعد هذا الا الجحود والاعراض عن الانابة الى الله
المعبود وسلوك سبيل الضلال اعتماداً على المكر والحيل واغترارا بالخيال فاعلموا
انكم لن تستطيعوا الخروج عن أسر القدرة الالهية ولا بد من وقوعكم في
القبضة وتذوقوا السوء بما صدتم عن سبيل الله وذببكم عليكم فانا قد أنذرتناكم
ولا رشادكم دللناكم ومن أنذر فقد أعذر أسأل الله الذي يضل من يشاء ويهدي
من يشاء أن يجعلكم من أهل الهداية الذين سبقت لهم العناية وأن يجعل

هذا البيان منكم محل القبول انه اكرم مسئول هذا والسلام سنة ١٣٠٢ رجب

واقعة كورتى وقتل الشيخ الهدي

لما وصل الشريف محمود الى معسكر الهدي بلغ مصطفى ياور باشا انهما يتأهبان للهجوم على الحدود فزحف عليهم في اربعمائة جندي بين نظاميين وباشبوزق وكان قائد الجنود النظاميين الضابط احمد افندي سليمان والجنود الباشبوزق تحت قيادة نورالدين بك وسليمان جبريل بك
ولما اقترب من معسكر الشيخ الهدي اطلق الجنود النيران فجاءهم الدراويش وهجموا على صفوف المساکر ببسالة غريسة حتى اذا صاروا على مقربة منهم بنحو مائة متر سقط من الدراويش ما تقاتيل وقتل الشيخ الهدي والشريف محمود والمغربي داعية طرابلس الغرب ونجا حسن خليفة داعية صعيد مصر وولي الدراويش منهزمين لا يلوون على شيء وتمزق شملهم كل ممزق وكانت عدة الدراويش نحو ستة آلاف مقاتل ولم يصب من الجنود غير ضابط من الباشبوزق أصابته رصاصة في صدره ثم عرج ولم يميت وكانت هذه الواقعة في شهر ذي الحجة سنة ١٣٠١ هجرية

ذكر وصول كتشنر باشا الي دنقلة

كانت الحكومة مرتابة في صدق بقاء مصطفى ياور باشا ومن معه من الحامية على الطاعة لان أخبار ممالآته التي تقدم لنا ايرادها كانت تصل اليها بصورة توجب الشك وقد روى لنا الضابط احمد افندي سليمان انه كان يقرأ وقتئذ في الجرائد الواردة عليه من مصر اخبار دخول مصطفى ياور باشا والحامية في طاعة المهدي وكان الضباط يعجبون من الحكومة التي كان مصطفى

ياور باشا يشاورها في كل ما يدبره من الخديعة والملافة
والظاهر ان ما كان يخبر به الحكومة مصطفى ياور باشا لم تكن تمتد
صحته حتى ان الانكليز لما وصلت طليعة جيشهم الى حلفا انفذوا كتشنر
باشا وكان وقتئذ ضابطاً في أركان حرب الجيش الانكليزي وكان متكرراً
في زي مغربي ومتعمماً بعامة فوصل الى دنقلة والحامية زاحفة الي واقمة كورتى
التي سبق لنا ذكرها ثم تأكد عنده بقاء الحامية على طاعة الحكومة وقدم
نفسه للمدير فقوبل بما يليق به من الحفاوة والاكرام ثم بقى هناك متجولاً
في أنحاء المديرية يرافقه وكيلها احمد جودت بك حتى وصلت الحملة الانكليزية
التي زالت مخاوفها بعد ان أوقف كتشنر باشا الحكومة على الحقيقة التي كان
فهما ملتبساً عليها

وصول الحملة الانكليزية الي دنقلة

لانطيل على القاريء الكلام في سرد ما كان من أمر الحملة الانكليزية
التي أرسلت بعد تردد واحجام كانا السبب الإكبر لفقدان قائدها حيث صارت
هاته الحملة كأنها لم تكن وذلك لانها لم يكن الباعث لارسالها الا انقاذ فردون
باشا وقد علم القاريء انها لم توفق للقيام بهذا العمل
وفي أواخر شهر صفر سنة ١٣٠٢ تكاملت الحملة الانكليزية في (كورتى)
وتعين اللورد ولسلى قائداً عاماً لها وأخذت في الاهبة والاستعداد لمنابذة السير
الى جهة الجنوب فقر الرأى على انفاذ حملتين تسير احدهما في طريق الصحراء الى
التمة في (عطمور جقدول) وتسير الثانية في طريق النيل قاصدة بربر

حملة الجنرال ارل وقتله بواقعة كربكان

عين اللورد ولسلي الجنرال (ارل) قائداً لحملة النيل فسار من (كورتى) ومعه نحو ثلاثة آلاف جندي انكليزى ونحو خمسمائة زورق نقل الجنود المشاة أما الفرسان والطوبجية فانهم ساروا حياض القوارب في الضفة الغربية وكان الطابور الاول المصري من حامية دنقلة يسير في الضفة الشرقية يقوده البكباشى احمد افندى سليمان الذي كان قبل قيام الحملة حائزاً لرتبة الصاغفول اغاسى فرقى الى رتبة بكباشى بناء على الشهادات الحسنة التى قدمها المدير الى اللورد ولسلي بخصوصه

واستمرت الحملة فى سيرها ثمانية أيام وفر أهالى القرى الى الجهات الجنوبية وتركوا قراهم حتى بلغت جهة كربكان بالقرب من أبو محمد وهناك علمت أن نحو الالف مقاتل من الدراويش تحصنوا بجبل منيع ليقاوموها ويثوروا فى وجهها فانضمت القوة المصرية الى القوات الانكليزية فى الضفة الغربية وهاجمت معقل الدراويش من الجهة الشمالية فاطلقوا النيران عليها ثم قسم الجنرال (ارل) القوة وترك قسماً منها يناوش العدو من جهة الشمال وهجم بالقسم الثانى على العدو من جهة الجنوب الغربى فاستولى على المعقل وقتل الدراويش عن بكرة أبيهم ولم ينج منهم غير خمسة أشخاص أصيدوا بجروح بليغة وأصيب الجنرال (ارل) برصاصة قضت عليه وتولى قيادة الحملة بدمه الجنرال (بركنبرى) ثم صدرت اليه الاوامر بالعودة الى دنقلة وذلك على اثر وصول الاخبار بسقوط الخرطوم وقتل الطيب الذكر غردون باشا وكان بازاء كربكان فى الصحراء منهل اسمه (بيرسانه) اجتمع فيه زهاء الفين من

الدرأويش اخذوا بشنوز النزة على موقع الحملة ليقطعوا عليها خط الرجوع
فانتدب الجنرال برنكنبري البكباشي احمد افندي سليمان والطاير الذي يقوده
وأمره بالتربص خلف الحملة المطاردة أولئك فجرت بينه وبينهم عدة وقائع
كان الفوز له عليهم في جميعها وبقي معسكراً في كربكان اسبوعين ثم قفل راجعاً
الى دنقة

هذا ما كان من أمر حملة النيل وسيأتي ذكر حملة الصحراء ووصولها
الخرطوم بعد سقوطها بيومين

واقعة ابو طليح

لما وصلت للمهدي أخبار وصول الجنود الانكليزية الى (كورتى) وأخبار
تقدمهم الى الخرطوم عن طريق (عطمور جقدول) حيث ينتهى سيرهم
الى شاطئ النهر في جهة المتمة التي كانت باخر غردون باشا تنتظرهم فيها
كتب المهدي الى محمد الخير صاحب بربر يأمره بحشد الجيوش في بربر
لمقاومة حملة الجنرال (ارل) وانتدب موسى بن محمد حلو شقيق خليفة الفاروق
وأمره رأته الخضراء ومعه نحو ثلاثين الف مقاتل من أولى القوة والبأس وهم
من رجاله (دفيهم وكنانة) الذين ذكرنا خبر مبايعتهم للمهدي يوم اجتاز النهر
الابيض بعد واقعة (آبا) وشهدوا معه جميع وقائعه وجروبه وكان ذلك في أوائل
شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢

وتقدم المهدي لتشجيع الجيش وسار معه نحو خمسة عشر ميلاً ثم ودعهم
بعد ان بايعهم على ان لا يتركوا الانكليز يلبغون المتمة وفيهم رفق من الحياة
ثم سار الجيش يقوده موسى الذي أطلق العنان لانصاره فهبوا جميع القرى

الواقعة بين المتمة وأم درمان واستباحوا النساء ومكثوا في الطريق نحو
أسبوعين حتى بلغوا المتمة مع ان المسافة لا تتجاوز أربعة ايام مع السير البطيء
وفي أواخر شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٧ أنصر نصحي باشا وعساكره وهم
في بواخرهم في المتمة جيوش الامير موسى زاحفة الي جهة (أبو طليح) وهي
بئر في الصحراء تبعد عن المتمة بمسيرة ثلاث مراحل
هذا ما كان من أمر المهدي أما الحملة الانكليزية فانها سارت من (كورتى)
في أوائل شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ وعدد جنودها نحو اربعين وقائد ها
السر (هربرت استوارت) فوصلت الي أبو طليح في النصف الثاني من شهر
ربيع الاول وتقدم نحوها الامير موسى بالثلاثين الف مقاتل الذين معه وانضم
اليه بضعة آلاف من مقاتلة الجمليين فالتقى بالحملة في (أبو طليح) وهجم عليها
كما هجم الاسود على الفرائس ولم يكن الاكلح البصر حتى اختلط المسكران
وصارت المحاربة بالسلاح الابيض وعندئذ قتل القائد السر هربرت استوارت
وتولى القيادة بدله الجنرال (بولر) فتمكن من التمهقر تاركا أعماله وأثقاله في
ساحة الممعة فاشتغل الدراويش بالنهب والسلب مدة وجيزة تمكن القائد
في خلالها من إعادة النظام بين جنوده الذين أظهروا من البسالة والثبات ما حير
العقول حيث كرتهم على الدراويش وأمطرهم نيرانا حامية فسقط من الدراويش
نحو ستة عشر الف قتيل وقتل الامير موسى ونحو عشرين قائدا من قواده
الذين هم من اكبر قواد جيش المهدي واكثرهم تمسكا وتصديقا بدعوته
وتمسك بقية الدراويش باذيال الفرار وهم مذعورون لا يصدقون بالنجاة وقد
رأيت رجلا منهم في أم درمان أصيب بجنون عقب هذه الواقعة فقال لي ان
الانكليز شياطين وليسوا آدميين لانهم بعد ان هزمونا في (أبو طليح) دخلوا

اجسامنا واحتلوا رأسي وانا لا أدري كيف ادفهم عن نفسي . ووصلت اخبار هذه الهزيمة الى المهدي فكان من أمره ما تقدم لنا إirاده حيث عول على إسقاط الخرطوم الذي جراه على الاقدام عليه عمر ابراهيم الصنjq الذي ذكرنا نبأ فراره وبعد انتصار الحملة أرسل القائد كتابا الى المتمة قال فيه ما يأتي

نحن أول فرقة من جيش جلالة الملكة جئنا لكبح جماح الاشقياء المتمردين وانقاذ مدينة الخرطوم فان أردتم الدخول تحت طاعتنا فعليكم امان الله وامن جلالة ملكتنا وعليكم ان تقابلونا جنوب البلدة ناشري رايات الخضوع والتسليم واعلموا انكم ان لم تفعلوا ذلك يحل بكم ما حل بالذين حاربناهم في أبو طليح وحينئذ تجنون ثمار ما غرسته أيديكم والسلام

ولما وصل هذا الكتاب الى أهالي المتمة أخذوا البلدة وعسكروا شمالها وفي اليوم الثاني من شهر ربيع الثاني وصلت الحملة الانكليزية الى المتمة وتحصن الدراويش في البلد فهاجمهم الانكليز بثبات غريب والحقت قتالهم ومقدوفاتهم اضرارا كثيرة بمواقع الدراويش ومتاريسهم

واجتمعت الحملة بالبواخر التي كانت مرسلة من غردون للاستكشاف تحت قيادة محمد نصحي باشا وعسكرت الحملة في قرية (القبة) جنوب المتمة وتحصنت فيها

وهنا نقول لو أبحرت الحملة منذ وصولها الى الخرطوم لما سقطت ولكنها بقيت في المتمة خمسة أيام

وفي يوم السبت سابع ربيع الثاني أبحر (السرشاراس ولسن) مدير مخبرات الحملة لانكليزية على الباخرة (بردين) و(تلحوين) قاصدا الخرطوم وكان سفره قبيل غروب الشمس وسير بواخره بطيئا جدا لانخفاض ماء النهر وامامه شلالات

وفي مساء يوم سقوط الخرطوم سمعوا الصياح على ضفتي النهر بسقوط
 المدينة وقتل الطيب الذكر غردون فلم يصدقوا ذلك حتى كان يوم الاربعاء ١١ ربيع
 الثاني ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥؛ وكنت اذ ذلك في سجن بيت المال فسمعت الخراس
 يقولون لبعضهم «شددوا الحفظ على الاسرى لان بواخر الانكليز ستصل الي
 الخرطوم اليوم» وركب المهدي وخلفاؤه ووقفوا في أم درمان والرصاص
 والمتدوفات تتساقط على الباخرتين قبل ان تبلغ أم درمان بنحو عشرين ميلاً
 والراية الانكليزية تحفق فوقهما حتى وصلتنا الي ملتوي النهر وهما قاصدان
 سراي غردون فاطلقت عليهم المدافع من طابية (المقرن) التي لا تبعد عن السراي
 باكثر من ميل وعندئذ يقن السرشالس ولسن بسقوط الخرطوم وقتل
 غردون فارتد راجعاً من حيث جاء ولما أبصر المهدي الباخرتين عائدتين نزل
 عن دابته الي الارض وخر ساجداً شكر الله الذي أوقع الخرطوم في قبضته
 قبل ان يبلغها الانكليز

وفي اليوم التالي اصطدمت الباخرة تلحوين بحجر في (شلال رحام)
 ففرقت وانتقل السرشالس وجنوده الي الباخرة الثانية التي غرقت أيضاً
 بعد يومين واضطروا لأن يتحصنوا في جزيرة (ولد الحبشي) حتى تدركهم
 النجدة من معسكر المتمة وبعد يومين ادركتهم باخرة انقذتهم بعد ان أحاط
 العدو بهم وهاجمهم عدة مرات

ذكر تعيين عبد الرحمن النجومي لقتال الانكليز في المتمة
 وفي يوم ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٢ شيع المهدي عبد الرحمن النجومي
 وأبا قرجة وال جيش الذي كان مهتما لقتال الانكليز في المتمة وكتب منشورا

الى ضباط وعساكر الحملة الانكليزية يدعوم فيه الى الاسلام وهاهي صورة
المنشور نقلا عن كتاب المنشورات :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد
فمن العبد المذنب الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى كافة ضباط وعساكر
الانكليز خصوصا الاعيان والرؤس . أرشدكم الله الى اتباع سبيل النجاة قبل
البوس . وجعلهم من الالاثين بجانبه العزيز آمين . انكم اذا تدبرتم بمقولكم
وتفرستم في قدرة خالقكم وعجزكم عن مقاومته علمتم ان مخالفته شنيعة ولا
ينبغي لكم الا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه اليه وقد أظهرنا
للدعاية الى حماه . والدخول في ساحة كرمه وعطاياه . فبيا الى ذلك واغتنموا
سعادتكم قبل المهالك وسلموا تسلموا وأسلموا بؤتكم الله أجركم مرتين
ولا تعرضوا فتكونوا من النادمين كراشد ويوسف حسن الشلالى وعلاء
الدين وهكسى وغردون لانا أنذرناهم مرارا . ودعوناهم فما زادهم ذلك الا
فرارا . فذاقوا عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أجزى والسعيد
من أعطى بغيره وهذا انذار لكم فاذا بلغكم وأردتم الفوز العظيم . والنعيم
الدائم المقيم . فلبوا اجابة دعوتنا الى الله وبادروا بالتوبة قبل تعذرها عليكم وقد
توجهت اليكم جنود الله ولا طاقة لكم بمحاربتها ولكن من باب الشفقة
عليكم أمرناهم ان لا يحاربوكم الا بعد وصول هذا الكم وتحقق الابعاء منكم
عن الاجابة وأن لا يؤذوكم ولا يتعرضوا لكم في شيء من حقوقكم الخاصة
اذا سلمتم ماعدا حق الميرى والاسلحة والجيابين فان سلمتم فمليكم أمان الله
ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا وليس قصدنا استعباد

أحد ولا ارادة جاء ولا ملك في الدنيا ولا رغبة لنا في حياتها ولا في لذاتها
 الفانية بل انما قصدنا الدلالة الى الله كما أمرنا الله ورسوله بذلك والا اذا
 خالفتم فلا تقبل منكم صرفا ولا عدلا وسترون ما يحل بكم واصغوا بأذانكم
 الواعية لما أقول ان كان لكم عقول فان الله تعالى قد اظهرني رحمة لمن اطاعه بأباعي
 ونعمة على من عصاه بمخالفتي وأيدني منه بالنصر والظفر وأمدني بهمهم رسله
 وأنبأه وملائكته وأوليائه فلا يقدر على محاربتي الثقلان ولو كان بعضهم لبعض
 ظهيرا ولو شئت لقبض الله سلاحكم بحيث ان أصحابي يقتلونكم ولا يقتلون ولكني
 اخترت بتوفيق الله تعالى الشهادة لهم في سبيل الله اقتداء برسول الله صلى الله
 عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم فايكم والنور فان جند الله غالب وفي
 هذا كفاية لاهل العناية والسلام ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٠٢

ذكر عود الحملة الانكليزية الى دنقلة

بعد انقاذ السر شارلس ولسن من (ولد الحبشى) علمت الحملة ان جيشا
 كئيفا تحت قيادة عبد الرحمن النجومي قادم اليها كما انه يوجد جيش من
 الجليليين معسكر شمال المتمة فنصبت أشباحا من الخشب يخالها الرائي
 من البعد فرسانا وأوقدت مصابيح من البترول ثم ارتحلت الحملة أول الليل
 في ظلام حالك وجدت السير حتى بلغت منهل (أبو طليح) ولم يعلم أحد من
 الدراويش المعسكرين حولها بمغادرتها (القبة) حيث كانوا يرون التماثيل
 فيظنونها الجنود واقفة في حصنها وفي الليل يبصرون المصابيح فوق الحصن
 وهم لا يشكون في شيء من أمر بقاء الحملة وظلوا على هذا الحال ثلاث
 ليال وهم يظنون الرصاص على المعقل وفي صبيحة الليلة الثالثة انكروا

سكوت احلجة عن مجاورتهم فتقدم أحد الدراويش حتى صار على مقربة من الحصن فرآى التماثيل والمصابيح موقدة ليل نهار وعلم أن ضوء النهار هو الذي كان يجذب نورها فرجع وأعلم الباقين وأسرع مع ثلاثة آلاف راكب ليلاحتوا الحملة في أبو طليح وكانت غادرتها منذ ليلتين وصارت على مقربة من (كورتى) التي بها اللورد ولسلى فلم يمد في الامكان اللحاق بها

ووصل عبد الرحمن النجوى المتممة بعد ان غادرتها الحملة ببضعة ايام . وفي آخر شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٢ وصلت الحملة الى (كورتى) وقدم السر شاراس ولسن تقريره عن سقوط الخرطوم ومقتل الجنرال غردون ولما وصلت أنباء مفادرة الانكيز للمتممة للمهدى سر بها وكتب الى محمد الخير أمير بربر يأمره بجمع الجيوش والتقدم الى حدود دنقلة وفي شهر شعبان سنة ١٣٠٢ أخلى الانكيز دنقلة وعقب ذلك دخلها محمد الخير واستولى على الاقليم كله وبلغت جيوشه جنوب حلفا ومن ثم صارت الاقليم السودانية تحت سلطة المهدي وأخذ يخبر من حوله من الاتباع بانه سينزح على دنقلة بعد بضعة شهور ومنها الى القاهرة وبعث رسولين يحملان كتابين أحدهما برسم المغفور له الخديو الاسبق والثانى برسم سكان مصر وهما صورة الكتابين نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى خديو مصر لا يخفى على من نور الله بصيرته وشرح صدره ان الدين الذى يكون المتمسك به ناجيا عند الله هو دين الاسلام الذى جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونزل به القرآن من

الملك العلام قال تعالى «ان الدين عند الله الاسلام» وقال تعالى «ومن يتبع غير
 الاسلام ديناً فلن يقبل منه» وما سوي ذلك من الاديان فضلال يدعو الشيطان
 اليه حربه ليكونوا من أصحاب السعير ومن منحه الله تعالى عقلاً يميز به بين
 الحبيث والطيب لا ينبغي له ان يصرفه الا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم نزل
 الاقدام. ويشيب الطفل ويشد الزحام. والا كان أسوأ من البهائم حيث أضع
 حكمة تركيب العقل فيه ولا سبيل الى السلامة عند الله الا اتباع دينه. واحياء
 سنة نبيه وأمينه. وامانة ما حدث من البدع والضلال. والانابة اليه تعالى في
 كل الاحوال. وقد تأكد ذلك في هذا الزمان. الذي عم الفساد فيه سائر البلدان
 فان دسائس أهل الكفر التي ادخلوها على أهل الاسلام. وضلالاتهم التي
 مكنوها من قلوب الانام. قد أفضت الى اندراس الدين وعطلت أحكام
 الكتاب والسنة يقين. فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الانام. وتراكت
 الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الاسلام. واشتد الكرب على أهل
 الايمان. فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر لتراكم البغي والعدوان. فعند
 ذلك اظهرني الله طبق الوعد الصادق رحمة لمباده لانقاذهم من ظلمة الكفر
 الى نور الايمان. وأدلهم الى الله علي هدي منه وتبيان. وطوقني بالخلافة الكبرى
 المهديّة. وخلق عليّ حللها البهيمية. وبشرني سيد الوجود صلي الله عليه وسلم بالنصر
 علي كل من يما دني ولو كان الثقلين وبأن من يقصدني بمداوة يخذله الله
 في الدارين. وقلدني سيف النصر وأيدني بقذف الرعب في قلوب اعدائي
 يسعي امامي أربعين ميلاً وأخبرني باني أملك جميع الارض وبأن من شك في
 مهديتي فقد كفر بالله ورسوله ونفسه وماله غنيمه للمسلمين وبأن الله قد أيدني
 بالملائكة الكرام وبالجن والاولياء احياء وأمواتا وهكذا من البشارات والمعجائب

التي يطول شرحها وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين والخلفاء الاربعة
والخضر عليه السلام وما كنت أترقب هذا الامر لنفسي ولا سألت الله اياه
بل كنت أسأله أن يجعاني معيناً لمن يقوم به فلما أراد الله ما كان. وحتم الامر
عليّ من سيد الاكوان. تمت باعباء هذه الجمالة واعتصمت بالله وتوكلت عليه
وأخبرت الحكمدارية باني المهدي المنتظر وقد كان بها محمد رؤف وما تركت
لاهلها في ايضاح هذا الامر شيئاً وأنا في انتظار الاختبار. وتسليم الامر لله
الواحد القهار. فما كان منهم الا أن ضربوا عما أخبرتهم به صفحاً. وطواعن
قبوله كشحاً. وبادروني بالمحاربة من غير روية ولا تثبت في هذا الامر الديني
الذي جثتم به من خير البرية فأيدني الله عليهم كما وعدني وهكذا صارت
جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة وأقدم لهم الانذارات ولم تفهمهم والله يؤيدني
وينصرني عليهم كما وعدني ويقطع دابرهم الى أن قلت حيلتك وتلاشي أمرك
فسلمت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم لاعداء الله الانكيز وأحلمت لهم
دماءهم وأموالهم وأعراضهم بقاء الانكيز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم
على غير الله فلما سؤل الشيطان لهم ادراك غردونهم بالخرطوم وألست من
هداية أهله وعلمت أن تكرر الانذارات لا يفهمهم وحقت عليهم كلمة العذاب
وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم « سواة عليهم أنذرتهم أم لم
تنذرهم » الآية عجل الله بفتحهم واهلاك من فيه وأحرقت النار أجسامهم عياناً
كالذين من قبلهم اظهراً للحقيقة وتمجيلاً للمقوبة وصدق عليهم قوله تعالى
« حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » الآية ثم أنذرت الانكيز فلووا
رؤسهم فوجهت اليهم طائفة من الانصار فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا
هاربين بعد ان أهلك منهم من أهلك وشتت شملهم وهذا كله ليس بخاف

عليك ولا زال حزب الله مقتنياً أثر باقهم وعن قريب يحل به من الدمار ما يكون عبرة لمن اعتبر. هذا وان المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع ما في الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ولا بأسف على مفات من ملكها الذي ماله الى الزوال وعظيم النكال. وانما يكون مطمح نظره الى ما عند الله من النوال في دار الكرامة والأفضال. فان الدنيا لو بقيت للاول لم تنتقل للآخر. ومن هنا نعلم ان هذا الملك لم يصل اليك الا بموت أو عزل من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ما صار اليك وحيث كان الامر كذلك فلا ينبغي لك ان كنت ترجو من الله نعيم الابد ان تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كان الدنيا بمجذافيرها فسدق النظر واجمع عليك فكرك وتدارك نفسك واسمع فيما ينجيك عند ربك اذا تمثلت بين يديه وسألك عما جري منك وسلم الامر اليه وسلم وما كان يحسن منك ان تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألم تسمع قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فانه منهم» الآية وقوله تعالى «لا تتجددوا بما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادوا من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم» الآية وقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق» الآية وقوله تعالى «يا أيها الذين لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء» الآية وما هذه الطاعة لاعداء الله والله تعالى يقول «يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله» الى أن قال «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا

تموتن الا وأنتم مسلمون « الآية فاذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته ولا يؤثر متاع الدنيا الحسيس على نعيم آخرته فاعتبر بذلك وبادر الي النجاة والسلامة المعتبرة وهي سلامة الايمان ونزه نفسك عن ان تكون في اسر أعداء الله دائماً ولا تهلك من كان معك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم واغسل ماجرى منك بدموع الندم ولا تسكرت بحجاء الدنيا الفاني ولا بملكها الزائل فان لله دارا خيرا منها وقد أعدها لعباده المتواضعين بجلاله قال تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » الآية وايك والركون الى أقوال علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال حتي اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهلكوك كما أهلکوا من قبلك في الحديث القدسي « لا تسأل عني علما أسكره حب الدنيا فيصدمك عن طريقي أولئك قطاع الطريق على عبادي » ولا تقتر بقوة حصن بكثرة أسلحتك وعدادك الظاهرية ومظاهرة أهل الكفر لك فانها لا تغني عنك من الله شيئاً وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعة من هو أشد منك قوة وأكثر جما لما بنوا وعشوا في الارض منفسدين وليكن في علمك ان أمرنا هذا ديني مبني على هدى من الله ونور من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية وما قصدنا فيه الا احياء الدين واطهار آثار الانبياء والمرسلين ولا نريد مع ذلك ملكا ولا جاهاً ولا مالا فان نور الله بصيرتك وخالفت النفس الامارة بالسوء وقبلت هدينا وأنتب الي الله بنية خالصة فليك أمان الله ورسوله واماننا وما بيننا وبينك الا المحبة الخالصة لوجه الله تعالى ونكون نحن الجميع يداً واحدة على اقامة الدين وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين. وقطع دابرهم واستئصالهم

من عند آخرهم ان لم ينيبوا الى الله زيلوا وقد حررت اليك هذا الكتاب
وانا بالخرطوم شفقة عليك وحرصا علي هدايتك فارجو الله ان يشرح
صدرك لقبوله ويدلك على صلاحك ورشادك في الدارين. وها انا قادم الى
جهتك بجنود الله عن قريب ان شاء الله تعالى فان امر السودان قد انتهى
فان باردتني بالتسليم لامر المهدي. والاذابة الي الله رب البرية. فقد حزت
السعادة الابدية وأمنت علي نفسك ومالك وعرضك انت وكافة من يجيب
دعوتنا معك وان أبيت بعد هذا الا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد
فانما عليك اثمك واثم من معك ولا بد من وقوعك في قبضتنا ولو كنت
في بروج مشيدة وهذا انذار مني اليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية
والسلام على من اتبع الهدى (الكتاب الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿

الحمد لله الوالي الكريم والصلاح على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الي كافة سكان مصر حكاما
وتجارا وعمدا وغيرهم وفقهم الله وهداهم. ولرشادهم ولاهم. أمين. أهدي لكم
السلام وأعرفكم ان النجاة من عذاب الله انما تكون للمتمسك بيديه الذي جاءنا
به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيتهم ما ناله من الاندراس الذي لا يخفى
ولما ان أراد الله إحياءه واظهار شعائره انجز موعد نبيه محمد صلى الله عليه
وسلم فاطورني بالخلافة المهدي. وأمرني بدعاية الخلائق الي العمل بالسنة المرضية
ومن عهد ظهوري بهذا المظهر الديني ما زالت دولة الترك تجيش جيوشها
وترسل رجالها لمحاربتي من غير استناد الي دليل شرعي. ولا حكم شرعي. بل رغبة
في ملك الدنيا القاني الذي مآله الحسرة والندامة. وجلب عذاب الله يوم القيامة

وما زل الله يؤيدني وينصرني عليهم نصرًا من عنده لا يحولي وقوتي وقد أهلك
الله جميع عساكرهم الذين بالسودان علي يدي وأحرقهم بالنار عيانًا شاهدتهم
جميع من رآهم حين قتلهم الله بسيفي وما ذلك الا اظهار لكفرهم وتعجيل
لعقوبتهم ولا شك ان جميع ذلك قد بلغكم وتواتر اليكم من الواردين. وما
زلت عن الحق معرضين. وعلى حب حطام الدنيا الحسيس عاكفين. مع علمكم
بان الله قد ذم هذه الدنيا في جميع كتبه السماوية ولا سيما القرآن فقد اكثر
من ذمها فيه ويكفي من ذلك قوله تعالى «اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة
وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته
ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة
من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور» وقوله تعالى «وما هذه الحياة
الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة هي الحيوان» وانظم شأن الآخرة عنده
أعدّها لعباده المؤمنين وجعل لهم فيها من النعم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت
ولا خطر علي قلب بشر وأكرمهم فيها بالنظر الى وجهه الكريم ودعاهم اليها
بقوله تعالى «وسارعوا الي مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض
أعدت للمتقين» الآية وحيث فهمت خسة هذه الدار الفانية وعظم تلك الدار
الباقية فيلزمكم الاعراض عن هذا الفاني الحسيس. والمسارعة الى حوز نعيم الابد
النفيس. ولا يخفى عليكم ما حصل منكم من التفريط في جنب الله وتربص الدوائر
بجذب الله بالركون الى محبة نصرة أعداء الله ومع ذلك فقد ساءحناكم في جميع
ما جري منكم ان بادرتهم الى اجابة دعوتنا والانتظام في سلك أصحابنا أول وصول
كتابنا هذا اليكم ولا نقول لكم الا كما قال يوسف عليه السلام لاختوته
«لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» وليكن في علمكم

ان أمر السودان قد انتهى ونحن قادمون على جهتكم بحزب الله قريبا ان
 شاء الله وما كاتبكم بهذا الكتاب الا شفقة عليكم وخوفا من أن يحل بكم
 من العذاب ما حل باخوانكم الذين خالفوا أمرنا وغرتهم الاماني واعتمدوا
 على قوتهم الظاهرية التي أنستهم قدرة الله على كل شيء فان شرح الله صدوركم
 وتلقبتم أمرنا هذا بالقبول فأبشروا بخير الدارين وعليكم أمان الله ورسوله
 وأماننا في أنفسكم وأموالكم وأعراضكم أنتم وجميع من يجيب دعوتنا معكم
 وان ضربتم عن مقاتلنا هذا صفحا فاعلموا ان الله تعالى قادر قاهر لا يعجزه شيء
 في الارض ولا في السماء وقد وعدني بالنصر وأيدني ثلاثكته وجنده وأوليائه
 واخبرني بملكى لجميع الارض وبانه لا يثبت لقتالي انس ولا جن ولا بدباذن
 الله من وقوعكم في قبضتنا ولو اتخذتم نفقا في الارض أو سلبا في السماء
 وستعلمون غداً من الكذاب. فياعباد الله ارفقوا بأنفسكم وأصلحوا عاقبة
 أمركم ودعوا هذا الاعراض والتلاهي بشهوات الدنيا المنفصة بالعلل والامراض
 وتشوقوا للقاء الله فان الدار آخرة والحياة آخرة وهذه الدار قد ولىت مدبرة
 فاتخذوها معبرة ويحكم ويحكم ان لم تداركوا نفوسكم وتنشلوها من هذا
 الوحل المفضي بكم الى المظلم واياكم ان تموتوا بقوة حصن بلدكم فان الله
 أقدر من كل قادر وكم أهلك قبلكم من أهل الحصون المنيعة من هو أشد
 منكم قوة واكثر جمعا فاعتبروا بهم وبما فعله الله بهم لما بغوا وعثوا في
 الارض مفسدين فالله الله عباد الله هلموا الى النجاح والفلاح. قبل قص
 الجناح. وهذا ما حبرته اليكم وأنذرتكم به ولا داعي الى التلويل. فان الهداية
 من الله الجليل. أسأل الله أن يهديكم رشادكم ويأخذ بنواصيكم الى طريق
 سدادكم هذا والسلام

ذکر فداء القسس والمسیحیین

لما سمعت الخراطوم أمسك اللورد ولي محمد عبد القادر وحاج شرفي محمد نور وشريف سائي على وعبد القادر عبد الكريم ومحمد ابراهيم وأحمد النجيب وحاج شرفي بن القاضي محمود وكلهم من أقارب المهدي وأنسابه وزجهم في السجن وهددهم بالقتل ان لم يكتبوا الى قريتهم المهدي يسألونه فداءهم بما عنده من الاسرى المسيحيين صوما والقسوس خصوصاً فكتبوا كتاباً الى المهدي قالوا فيه انهم مهردون بالقتل لان يتداركهم بالفداء بما عنده من القسوس والمسيحيين مرعاة لحنى القرابة فاجابهم بكتاب قال فيه ان المسيحيين الذين فدا اعنقوا الاسلام ديناً وتشرفوا بصحبته والالتناء اليه حتى انهم صاروا أقرب اليه منهم كما ان الذين أمسكهم اللورد ولسلي تجمعهم واياه جامعة الكفر ثم ختم الكتاب بتوله لذوي قرابته لا بد من وقوعكم في قبضتنا اتم واللورد ولسلي وتذوقون السوء بما صدتم عن سبيل الله وفي الكتاب تعنيف شديد لهم على جرأتهم بمخاطبته بمثل هذا الطلب ولما وصل كتابه الى اللورد ولسلي أطلقهم من السجن واغدى لهم العطاء وأعادهم الى وطنهم

هذا ولما علمت وأنا بام درمان بامر هذا الفداء تذكرت مقاله لي المأسوف عليه غردون باشا حيث قال لي انك لا تجد من يسمي في خلاصك من الاسر وقد ساء وقع هذه الحادثة في نفسي ونفوس سائر الاسرى المعريين الذين علموا ان حكومتهم لا تسمي في خلاصهم من الاسر الا اذا كانوا مسيحيين ولكن خفف عني بعض ما أجده سمي السر غرانفيل باشا

سردار الجيش المصري في فكاكي من الاسر . على اني شكرته وان لم يقرن
سميه بالنجاح وبيد الله كل شيء

ذكر توجيه الجيش لمحاربة سنار

ذكرنا ما كان من بداية الثورة المهدوية حوالي سنار وما كان من اخذها
على يد عبد القادر حامي باشا

ولما سقطت الخرطوم في قبضة المهدي وجه ابن عمه محمد عبد الكريم
في نحو عشرين الف مقاتل لتضييق الحصار على سنار فوصل اليها في اواخر
شهر رجب وأحاطها السوار بالمعصم وسنعود الي ذكر تلك الحوادث
حيث كان سقوط سنار بعد وفاة المهدي بثلاثة شهور

ولما ذهب المهدي لوداع الجيش خطب خطبة قال فيها ما يأتي
يا أنصاري الصادقين سيروا على بركة الله لقتال كفار سنار واعلموا ان
الله معكم عليهم وسينصركم نصراً عزيزاً لانكم حزب الله وأوليائه. وهم
حزب الشيطان وحزب الله أقوى من حزب الشيطان وقد بشرني النبي
صلي الله عليه وسلم بفتح سنار قريباً وانه بعد انقضاء شهر رمضان نتقدم
الى دنقلة ومنها الي مصر وفي العام الآتي نكون قد تجاوزنا مصر حيث نكون
على أبواب الحرمين الشريفين

ذكر انتداب الشيخ الحسين زهراء الي كسلا

انتدب المهدي الشيخ الحسين زهراء ومعه ابراهيم عالم الخلاوي ومحمد
حزمة البربري الي كسلا الاول والثاني بصفة نائين عنه ليعقد مع مدير كسلا

شروط السلاح والثاني بدفعة أمين لبت المال

فدأروا قاصدين كسلا وما كانوا يبنونها حتى فاجأهم نبي المهدي الذي بث في الحامية روح الثبات وأخذت تماطل في وضع شروط التسليم ريثما يصلها الرأس ألولاً الحبشي الذي عاهد الحكومة الخديوية على انقاذ حامية كسلا وكان من أمره ما نأتي عليه ضمن حوادث تلك المدينة حتى سقطها الذي حصل بعد وفاة المهدي

ذكر وفود عوض الكريم ابي سن زعيم الشكرية علي المهدي
ذكرنا ما كان من أمر عوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية
وامتناعه من الدخول في دعوة المهدي واعتصامه بقبيلته في صحراء (ريره)
بين النيل الازرق ونهر (اتبره)

ولما سقطت الخرطوم انفذ المهدي جيشا يبلغ ستة عشر الف مقاتل الى قرية (رغاعة) ليزحف منها الى صحراء (ريره) حيث يلتقي بعوض الكريم أبي سن الذي فر من وجه الجيش وغادر محلته قاصدا ام درمان ولدي وصوله اليها علم ان المهدي موجود بالخرطوم فاجتاز النهر واستجار بمحمد صالح ساتي على عم والد المهدي ووضع علي رأسه ترابا في رقبتة جنزيرا من الحديد علامة على انه نائب نادم على ما فرط منه وقدم نفسه للمهدي في سلام ملك الحكمدارية فذهب محمد صالح ساتي على الى المهدي وقال له انني اجرت عوض الكريم والتمس منك ان تصفح عن زلتة وتمسك عن عقابه وكان عبد الله التمايشي حاضرا فامتقع لونه وهم بالقيام من مجلس المهدي ليأمر بضرب عنق الرجل قبل ان يفوه المهدي بكلمة المفو عنه فامسك بملابسه محمد صالح ساتي على

وقال له كما أتى أطلب له العفو من المهدي فأتني أطلبه منك أيضاً لأنك خليفة
الصدق وأمير جيش المهدي المشار إليه في الحضرة النبوية فبسم التعاشي
بسبب هذا المدح وقال له ان عفوي لا يكون الا تبعا لعفو المهدي فاجابه المهدي
بأني عفوت عنه وأمر بادخاله ونفض التراب عن رأسه وباطزقه من الجزير
ثم بابيه البيعة المعلومة والتي عليه التعاشي تدبيرات خاوها أن لا يفارق معسكر
المهدي حتى الممات وسنعود الى ذكر ما حاق به بعد موت المهدي حيث
قتله التعاشي صبراً وأفنى قبيلته كلها وصادر جميع أموالها والدوام لله

ذكر تعيين حسين باشا خليفة

داعية من قبل المهدي في قبيلة العبابدة

تقدم لنا ذكر حسين باشا خليفة مدير بربر وكيف كان سقوط المديرية
على يده. ونقول الآن ان حسين باشا المذكور غادر بربر على اثر سقوطها ولحق
بالمهدي في كردفان فلقاه بالاكرام وعامله معاملة صديق لامعاملة أسير حتى
سقطت الخرطوم. وكان من يومئذ يتودد لعبد الله التعاشي ويظهر له
الاخلاص ويعرض عليه قدرته على القيام بدعوة المهدي بين قبيلة العبابدة التي
تسكن حوالى اسوان

وفي شعبان سنة ١٣٠٢ كتب له كتاباً بالامارة على قبيلة العبابدة فسار
من أم درمان في منتصف شعبان حتى اذا صار على مقربة من « ابو محمد »
وصل اليه كتاب من عبد الله التعاشي يدعو الى العودة الى أم درمان
فعلم ان سبب ذلك وفاة المهدي فتابع سيره حيث لم يكن بينه وبين الخروج
من منطقة نفوذ المهدي غير يوم وليلة حتى بلغ الحدود المصرية آمناً وسلم للحكومة

أو امر المهدى المتضمنة تميينه أميراً على قبيلة العباددة
ولما وصل حسين باشا خليفة الي مصر صممت الوزارة على معاقبته فوجد
بين أعضاء الوزارة من دافع عنه وأقنع زملاءه بوجوب ترك معاقبته حيث
انه جاء طائماً مختاراً ثم كان من أمره ما نحن في غنى عن ايراده

ذكر ضرر بخانة نقود المهدى

ذكرنا المقادير العظيمة التي غنمها المهدى من الخراطوم من الذهب والفضة
وفي أواخر شهر جمادى الاولى جمع أمين بيت المال الصياغ وأمرهم أن
يضربوا نقوداً من الذهب على شكل الجنيه المصرى مكتوباً على صفحة منها
(ضرب في مصر) وعلى الصفحة الثانية الطغراء العثمانية كما هو شأن الجنيه
المصرى وزنة هذا الجنيه نحو ثلاثة دراهم من الذهب السنارى الذى لا يشوبه
أقل زغل وقيمه مثل قيمة الجنيه المصرى أى مائة قرش وأن يضربوا رايالاً من
الفضة زنته ثمانية دراهم منقوشة على وجهه (ضرب في الهجرة) وعلى الوجه الثانى
طغراء نقش فيها « بامر المهدى » وقيمة هذا الريال عشرون قرشاً مصرى
وبعد وفاة المهدى جمع التمايشى هذه المسكوكات وابدلها بالريال الذى
سماه « مقبول » وسيأتى ذكر ذلك في مكانه

ذكر ختان اولاد المهدى

كثيراً ما كان يباغنا ونحن محصورون في الخراطوم ان المهدى مصمم على ختان
أولاده في جزيرة (أبا) التي جاءت مرتبة المهدية فيها وكثيراً ما نقل لنا الجواسيس
انه كان يقول لا تباعه ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بختان أولاده في

تلك الجزيرة وقد رددت غردون صدى تلك الاشاعات في جريدته التي كان
تكتبها يومياً زمن الحصار

وفي ذات يوم قال لي ما معناه «انني أرجو ان تحقق هذه الاشاعة حيث
يكون من وراء تحقيقها ما يخفف عنا ويلات شدة الحصار» ويظهر ان المهدي
لفرط دهائه كان يمد لنفسه اعداراً للتقهقر الى الوراء اذا اضطر له يوماً فكان
يذيع بين الناس انه مأمور بختان اولاده في جزيرة (آبا) لكي اذا اقتربت الحملة
الانكليزية من الخرطوم دون ان يظفر بها تقهقر راجعاً وأظهر للملأ ان هذا
التقهقر لختان اولاده لاجلبن أو عدم قدرة على الوقوف في وجه الحملة الانكليزية
ولكن قدر أنه ظفر بالخرطوم وأمن شر الحملة الانكليزية فاقام
معالم الافراح لختان انجاليه في أم درمان وذبحت نحو مائة بدنة من الابل
ونحو مائتي رأس من البقر والنعيم وذلك غير ما قدمه الامراء من الهدايا
والمطاعم . وبالجملة انه اظهر في ذلك الاحتفال أهبة الملك والغني بالرغم
تظاهره بالتباعد عن تلك الاحتفالات وكان يزعم ان أمين بيت المال هو الذي
قام بها من عنده دون ان يكون المهدي عالماً بشيء منها

وكان أمين بيت المال يذيع ان المهدي كان لا يتناول شيئاً من خمس
الننائم الذي يخصه بل كان يفوض له انفاقه في سبل البر والاحسان وانه
انفق منه نفقات الاحتفال بختان اولاد المهدي الذي تم في السابع والعشرين
من شهر رجب سنة ١٣٠٢

ذكر تعيين حمدان ابي عنجة على جبال كردفان

حمدان أبو عنجة قائد الجهادية وأصله مولى من موالى التمايشة وكان

منتظماً في سلك عساكر الباشبوزق في دارفور بوظيفة (بولكباشي) أي قائد
خمسة وعشرين جندياً

ولما لحق المهدي بجبال (قدير) كان أبو عنجة جانياً للحكومة في إحدى
جبهات دارفور فاغتال مبلغاً من الضريبة وفر بها إلى المهدي وهناك اجتمع
مع عبد الله التعايشي وصار من حزبه فجعله قائداً على (الجهادية) وصار من
أكبر انصار عبد الله التعايشي وسيأتي أنه فتح (قندر) من مدان الاحباش الشهيرة
وعلى كل حال فإن أبا عنجة ذو طباع شريفة وخلال حميدة ميمون الطالع
ذودهاء يعرف به كيف يتمكن من امتلاك قلوب الرجال بالاحسان واللين
ومن أطف ما سمعته من ثقة أن المهدي أهدى أبا عنجة امرأة حسنة
كان أبوها صنجقاً فاستاء أهلها وقالوا إذا وطئت بنتنا بملك اليمين أفلاتكون
تحت حر بدل أبي عنجة العبد فنقل إليه الخبر ومع أنه كان قادراً على التثكيل
بهم لم يفعله بل استدعى أم زوجته وأعطاه ألف ريال وجواري وملابس
وهكذا فعل ببقية اصهاره ثم دس من ينقل أخبارهم له فقبل لام زوجته
أن صهره عبد فقالت أنه والله فوق الاحرار وقيل لصهره مثل ذلك فقال
« إنما أصل الفتى ما قد حصل » والخلاصة أنه أرضاهم بالاحسان والحر كما لا يخفى
اسير الاحسان

وقد أوردنا هذه العبارة للدلالة على دهاء أبي عنجة وإن النجاح الذي
صادفه في جميع أحواله لم يكن غير نتيجة أعماله من أمثال هاته النادرة
وفي شعبان سنة ١٣٠٢ هـ أبدى التعايشي للمهدي رغبته في إنفاذ حمدان
أبي عنجة إلى جبال (النوبة) حوالي كردفان للغزو وجلب الارقاء والماشية
فوافق المهدي على رغبته وسافر حمدان أبو عنجة في خمسة عشر ألف مقاتل

جلهم مسلحون بالبنادق وأعطاه مدفعاً جبلياً وذخيرته
وما كاد أبو عنجة يسير من أم درمان عشر مراحل حتى بلغه نعي المهدي
فكتب يستشير التعايشي في متابعة السير أو الرجوع فأشار عليه بالمضي لوجهته
فتابع سيره وغزا الجبال وغنم شيئاً كثيراً من الماشية والنفوس وكان يرسل
للتعايشي خمسها ولاخيه يعقوب بعضاً منها حتى كان من أمره مع محمد خالد
زقل ما سنعود الي ذكره فيما يأتي

ذكر مرض المهدي ووفاته

في ليلة الاربعاء لاربع ليال خلون من شهر رمضان عام ١٣٠٢ هجرية
أصيب المهدي باعراض حمية وفي مساء الغد ذاع خبر مرضه بين الناس فلم يكثر ثوا
به لانهم واثقون بما كان يمدهم به من أن المنية لا تدركه قبل أن يفتح مصر
والشام والكوفة والحجاز

وفي يوم الخميس الخامس من شهر رمضان اشتدت به أعراض الحمى
لجئ اليه باطباء مصريين فقرروا ان الحمى من التيفوس وان حالته خطيرة
ووصفوا له العلاج ولما خرجوا من بين يديه زاروني بمنزلي وأخبروني بانه
لا يرجي له شفاء

وفي صبيحة يوم الجمعة أمر الخليفة عبد الله التعايشي أن يخلفه في صلاة
الجمعة خلافا لعادته فانه كان لا يستخلف في الصلاة غير الخليفة على حلو وكثيراً
ما كان يستخلف رجلا من أهالي بربر اسمه احمد الجعلي فقيل له ان الخليفة
عبد الله أمي لا يدرى الكتابة والقراءة فكيف يخاطب بالناس فقال لهم ادفموا
له ورقة الخطبة ومروه فليقرأ منها كلمتين أو كلمة فدعوا له الورقة وخطب

بالناس وصلى بهم وهم في غاية الاستغراب من جبهه بالقراءة وتحريره ألفاظ القرآن
وفي يوم الاحد ثامن رمضان اشتدت وطأة المرض على المهدي فكان
ينظر الى من حوله من النساء نظرا يدل على الحسرة على فراقهن وكأنه
يخاطبهن بقوله « ما كنت أحسب ان هادم اللذات يزورني قبل ان اتمتع بثمار
فتوحاتي واتلذذ بالامر والنهي في المملكة الواسعة التي شيدت ببناءها
بعد مساندة احوال تشيب الطفل الرضيع » وكان يرفع صوته مستغنيا قائلا
« لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين » وكان يجرد من ملابسه
وياسر بالماء البارد فيصب على بدنه ويات ليلة الاثنين وحالته تفتقل من سبي
الى أسوأ ولا علم لاحد من الناس باشتداد وطأة المرض عليه غير الخلفاء وأمين
بيت المال وبعض ذوي قرابته

وفي يوم الاثنين تاسع رمضان سنة ١٣٠٢ عند أواخر الساعة الرابعة
على الحساب العربي فاضت روحه وهو ملق على الارض محاط بخلفائه
ونسائه وبعض ذوي قرابته فصاحت بأمته زينب امرأة الخليفة شريف وهي
أكبر بناته فوثب عليها زوجها ولطمها فسكنت وصاح احمد سليمان امين بيت
المال وخر مغشيا عليه حتى ظنوه قد فارق الحياة. أما الخلفاء فانهم اجتمعوا حوله
وتشاروا فيما يكون من امرهم فاظهر كل منهم تخوفه من اقتضاح امرهم وان
موت المهدي لا بد ان يكون دامنبة سيئة اذ به يظهر للملا كذبه فيما كان يمدم
به من فتح البلاد واملاك الارض كلها مما هو واضح على صفحات منشوراته
التي تقدم لنا ايراد كثير منها

وكان عبد الله التمايشي مندهشاً بعامل الفرخ من جهة لان المهدي
أوصى له بالخلافة وهو في الرمق الاخير من حياته ومن جهة أخرى كان

لا يؤمل من الناس الاتقياد له لان موت صاحبه جاء مكذبا لكل الدعاوي التي كان ينتحلها لنفسه ويمد الناس بها ولذلك كان التعاشي مع الخلفاء في الشوري كستطلع لأفكارهم ومراقب لما يبدو منهم من الهلع وعدم الثبات فأشار واحد منهم بوجود اخفاء موت صاحبهم واصدار منشور باسمه يقول فيه انه أمر من النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة الاعتكاف على العبادة الى أجل غير معلوم وذلك اعتمادا على منشور صغير اصدره قبل مرضه بثلاثة أيام قال فيه « انني نصبت لكم الخلفاء ووليت عليكم النواب والامناء وجعلت الامراء تابعين للخلفاء فلا تقصدوني لقضاء شيء من مآرب الدنيا بل اتركوني للاشتغال بامور العبادة والالتابة الى الله وكونوا على علم بان ماتعذر قضاؤه على الامراء والنواب والامناء والخلفاء فان قضاءه متعذر على أيضا »

هذه خلاصة ذلك المنشور وقد نقل اليّ ثقة ان عبد الله التعاشي بعد ان سسمع ما أشار به زملاؤه الخلفاء انصرف من مجلسهم وهو مضطرب كريشة في مهب ريح واجتمع بأناس من خواصه وقص عليهم أمر وفاة المهدي وما أشار به الخلفاء فظهوروا له سوء مغبة هذا الاخفاء بعد ان يقف الناس عليه لانه مامن خفي الأسيمن وان الاقرب الى السلامة أن يعلم امام الناس وفاة المهدي والبيعة لنفسه فلقنه الشيخ المكي ابن اسماعيل الولي من مشايخ الابيض الجملة التي قالها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي « من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات » ولكنه أبدل محمداً بالمهدي في القائل فخرج على الناس بباب المهدي وقال لهم هذه العبارة فتقدم الشيخ المكي وبايعه وبايعه الحاضرون وهم يبلغون عشرة أشخاص ثم احتفروا قبراً في نفس الغرفة التي

مات فيها وقالوا انه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن حيث قبض كما
دفن صلى الله عليه وسلم حيث قبض

ومن جهالتهم انهم لم ينزعوا مرقعته عنه بل غسلوه من فوقها بما غسل صلى
الله عليه وسلم وكفن في ثوب واحد من خرقة (الدمور)

وفي منتصف الساعة العاشرة صلى التعاشي بالناس صلاة الظهر ثم
استدعى نحو عشرين رجلا من أقارب المهدي ودخل بهم الى الغرفة
واصطف الناس خارج الغرفة وبينهم وبين المسجد جداران فكانوا يسمعون
التكبير متقطعا من الغرفة فيكبرون وهكذا ظل الناس يكبرون على تكبير
من في الغرفة من الساعة العاشرة الى منتصف الساعة الثانية عشرة حتى تجاوز
عدد التكبيرات الثلاثمائة ثم انقطع التكبير حيث دفن الميت

وبلغني ان الخليفة على حلوقال ان هذه التكبيرات قليلة بالنسبة لما هو
واجب لمقام المهدي

وبعد ان ووري بالتراب خرج التعاشي الى الناس ورقى المنبر وتلا
الآية «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الخ» الآية ثم بايعه الناس وليس
فيهم من يجسر على القول بان المهدي مات كأنهم يجلبونه عن هذا الامر وكثير



من الدراويش هموا بقتل من فاه بهذا الخبر امامهم
هذا وقد ذكرت ان الاطباء الذين باشروا علاجه اخبروني باستحالة شفائه

وكنت أتوقع حصول فشل كبير وخلف عظيم بين اتباعه حتى انني لزمته
كوشي في يوم وفاته وأنا مترقب من وقت الي آخر ان يبلغني شيء بأسر به وكان
لي خصي أخذ مني وصار من خصميان دار المهدي وكان بعد خروجه من يدي
يحتقرني ويهينني ولا يخاطبني بغير (يا ابراهيم فوزي) ولذلك كنت اكره لقاءه

فدخل على في وقت العصر وقال لي يا ابراهيم فرزى فقلت نعم فقال ان المهدي قد مات فكذبت أطير فرحا لكنني أخفيت ذلك وابتدر الى ذهني ان ذلك الحصى ربما كان مدسوساً على للوقوف على مبلغ شماتي بموت المهدي فأجبت على الفور بأن قلت له كذبت أيها العبد لان المهدي لا يموت قبل ان يفتح الدنيا كلها ولا يموت في غير المدينة المنورة

وقد كتب التعاليف والحلفاء وأقارب المهدي منشوراً بنعيه الى جميع الجهات ملاً وه بخرافات يضيق المقام عن سردها منها أنهم قالوا انه اختار الرفيق الاعلى ومنعوا من القول بأنه مات انما يقال انتقل من دار الدنيا الى نعيم الآخرة وانه استخلف التعاليف وأوصي بطاعته وفي المنشور تفسير لما وعده به المهدي من ملك الدنيا كلها حيث قالوا ان ذلك سيتم لاصحابه وعللوا ذلك بان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد بصيرورة ملك كسرى وقيصر له ولم يحصل ذلك بالفعل الا في ايام خلقه رضوان الله عليهم أجمعين

وقد اضطربت الروايات في مرض المهدي وموته فقال البعض انه مات مسموماً من احدى النساء اللواتي أخذهن سبياً من الحرطوم ولكن الحقيقة هي التي أوردناها اذ لم يتناول المهدي سما ولا غيره بل مات بالحمى التيفوسية كما تقدم

ذكر طرف من سيرة المهدي

كان المهدي صاحب دهاء وحيل ولكن المتأمل اللبيب يجد في اخلاقه شيئاً من البله مع طموح للمعالي وقد أوردنا في ترجمته انه كان مردياً عند الاستاذ الشيخ محمد شريف بن الاستاذ الشيخ نور الدايم بن الاستاذ قطب

الطريقة السمانية في الاقطار السودانية الشيخ أحمد الطيب
 وصار من أمره مع استاذہ ما أوردنا طرفاً منه آنفاً وفي ابان دعوته
 سرّاً أبلغ الاستاذ الشيخ محمد شريف الحكمدارية كل ما دبره فلم يلتفت
 الحكمدار محمد رؤف باشا الى بلاغه مع انه أطلعه على كل مخبأته وما عقده
 مع الرؤساء في جهات النيل الابيض وكردفان من اليهود وما أخذہ عليهم
 من الموائيق

ولما ظهر بدعوته في جزيرة (آبا) أرسل بلاغا الى الحكمدارية ثم تلتها
 واقعة (آبا) فانبرى لتكذيبه عدد ليس بقليل من العلماء فالفوا الرسائل مشحونة
 بالادلة الشرعية على بطلان تلك الدعوى وكذب مدعيها
 ولما كانت تلك الرسائل مما يمتذر علينا إيراد بعضها هنا اکتفينا بالاشارة
 اليها فراراً من التطويل الذي يمله القراء

ومن هاته النصائح قصيدة ألفها استاذہ الشيخ محمد شريف أبان فيها
 أحواله في بداية أمره حيث قال انه كان صواماً قواماً لا ينام الليل منذ
 دخل في سلك الطريقة . وكان نهما يأكل كثيراً ولكنه منذ بداية أمره كان
 يخفي شرهه ليظهر امام الناس بالقناعة والزهد

وكان يلبس المرقعة مثل سائر دراويلشه . أما اوصافه فانه كان طويلاً القامة
 أسمر اللون بخرقة عريضة المنكبين مفتول الساعدين ضخمة الجسم عظيم
 الطامة واسع الجبهة أفتى الانف واسع الفم واليمين مستدير اللحية خفيف
 العارصين أسنانه كأنها وافي الفك الاعلى فلجة بين الأسنان حتى كنى
 بابي فلج

وبالجملة فانه كان ذا صورة جميلة جداً بين السود أمثاله وكان يتمم على

قلنسوة من نوع مايتعمم عليه أهل مكة وعمامته كبيرة منفرجة من الامام يرسل عذبة منها على منكبه الايسر حتى يتجاوز سرتة ويضع على منكبيه رداء من (الدمور) ويتمنطق بمنطقة من الخوص أو بخرقة من الدمور ويلبس نعلاب تشبه نعال أهل مكة مصنوعة في السودان وكان لبسها مخصصا بالاعراب والضعفاء ويطلق عليها اسم (الشقيانة) اي نعل الشقاء فأبدل هذا الاسم باسم (السعيدانة) اي نعل السعداء ويحمل على الدوام في يده اليسرى أو على منكبه الايسر سيفا زعم انه سيف النصر الذي أهده له النبي صلى الله عليه وسلم ويتوكأ على هراوة طويلة مصنوعة من النحاس مكسوة بجلد أو هراوة من النوع المعروف باسم (خيزران)

هذه أوصاف المهدي أوردناها هنا وقد رأينا صوراً كثيرة يقال انها صورته ولكنها كلها صور خيالية تبعد عن الحقيقة بعهد السماء من الارض ولذلك لم نأت بصورة منها في هذا الكتاب لعلنا بدمم انطباق واحدة منها على شيء من صفات المهدي وكذلك كل صور التعاشي خيالية أيضا لا تقرب من الحقيقة مطلقا

وتوفي المهدي وعنده مائة امرأة وعشر منهن أربع أطلق عليهن اسم أمهات المؤمنين . احدها بن عاتشة بنت ادريس وأصلها من بلاد دكرور في السودان الغربي تزوج بها في جبال (قدير) علي اثموت زوجها فتيلاني واقعة يوسف باشا الشلالي واسمه آدم الاعيسر وكان متزوجا أيضا بزینب بنت المهدي وبعد قتله تزوج بها الخليفة شريف

وكان المهدي يقول ان عاتشة بنت ادريس بمنزلة عاتشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وولدت له اثني اسمها زهراء تزوج بها يعقوب شقيب

التماشي بعد وفاة المهدي

والثانية فاطمة بنت احمد شرفي الدنقلاوي كانت زوجة أخيه
محمد الذي قتل في واقعة الالبيض وكان المهدي متزوجا بأختها وله منها
عدة أولاد فأتت أختها وقتل زوجها فتزوج بها المهدي وجعلها من أمهات
المؤمنين ولم ترزق منه غير ولد اسمه الكامل مات رضيما ولها أم اسمها
حليمة كانت تنزي بزي الرجال وتتخذ السلاح وتركب الخيل وكانت
تصدر للوعظ في مجالس الرجال وتقول لهم تمسكوا بالله ورسوله ومهديه
وابن مهديه الكامل وأم المؤمنين والدة وجدة الكامل فانه لانجاة
للانسان في الآخرة الا بهؤلاء فأحضرها التماشي وزجرها ومنعها من
مخالطة الرجال وتوعدها ان عادت الى مقاتلها هذه فصعدت بالامر أمامه
ولكنها لما خرجت الى الناس قالت لهم ان التماشي يحسدني كما حسدت
قريش النبي صلي الله عليه وسلم

والثالثة فاطمة بنت حاج وهي بنت عمه التي تقدم لنا ذكر زواجه بها في
الخرطوم وانه طلقها لما ألت عليه بوجوب السمي للارتزاق من صناعة
المراكب ثم راجعها بعد خاقه بجزيرة (آبا) وبعد زواجه بنت أحمد شرفي. وله
منها ثلاث بنات تزوج عبد الله التماشي باحدهن بعد وفاة أبيها وتزوج
الثانية الخليفة على حلو

والرابعة فاطمة بنت حسين الحجازي وهي مصرية من أهالي مديرية
الحدود استوطن أبوها في جهة تقرب من جزيرة (آبا) وكانت متزوجة
بابن عمها صالح الحجازي وكان المهدي قبل دعواه يختلف الي بيت زوجها
الذي كان سر بداره وكان لا يحجبها عنه لفرط اعتقاده في صلاحه فأظهرت

لزوجها رغبتها في أخذ أوراد الطريقة عن المهدي فأذن لها ولقها المهدي أوراد
الطريقة فظهرت بمظهر الزهد والمباذلة وفرت من بيت زوجها ولحقت بالمهدي
في جزيرة (آبا) فادركها زوجها وسألها عن سبب خروجها من بيتها فقالت
اني لأقوى على التقيد بقرود الزواج لاني أصبحت لأميل لتفسير العبادة
والانقطاع للصوم وقيام الليل فلم يشك زوجها في أنها كذلك فسألها بقاءها
على ذمته بنفي أن يطلقها على شرط أن تذهب الى حيث شاءت فبكت وقالت
اني أخشى أن يعاقبني الله على عدم رعايتي حقوق الزواج ولذلك أتوسل
اليك بجرمة شيخني وشيخك هذا وأشارت الي المهدي أن تطلقني فطلقها
ورجع الى منزله وكان هذا كله مدبراً بينها وبين المهدي وقبل أن تنتهي العدة
الشرعية سمع صالح الحجازي ان معالمة تزوجت بشيخه وشيخها فاحتدم غيظاً
وحمل السلاح وهجم على المهدي وأطلق عليه الرصاص فأخطأه وكانت فاطمة
بنت حسين هذه في منتهى الجمال بيضاء اللون

وكان صالح الحجازي المذكور قد حضر معنا حصار الخرطوم وقص علينا
هذه القصة بنفي زيادة ولا نقصان

ورزقت فاطمة المذكورة من المهدي بنتا اسمها مريم وهي التي تزوجها
التعايشي بعد فراق اختها كلثوم

ولما سقطت الخرطوم اكرم المهدي صالحا الحجازي ولم يعاقبه بشيء
وأصدر أمراً بعدم مصادرة شيء من أسلحته ولعدم نهب أمواله وكذلك
بنت عمه اكرمه وأهدت اليه هدايا كثيرة من الاموال والجواري والخيول
وسوى هاته الاربع نسوة نحو ثلاثين من بنات اعيان السودان اهداهن
له أبأوهن مثل بنت محمد احمد ام برير التي تقدم لنا ذكرها ونحو ثلاثين امرأة

من بنات اعيان المصريين في الحرطوم والدة يمة بن الجوارى اللواتى كن مومسات
فانه كان ذواع شديد بهن حتى انه كان كلما فجع بلدا ضم الي محظياته المشهورات
من مومساتها . وكان كثير الشبق شديد الولوج بالنساء وطريقة اجتماعه بهن
انه يسكن غرفة منفردا فيها ونساؤه الاربع تولين نظيب بقية النساء وتقديمهن
له في غرفته فيختار منهن من يشاء

وعلى ذكر نساء المهدي وما استرسل فيه من قضاء الشهوات البهيمية
وكيف انتهك الحرمت في سبيل قضاء الاوطار نذكر هنا انه كان لا يضع يده
في يد امرأة ليست من نساؤه ولا من محارمه وكتب منشورا قال فيه من
صافح امرأة ليست من محارمه فانه يجلد ثمانين جلدة بالسوط ويؤمر بصيام
شهرين متتابعين . فليتأمل القارى كيف ساغ له التمتع بالمرأه كوطوات
بملك اليمين وكيف تعالي في عقوبة من صافح امرأة ليست من محارمه وقد زاد في
منشوره (ولو كانت المرأة طاعنة في السن أو صغيرة غير مشتهة) أفلا يصح
بعد هذا انطباق المثل المشهور عليه (يستقى في الابرة ويبيع المدرة)

وأما أولاده الذكور فيبلغون العشرة وكان عمر اكبرهم لما توفى هو حوالي
العشر سنوات والبقية اطفال ليس لهم أهمية تستدعي ذكرهم ولكننا نذكر ثلاثة
منهم وهم الفاضل ومحمد والبشري وأمههم فاطمة بنت أحمد شرفي التي توفيت
في جبال (قدير) ويكنى المهدي بأولاده الثلاثة المذكورين وتكنيته باسم الثالث
أكثر شيوعا مع انه أصغر الثلاثة وذلك لانه ولد في جزيرة (آب) في مبدأ
دعوى المهدي ووزعم المهدي انه بشر بالمهدوية ليلية ولادته ولذلك سعى البشرى
وأما أطمعة المهدي فان الكلام عليها غريب في بابها فقد كانت يظهر
الزهد وعدم الميل الى الاطمعة وبكثر التنديد بالذين يأكلون غير ما خشن من

الطعام وكثيرا ما كان يربط على بطنه حجرا حتى ذاع بين الناس ان الذين يأكلون الاطعمة الفاخرة كفار لا نصيب لهم من الاسلام ولذلك صار كل أحد يجتهد في اخفاء ما عنده من الاطعمة الدسمة ولا يخرج امام الناس الا خبز الذرة بادام الماء والملح أو (البليلة) وهي من حبوب الذرة تعلق بالماء وكان المهدي لا يخرج امام الناس من طعامه غير هذين الطعامين

وقد تقالي المهدي في إظهار الزهد في الاطعمة حتى انه منع إيقاد نار في بيته لطبخ أو خبز مدعيا ان ذلك يناهى التوكل على الله وكان الناس يقدمون له الاطعمة هدية فكنت ترى القصع محمولة الى منزله كل يوم تمدد بالمشات فيتناول النساء منها حاجتهن بغير ان يشغنان بطبخ أو خبز

وأما الطعام الذي يتعدى به المهدي فانه يصنع كل يوم في منزل أمين بيت المال فكان يذبح الخرفان الحولية ويصنع ما يتبها من الحلوي والقطائر وسائر الاطعمة الفاخرة وهرسلها الى منزل عائشة بنت ادريس وهي تقدمها الى المهدي وقت انفراده في غرفته فكان لا يترك من الحروف الحولى غير عظامه عدا ما يتناوله من الاطعمة اللذيذة وقتي العشاء والعشاء أما الفطور فانه كان يتناول فيه ألوانا كثيرة كلها من الحلوي فمنها انهم يمزجون رطلا من السمن بمشله من العسل ويضعونه على اللبن ويطبخونه مع دقيق الحلبة وتارة مع دقيق الدخن وأخرى مع دقيق البر ولا يكاد يشرب ماء الا مزوجا بحامض لبن الابل مع السكر ومع هذا الانفاس في الملاذ كان يظهر امام الناس بمظهر القناعة والزهد والتقشف كانه لا يملك من نعيم الدنيا غير مرقته التي هي واحدة وكان يكثر من التطيب بالروائح الحارة مثل عطر الصندل والمخلب فكانت رائحته تشم من البعد والبسطاء يمتدنون انها رائحة الجنة تتضوع من عرقه

وقد خرج من الدنيا ولم يدخر لاولاده شيئاً من المال كما انه لم يترك
عند نداءه حلياً ولا شيئاً من ضروريات الينة لانه قد كان حرم على النساء التحلي
بالحلي الذهب والفضة وغاية ما يتحلى به خرز من الزجاج والمرجان
هذا وقد ذكرنا انه ابطال تقليد المذاهب الاربعة وأصدر للناس
منشورات ضمنها كثيراً من العبادات والمعاملات

ومن غرائب مذهبه انه تعمد الاجحاف بحق النساء في كل ما لهن
وما عليهن فقال لا يلزم الرجل بنفقة امرأته مادام من المجاهدين في سبيل
الله وقال ان مهر العذراء لا يزيد على عشرة ريالات ومهر الثيب خمسة ريالات
ومن زاد على ذلك صدرت أمواله. وكان يجبر أولياء المرأة على تزويجها باى شخص
كان من غير نظر الى كفاءة أو تعادل بين الزوجين مادام الزوج من المجاهدين
في سبيل الله. وبالجملة فان النساء في مذهبه ك مخلوق ليس من نوع الانسان
وقد سار اتباعه على سيره فكنت ترى عشرات النساء اللواتي أخذهن الامراء
سياً من الخرطوم وغيره من المدن يتضورن جوعاً داخل البيوت ولا يقدم
لهن أولئك الامراء غير قليل من طعام الذرة فاذا ضمنت احداهن وشوه
الجوع محاسنها أعطاهن مولاها اذنا بالذهب الى منزل أهلها ان كان لها أهل
فيقطعونها حتى تستعيد نضارتها فتعود الى منزلها

ولقب المهدي عبداً من عبيده بلقب (خليفة زيد بن حارثة) رضي الله
عنه ولقب آخر كان يؤذن له (بخليفة بلال المؤذن) ولقب كثيراً من أصحابه
باللقاب خلفاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وكتب منشورا في كردفان
أمر فيه الناس أن لا يذكروا اسمه الا مقرونا بالسلام كالانبياء عليهم السلام
وكانوا قبل ذلك يذكرونه مقرونا بالرضوان ثم كتب منشوراً آخر قال فيه

ان النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع به وقال له عليك السلام يا مهدي الانام
انك لجدير بهذا المقام واناك افضل من بعض الانبياء صلوات الله وسلامه
عليهم اجمعين وكان كثير من الجهلاء ينادونه بالنبوة والرسالة فلا ينهائم وربما
تبسم علامة على الاستحسان

ولكن وجملة القول ان المهدي على ما كان فيه من الريغ والاحاد والزندقة
وفقدان الذمة فانه كان احسن سلوكا من عبد الله التعايشي وقد احسن الاستاذ
الشيخ محمد شريف حيث قال مهما يكن المهدي ضالا مضلا فانه خير من
عبد الله التعايشي وان قال غيره (ان عبد الله التعايشي سيئة من سيئات المهدي)

ترجمة عبد الله التعايشي

نورد هنا ترجمة عبد الله التعايشي الذي افضت اليه خلافة المهديوية
وبعوثه انقضت دولتها وركدت ريجها

ولد عبد الله التعايشي بجهة (الكلاكة) جنوب دارفور وبالتقرب من
(شكا) من قبيلة بدوية اسمها (التعايشة) تسكن هذه الجهة وتعيش بألبان ماشيتها
التي جلبها من البقر ولذا يطلق عليها اسم (بقارة) كما تعيش من لحوم صييد
ضواري الحيوان كالقيل وغيره

على أنه لم تكن قرابته لهذه القبيلة الا من جهة الارحام فقط
لان جده المدعو بعلي كان دكروريا استوطن بلاد التعايشة وتزوج
امرأة منهم فولدت له محمدا المشهور بلقب (ثور شين) والد عبد الله
التعايشي واخوة احمد محمد المشهور بلقب (دي) وهو والد الامير محمود اسير
واقعة (اتبره)

وكان جده يحفظ القرآن وكذلك والده ولدرة من يحفظ القرآن في
 قبيلة التعايشة حاز أبوه شهرة كبيرة لكنه كان فقيراً لا يملك شيئاً من المال
 بل كان قوام معيشته من صدقات أولى البر والاحسان

وأما لقب (تورشين) فمنه الثور القبيح الخلق وهذا اللقب من ألقاب
 الفروسية بينهم وكلمة الثور منتهى المدح على الشجاعة عندهم أيضاً
 ومن عوائد التعايشة في صيد الأفيال ان من اصطاد منهم فيلا تقوم
 امرأته وسط الحلي وتصرخ بسكانه وتقول ان زوجي التور ابن التور اصطاد
 فيلا فهلوا الي أخذ نصيديكم من لحمه فينسلون الي الفلاة وهم يترنمون بالاناشيد
 في مدح ذلك الثور الذي قتل لهم الفيل ومن مزرعاتهم الدخن والفاصولية
 وعندهم نبات يشبه الارز ينبت في الفلاة دون أن يزرعه أحد

وبجوار قبيلة التعايشة قبيلة من العميد يطلق عليها اسم (بنضله) بينهم
 وبين التعايشة صلة المصاهرة والقرابة وبجوار (الكلكة) بحيرة يصطادون
 منها السمك فيتركونه حتى يتغفن وتكثر ديدانه ثم يدقونه في الاخوان
 ويصنعونه أقماعا كأقماع السكر الاحمر ثم يطبخونه مع البامية الناشفة (الويكة)
 وهذا النوع يسمى (مندجي) وكان التعايشي يجب هذا الطعام كسائر
 قومه وقد سمعته مرة يعط أقاربه التعايشة قائلين لهم « ان القصعة في الجنة
 يبلغ عرضها ما بين أم درمان وجبال قديروهي مملوءة بطبخ المندجي أو العصيدة »
 وأم التعايشي اسمها أم نسيم وكانت ذات شهرة بين التعايشة لانهم
 يعتقدون فيها اتقان الشعوذة فكان الناس يتصدونها للرقية وأخذ العروق التي
 يعتقد أهل السودان أن لها خواص للمحبة وقضاء الحوائج وإلجام أفواه
 الحيات والهوام السامة

وقد تزوجت بنحو عشرين رجلا والد عبد الله التمايشي أحدهم
وفي سنة ١٢٩٤ غادر التمايشي بلاده مع والده ممتطين عجلا من البقر
تد ذللاه بخظام على ما لوف عادة البقارة الذين يذللون الثيران والبقر ويحملون
عليها أثقالهم من بلد الى أخرى وكانا يقصدان الحج

ولما وصلا الى بلاد الجمع في الجنوب الشرقي من كردقان توفي والده
بالجدري ثم مات العجل وبقي التمايشي بلا دابة فاعطاه أحد المشايخ حمارا
سار عليه حتى لحق بالاستاذ الشيخ محمد شريف ومكث عنده حتى كان
من أمره معه ما ذكرناه عند الكلام على اجتماعه بالمهدي

وكان التمايشي ذا دهاء وحيل فكان لا يجاس امام المهدي الاجايب
ركبته منكساراسه الى الارض حتى انه كان يزعم انه لم يقع بصره أبدا على
وجه المهدي وكثير من البسطاء يمتقدون صدقه

وكان يشجع المهدي على دعواه ويصف له قبائل دارفور وما عندهم من
المدد والعسود وما هم عليه من الجهالة وما يمكن ان يصادفه من نجاح
دعوته بين ظهرانيسهم فسر به المهدي وأمره بالعودة الى بلاده كي يحضر
امرأته التي كان تركها في بلاده فذهب وعاد بها ومكث عند المهدي حتى صارت
واقعة (آبا) ويقول البعض ان المهدي أصيب برصاصة في ذراعه فاشار عليه
التمايشي باخفاء جراحه لئلا يمتقد فيه من حوله انه ليس ذا خاصية تميزه عنهم
فصدع بمشورته

وعندي ان هذا القول عار عن الصحة لانه لو أصيب المهدي في تلك
الواقعة لما اطلع عليه التمايشي وحده حتى يلقنه هذه الشعوذة والحقيقة التي سمعها
ان المهدي اراد ان يركب فرسا في تلك الواقعة فقل له التمايشي

إذا لا يكون في مقاتلتك فارس غيرك ولا يشك المدو في أنك المهدي
فيصوب مقدوفاته عليك فترك ركوبها وركبها أحد اتباعه فانها عليه رصاص
الجنود كالطر نخر صريعا يتخبط في دمه

ولما سار المهدي الى جبال (قدير) وكان التمايشى بقاريا مثل الاعراب الذين
التفوا حول المهدي في هاتيك الجبال صار يستعين به على تهذيب اخلاقهم
وطباعهم واستمالهم بالطرق التي تجذبهم اليه ومن ثم صار مشيرا للمهدي
ووزيرا مفوضا اليه كثير من الامور وكان أقارب المهدي يفضونه ويحتقرونه
حتى أصدر المهدي المنشور الذي تقدم لنا إرادته بالثناء عليه فكفوا عن أذيته
وأسروا عداوته

وكان التمايشى يمالئ المهدي ويرضى بالقليل من العيش فكان لا يتطلب
من بيت المال الا ما يسمح له به أمينه (أحمد سليمان) الذي كان يفضيه ولا يعطيه في
الشهر اكثر من مائة ريال ويخص الخليفة شريفًا وأقارب المهدي بالنصيب الاوفر
من بيت المال وقد رأيت أحمد (دي) عم التمايشى ووالد الامير محمود يتسول على
منازل الناس وكذلك بقية أقاربه التمايشة الذين كانوا وقتئذ زهاء ثلاثين رجلا ولكن
ذلك كان قبل ان تفضى خلافة المهديوية الى قريتهم

خلافة التمايشى

لما توفي المهدي وبويع عبد الله التمايشى ظهرت على الناس الكآبة سيما
أقارب المهدي وأحمد سليمان بيت المال فانهم كانوا في وجل شديد من مخبة
انتقامه منهم أما هو فكما قدمنا كان اكثر منهم دهشة وأشدم خوفا من موت
المهدي وما ينجم عنه من سوء للماقبة وقد أسر الى ذوى قرابته أنه يخشى تقدم

جنود الحكومة الى أم درمان لاعادة سلطتها على تلك الانحاء ولذلك عول على الاتفاق مع الخليفين علي بن حلو ومحمد شريف علي ان يقتسموا البلاد فيما بينهم فيكون قسم التعاشي اقليمي كردفان ودارفور ويكون للخليفة علي بن حلو البلاد التي على ضفة النيل الابيض وسائر ما يتبعها ويتدى ذلك من أم درمان الى الجنوب ويكون للخليفة محمد شريف شمال أم درمان والبلاد التي على النيل الازرق حتى دنقلا والسودان الشرقي برمته

وقد فاوض التعاشي ذينك الخليفين في أمر هذه القسمة فأظهر الخليفة علي بن حلو استيائه منها وقال ان بلاد النيل الابيض لا تكفيه ولا بد من اضافة بلاد النيل الازرق عليها فأبي الخليفة شريف وقال ان الاراضي التي في قسمه هي الحد الفاصل بين مصر والسودان ولا ريب انه سيقوم بالدفاع عنها ولذلك يجب ان تضاف كردفان الى نصيبه فلم يرض التعاشي بهذه القسمة فاتفقوا وفي نفس كل واحد من الحقتة على الآخر ما لا يوصف

أما التعاشي فكان يعرض ما يدور بينه وبين الخلاء على الحاج الزبير رئيس حراسه وقتئذ وكان من أهالي مديرية بربر فاخذ يثبط عزيمته عن اتمام هذه القسمة ويعده بان البلاد كلها ستخضع له وانه يقدر على جعل الملك وراثياً في آل بيته وان الخليفين علي حلو ومحمد شريف لا تحشي مغبتهما اذ هما غران يخذعان بمثل اكاذيب المهدي وما ينتحله من الخرافات ويقول له ليس عليك من حرج ان اتيهما من هذا السبيل فانهما ان ادعنا لك حفظا كرامة المهدي الذي فتح هذا السبيل وان كذباك فان العامة تصدقك كما كانت تصدق المهدي ويمكنك ان تذرعه بهذا الكذب الى اسقاط منزلتيهما والايقاع بهما

وعلى أثر ذلك اذ من عهد الله التمايشي لمشورة الحاج لزبير وعمل عن طلب الهجرة الى كردفان للاعتلال بالاسلاكها بما انه من ذلك الحين طرح مرقمة الرثة البالية التي كان يلبسها قبيل وفاة المهدي إظهاراً لازهد ولبس مرقمة من نوع ما كان يلبسه المهدي وتسم على قلنسوة مكية كالتي كان يسم المهدي عليها وصنع له كوخا من البوص في الموضع على هيئة مقصورة وأمر الناس ان يخذوا حذوه فصنع كل واحد منهم كوخا في مسجد حتى اتسعت الاكواخ بعضها وأمر الناس بترك صلاة الجماعة في أي مكان كان وان لا يصل أحد في أم درمان بجماعة غيره وشدد عليهم في ملازمة قراءة (راتب المهدي) في الصباح والمساء

وراتب المهدي هو أوراد وأدعية بعضها من المسببات التي تنسب لمولانا الامام الدردير ومنها ما هو من الادعية والتوسلات التي تنسب الى حجة الاسلام الغزالي ومع شهرة مصدر هذا الورد التي لا تخفي على غير الاغبياء ادعى المهدي ان النبي صلى الله عليه وسلم لقنه هذا الورد كلمة بكلمة وحكي من فضائله وثواب من واظب على فراس خرافات واكاذيب يقصر القلم عن التعبير عن بعضها منها ان من قرأ هذا الورد نزل خمسمائة الف من الملائكة كالذين نزلوا يوم بدر ليحفظوه وينصروه وان تلاوته مرة واحدة تعادل تلاوة القرآن الف مرة ومثل ذلك حتى قال المهدي ان المواظبين على قراءته يالون مقامات الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم

وكان المهدي شدد في النهي عن قراءة الصلوات النبوية المعروفة باسم دلائل الحيرات مدعي ان ثوابها نسخ براتبه وسيأتي في غير هذا المكان مصادرة أموال من يتهم بقراءتها والحكم بكفره وأظهر التعايشي للناس تواضعا

ولينا وخفض كثيراً من حدته التي كانت معلومة عند العموم حتي ذاع بين
الملا أن السكينة نزلت عليه وقال هو ان روح المهدي حلت فيه وان اخلاقه
لا بد ان تتبع الروح انما حلت

هذا ولم يكن القول بالتناسخ مذهب عبد الله التمايشي فقط بل هو
مذهب سلفه المهدي الذي كان يزعم ان روح النبي صلى الله عليه وسلم
حلت فيه

وجلة القول ان عبد الله التمايشي قبض على زمام البيعة وهو مضطرب
وكان لا يدري كيف يدير دفتها كما كان شديد الخشية من انتقاض الحليفة شريف
وأقارب المهدي عليه اذ هم أشد قوة منه وأكثر عدداً من رجاله ولذا لبث
كأنه واحد من الخلفاء لا يقطع أمراً بغير مشورتهم ولا يعمل بغير ارادتهم
منتظراً ما يكون من أمر مدينتي سنار وكسلا اللتين كانتا على وشك السقوط

اول اكاذيب التمايشي

ذكرنا ان الحاج الزبير أشار على عبد الله التمايشي بولوج باب اكاذيب
المهدي فكان أول الكذوبة وضعها بعد مهلك المهدي بشهرين أن أصدر
منشوراً قال فيه ما يأتي

بعد ان أدت صلاة العشاء بالمسجد دخلت الى منزلي وبينما أنا جالس
في مصلاي اذ دخل علي شخص طارقابي من رؤيته لانه لم يكن من نوع
الانسان لان رأسه كانت تناطح السحاب وخصيتهاه جبليين عظيمين فلم أتمالك
نفسى من الخوف فصحت مستغيثاً بالمهدي فأخذ ذلك الشبح يتقاصر ثم

جلس امامي وقال لي السلام عليك يا خليفة المهدي بل أنت المهدي نفسه فقلت
وعليك السلام من أنت فقال أنا ملك من ملوك الجن كنت ساكنا وراء
جبل (قاف) الذي يبعد عن هذا المكان مسيرة خمسمائة عام وقد مضى على
خمس سنوات وأنا سائر بقومي من ذلك المكان لادرك المهدي فكان من
أمرنا ان الحضرة عليه السلام قابلنا وهو يبكي ويصرخ قبل أن يبلغ العمران
البشري وأخبرنا بموت المهدي وخلافته عنه فلما وصلنا العمران البشري وجدنا
جماهير الاولياء ومجامع الملائكة في المساجد الكبرى يقيمون ماتم المهدي فاشتغلنا
معهم في اقامة شعائر المآثم ثم غادرنا المسجد الحرام بعد عصر اليوم وعسكرنا
في البقعة التي تلي محل (العرضة) استمرض الجنود ومعي ستون ألف فارس
من الجن غير المشاء قال التعاليفي فقلت ومن أهلك بظهور المهدي
قال أعلمنا الحضرة عليه السلام منذ ظهوره في جزيرة (آبا) فغادرنا جبل (قاف)
منذ ذلك وكنا نسير في السنة مسيرة مائة سنة فقلت ما تقصدون قال نقصد بيعة
المهدي وادراك فضل صحبته والجهاد معه فقلت وفي أي المساجد أقيم ماتم
المهدي فقال في المسجد الاقصى وفي المسجد الحرام وفي المسجد النبوي ثم
دنا مني وطلب مني أن أبايعه فبايعته بيعة المهدي وأمرته بالبقاء في المكان الذي
يلي محل الاستمرض

ثم سأله التعاليفي عن همزه فقال انه ولد في زمن ابراهيم الخليل صلى
الله عليه وسلم وانه صار ملكا على قومه في زمن موسى الكليم صلوات
الله وسلامه عليه

ولما نشر التعاليفي المنشور المتضمن هذه الاكذوبة سر الناس
باصر الجن الذين جاؤا لمساعدتهم وفي انفسهم ركب التعاليفي بخيله ورجله

وتوجه للمحل الذي نزل فيه أولئك الشياطين ولما دنا منه أوقف الناس ثم تقدم هو بفرسه واطال الوقوف والناس ينظرون اليه والي ما يأتيه من الحركات كأنه واقف يعظ أوسبايع وبعد بضع ساعات عاد فأخبر الناس بانهم بايعوه وأنه كان مشغولاً بترتيب فرقهم وتولية القواد عليهم مثل ترتيب جيش المهديّة ثم قال انهم رغبوا الى ان اشيد داراً الى بجوارهم كي اتردد عليها وتكون موعداً بيني وبينهم كلما دعت الحال للمقابلة

ومن المضحكات ان رجلاً ذكروريا كان له كوخ بالقرب من ذلك المسكن فاحتمل متاعه في ذات يوم ومعه امرأته وبنته وجاؤا الى التعايشي في المسجد فسألهم عن حالهم فقالوا ان لنا كوخاً بالقرب من محل العريضة وقد هجرناه لكثرة ما فيه من الضوضاء والنيران وصهيل خيول الجن وسائر حرركاتهم التي أفقدتنا النوم واطارت قلوبنا خوفاً وفزعاً فضحك التعايشي وقال لهم ما الذي أطار نومكم وأزعكم ألم تعلموا ان هؤلاء الجن صاروا من اتباع المهدي وانهم خاضعون لحكمي ولا يجسرون على اذي أحد من انصار المهدي وان احكام المهديّة تجري عليهم كما تجري عليكم فقالوا ياسيدنا الخليفة ان خلةتهم غريبة مخيفة فمنهم رؤس بلا جنت ومنهم جنت بلا رؤس ومنهم الطيارون ومنهم ومنهم فقال عودوا الى مكانكم ولا تخافوا فرفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا نحن فقراء لانملك غير هذا الكوخ وقد تركناه لهم فاسترسل التعايشي في الضحك الذي يشف عن السرور وأمر باعطاء الرجل خمسمائة ريال بدل كوخه وان يعطي من بيت المال راتباً يقوم بحاجة عائلته

وسمعت التعايشي يوم ذهب لمبايعة الجن على زعمه يسأل الذين أدوا صلاة المغرب خلفه قائلاً لهم هل رأيتم شيئاً أو أحسستم بشيء فسكت اكثرهم

وقال البعض قد أحسننا برهبة ونحن في الصلاة فقال لهم ان عيسى عليه السلام صلى معكم مأموماً بي وأشار الى المكان الذي صلى فيه فخرج الناس اليه يتبركون به وأحيط ذلك المكان بزريبة من الشوك ليبقي معروفاً عند كل من يقصده من الزائرین

ذكر دعوة التعايشي اهالي السودان

لاداء فريضة الحج بام درمان

كان المهدي قد نهى الناس عن السعي لاداء فريضة الحج مدعيًا ان البيت الحرام في ايدي الكفار ونشر جملة منشورات بهذا المعنى وكان يزعم أن مرافقته للجهاد خير من السعي لاداء الحج وزعم ان الهجرة معه كالهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم وهي أفضل من الحج وتغالي حتى قال ان رؤيته تعدل ثواب سبعين حجة

ولما هلك المهدي اجتمع التعايشي والخليفةتان على حلو ومحمد شريف وقرروا فيما بينهم وضع اكدوبة ماسمع في الاسلام بمثلها لا ماسمع من أمر على بن مهدي صاحب اليمن في القرن السادس من الهجرة وهي ان يصدروا منشوراً يقولون فيه ان الحج الى البيت الحرام قد أبطل وعزموا على تشييد كعبة في أم درمان وجعل جبل (كررى) بدل جبل عرفات لتقام بهما شعائر الحج ويزور الناس قبر المهدي بدل زيارتهم قبر النبي صلى الله عليه وسلم وفعلاً شرعوا في اعداد ما يلزم لابرار هذه الضلالة حتى قالوا ان حفر بئر زمزم يكون بعد الوقوف بجبل عرفات واداء صلاة العيدين ثم يرحلون الى البيت الحرام فيحفرون بئر زمزم ويعودون لقضاء أيام التشریق بمنى

ولما اذاع الخلفاء هذا الخبر دخل رجال من أهل العلم بعضهم من ذوي قرابة المهدي على أولئك الخلفاء واخبروهم ان هذا الامر لو تم كان دليلاً قاطعاً على كذب دعوي المهديّة وخروجهم جميعاً من الاسلام كما تخرج الشعرة من العجين فالصاع أولئك الجلاء وجمعوا الاوراق التي وصلت ايدي الناس واتلقوها ومنعوا الناس من الكلام في هذه المسألة ومن تكلم جلدوه ثمانين جلدة اه

ذكر مسالة الشعرة من حجة المهدي

ذكرنا ما كان لاحمد سليمان أمين بيت المال من المنزلة السامية عند المهدي وانه كان واقفا على اسراره وكنه أعماله وكان أحمد المذكور ذا دهاء يظهر امام الناس بالزهد والورع ويروي للناس انه رأي من كرامات المهدي ما هو كيت وكيت ويختلق من الاكاذيب ما يحمله العقل . ومن اكاذيبه انه جاء الى التعايشي وكان جالسا مع الخلفاء وأخرج من جيبه حقا من الحشب وفتحه واخرج منه شعرة وقال يا خلفاء المهدي ان المهدي قبل مرضه بنحو أسبوعين أخبرني بانه راحل من هذه الدنيا ونزع من لحيته الكريمة شعرة ثم قال لي يا حبيبي أحمد خذ هذه الشعرة وابتلعها بعد وفاتي فان فيها سرا من أسرار المهديّة وبعد ان تموت وتلحق بي أخبرك بهذا السر فوثب عليه الخليفة عبد الله التعايشي وأمسك بيده وقال له ان هذه الشعرة كانت امانة عندك وقد أمرني المهدي باستلامها منك وكان الحضر عليه السلام حاضراً فسلمها أحمد سليمان له فابتلعها وأصدر منشوراً قال فيه ان في هذه الشعر سر المهديّة وقوة خلافتها

ذكر وقائع سنار وسقوطها

تقدم لنا ذكر وقائع سنار التي حصلت قبل مهلك حملة هيكس ولما ذبحت هذه الحملة قويت عزائم الدراويش وأحاطوا بها وضيقوا عليها وبمد سقوط الخرطوم وثب النور بك محمد قومندان الجنود النظاميين ومعه عثمان بك الدالي الصنجق وقبضا على المدير حسن صادق بك وسجناه في داره لاسباب لا نعلم كنهها والظاهر ان لاسبب لها الا سوء الظن بذلك المدير الذي لا يشك أحدي براءته من وصمة مانسب له

وبعد ان مكث المدير أشهراً في السجن اجتمع القواد ودخلوا منزله وأطلقوه من عقاله واعتذروا له وكان العدو محاصراً للمدينة فخرج عليه المدير في قوة كبيرة وهجم على موقعه ومزق شمله كل ممزق وعاد الى المدينة ظافراً منصوراً حتى اذا اقترب منها التي عصا سيره للراحة من وعشاء السفر وتناول الطعام عند مكان اسمه (الجيزات)

وبينما كانت الجنود وقوادهم مشتغلين بتناول الطعام اذ هجم عليهم العدو على غرة من جهتي النهر والفلاة واعملوا السيف في رقابهم فتمكن كل من النور بك محمد وعثمان بك الدالي من جمع شمل بعض الجنود حيث قاتلوا متهقرين حتى بلغوا معقل المدينة

أما المدير حسن صادق بك فقد تمكن العدو من الفتك به حيث فاجأه وهو يريد ركوب فرسه بضربة كانت القاضية

ثم ان القاء قام حسن عثمان بك كر على الدراويش بقوة أزمتهم الفرار من وجهه وتمكن من حمل جثة المدير الى المدينة حيث دفنت هناك بالاكرام

اللائق وكانت هذه الواقعة في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٢
وفي شهر جمادى الآخرة وصل محمد عبد الكريم بمقاتلته لحصار مدينة
سنار وقد ذكرنا ان المهدي بعثه بنحو عشرين الف مقاتل
وفي اواخر شهر شعبان وصلت الى المهدي أخبار بان حامية سنار
خرجت على معسكر محمد عبد الكريم وانتصرت عليه فأرسل الى المتمة يستدعي
عبد الرحمن النجومي بمقاتلته فوصل الى أم درمان بعد وفاة المهدي بأسبوع
وفي أوائل شوال سنة ١٣٠٢ وصل الى حامية سنار نبأ وفاة المهدي
فقويت عزيمتها وخرجت على معسكر محمد عبد الكريم مهاجمة فاصيب محمد
عبد الكريم برصاصة في فخذه ثم انهزمت مقاتلته شر هزيمة وغنمت
الحامية معسكرهم
ولما اتصل بالتماشي خبر هزيمة محمد عبد الكريم انفذ عبد الرحمن
النجومي الى سنار كما كان المهدي يريد انفاذه اليها حين استدعاه من المتمة
وفي أوائل شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٢ وصلت درجة المجاعة في سنار
الى فقدان القوة بالكلية فتمرر الجنود على قوادهم وشقوا عصا الطاعة وخرج
كثير منهم واسلموا نفوسهم الى العدو الذي تشددت عزيمته وعاد الى موقفه
الاول من الاحاطة بمقفل المدينة وتشديد الحصار عليها
ووصلت الى المدينة أخبار زحف عبد الرحمن النجومي عليها فاسرعت
بطلب التسليم مع وفد ارسلته الى محمد احمد شيخ إدريس من أقارب المهدي
ونائب محمد عبد الكريم الذي كان وقتئذ طريح الفراش من الاصابة بالحصاص
في الواقعة الاخيرة

وعند وصولها عقدت شروط الصلح بين الحامية والدر او يش على ان لا يأخذ

الدرأويش غير مال الحكومة وان لا يمتدرا على احد من الاهلين في ماله وعرضه
 وعلى هذا الشرط اسلمت الحامية نفسها فنكسها، الدرأويش العهد على مألوف
 عادتهم ومدوا ايديهم الى الاعراض وعذبوا سكان المدينة الذين جلبهم
 من البحر بين عذابا اليما وغنموا منهم شيئا بعد بد شرار القناطير من الذهب
 الذي يوجد بكثرة في مدينة سنار حيث ان منابع النيل الازرق التي يوجد بها
 هذا التبر داخله في دائرة مديرية سنار واهل سنار مشهورون بادخار الذهب
 بكثرة وقد عذبهم الدرأويش عذابا يفوق الذي وصفناه في عذاب اهل
 الخرطوم وهتكوا اعراضهم كما هتكوا اعراض اهل الخرطوم

وبعد مضي شهر على هذا التعذيب هدموا المدينة كماها وزحفوا بالاسرى
 الى أم درمان فوصلوها في أوائل شهر ذى الحجة الحرام ختام سنة ١٣٠٢
 هذا وقد وصل عبد الرحمن النجومي سنار بعد سقوطها ببضعة ايام
 ولم ينل من الغنيمة شيئا

على ان حامية سنار كانت تستطيع النجاة لو قصدت حدود الحبشة قبل ان
 يصل اليها محمد عبد الكريم. وقد بلغني ان المدير كان ينوي سحب الحامية الى
 جهة حدود الحبشة بعد ان علم بسقوط الخرطوم لفهمه ان الانكاز لا يتقدمون
 لاتخاذ سنار بعد سقوط الخرطوم فخالفه اللذان سجناه معتقدين خلاف ذلك
 والخلصه ان نجاة حامية سنار كانت ميسورة لو لم يسجن المدير
 حسن صادق بك

هذا وقد أصدر التعاشي أمرا باعتبار مدينة سنار كمدينة ثمود تحرم
 سكانها والاستقاء بمياهها

وقد اغتال الامراء الاموال ولم يقدموا لبيت المال عشر الغنائم فتغيظ

عبد الله التعايشي واصر على الانتقام منهم وسنعود الي ذكر هذا
الانتقام في محله

وأخذ التعايشي نحو عشرين امرأة من نساء المصريين كانوا في تلك
المدينة مسبيات وادخلهن منزله. والخالصة ان سكان سنار جلمهم مصريون
مثل سكان الخرطوم وقد نالوا نصيبا من التعذيب والنهب وهتك الاعراض
كالذي ناله اخوانهم في الخرطوم أو أشد وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

حوادث كسله وسقوطها

كسله اسم مدينة هي عاصمة اقليم (التاكا) الذي بين محافظتي مصوع
وسواكن وحدود الحبشة وأغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان
وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة وفيه أبراج وممدات الدفاع
متوفرة فيها منذ دخلت في املاك الحديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد
على باشا عزيز الديار المصرية

وكان السيد محمد عثمان الميرغني نازلا في قرية (الختمية) بجوار كسله
وهي قرية أسسها جده السيد محمد عثمان الميرغني وقد تقدم لنا ان المهسدي
كان يدعو السيد محمد عثمان الميرغني الى الدخول في دعوته وكان يوالي ارسال
الانذارات له تارة بالوعد وأخرى بالوعيد ففر من قرية الختمية لما رأى ان
الخطر يقترب من جهته

وبعد فراره خمدق بقية سكان الختمية على قريتهم وأمدتهم الحكومة
بالاسلحة والذخيرة والجنود

وفي محرم سنة ١٣٠١ قدم الى كسله مصطفى هديل داعية من قبل

عثمان دونه فقبه جميع السكان ورفعوا الرء العصيان على الحكومة فارسل
 أحمد عفت بك المدير قوة تهاجم موقع تجمع المدو فعادت بحسارة عظيمة
 وكانت نساء العصاة (الهندوه) يقاتلن مع أزواجهن ولهن فظائع ماسمع
 بمثها في الدنيا فقدكن ييمان ورا أزواجهن قطعاً من الحشب فيجهزن بها
 على الجرحي وينزعن الملابس عن اشلاء القتلى ويضعن في دبر كل قتيل قطعة
 من الحشب طولها ذراع فيولجن في الدبر نصفها ويبقى النصف بارزا ويطرحن
 الجثث على وجوهها ليصير هذا المنظر السنيع معرضاً لنظر المارة
 على ان هذه الفظيعة لم تكن من عنديات تلك النسوة بل ان مصطفى
 همدل هو الذي قال لهن من مثلت منكن بالقتلى هذا التمثيل بنى الله لها
 بيتاً في الجنة

وكان مصطفى همدل هذا جاهلاً ضالاً وفي غضون حصاره كسله كان
 يزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بكيت وكيت
 وفي أواخر شهر ربيع الآخر هجم الدراويش على كسله فالتزمهم الحامية
 بالتمهتر بعد ان تكبدوا خسائر جسيمة

وفي شهر جمادي الآخرة اشتد الحصار وارتفعت اثمان الاقوات
 وفي شهر شعبان سنة ١٣٠١ بينما كانت الحكومة الانكليزية والحديوية
 تتداولان في انفاذ حملة تقذ غردون اتفقت الحكومة الحديوية مع يوحنا
 نجاشي الحبشة على انفاذ حاميات الحكومة التي في السودان الشرق وتنازلت
 له عن بعضها

وفي هذا الشهر أيضاً أحس مصطفى همدل بضعف في حامية خندق الختمية
 فصمم علي أخذها عنوة فخاب سعيه حيث دفعته الحامية وهزمته شر هزيمة

وفي شهر رمضان سنة ١٣٠١ سعي ماسون بك الامريكاني في اخلاء
كسله واجلاء الحامية عنها فلم يفلح لان الجند رفضوا ان يفروا بغير عائلاتهم
التي لا تستطيع الفرار

وقد لبث ماسون بك يخبر المدير أحمد عفت في الانسحاب من كسله
فكان يجاوبه باستحالة ذلك ثم غادر ماسون بك مصروع ولم يفلح في سحب
الحامية من تلك المدينة

هذا وقد كان انقاذ كسله ميسوراً بسبب قربها من حدود الحبشة ولكن
أشياء كثيرة كانت من أقوى الاسباب التي ساعدت العدو على امتلاك
المديرية. منها ان النجاشي يوحنا بعد ان أصدر أمره الى الرأس الولا بالقيام
لانقاذ كسله عاد فنقض أوامره الاولى وكان سبب ذلك على ما علمته ان
الدرأويش كانوا يخادعون ويمدون بالمخالفة والمعاضدة وكان في المدينة بعض
جواسيس يطلعون الدرأويش على كل اسرار الحكومة وما يدبره المدير وكان
الرأس الولا يخبر المدير ويطلب رأيه في ترتيب الزحف على المدينة لانقاذ
حاميتها فكان المدير يجاوبه فيسرع أولئك الخائون بابلاغ الدرأويش ما دار
بين المدير والرأس الولا من المخبرات

ولما وصلت انباء سقوط الخرطوم الى شرقي السودان قويت عزيمته
محاصري كسلة وأرسل عثمان دقنه بالامداد لهم ثم تلاه قدوم الشيخ الحسين
زهراء ومن معه من المندوبين وقد تقدم لنا ذكر بعثتهم قبل وفاة المهدي
وفي أواخر شهر جمادى الآخرة عرض (شرمشيد باشا) محافظ شواطئ
البحر الاحمر على النجاشي يوحنا عشرة آلاف بندقية ليتقدم لانقاذ حامية
كسله ولكن في غضون ذلك كانت المجاعة قد برحت بالحامية حتى أكلوا

الكلاب والجرذان

وفي شهر رجب سنة ١٣٠٢ برحت المجاعة بحامية الختمية فعزم السيد بكري ابن عم السيد محمد الميرغني على التوجه لكسله لينضم الى من بها من رجال الحكومة وفعلا سار بنحو الف رجل فصادفهم في اثناء سيرهم مصطفى هدل وجنوده فذبحوا كل من كان مع السيد بكري وجرح هو جرحا بليغا ثم شرعوا في الهجوم على مقل الختمية لاستئصال من به من الحامية التي تمكنت من التفرقة بانتظام حتى دخلت مقل كسلة. ولقد أتى السيد بكري من الاعمال الشريفة ما يناسب منصبه ويشهد له ولعائلته بطهارة الاصل وعراقة المجد

وفي منتصف شهر شوال سنة ١٣٠٢ فقدت الحامية كل أمل في النجاة كما فقدت القوات حتى قال لنا أحد المحصورين انهم طلبوا الاردب من الذرة باكثر من الف ريال فلم يظفروا

وعلى أثر ذلك عقد المدير أحمد عفت بك شروط الصلح مع الامناء الذين انقذهم المهدي قبل وفاته على ان لا يمدوا أيديهم لغير ما للحكومة من المال والذخيرة فخرجت الحامية وسلمت نفسها في منتصف شهر شوال سنة ١٣٠٢ فامسكوا المصريين وعذبوهم ونهبوا أموالهم مثل ما حصل في الخرطوم وغيرها ومات كثيرون تحت الضرب والتعذيب وحمل جل المال الي أم درمان واحد عشر مدفعا من الطرز الجبلي العتيق وأبقيت نحو تسعة مدافع تحت تصرف عثمان دقنه وغنموا أيضا نحو عشرة آلاف بندقية وشيئا كثيرا من الذخيرة ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر اول واقعة بين الدراويش والاحباش

بعد سقوط كسلة في قبضة العدو بثلاثة أسابيع قدم عثمان دقنه من
سواكن ومعه زهاء عشرين الف مقاتل وقد استنفر الناس فاجتمع لديه
نحو خمسين الف مقاتل زحف بهم الي (كوفيت) في حدود الحبشة وتحصن
في المعقل الذي كانت حامية الحكومة متحصنة فيه قبل جلائها عن (كوفيت)
وهناك أرسل كتاب تهديد الي الرأس الولا فورد له الرد بان سيقدم عليه
يوم كذا وفي ذلك اليوم هجم الرأس الولا على عثمان دقنه في ثمانين الف
مقاتل من الاحباش فاطوا بالمعقل احاطة السوار بالمعصم فخرج عثمان
من المعقل بمئاته فهاجمه الاحباش هجمة الاسود الضواري على فرانسها فسط
جيشه كله قتلى واستطاع هو النجاة ومعه نحو خمسمائة مقاتل فظن ان الاحباش
يتأثرونه الي كسلة فيستولون عليها حيث لا مقاتلة فيها يدفعون عنها غارتهم
ولذا عاد عثمان دقنه الي كسلة وهو لا يصدق بالنجاة وكانت هذه الواقعة
في شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٢ ويقال ان تقدم الاحباش كان لانتقاذ كسلة
فكان شأنهم معها مثل شأن الانكليز مع الخرطوم حيث جاؤها بعد ان سقطت
في قبضة العدو

ذكر قتل المدير احمد عفت ومن معه من القواد

لما رجع عثمان دقنه من (كوفيت) قبض على المدير أحمد عفت ومعه
الصنjq حسن أغا سليمان الالباني ومعتوقه احمد أفندي شوقي معاون مديرية
(الناكا) وتاجران يونانيان يدعى احدهما استبلي والثاني بادروس واودعهم السجن

بعد ان وضع في أرجلهم من القيود مائتوه بحمله الدواب وغل رقابهم باغلال الحديد وتركهم في اعماق السجن بلا طعام ثلاث ليال ثم دخل عليهم السجنان وقال لهم قوموا الى الصلاة فقال له احمد عفت بك هل نطبق القيام ونحن بهذه الاغلال مع ما نحن فيه من وهن الجوع فنذهب الي عثمان دقنه وأخبره بما قاله احمد عفت بك فقال ليحضروا امامي فسيقوا اليه يرسفون في القيود والاغلال كأنهم أشباح بلا ارواح فسأل عثمان دقنه احمد عفت بك عن سبب امتناعه من الصلاة فأجابته بمثل ما اجاب به السجنان فامر بضرب اعناقهم فاضربوا جميعاً الفرح والارتياح وتقدم شوقي عتيق احمد عفت بك الى السيف وقال له أمهلي حتى اصلي ركعتين فامهله ثم قال له انني اسألك بحق مهديكم ان تضرب عنقي قبل سيدي أحمد عفت بك فمد عنقه غير هيب لشيء فضربت ثم مد أحمد عفت بك عنقه مع الجلد والشجاعة فضربت أيضا ثم مد الصنجق حسن اغاسليمان عنقه فضربت ثم تلا ذلك ضرب عنقي اليونانيين استبلى وبادروس

شان اهل الخرطوم بعد ذلك

ذكرنا ما كان من أمر المهدي مع أهالي الخرطوم وقد أوردنا صورة المنشور الذي أصدره المهدي لأهالي الخرطوم وعلى أثره سمح لهم بالاقامة في الامكنة المتخربة من المدينة واخذوا في السعي للارتزاق بالهن الدنيئة مثل صناعة البز وفتح حوانيت الاطعمة وهم في كل آن عرضة لصنوف الاضطهاد وفي كل يوم يقع بعضهم في تهمة إختفاء المال فيعاد تمذيب الواحد منهم بما يقشع منه البدن

هذا وقد ذكرت اني كنت اقت بكوخ في أم درمان بجوار منزل يوسف منصور وبعد وفاة المهدي كانت لي زوجة هلى وشك الوضع كنت تزوجتها قبل سقوط المدينة وهي بنت احد الضباط المصريين العظام فانتقلت الى الخرطوم للحصول على قابلة مصرية بها وما كادت تمضي على ايام حتى نعى الى ان الحاج خالد العمرابي كتب الي التمايشي يقول ان ابراهيم فوزي قدم الخرطوم وهو يسمي في توحيد كلمة بني جلدته المصريين للقيام بعمل ضد المهدي فمنا شعرنا في احدى الليالى الا بالنداء بان كل ذكر من الذين خرجوا من خندق الخرطوم يهدر دمه اذا بات في المدينة بل يجب ان يكون في البقعة التي عند نقطة ملتقى النهرين الابيض والازرق وبذما كان الرجال يودعون اطفالهم ونساءهم للخروج الى محل الاجتماع اذ عاد النداء بوجود خروج النساء والاطفال الى ذلك المسكان أيضا فخرجنا بنسائنا واطفالنا ونحن في حالة لا أقدر على وصفها وبعد وصولنا الى تلك البقعة جاءنا دراويش من أم درمان اخبرونا بان المراد من هذا الاجتماع قتل ابراهيم فوزي (المؤلف) وبيع بقية المصريين ارقاء فقمضينا تلك اللبلة فراشنا الارض وغطاؤنا السماء فكنت لاتسمع غير صياح الاطفال وعويل النساء

وفي اليوم التالي مكثنا الى قرب منتصف النهار حتى جاءنا التمايشي ممتطيا حماراً يحيط به نحو الف حارس وامامهم اشخاص ينفخون في ابواق من العاج بصوت مزعج متقطع وهذه الابواق تسمي (أم بايه) وسيأتي ذكرها في وصف سوكب الخليفة

ولما دنا التمايشي من موقفنا أمرنا بالوقوف مصطفين رافعين أصواتنا بالهايل ثم استدعاني من وسط الصفوف ومعي بضعة أشخاص من أعيان

الخرطوم ولما مثلنا بين يديه خاضعنا بما يأتي
 «أيها الأتراك أهالي الخرطوم فضلة سيف المهدي عليه السلام انكم
 أضلتم الناس وغررتموهم بدنياكم فلماذا أيها المنافقون أقسم بالخرطوم ولم ترحلوا
 الى أم درمان فهل أنتم لا تزالون مكذابين للمهدي أو ما هي السبب» فاجبته قائلاً
 ياسيدنا الخليفة نحن نعوذ بالله من ان نكون مصرين على تكذيب المهدي
 ونحن نعتز امامك باننا مؤمنون بالمهدي وخلفائه والذي منعنا من الإقامة
 بأم درمان هو عدم قدرتنا على تشييد الكواخ فيها وتمكننا من الإقامة في
 خرائب الخرطوم بغير مشقة فاجابني التعاشي وهو منعم بالنصب أنت منافق
 ولا أرى غير ضرب عنقك فقلت له ياسيدي الخليفة أنت تعلم الغيب وما تخفيه
 الصدور وان الخضر عليه السلام وزيرك ومشيرك وقد قال فيك المهدي
 عليه السلام انك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فاطرق بوجهه الى الارض
 وسر من هذا الاطراء ثم رفع رأسه وقال لي يا ابراهيم فوزي لقد تحققت
 براءتك مما نسب اليك وقد عفوت عنك وعن جميع أهالي الخرطوم ولكن لا بد
 من مغادرتكم الخرطوم واقامتكم بأم درمان لان الخرطوم دار كفر والمهدي
 عليه السلام قال لا تسكنوا في مساكن الكفار ولا تلبسوا ملابسهم ولا تزيوا
 بازيهم فقلت ياسيدنا الخليفة نحن لانملك أجرة اجتياز النيل فامر باجارتنا
 مجاناً فاجتزنا النهر وأقنا بأم درمان تقاسي من صنوف الذل ألوانا

ذكر الاجتماع العام لعيد الاضحى

ذكرنا ما كان التعاشي شرع في عمله من اقامة مشاعر الحج بأم درمان
 واطاله هذا المشروع قبل ابرازه من القول الى الفعل

هذا وقد دعا الناس للاجتماع في عيد الاضحى ليتحقق طاعتهم وليظهر امامهم بمظهر الملك والقوة فدعا محمود بن عبد القادر أمير كردفان وسائر أهلها ودعا أيضا أهالي الجزيرة فاجتمع في أم درمان زهاء خمسمائة الف مقاتل نخرج عليهم يوم العيد يحيط به نحو عشرة آلاف عبد يحملون الاسلحة النارية من طرز رامنجتون وامامه بوق (أم بايه) وهو بوق من العاج كان يستعمله كبار نخاسي النيل الابيض وكان المهدي قد ميز التمايشي عن بقية الخلفاء بهذا البوق الذي يكون علامة على دعوة فرسان الجيش بالتكوف حول التمايشي

وخرج التمايشي راكبا هجينا كان يركبه المهدي وأخذ يسير الهوينيا حتى بلغ زريبة بن الشوك أعدت ليصلي فيها هو والخلفاء والمقربون منه فاقامت الصلاة قبل الزوال بنحو ساعة فصلى التمايشي بالناس اماما ثم خطب بهم الخليفة على حلو وهكذا كان حال التمايشي في ايام الاعياد يصلي بالناس اماما ويخطبهم الخليفة على حلو لان التمايشي أي يجهل الكتابة والقراءة وبعد انقضاء الصلاة عاد الى منزله وقد سره ماراه من إقبال الناس عليه وطاعتهم لا وامره

وقد ذكرنا انه كان يخشى انتفاض أقارب المهدي واكنه علم من أهالي الجزيرة انهم سيثو السلوك وقد حملوا الاهلين من المظالم والمغارم ما جعلهم يثنون تحتها وأتوا من المنكرات ما يعجز القلم عن ايراده

ومن هاته الحوادث ان كريبا أحمد حراس الخليفة شريف وقريب المهدي الذي ذكرنا انه قطع الصبي ثمانى قطع يوم سقوط الخرطوم ذهب الى المسلمية بأمرية جمع الثنائم فرأى بجوار داره امرأة أرملة في منتهى الحسن والجمال ولها بنتان لا يقلان في الحسن والجمال عن أمهما فقبض عليهن

وادخاها من داره ووقع على أمهما أولا ثم افتض الفتاتين فقدم على
 النعايشي ورفقن شكراهن اليه فاحالهن على القاضي الذي استدعى كريبا
 ولدي استنطاقه اعترف بانه وطى المرأة بملك اليمين لانها غنيمة أما الفتاتان
 فانكر افتضاضه اياها

وفي هذا الاجتماع أصدر النعايشي أمراً بإبطال وظيفة الامناء الذين
 فوض لهم المهدي النظر في العرائض التي ترفع اليه لان جلمهم من أقارب
 المهدي ثم أعلن ابطال وظيفة النواب الذين أقامهم المهدي لينوبوا عنه في نظر
 الظالمات التي ترفع اليه وأقام للقضاء بين الناس القاضي أحمد على الذي لقبه
 بقاضي الاسلام وأشرك معه نحو عشرين قاضيا كلهم من جهلاء الاعراب
 الذين لا يفقهون شيئا غير أنهم يحفظون الفاظ القرآن الشريف

ثم أشار عليهم بعدم قبول الطعن في الشهود وتحليف الشاهد على المصحف
 فكانوا يكتبون في أحكامهم ما ياتي « ولمدم قبول الطعن في الشهود كما أشار
 خليفة المهدي عليه السلام قد صار تحليف الشهود وحكمنا بكذا »

كل ذلك لينتقم من أقارب المهدي بقيام الناس عليهم ومقاضاتهم لرد
 ما نهبوه منهم. وخرج الي محل القضاة في ذات يوم شاهرا سيفه وقال لهم
 ان لم تحكموا بين الناس بالحق فلا بد ان أضع سيفي هذا في رقابكم ثم خطب
 في الناس قائلا من كانت له مظلمة عندي فليقدم لمقاضاتي امام القاضي والحاصل انه
 ظهر امام الناس بمظهر العادل الشفوق وقفل الناس راجعين الى بلادهم وقلوبهم
 مملوءة بالاخلاص له والالتقياد الاممي لطاعته وشرعوا في مقاضاة اقارب
 المهدي واستردوا اكثر ما سلبوه منهم

ذكر وفرد المنود علي التعايشي

في أوائل سنة ١٣٠٣م وفد علي التعايشي عشرة رجال منهم سبعة من
المنود الميامين وثلاثة من بخاري فتلقاهم بالاكرام وقدم لهم الاغذية مدة
اسبوع ثم أهمل أمرهم وشدد عليهم في مواظبة الصلوات الخمس في المسجد
فساءت حالتهم حتى أصبحوا الاحرفه لهم غير التسول وكان بين الثلاثة البخاريين
واحد اسمه محمد الامين فاخبر التعايشي بان له معرفة بالكتابة ونسخ الصور
التي تستعمل في مطابع الحجر القديمة فامر بارساله الى المطبعة لمباشرة تلك
المهنة وجعل راتبه خمسة ريالات يقبضها في السنة مرتين أو ثلاثا
ويظهر من حالة أولئك المنود انهم فقراء وانهم قصدوا بلاد السودان
عساعم أن يجدوا سبيلا للارتزاق

وكان من بينهم واحد اسمه كمال الدين وكان بارعا في أساليب الخداع
والاحتيال ادعى انه ذوعلم بصناعة المادة القابلة للانفجار وهي المسماه (عجينة
الكبسون) وتناول من التعايشي نحو اثني عشر الف ريال ثم ظهر جهله وانكشفت
حيلته وسنأتي على ذكر هذه المسألة في مكانها ان شاء الله

ذكر انتفاض الاشراف وتسليم الرايات

ذكرنا ما كان من أمر المداولة بين الخلفاء وتقسيم البلاد بينهم وتردد
التعايشي في انفاذ تلك القسمة وعدم رضاه بها
ولما عاد محمد عبد الكريم بعد اسقاطه سنار واستحوازه على ما فيها
من الذخيرة والامتعة طلب منه التعايشي أن يسلم مالهديه من الذخائر والاسلحة

والمال فامتنع واعلن الخليفة شريف عبد الله التمايشي بانه يريد التقدم الي بربر
ومنها الى دنقة كي يتقدم منها لفتح مصر فمنعه التمايشي فلم يصغ لقوله
وخرج في شمال أم درمان وعسكر هناك وأخذ في الاهبة للرحيل فجمع
عبد الله التمايشي خواصه واستشارهم في هذا الامر فاشاروا بوجوب مقاومته
وارغامه على الخضوع لاوامره فرأى التمايشي ان قوة الخليفة شريف أعظم من
قوته وانه لا بد ان تدور عليه الدوائر اذا قصد اخضاعه بالقوة فعمد الى طريقة
الحيلة والحداع توصلا الى هذه النتيجة فبذل المال الى الخليفة على حل ووطيب
قلبه بالوعود ليكون معه على الخليفة شريف

وكان الخليفة على حل و متزوجا بأخت عبد الله التمايشي وبينهما من
رابطة جنسية البقارة ما يدعوه الى تفضيله على الخليفة شريف قال الى
التمايشي الذي عمد الى أحمد شرفي صهر المهدي واستماله اليه بالهدايا والوعود
فصار يرفع اليه أخبار الخليفة شريف وما دبره ووعدده بالمساعدة في كل
ما يطلبه منه

وفي ذات يوم ركب التمايشي ومعه الخليفة على حل و وقصد معسكر
الخليفة شريف فوقفوا صغوفاً للقاءه ولدي وصوله الى الصفوف أخذ يبكي
ويتنحب فاحاط به كل من الخليفة على حل و وأحمد شرفي وغيرهم من خاصته
وسألوه عن سبب بكائه فلم يرد عليهم وأخيراً قرب منه الخليفة شريف
وأقارب المهدي فرفع رأسه وأشار بيده الي الامام وقال لهم هاهو المهدي
امامكم يمض على أنامل الندم ويقول لي كيف تختلفون قبل ان يمضى على
استقالي من بين ظهرانيكم سنة ألم يعلم أصحابي انك خليفة الصدوق قبكي الياضرون
وفي مقدمتهم الخليفة شريف وتراموا على ركاب التمايشي يقبلونه ويسألونه

الصفوح عن زلتهم ثم طالب من الخائفتين علي حار ومحمد شريف ان يسلماهما
راياتهما فسلوهما وأسرهما بتسليم ما عندهما من الاسلحة والذخيرة والجهادية
ففعلا وأصبح الخليفان لا يملكان شيئاً من الاسلحة النارية وكان التمايشي يبد
الخليفة علي بن حلو سرا باعانة ما أخذ منه ولكن لم يوف له بشيء بعد ان
تمكن من انفاذ غرضه وقلب له ظهر المجن ومع ذلك كان يكرمه ويجزل له
العطاء ويشاوره في كثير من الامور

ومن ذلك اليوم مال اصحاب الخليفة شريف وقواده عنه واحتقروه لما
رأوا من ضعف عقله الذي اثرت عليه هذه الخديعة التي لا تؤثر على عقول
الصبيان فانحازوا الى جهة التمايشي مظهرين له التزلف والتودد مضعفين له
جانبا الخليفة شريف الذي أخذ يعد قواده واصحابه بان له أملاً كبيراً في
اعادة نفوذه بواسطة القوة الضخمة التي تحت قيادة ابن عمه محمد خالد زقل
في دارفور

وفي الحقيقة ان التمايشي كان في وجل شديد من القوة التي كانت مع محمد
خالد زقل ويحسب لها حساباً ولذلك عاد الى استجلاب مودة الخليفة شريف
وأبقى جميع أقارب المهدي الذين كانوا منتشرين في البلاد لجباية الخراج في
مناصبهم ريثما ينظر في أمر محمد خالد زقل وكانت هذه الحادثة في أوائل سنة ١٣٠٣

ذكر القبض علي امراء سنار وفرار الشيخ مضوي
لما كان الامراء الذين اسقطوا سنار من أتباع الخليفة شريف لم يجسر
التمايشي علي مطالبتهم بما غلوه من غنائم سنار مع انهم لم يؤدوا الي بيت
المال العشر منها

ولما استولى التعاشي على ما عند الخليفة شريف من الاسلحة والذخيرة
اصبح قادراً على مناقشة اولئك الامراء الحساب على ما افتالوه من القناطير
المقنطرة من الذهب والفضة فاستدعى اليه اعيان سنار الدين أخذت منهم
الاموال وأخذ يبين لهم الكلام ويمدحهم بنيلهم نصيباً مما أخذ منهم اذ هم
أوضحوا له كمية المال واسم من استولى عليه من الامراء فأوضحوا له كل
ذلك فأمر بالقاء القبض على محمد عبد الكريم القائد العام لانه علم من كلامهم
انه استولى على نحو خمسة قناطير من الذهب واستولى بقية الامراء على
مقادير عظيمة من التبر

وقد علم التعاشي أيضاً ان الشيخ مضوى احد الامراء عذب مصرى
اسمه على مرزوق كان ناظر الشونة وأخذ منه خمسين رطلا من التبر المسبوك
فأمر بالقاء القبض عليه فلم يجدوه بام درمان اذ كان متغيياً في قريته (الميلفون)
فأمر باشخاص مائة راكب يقصدون تلك القرية التي تبعد عن أم درمان مسيرة
مرحلة واحدة للقبض عليه فاسرع احد اقاربه بمغادرة أم درمان وأبلغه الخبر
فركب راحلته قاصداً حدود الحبشة وزور خاتم التعاشي على مكثوب أمر
فيه الامراء بتقديم ما يلزم الى الشيخ مضوى وانه ذاهب بمهمة الى بلاد الحبشة
فتناول بهذا المكثوب نحو ثلاثة آلاف ريال وبلغ حدود الحبشة آمننا ولم
يصبه سوء ولحق بالشيخ عجيب الجمرائى في جهة (غبته)

ولنعد الى ذكر الامراء الذين قبض عليهم التعاشي فنقول انه أبقاهم في
السجن بضعة شهور لم يظهر في خلالها بشىء مما افتالوه واصروا على الانكار
فأمر بمصادرة ما ظهر من أملاكهم مثل الجوارى والعبيد والادواب والامتعة
البيتية ثم أمر بالافراج عنهم وألحق البعض منهم بثمان دقته والبعض بعبد

الرحمن النجوى في دنقلة وانقضى الامر على ذلك

ذكر عصيان الجهادية بالايض وقتل امير كردفان
لما غادر المهدي الايض الى (الرهدي) ومنها الى أم درمان استخلفت على
اقليم كردفان عمه محمود عبد القادر وقد ذكرنا انه استخلفه في جبال (قدير) لما
بارحها الى كردفان فكأنه تفاعل باستخلافه وظل محمود عبد القادر قابضاً على
زمام اقليم كردفان حتى توفي المهدي فاستدعاه التماشي لحضور الاجتماع
العام في عيد الاضحى الذي كان عقب وفاة المهدي ثم أعاده الى عمله في الايض
وكان محمود عبد القادر هذا ابن عم والد المهدي ومن أصحابه التسدماه
الذين شاركوه في تأسيس دعوي المهدي وكان متظاهراً بالزهد والقناعة وكان
المهدي يكرمه ويحمله

وكان في حامية الايض التي تحت قيادته الف وخمسمائة جهادي منهم
نحو تسعمائة من جنود الحكومة الذين أسروا في واقعة يوسف باشا الشلالى
وسقوط الايض والباقي من عبيد الاهالي الذين صادرهم منهم محمود عبد
القادر وهؤلاء الجهادية يقودهم صف ضابط منهم اسمه (الجاك) فعهد اليهم
محمود عبد القادر حراسة الجبه خانات ورعى الماشية وجعل البعض حراساً له
واقواده وكان مع ذلك لا يعطيهم رواتب تقوم بضرورياتهم فاستأوا من
هذه المالملة واضمروا الخروج عليه فتمنى اليه الخبر فارسى يدعو قائدهم الجاك
للحضور الى المسجد لتلقى أوامر جديدة فاعتذر عن الحضور وأرسل اليه
بعض أعوانه فقبض عليهم محمود عبد القادر وضرب أعناقهم فاستشاط الجاك
غيظاً ونفخ أبواقه وهجم برجاله على الجبه خانه فدانه محمود عبد القادر بنحو

أربعة آلاف من فرسان الدراويش الذين انهزموا امام نيران الجالك وتركوا له الجبله خانه فاستولي عاها ودخل منازل الدراويش واتهب ما فيها من المال والملاع وغادر الابيض الي جبال النوبة وأعلن دخوله في طاعة الحكومة المصرية وسمي نفسه (الجاك باشا) ومنح الرتب لمن معه من القواد وأخذ يجبي الضرائب من سكان الجبال وأوصى قواده بعدم التعدي على حقوق الاهلين وازلا يأخذوا منهم الا الضريبة المتروضة فساروا سيرة حسنة امتدحهم بها سكان الجبال فارس خلفهم محمود عبد القادر ثلاثة آلاف من رجاله مسلحين بالاسلحة النارية تحت قيادة الهاشمي أحمد الجبلي فهزمهم الجالك باشا شر هزيمة وقتل قائدهم وذبح عددا كبيرا منهم ثم سار اليه محمود بيد القادر في أربعة آلاف مقاتل فالتقى الجمعان وثبت الجالك ورجاله ثبات الابطال وقتل محمود عبد القادر وقتل اكثر رجاله وولي الباقون الادبار وهم لا يصدقون بالنجاة

ولما اتصل بالعايشي خبر قتل محمود خاف عاقبة امر الجالك ولكنه سر من جهة أخرى بقتله لانه قريب المهدي وعضد من قوة الخليفة شريف فاسرع بانتداب على الهاشمي العمرابي في مائتي رجل وسير خلفه قريبه عثمان آدم المشهور (بجاو) وأمرها بالبقاء في الابيض وان لا يتعرضا لحرب الجالك وكتب الي حمدان ابي عنجة يأمره بالهجوم على الجالك بجميع قواته فهجم عليه باكثر من عشرين الف مقاتل واصلا حربا أظهر فيها الجالك ورجاله اعظم بساله حتي قتلوا عن بكره ايهم

ذكر اعمال ابي عنجة في الجبال

لما هزم ابو عنجة الجالك عاد الي غزواته في الجبال حتي اقترب من جبال

تقلى التي ذكرنا شأنها مع المهدي وقتله ملكها لما جاءه زائر آبي الابطىض فهجم على من فيها وقتل رجالها وساق النساء والصبيان سبياً وباعهم ارقاء مع انهم اعراب مسلمون كما تقدم لنا الكلام عنهم

ثم غزا أبو عنجة قبيلة الحوازمة التي تسكن بين دارفور وانهب مالها وماشيها وقتل زعيمها (نواى) الذي كان لحق بالمهدي في جبال (قدير) وكان المهدي وعده باعفائه من مرافقته الى الخرطوم فاخلف وعده وساقه اليها فقر نواى ولحق بقومه في كردفان فقتله أبو عنجة انتقاماً منه وانهب أموال قبيلته

ذكر اشخاص محمد خالد زقل من دارفور وسجنه

أوردنا في الجزء الاول ما صار اليه شأن محمد خالد زقل واستيلاءه على دارفور وقد صار فيها كلك مستقل حيث جمع حوله جيشا كثيفا يربو على مائتى الف مقاتل

وكان التمايشي متخوفا منه كما تقدم ولما استولى التمايشي على أسلحة الخليفة شريف وذخيرته وراياته كتب أحمد سليمان أمين بيت المال كتابا الى محمد زقل اخبره فيه بكل ما كان عقب موت المهدي من الحوادث كما اخبره بوقوع الخليفة شريف في الفخ الذي نسيبه له الخليفة عبد الله التمايشي حتى اسلمه ما بيده من الذخيرة والاسلحة والرايات وقال له في الحتام انقطع الامل الامنك وحذره من الوقوع في فخ مثل الذي وقع فيه الخليفة شريف

ركان التمايشي قد شدد في مراقبة اقارب المهدي حتى لا اتصل منهم كتب الى محمد خالد زقل فوق كتاب احمد سليمان أمين بيت المال في قبضة

التمايشي فأسرع بإصدار أمر الى محمد خالد زقل بمناذرة دارفور بمن معه من الجيش فامتثل الأمر وغادر دارفور حتى اذا بلغ كردفان اعترضه أبو عنجة ودفع اليه أمرا من التمايشي بتسليم كل الجيش الى ابني عنجة المذكور فاطاع محمد خالد ولم يبد أقل اعتراض

ولما تمكن أبو عنجة من الاستيلاء على جيش محمد خالد زقل شرع في تجريدته من أمواله الخصوصية ولم يترك له قوت يومه ثم كبله بالحديد وأرسله الى أم درمان يرسف في القيود والاغلال ولدى وصوله اليها زجه التمايشي في السجن فبقي فيه بضعة شهور ثم أطلق سراحه

وبلغ مجموع الخيول التي استولي عليها حمدان أبو عنجة من محمد خالد زقل ما ينيف على عشرة آلاف جواد وعدد الاسري كان يربو على خمسة عشر الف جهادي مسلحين بالاسلحة النارية وظفر أبو عنجة بكل أموال زقل وكانت عظيمة جدا وأرسلها الى التمايشي

ولما اتصل بالتمايشي نبأ القبض على زقل جمع بطانته وأخبرهم بذلك وقال لهم قد ذهبت كل مخاوفي وصرت آمنا مطمئنا على مركزي وأنا أطلب منكم منذ اليوم ان تساعدوني على القيام بامور هذه المملكة المترامية الاطراف حيث لم يبق لي معارض في جميع انحاءها ومن ثم بدأ بتواليه الاعراب على البلاد واستئصال شأفة الذين واهم المهدي من أقاربه ومواطنيه

ذكر القبض على احمد سليمان امين بيت المال وعزله
 احمد سليمان امين بيت المال محسى الاصل من أهالي بلدة اسمها (رفاعة)
 على ضفة النيل الأزرق الشرقية اجتمع على المهدي في جزيرة (آبا) فاجبه

واكرمه واطلمه على كنهه اسراره وكان أحما سليمان يتفانى في محبة المهدي
 وخدمته وقد ذكرنا انه كان متوليا لتقديم الأطعمة له وكان يقود خطام دابة
 المهدي حافيا وفي جبال (تدير) ولاء المهدي أمانة بيت المال مفوضاً له فيه
 العمل بلا أدنى مراقبة أو مسؤولية يعطى من شاء ويمنع من شاء
 وكان أحمد سليمان يحتمر عبد الله التمايشي ويبغضه ولا ينفذ له ارادة
 مع ما كان فيه التمايشي من سمو المنزلة عند المهدي لان أحمد سليمان كان يرى
 نفسه عند المهدي في منزلة اسمي وأرفع من منزلة عبد الله التمايشي مهما بلغ هذا
 من القرب منه

وفي إبان اقامة المهدي بكرد فان وقع خلاف بين التمايشي وبين أحمد سليمان
 فامر التمايشي بسجن أحمد سليمان فسجن واتصل الخبر بالمهدي فكاد يفقد
 صوابه لشدة مالحقه من الغضب فارسل الي السجن وأطلق أحمد سليمان
 وعنف التمايشي على اقدامه على مثل هذا الامر حتى ظن بعضهم انه سيعزله
 من الخلافة ويقصيه من بين يديه

وقد تغالى المهدي في الثناء علي أحمد سليمان حتى قال انه رأى مكتوبا على
 ساق عرش الرحمن جل شأنه ان أحمد سليمان أمين المهدي عليه السلام
 وقد قلنا انه كان يكرم ذوى قرابة المهدي ويخصهم بالنصيب الا وفر من
 المال ولا يعطى التمايشي اكثر من مائة ريال في كل شهر. أما أقارب التمايشي
 فلا نصيب لهم ألبتة حتى ان يعقوب أخا التمايشي ووكيل رايته كان يتردد
 على باب أحمد سليمان شهرين أو ثلاثة فلا يمنحه بعدها اكثر من خمسة ريالات
 وقد رأيت سراراً واقفاً على باب أحمد سليمان موقف اذلاء السؤال فلا
 يؤذن له بالدخول الي حضرته

وجملة القول ان من ينظر بعين الامعان يتحقق ان أحمد سليمان كان أقرب مقرب للمهدي وأصدق صدق له وأعظم مستشار أمين عنده حتى ان أولاد المهدي ونسائه لا يجسر أحدهم ان يقول أمامه كلمة تمس أحمد سليمان

ويظهر جليا من هذا ان أحمد سليمان كان لا يأتي أبداً أمراً يوجب انحراف المهدي عنه ولهذا أرجح صدق ما سمعته من الواقفين على كنه سيرة المهدي من ان أحمد سليمان كان لا يضع خيطا في إبرة بنير ان يكون المهدي الأمر له بوضعه وهو كثير الاختلاء به وكان لا يحجب عنه حتى لو كان المهدي مختليا بأحد نساءه وغرفته مغلقة وطرقها أحمد سليمان أجابه من الداخل وأذنه بالولوج عليه وهذا منتهى القربى ونهاية الزلفى

ولما توفي المهدي كان التعايشى ينتظر من أحمد سليمان ان يتقرب منه ويخدمه بمثل ما كان يخدم به المهدي ويقود دابته حافيا كما كان يقود دابة المهدي فلم يفعل بل غاية الأمر انه زاد في احترامه للتعايشى رعاية لمنصبه وزاد في مرتبته وخص ذوي قرابته بنصيب أقل من القليل من بيت المال وعكف على البذل والانفاق على أقارب المهدي وزاد أعطية نسائه وأولاده وأمهاتهم

وكان أحمد سليمان يتوقع شرا يصيبه من التعايشى على أثر إفضاء الخلافة اليه وقد ذكرنا كتابه الى محمد خالد زقل وبمسد ان سجين أبو عنجة زقل انتدب التعايشى من بطائه أناسا ضبطوا بيت المال وكانوا أحمد سليمان بتأدية الحساب عن الدخل والخرج منسدا ولي علي بيت المال فسخر من هذا الاقتراح واحتج بأن المهدي لم يأمره بضبط الحساب في دفاتر ولذلك لا يمكنه

أداء مثل هذا الحجاب فاصدر أمرا بعزله وزجه في السجن فبقي فيه أكثر من سنة ثم أطلقه وعهد بإئنة بيت المال بعده الى رجل من أهالي جزيرة الحرطوم كان تاجراً في الأبيض اسمه ابراهيم بن عدلان وسنعود الى ذكر بنية أعماله وما كان بعد ذلك من صلته

الاشاعة بعودة الانكليز الى دنقلا

لما أخذت الحملة الانكليزية دنقلا احتلها محمد الخير أمير بربر في أوائل سنة ١٣٠٣ وصرح مقاتلته الى جهة الشمال حتى بلغوا جنوب حلفا التي كانت يومئذ مقر الحملة الانكليزية التي تقدمت منها بمض طواير وحاربت جنود محمد الخير وانصرت عليهم فاستنتج محمد الخير من تقدم الانكليز الى جنوب حلفا أنهم يقصدون التقدم الى دنقلا لاختضاع السودان كله حيث سمعوا بمهلك المهدي فاسرع بابلاغ الخبر الى عبد الله التعايشي فانقض هذا الخبر عليه انقضاء الصاعقة وارتاع روعاً أفقده الصواب لان تقدم الانكليز يقضي على آماله التي شرع في تأسيسها وهي استبداده بالملك وانفراده بالسلطان اذ يصير ارضاء الخليفة ومنحه بعض السلاطة واجبين لتوحيد الكلمة فجمع أهل شورا وكتب الى محمد الخير يأمره بالتقهقر أمام الانكليز وتركهم حتى يبلغوا أم درمان وفي اليوم التالي أعلن خبر تقدم الانكليز وأمر المقاتلة ان يعسكروا شمال أم درمان فخرجت معهم وفي أصيل النهار لحق بنا التعايشي والخليفةتان على حلو ومحمد شريف

ولما مالت الشمس للغروب توضحاً لنا من النهر وصلي بنا التعايشي صلاة المغرب على ضفة النهر ووجوهنا متجهة الى النهر وبعد أداء الصلاة برز القمر

وقرصه مستدير ولونه أحمر كهيئته في مثل ليلته عند بروزه اذ كانت ليلة السادس عشر من شهر ربيع الآخرة سنة ١٣٠٣ فوقف واحد من الدراويش بجانب التمايشي وهو جالس ورفع صوته قائلاً (السلام عليكم يا أصحاب المهدي عليه السلام) فردوا التحية فقال حولوا نظركم الى جهة الشرق وانظروا الى القمر كيف برزولونه أحمر فان هـل رأيتموه بهذا اللون قط فاجابه الخليفة على حلوقائلاً لا . لا . لم ننظره أبداً بهذا اللون فقال اننى سمعت المهدي عليه السلام يقول ونحن في قدير « اذا فتحنا الخراطوم فان الله يجعل لاصحابي آية يعرفون بها النصر المبين الذي يصاحبهم الى الابد فقلنا ياسيدنا المهدي وما هي تلك الآية فقال هي خروج القمر في لون أحمر » فوقف التمايشي وقال للرجل صدقت يا صاحب المهدي فما أنا ذا أقرأ كتابة على صفحة القمر وهي « هذا نصر المهدي وأصحابه الى الابد » فضج الناس بالتهليل والتكبير حتى خلت السماء قد انطبقت على الارض ثم بعد اداء صلاة العشاء عدنا الى أم درمان وقضيت ليالى متعباً من جهالة دراويش المهدي الذين يعلمون ان التمايشي لا يقرأ ما يكتب على القرطاس فكيف يصدقون انه يقرأ ما يكتب على صفحة القمر وأخيراً كذبت الاشاعة وعاد الانكليز الى حلفنا اذ هم في الحقيقة لم يقصدوا التقدم الى دنقلة بل كانوا يقصدون طرده الدراويش من جنوب حلفنا فغازوا عليهم وأبعدوهم عن جنوبها

أما تلك الوقائع فان تفاهيلها لم تصل اليها من مصادر شرقى روايتها وغاية الامر ان التمايشي لما علم بعدم صحة النبأ ذهب مخافوه ولم ينشر شيئاً من تلك الوقائع التي عدّها تافهة لا تستحق الذكر

ذكر انفاذ عبد الرحمن النجومي الي دنقلة

في أوائل سنة ١٣٠٣ انفذ التعايشي عبد الرحمن النجومي الي بربر ومنها الي دنقلة ومعه جميع المقاتلة التابعين لراية الخليفة شريف فوصل الي دنقلة في أواخر السنة وأخذ مدينة (المرضى) قاعدة إقليم دنقلة مع كذا المسكره العام ووصلت طلائع جيشه الي جنوب حلفا وسنعود الي دنقلة خباره الي قتله في واقعة (طوشكي) والله الموفق

Publication of the Alexandria Library

انتقاض دارفور علي التعايشي واخضاعها

لما غادر محمد خالد زقل دارفور هب رجل اسمه يوسف من ذراري سلاطين دارفور واستخلص البلاد من ايدي الدراويش الذين تركهم بها زقل ونودي به سلطانا علي إقليم دارفور كما كان اسلافه فكتب التعايشي الي عثمان آدم جانو يأمره بمحشد أهالي كردفان والتقدم بهم الي دارفور لاخضاعها فحشد جيشاً ربوع علي الحسين الف مقاتل منهم نحو عشرة آلاف كانوا مسلحين بالاسلحة النارية وهاجمهم علي (الفاشر) عاصمة دارفور فقاومه السلطان يوسف في جمع كئيف ودافعوا دفاع الابطال وانجبت الحرب عن هزيمة أهل دارفور وقتل السلطان يوسف ودانت البلاد بطاعة المهديوية فاستولي عليها عثمان آدم وأخذ يوالي الغارة علي الجبال التي حول دارفور فاجتمع لديه من الارقاء زهاء عشرين الف مقاتل مسلحهم بالاسلحة النارية وأرسل عثمان آدم بما غنمه من دارفور الي التعايشي علي مألوف العادة وأرسل اكثر من ثلاثمائة فتاة من فتيات دارفور سبايا الي التعايشي الذي سر

من عمله وكتب اليه بالولاية على إعلیم دارفور وكردفان وجعل قائداً جبهتها
وسياتي ذكر بقية أعماله وحروبه مع أبي حمزة مدعي المهديوة

ذكر محاق قبيلة الشكرية بالحبشة وقتل زعمائها

في أوائل سنة ١٣٠٤ كتب التمايشي الي قبيلة الشكرية يدعوها الي
الشخص الي أم درمان بماشيتها وكانت وقتئذ نازلة في باديتها بصحراء (ريره)
بين نهري (اتبره) والنيل الارزق فايقنت ان دعوتها الي أم درمان لم تكن
لغير نهب ماشيتها ومادرتها فعملت على الالتجاء الي بلاد الاحباش وكان
زعيمها عوض الكريم بن أبي سن الذي ذكرنا أخباره مع المأسوف عليه
غردون وقدوة على المهدي تائباً نادماً متهما يومئذ في أم درمان

وبعد أيام قلائل من دعوة التمايشي لقبيلة الشكرية جاءته الاخبار
بمغادرتها ديارها ولحاقها ببلاد الاحباش فاحتدم غيظاً وأمر بالقضاء على
عوض الكريم بن أبي سن وسائر أفراد أسرته الذين هم من قبيلة الشكرية فقبض
على نحو مائتي رجل من خيارهم واكلوا بالحديد وزجوا في السجن حتى
أمر التمايشي بقتلهم صبراً فقتلوا جميعاً ولم ينج منهم أحد

أما الذين هاجروا الي الحبشة فلم يكونوا أسعد حالاً من الذين قضى
عليهم في السجن لان رداءة هواء بلاد الحبشة استأصلت إيلهم التي كانت
تعد بمثابة الالوف وأبادت نفوسهم التي يقرب عددها من ثلاثمائة الف
نسمة. وبالجملة فان تلك القبيلة التي كانت من اكبر قبائل السودان واكثرها
ماشية وأشدها بطشا وقوة هلكت عن بكرة أبيها وذهبت ماشيتها ولم يبق
منها غير بضعة آلاف نسمة متفرقين في البلاد وهم في نهاية الفقر المدقع

فسبحان من يغير ولا يتغير

ذكر قبيلة الضباينة والقبض على زعيمها في الجهات الجنوبية في نهر (اتره) قبيلة تسمى الضباينة يربو عدد نفوسها على أربع مائة ألف نسمة ولها من الماشية من نوع الابل والبقر ما يربو على ماشية قبيلة الشكرية وهي رحالة وزعيمها محمود عيسى زائد الشامي وهو من أسرة تولت زعامة تلك القبيلة منذ قرون وتؤكد هذه الأسرة ان جدها شامي قدم السودان من الديار الشامية منذ قرون أيضا وكان محمد زائد هذا ذا ثروة واسعة وله من الموالى والارقاء ما لا يدخل تحت حصر حتى انك ترى قري مملوءة بارقائه وكان كريما جودا يقري الضيوف ويمطى المال بالآلاف الريالات وكانت له قصعة من الخشب يحماها خمسون رجلا . وقد أخبرني واحد من الذين حضروا مصادرة أمواله انهم أحصوا النوق الموسومة بالنار على نخذها الايمن اشارة الى انها معدة لركوبه خاصة لا يسوغ لاحد من مواليه أو أسرته ركوبها اجلالا لمقامه فكانت نحو أربعة آلاف راس من الكرم أنواع النوق والهجن

وكان محمود عيسى زائد يبغيض المهدوية ويبطن ولاء الحكومة وان كان يمالئ المهدوية ويتظاهر بطاعتها حتى ان عثمان دقنة كان يكتب له قبل سقوط كسلة محرصا على وجوب شن الغارة على حامية (الجيرة) قبل سحبها لانها قريبة من قرية (انتومات) محل اقامته فلا يفعل وبعد أن سقطت كسلة أرسل عثمان دقنة نحو أربعة آلاف مقاتل تحت قيادة عوض الكريم كافوت الجعلي فقبضوا على محمود عيسى زائد على غرة وصادروا أمواله وحملوها

الى الخليفة التمايشي ومن جهاتها (القصة) التي جعلها التمايشي اناء يتسدم فيه شياً من تافه الطعام الى المدعوين في أيام المراسم والاعياد ولكن محمود زائد كان يقرى ضيوفه بملئها صباحا ومساء طعاما نفيسا هو خليط من قح ولحم وابن وسكر أو عسل مصفي وسويق. محمود زائد الى التمايشي يرسف في القيود والاغلال فطرحه في السجن وفي سنة ١٣٠٧ اسأصل الزاكي طمل قبيلة الضباينة وأطابق الخليفة محمود زائد ذات غمابهـدان أصابه من عذاب السجر وتمدان القوة ما برح به خمس سنوات متواليات

ذكر انتفاض قبيلة جهينة

ذكرنا بعض اخلاق وعادات قبيلة جهينة التي تسكن جنوب سنار وقلنا ان زعيمها المهدي اباروف شخص الى المهدي في جبل (قدير) وعاد من عنده داعياً له في قومه الذين جمعهم وظل يحارب بهم مدينة سنار حتي سقطت ثم عاد الى بلاده فيما وراء سنار

وفي أوائل سنة ١٣٠٣ أرسل التمايشي جايا بقاريا اسمه أبو ام فضالي لجباية الخراج من قبيلة جهينة وسائر البلاد الواقعة جنوب سنار فحملهم من أنواع المظالم وضروب الحيف ما عجزوا عن تحمله فرفعوا شكواهم الى التمايشي الذي عنفهم واتهمهم بالمروق من الدين لأنهم شكوا اليه أصحاب المهدي فهبت قبيلة جهينة وزعيمها وأخرجت ابا أم فضالي قسرا من بين ظهرانيها واعلنت خروجها على التمايشي الذي لما اتصل به هذا النبا أسرع بانفاذ نحو خمسة آلاف مقاتل جلبهم مسلح بالاسلحة النارية فطاردوا قبيلة جهينة وقتلوا زعيمها المهدي اباروف واسرته وأصدر التمايشي أمراً بمصادرة أموال هذه

القبيلة وانفذ الامراء الى الجهات التي بها مساكنهم فكنت ترى الابل والبقر قد ضاقت بها الارض على وسعها ونزلت اثمان الذرق حتي صار ثمن الواحدة خمسة قروش مصرية وزاد الطين بلة، مصادرة ماشية قبيلة الكبايش في نفس الوقت الذي صودرت فيه اموال جهينة وماشية الكبايش تربو على ماشية جهينة كما سنوضحه فيما سيأتي
والحاصل ان قبيلة جهينة بادت كلها وذهبت ماشيتها ولم يبق منها ولاؤها
للمهدي وقيامها ضد الحكومة

ذكر حرب قبيلة الكبايش

ذكرنا قتل ابن زعيم قبيلة الكبايش في الابيض لما كان المهدي نازلاً بها وعلى أثر قتله جاهرت قبيلة الكبايش بالمصيان على المهدي وابتعدت من المناهل والمراعي القريبة من كردفان وتوغلت في الصحراء التي بين كردفان ودنقلة

ولما استولت المهديوية على الخرطوم وانسحب الانكيز من دنقلة كتب التعايشي الى الشيخ صالح زعيم الكبايش يدعوهم الي الطاعة ويمده تارة ويتوعده أخرى فلم يلتفت الي وعده ولم يرهب من وعيده بل توغل في الصحراء حتي صار على مقربة من الواحات الجنوبية فانتدب التعايشي محمد نوباوي شيخ قبيلة بني جرار التي هي بطن من بطون قبيلة الكبايش وهو الذي دخل على الطيب الاثر الجنرال غردون وقتله

وانتدب التعايشي معه عدداً كبيراً من الفرسان فساروا من أم درمان مخترقين الصحراء حتي بلغوا منهل (أم يادر) وكان الشيخ صالح نازلاً به

ومعه نحو مائتي رجل من أسرته ومواليه وبقية القبيلة متفرقة في المراعي
 والمناهل فاحاط محمد نوباوي بخيام الشيخ صالح في الغلس فانقبسه من في
 الخيام مذعورين وركب الشيخ صالح فرسه وكذلك بقية من معه وأخذوا
 يطلقون الرصاص على الدراويش حتى نفذت ذخيرتهم فاستلوا سيوفهم ووجهوا
 على صفوف الدراويش فاخترقوها وزحزحهم عن مواقعهم وأصيب الشيخ
 صالح برصاصة في ذراعه نخر صريعا عن جواده فتقدم اليه محمد نوباوي ليشد
 وثاقه فابتدره بالشم ولعن المهدي وخليفته وقال له أمثلي يساق أسيرا فامتنع
 محمد نوباوي عن قتله احتراما لما بينهما من صلوات النسب فتقدم أحد
 الدراويش وقتله وحز رأسه ورؤس اخويه ورجال أسرته الذين سقطوا
 قتلى بعد اصابته وحملة الرؤس الى التمايشى فسر بها وخرسا جدا على ما أوتيه
 من النصر وانتدب الزاكي عثمان ومعه كتابة وجنود ووجههم الى محل الواقعة
 كي يجمعوا الغنائم وبلغني من أولئك الكتابة ان عدد الرؤس من الابل كان
 يربو على مليون ويقرب عدد البقر من الخمسمائة الف رأس أما الماشية
 الصغيرة فانهم لم يعتنوا بتعدادها لكثرتها وأرسلت هاته الماشية وبيعت مع
 غنائم جهينة في أم درمان وقد ذكرنا أن ثمن الناقة انخفض الى خمسة قروش مصرية
 وجي بالجماعات من النساء سبايا وبالقطاير المقنطرة من الذهب والفضة

وكانت قبيلة الكبابيش هذه أعظم قبائل السودان وأكثرهن ماشية وثروة
 وزعيمها أغني زعماء القبائل في السودان وكان قد وفده منذ خمسة وعشرين عاما على
 المنفور له الخديو اسماعيل باشا وقدم له هدايا وتحفا فآكرم وفادته وأعادته الى بلاده
 بالمر والاكرا من أعجب ما شاهدته ان اكبر بنات الشيخ صالح هذا كانت تحمل
 على رأسها في أم درمان اناء تبيع فيه الماء لتحصيل قوتها وقد كانت هذه المرأة

وسائر نساء أسرتها يلبسن نعلا من خالص السبر وإذا خرجت احدها من دار الى أخرى مشى حولها مائة من الجوارى وعلى كل واحدة من الخلى مالا يقل عن مائة أوقية من التبغ يظلمن على مولاهن بالاردية الحربية وقد شامت اكثر هاته المقيلات متسولات في الاسواق فسهان المزم المذل

وفي ذات يوم كنت جالسا بالقرب من مقصورة التاشي فقال له أحد جلسائه ان بنت صالح زعيم الكبايش تبيع الماء اتوت يومها فظهر الأسف وقال من الواجب علينا اكرامها وأرسل في طلبها فجاءت نسائها عن حالها فاجابته واكثرت من الثناء والاطراء عليه فامر أحد غلمانه باعطائها شيئا من النقود ضمته في كفتها وخرج بالناس وراءها ليأمنوا متصدرا جائرتها فاذا هي بسبعة ريالات من صملة النحاس تقدر قيمتها بسبعة قروش مصرية فقالت المرأة انظروا الجائزة الخليفة ومبلغ اكرامه لثلي هذا وجمل القول ان قبيلة الكبايش بادت ولحمت بغيرها من القبائل والدوام لله وحده

ذكر القبض علي شارل نيوفيلد

شارل نيوفيلد ألماني استوطن اصوان مزاول مهنة الاتجار بتقديم لوازم الجيش في الحدود فاحرز من هذه الحرفة ثروة واقتنى عقارا وزاد في ثروته انه منذ بداية أمره كان يحسن معايشة الوطنيين ويتشبه بهم في الاخلاق والعادات حتى كأنه واحد منهم ولم يظهر على ملامحه انه متكلف لهذا التشبه حتى نال حظوة عظيمة عند جميع السكان زادت في نجاحه وفتحت في وجهه

أبواب الكسب وساعده على احراز الثروة

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ أنفذ الشيخ صالح زعيم قبيلة الكبايش الذي تقدم لنا خبر قتله وفدأ إلى الحكومة الحديوية يسألها امداده بالاسلحة والذخيرة ليقوى على دفع غارة المهديين عن نفسه فاعطت الحكومة رجال الوفد مائتي بندقية من طرز رامنجتون بذخيرتها وأخذوا في الالهبة والاستعداد لاختراق صحراء الجعب من حلفا إلى منارل قبيلتهم وفي إبان ذلك اجتمع شارل نيوفيلد بتاجر من أهل كردفان اسمه خوجال أم برير فقال له التاجر ان لدي كمية وافرة من الصمغ والماج وريش النعام فاتفقا على ان يذهب نيوفيلد صحبة وفد الكبايش وبواسطة نفوذ زعيمهم يخترق بقية الصحراء إلى الأبيض ومن هناك يحمل الصمغ والماج وريش النعام بنير ان يشمر به أحد من دروايش المهديوية وقد جعل له خوجال نصيبا وافرا من تلك السلع نظير مخاطرته التي يتعدر منها نجاحه ووصوله إلى مقصده

وقد عرض نيوفيلد أمره على ولاية الامور في الحدود فلم يمانوه فنادر حلفا صحبة الوفد ومعه محظية حبشية وكان دليل الوفد ميالا لجهة المهديين فابلق عبد الرحمن النجومي الذي كان وقتئذ في دنقلة وأطامه على خطة سيره وارشده إلى المكان الذي يقابلهم فيه المبعوثون من عنده ففسار شارل نيوفيلد مع الوفد وهو لا يعلم شيئا من القدر المخبوء له ففسار بهم الدليل في بادية معطشة حتى وفقدوا الماء مدة أربع وعشرين ساعة

وكان النجومي قد أنفذ وراءهم خمسمائة راكب تحت قيادة محمد بن محمد بن قريابي وبينما كانت التافلة سائرة والظما قد بلغ فآتته من رجالها والاييل يدهم بقرب الوصول إلى الماء اذ داهمهم العدو على غرة وتمكن من أقتلهم فأنحاز

الرجال الى ربوة عرسمة واطلقوا النيران دفاعا عن انفسهم فهلك من هلك
 وأخذ الباقيون اسري وصعدنيوفيلد على مكان آخر مفضلا الموت على الوقوع
 في اسر أولئك الطغاة المتوحشين فامسك العدو محظيته وجعلها بعضهم كترس
 يتقي به مقدوفات مولاها الذي شلت يمينه عند ما تحقق انه يقتل محظيته
 اذا أصر على عزه الاول فاسلم نفسه ووقع أسيراً في يد العدو الذي جرده
 من ملابسه ووضع الاغلال في عنقه وساقه ماشياً على قدميه حتى لمغ ذقنة
 بعد مسيرة عدة ايام فامر عبد الرحمن النجومي بصلب أسرى الكبايش وارسال
 شارل يوفيلد الى الطاغية التمايشي بام درمان

ولما أوقف بين يدي التمايشي صاح قائلاً هذه صفة الكافراتي وصفها
 لنا المهدي ثم عرض عليه اعتناق الاسلام فابى فامر بصلبه فسبق الى
 محل (المشنقة) ثم ارجعوه الى التمايشي وهكذا فعلوا ثلاث مرات وبعد ايام
 رضى باعتناق الاسلام دينا ونطق بالشهادتين واذ ذلك أمر التمايشي بزجه في
 السجن حتى اطلقه اللورد كيتشر باشا وسنعود الي ذكر بقية حوادثه والله الهادي

ذكر حروب الاحباش الي قتل النجاشي يوحنا

تقدم لنا ذكر اول واقعة جرت بين المهديين والاحباش التي انتصر فيها الرأس
 الولا على عثمان دقنة في كوفيت وقبل الكلام على هذه الحروب نذكر طرفاً يتعلق
 (بالقلابات) وما يتبهما من بلاد (القضارف) موطن تلك الحروب الهائلة فنتقول
 القلابات اسم لبلدة على شاطئ نهر (اتبره) جنوب القضارف وهي آخر
 حدود الحكومة الحديوية في بلاد الاحباش من جهة الجنوب بالنسبة لموقع
 بلاد القضارف

وكان سببها الاقدمون من دكرور السودان الغربي ولا نعلم كيف جاؤا
من بلادهم واخترقوا السودان من الغرب حتى وصلوا لآخر نقطة من
شرفه الجنوبي وكان اولئك السكان يؤمنون جزية لملكة الحبشة

ولما احتلت الحكومة الحديوية السودان جعلت القسلايات من أهم
المواقع التي حصنها لدفع غارة الاحباش عن بلادها وكان آخر زعيم من
اولئك لدكروريين صالح شنقه الذي نال من الحكومة الحديوية لقب بك
واستمر على دفع الجزية الاحباش كما كان اسلافه

أما القضارف فانها البلاد الواقعة شمال القسلايات يحيط بها نهر
(اتبره) من جهتي الجنوب والشرق وهي بلاد مخصصة جداً وتجارتها واسعة
وفيه من النباتات ما لا يوجد في السودان كله وثمن ما يحمله الجمل من
الذرة من نوع اسمه (الكركي) يخالف الذرة الرفيعة بمظم حبه وبياض لبه
الذي يستخرج منه مواد نشوية تشبه ما يستخرج من الارز بضعة قروش
مصرية وفي بلاد القضارف غلة تشبه الحلبة في اللون الا ان طعمها كالشهد في
الحلاوة اسمها (الششم) تغلي على النار بالماء فتتحول الى حلاوة الشهد
فيأكلونها ويشربون ماءها

وحاصلة هذه البلاد تدعى (ولد أبوسن) وهي مدينة كبيرة
فيها منازل مشيدة باللبن الاحمر والآجر وقصور شاذخة مشيدة بالاحجار
وأصحابها تجار مصريون وسوريون ويونان وبعض من الفرنسيين والارمن
وحول هذه المدينة حدائق غناء وفواكه لذيذة كالعنب والتين
والقشطة والموز والمان والبورتقال ومن أعجب ما علمته عن القضارف ان
النخل يثمر فيها مرتين في السنة وكذلك العنب الذي يثمر مرتين في السنة

مرة في الشتاء وأخري في الصيف موجود فيها وفي الخرطوم
 وفي القضارف مدن أخري غير عاصمتها يسكنها اترك ومصريون
 ويونان وأرمن وهي لا تقل عن عاصمتها وأشهرها (عصار) و (دوكه)
 وسكان القضارف قسمان سكان القري وسكان البوادي الذين جلهم من قبيلة
 (الضباينة) التي تقدم لنا ذكر زعيمها محمود عيسى زائد وكلتاهما متوفرة لديها
 أسباب المعيشة ومتحصلة على نعومة العيش من أسهل الطرق وأقربها
 وسيأتي ذكر خراب تلك البلاد وانها الآن قفر ليس فيها عشرة آلاف
 ساكن بعد ان كان تعداد سكانها يربو على مليون نسمة

وكان لعوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية الذي قتله التمايشي
 صبرا ابن اسمه عبد الله أمه من قبيلة الجعلين مال الي اخواله ورجب عن
 خطة والده وقومه الشكرية وعدولهم عن قبول دعوة المهدي وقدم على
 المهدي الذي ولاه الدعوة له في القضارف فقام بها وأدخل البلاد في دعوة المهدي
 وكان في منزل صالح شنقه زعيم دكروري القلابات رجل يعلم الصبية
 القرآن الشريف فلحق بالمهدي وعاد من عنده يحمل أوامره بالدعوة له في القلابات
 فانسحبت حامية القلابات الي بلاد الحبشة انفاذاً للمعاهدة التي أبرمت بين
 الاحباش والحكومة الخديوية فاحتل ذلك الداعية القلابات باسم المهدي ومنع
 اداء الجزية للاحباش الذين كانوا وقتئذ مشتغلين بدفع غارة الايطاليين عن
 بلادهم في الجهات التي تلي ساحل مصوع واسم هذا الداعية محمد بن ارباب وغادر
 صالح شنقه القلابات مع الحامية ولم يشأ البقاء فيها

هذا وقد كانت دعوة المهدي قد دخلت في بلاد الحبشة على يد رجل
 من أمراء الاحباش المسلمين اسمه محمد جبريل وقد على المهدي قبيل وفاته

بأيام قلائل فاعاده الى بلاده بمنشور دما الاحباش فيه الي اعتناق الاسلام
 وطرح النصرانية والاجتماع على طاعة محمد جبريل القتال الكفار وهما هي صورة
 المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم
 وبعد فن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى أهالي (قيرا وقوما
 وقما وحما ولموا والنارية بلد البن وليكاونونوا ولي بن وهروسي وقبا وكفاه
 وكونتا وكويشاوشتا وقونه ولا موا اباررو وكوا ونبسوا وسوروا) وفقهم الله
 لطاعته واتخفهم بمرضاته آمين بعد السلام عليكم اعدوا وفقكم الله لما يحبه
 ويرضاه وجعلكم من الفائزين ان الدنيا قد ولت مدبرة وان الآخرة قد
 تزينت مقبلة ومع ذلك فانما في الدنيا خيس جدا وما في الآخرة نفيس
 جدا وعلى العاقل ان يسمي لنفيس دائم ويعرض عن خيس فان كثيرا
 ما حل ببناء الدنيا من الدمار والحسرات وكثيرا ما اجتبي الله ابناء الآخرة
 ورفعهم اعلا الدرجات وأجزل لهم المسرات وأنواع الخيرات وان الله له الى
 قد أظهرني رحمة للمؤمنين وبنية للصالحين وسيفا قاطما للماجدين فمن أراد
 الله سعاده ونجاته من غزي الدنيا والآخرة لباني وأجاب دعوتي ونصرني
 وآواني ومن غلبت عليه شقوته أعرض ونأى وكذب وعصي فمن لباني فاز ونال
 من الخير العميم ما لا يعد ولا يحصى ومن أعرض فقد دمره الله وخذله خذلانا
 مبينا وحيث فهمم هذا البيان فاني على حسب المصلحة الدينية قد عينت لكم
 السلطان محمد جبريل عاملا عليكم في دين الله لاقامته ودعاية العباد الي
 سلوك سبيل الرشاد فينبغي بوصول هذا عندكم ان توازره وان تشدوا

عضده وتسمعوا أمره زهيه مادام على الحق والصدق وان تحاربوا معه كل من ضل واعرض عن الاتباع. وسلك طريق الزواية والابتداع. ولا تركنوا الى الراحة والبطالة فان الجهاد فضل عميم. وثواب جسيم. منوه عليه بسواطع أدلة القرآن العظيم. وأحاديث النبي الكريم. وكفى من ذلك قوله تعالى «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفاترون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم» الآية وقوله صلى الله عليه وسلم «رب غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» أو كما قال وحيث كان كذلك فاذا وصلكم جوابي هذا فشمروا في طاعة الله ورسوله وابدلوا أرواحكم في نصرة دين ربكم بحيث من كان منكم على دين النصرانية يرفضه ويدخل الاسلام ويبادر بالتسليم والانخراط في سلك المهديّة قال تعالى «ان الدين عند الله الاسلام» «وانيبوا الى ربكم وأسلوا به من قبل ان يأتيكم المذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم المذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين تري المذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين» فرد الله على من هذا حاله بقوله «بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ويوم القيامة تري الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» الآية فهذه الآيات وما مثلها مما يرغب في دين الاسلام والتسليم لامر المهديّة ويفر عما سواه وأما من كانوا منكم على دين الاسلام فتأييده وتشبيده هو غايه مقصودهم فليشمروا في نصرتنا ابتغاء مرضات الله ادام الله توفيقكم وجملكم من

عباده المؤمنين آمين وفي هذا كفاية لمن له قلب والسلام ١١ شعبان سنة ١٣٠٢
 وأنت أيها الامير محمد جبريل أوصيك بتقوي الله في شرك وعلايتك وإيثار
 آخرتك على دنياك وأن لا تقدم على أمر ما لم تعلم حكم الله فيه فان الامارة
 خطرها عظيم وخطبها جسيم ولا بد لصاحبها من الخلود في النعيم المقيم أو
 العذاب الاليم قال تعالى «فاما من ظني وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى
 وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى» ونظرا
 لذلك فان امارتنا لك معلقة على شرط اتباع الكتاب والسنة فان غيرت أو
 بدلت فلا امارة لك فافهم ذلك واسترشد به ولكمال المعلومية لزممت التحشية
 في تاريخه

هذا ولما دخلت دعوة المهديوية في بلاد الاحباش ادرك النجاشي يوحنا خشونة
 مركبه ومغبة أمره حيال هذه الدعوة التي هاله انتشارها فلم ير وسيلة لدفع
 شرها غير التدرع بالجهروت ومقاومة دعائها بضروب القوة والقهر بيد أنه
 تعالى في هذا السبيل حتى فقد الروية والنظر القصى للمواقب فانشب مخالب
 الانطهاد الديني في مسلمي رعيته وخالف تقاليد اسلافه حيث اكره نحو
 مائة الف من أهل القبلة على اعتناق النصرانية وعذبهم عذابا اليما

على ان حرية الاديان في بلاد الحبشة كانت لا تزال بالغة حد السكالم
 حتى ان شقيقة النجاشي يوحنا اعتنقت الاسلام وتزوجت باحد الامراء المسلمين
 فلم يمنعها أخوها ولم ينقصها شيأ من الاحترام الواجب لمثلها
 وقد قام كثير من أمراء الاحباش المسيحيين ومحضوا النجاشي النصيح بالمدول
 عن هذا الاكراه فلم يكثرث بنصيحهم وظل على رأيه الغائل وكان منياليك
 نجاشي الأبشة الحالي أول معترض على عمل النجاشي يوحنا

وعلى أثر ذلك نزع كثير من مسلمي الاحباش ولحقوا بالتمايشي فرلى
عليهم رجلا منهم اسمه (محمد فقرا) وعسكروا في الشمال الشرقي من
القلابات عند نهر (اتبره) بالقرب من جهة (العراديب) وسموا معسكرهم
(تبارك الله)

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ وفد على التمايشي محمد أرباب أمير القلابات
فأكرم وفادته وأعطاه أسلحة نارية وخيولا وأعادته الى القلابات وأوصاه
بالغارة على اطراف بلاد الاحباش فاغار عليها في تلك السنة وخرّب عدة
قرى وأحرق الكنائس واتفق ما فيها من التمايل وكذلك أغار محمد فقرا على
القرى التي هي حيال معسكر (تبارك الله) واتخذ في أهلها

وكان في جهة (غبته) اعرابي اسمه عجبل الحراني في السودان الشرقي
فر باكثر قبيلته من وجه المهدويين ولجأ الى بلاد الاحباش فامدوه بالاسلحة
ووكلوا به الدفاع عن حدودهم في جهة (غبته) فكان يوالي الغارة على القرى التي
على ضفة نهر (اتبره) وكانت غاراته لا يالحق المهدويين منها أقل ضرر بل كان
شرها واقعا على الضمضاء سكان تلك القرى الذين دخلوا في طاعة المهدويين قسراً
وفي أوائل سنة ١٣٠٤ تواترت الاخبار بتقدم الاحباش الى معسكر
القلابات و (تبارك الله)

وفي أوائل شهر ربيع الآخر سنة ١٣٠٤ هجم الراس عندار على محمد
أرباب في القلابات وقتله واكثر مقاتلته وفر الباقون الي (القضارف) وهجم
جيش حبشي على محمد فقرا في (تبارك الله) ففر بجميع مقاتلته عند ترائي
الجمعين ولحق بالقضارف أيضا وطارت الاخبار بذلك الى التمايشي في أم درمان
فانتدب يونس بن الديك في عشرين الف مقاتل فسار من أم درمان الي

القلابات فوصلها في شهر رجب وانسحب الاحباش منها بغير قتال
ولما استقر يونس بجيشه في القلابات بذل الامان لتجار الاحباش فجاؤا
اليها بسلمهم فوثب عليهم وصادر أموالهم وساقهم اسرى يرسفون في القيود
والاغلال الي أم درمان فاذاذاع التمايشي بين الناس ان يونس غزا بلاد الحبشة
وخرّب عدة مدن واستولي عليها وأن هو لاء اسري تلك الوقائع ولم تمض أيام
حتى ظهرت الحقيقة وعلم الكل ان أولئك الاسرى كانوا تجارا أمهم يونس ثم غدر
بهم ونهب أموالهم وساقهم اسرى الي التمايشي

أما يونس الدكيم هذا فانه تمايشي من قبيلة التمايشة وكان فقيراً لا يملك
شروي نقيير وهو أحد أزواج والدة التمايشي قدم على المهدي في الابيض
وبقى مع التمايشي يقاسى من شظف العيش أمره حتى توفي المهدي فجعله
التمايشي قائداً على نحو عشرين الف مقاتل وله نوادر مضحكة تدل على سخافة
عقله. منها ان الناس كانوا يأتونه فاذا وقفوا بين يديه صوبوا نظرهم الي الارض
فيقول لهم لماذا لا ترفعون ابصاركم نحوي فيقولون وهل يستطيع أحد النظر
الي وجهك الذي يفوق وجه السبع فيرتاح الي ذلك ويأمر بعزف الطبول
ويركب جواده ويأمر مقاتلته باطلاق النيران في الهواء. ومنها انه اذا جلس بين
اتباعه فلا كلام له غير الثناء على نفسه ومنها انه كان يقول اذا التقينا بجيوش الترك
نقتل في الدقيقة مشات منهم ونحترق صفوفهم ونزحزحهم عن موافقهم الي غير
ذلك من الاكاذيب فقد علم الخاص والعام ان يونس هذا من أجبن خلق الله وانه
يفر من مواطن القتال كما تفر النعامة من مفير الصافر

ومن أعجب خرافاته انه كثيراً ما كان يقول انه سيفتح لوندرة عاصمة
الانكايز وانه سيتزوج باكرم عقيلاتها

وصلى بالناس مرة صلاة الظهر ثماني ركعات فقال له أحد الحاضرين
اسجد للسهر فغضب وقال وهل أنا جاهل حتي يرشدني مثلك فان سجود
السهر لا يكون للزيادة بل للنقص لان العبد اذا امره مولاه بحراثة أربعة
أفدنة مثلاً من أرضه ثم رأى نفسه قادراً على حراثة ثمانية أفدنة فحرف
موجباً لرضى مولاه عنه بخلاف ما لو أمره بحراثة أربعة أفدنة فحرف
ثلاثة أو اثنين فان هذا النقص يكون موجباً لغضب مولاه عليه وحينئذ
يجب ان يقدم المذرة وهذان المثالان ينطبقان على الصلاة ثم أمر بالرجل
لجند بالسياط حتى مزق جسمه وسيق الى السجن وخزعات يونس كثيرة
يضيق المقام دون سرد التليل منها والحاصل انه كان جاهلاً سخيف العقل
ظلوماً غشوماً قاتله الله

وفي أوائل سنة ١٣٠٤ استقدم التعايشي حمدان أبا عنجة من الجبال
فقدم في جيش عمر صرم ومكث بام درمان بضعة شهور ثم انفسده التعايشي
الى القلابات لتعزير الحامية التي بها حتي تصبح قادرة على أخذ الثار من الاحباش
فسار أبو عنجة قاصداً القلابات وبينما كان سائراً في الطريق بلغه ظهور رجل
فيها ادعي انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه

ولما وصل أبو عنجة الى القلابات وعرض على يونس أوامر التعايشي
بتوليته القيادة العامة على الحامية أرسل يونس يبلغ التعايشي ذلك الخبر فامر ان
يسير حياض هذه المسألة بماضى عزيمته المعروفة مطيعاً لابي عنجة

أما ذلك المتنبئ فانه من أهل دكرور وله معرفة بصروب السيمياء
والشعوذة حتى انه كان يصنع امام الملأ اشياء من تلك الخزعبلات يخالها
الرائي حقيقة لا ريب فيها

وأصل ذلك المذكور من جيش يونس الحكيم غادر أم رمان معه
وكانت أمي طائفاً حدثته نفسه بأنه سيبلغ أربه من اتحال دعوي انه
عيسى روح الله لما اشبه من ان نزول المسيح عليه السلام يعقب
ظهور المهدي المنتظر فجهر بدعواه وصنع امام الناس خيالات من السيمياء
ظنها دراويش المهدي الاغبياء من أعظم المعجزات فأمنوا بذلك الكذاب
وبايعوه على الطاعة العمياء وبايعه سبعة عشر قائداً من اكبر قواد جيش
المهدوية الذين مع يونس ولم يداخلهم ادنى شك في صدق ما ادعاه
ومن العجب ان بين أولئك القواد ابن بقارى وهو فقيه من عائلة بقارى
التي لها مدرسة يؤمها طلاب العلم في جزيرة السودان

وعرض السبعة عشر قائداً أمر تلك النبوة على قائدهم العام يونس
فرافقهم الى محل الرجل ورأي من خزعبلاته مارج على عقله الذي هو اكثر
سخافة من عقول قواده السبعة عشر الا انه خاف عاقبة الاسترسال في هذا الامر
فارسل يبلغ التعايشي بتفصيل المسألة سرا

ولما وصل أبو عنجة الى القلابات ومعه اكثر من أربعين الف مقاتل
وكثير من المدافع والسواريح وبضعة آلاف فارس أحاط بالمعسكر احاطة السوار
بالمعصم واستدعي يونس ووضع يده على مخازن الذخيرة واستولي على الجبهه خانة
ثم قبض على المتنبى وسأله عن دعواه فقال انه جاء بمد المهدي وان الله أرسله
لشد عضد التعايشي فقال له ألسنت فلان بن فلان ولا تزال امرأتك
وبنوك بام درمان فاجاب بالسلب فامر بصلبه فصلب ثم قبض على السبعة
عشر قائداً الذين صدقوه وقال لهم ها هو صاحبكم مصلوب فقالوا كلاً بل
شبه لكم وقرؤا قوله تعالى «وما قتلوه وما صابوه» الآية فامر بهم فصلبوا

وعادت المياه الي مجاريها وتبددت غياهب الفتنه التي كنا نظن انها تأتي بانقلاب
يكون من ورائه فرج قريب وما ذلك الا لانا كنا كالغريق يتشبث بسعفة
تقاذفها الامواج

ثم استدعى التعايشي يونس الدكيم الي أم درمان وعنه علي
ما ظهر من خوره وضعف عزيمته حيال دعوى ذلك الكذاب وسيأتي ذكر
تعيينه علي دنقلة

ولما اتصل بالتعايشي نبأ مهلك ذلك الكذاب خرج ذات يوم ويده
منشور فرقي المنبر الذي أعده للخطابة وكان منبر المسجد العام في الخرطوم
فنقله الي أم درمان وأعده للخطابة وقص علي الناس أمر ذلك المتنبئ ثم دفع
المنشور الي من يقرأه وفيه بعد البسمة والحمدلة مانصه

وبعد فيقول عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن
السيد محمد خليفة الصديق وأمير جيش المهدي لما أتى الخبر بصلب الشخص
المدعى كذبا انه نبي الله عيسى وصاب أعوانه الذين صدقوه داخلتنى شفقة شديدة
علي هؤلاء لانهم من أصحاب المهدي عليه السلام الاقدمين فاستغفرت الله لهم
فانكشف لي حالهم انكشافا روحيا فرأيتهم بعيني في طبقات جهنم وابن بقاري
في الطبقة الاخيرة منها وقد شفعت فيهم فجاء النبي صلي الله عليه وسلم
والمهدي عليه السلام فقالا لي انهم ماتوا وهم كفار ولا شفاعة فيمن يكفر
بالرحمن اه ملخصا

علي اننا نستدرك هنا تفصيل شيء من الشعوذة التي أثرت علي عقول
أولئك الاغبياء فنقول ان هذا الرجل كان يدعو الاشجار فتسمى اليه واذا
سأله المطر في غير أوانه جادت السماء بمطر كأفواه القرب ولكن لا يتجاوز

دائرة جارسه وانفتحت جثته مرة فماتت غرفة كان فيها وخرجت من
نوافذها زارهم مرة اشباحاً في الفضاء لم يشكوا في انها ملائكة السماء نزلوا
لخدمته وموازرتة وبالجملة فان هذا الرجل كان بارعاً في السموذة متضاماً من
علم السبياء بكيفية لا يدرك كنهها اولئك الاغبياء

ذكر فتح قنذر بالحباشة

لما استقر حمدان ابو عنجة في القلابات سار الى (قنذر) عاصمة مملكة
الاحباش القديمة في ألبي فارس وألبي مساح بنذاق رامنجنون فالتقي بنحو
عشرة آلاف فارس من الاحباش في ضواحي المدينة ورفعت الحرب اوزارها
بضع ساعات ثم انجلى القتال عن هزيمة الاحباش وتمزيق جيشهم شذرمذر
وسقط منهم ستة آلاف قتيل في ساحة النزال

ودخل ابو عنجة المدينة ونهبها جنوده وغنم منها شيئاً كثيراً من الذهب
والفضة وعدداً ينيف على العشرة آلاف رأس من الخيول والبغال ونحو ثلاثة
آلاف نسمة من النساء والغلمان يبعوا أرقاء والنساء بينهن فتيات في منتهى
الحسن والجمال ألوانهن تكاد تضارع ألوان المصريات خلافاً لما عرف
من ألوان الاحباش الذين كانوا يجلبون فيما مضى من الازمنة الى مصر والسودان
ثم دخل الكنيسة وهشم ما فيها من التماثيل وقتل القسوس واحتمل
ما فيها من الآنية ذات القيمة واضرم النار في المدينة كلها وقفل راجعاً الى
القلابات

وأرسل للتعايشي بعدد عظيم من الغلمان والفتيات ونحو ألف رأس من
البغال وخمسين حماراً وقسم بقية الغنائم على رجاله بعد ان أخذ ما اشتهاه منها

وأرسل متداراً عظيماً أيضاً من التبر والنفضة الى يمتوب اخي التمايشي
وبذل أبو عنجة الامارات تجار الاحباش وعادهم على ان لا يأخذ منهم غير
خمس سلهم فهرعوا الى القلابات بتجارة البن والعسل والسمن والتمح وغيرها
من محصولات بلاد الحبشة فكان يتحصل من هذه الضريبة ما يقرب من
نفقات أبي عنجة وحاميته

وفاة ابي عنجة وولاية الزاكي طمل

في رجب سنة ١٣٠٦ توفى حمدان أبو عنجة على أثر تناوله مسهلاً ودفن
بالقلابات وتبادل الناس اشاعة ان احدي محظياته واحبهن اليه دست له السم
في ذلك المسهل فاستدعاها التمايشي اليه وكانت ذات جمال باهر فدهش لدى
وقوع بصره عليها وتلثم لسانه عن استنطاقها عن الجناية التي اتهمت بها
فامر بادخالها الى منزله ولم يجسر بمد على سؤلها عن شيء كيلا يسوءها سماعه
ولم يكتب بذلك بل حذر على الناس الكلام في هذا الصدد
ولما اتصل بالتمايشي نبأ وفاة أبي عنجة جزع جزعا شديداً وظهرت عليه
علامات الحزن والكآبة فانتدب قاضي الاسلام أحمد علي ومعه أربعة قه
ليسافروا الى القلابات ويحملوا الاوامر بتولية الزاكي طمل بدل حمدان أبي عنجة
الزاكي طمل هذا تمايشي أحد أبويه من عبيد (البنضلة) وكان خادماً
في إحدى شركات النخاسة في النيل الابيض وكان جباراً قاسياً ظالماً سفاكاً
للدماء وسيأتي ذكر خبر قتله

واقعة القلابات وقتل النجاشي يوحنا

ما فتى النجاشي يوحنا منذ واقعة (قندر) يتأهب لاخذ الثار وجلاء

العار وجواسيس التمايشي يرفعون اليه في كل يوم أخبار تآهب النجاشي
للفارة على القلابات فلذا صار يوالى ارسال الامداد وأمر بتخصين
القلابات بزريبة من الشوك حصينة لا يمكن تسورها تبلغ مساحتها عشرة
آلاف متر تقريبا

وأعلن النجاشي قومه انه زاحف الى القلابات في وقت عينه قبل أوان
الزحف بالفعل ببضعة شهور فعلم التمايشي بالامر وقبل حلول الاجل هلك
حمدان أبو عنجة فارس التمايشي أحمد على القاضي ومعه أبة من القضاة حاملين
أوامر تولية الزاكي طمل وقد أسر اليهم ان يراقبوا الحركات الحربية حيث
اقترب ميعاد زحف الاحباش على القلابات

ولما وصل أولئك القضاة الى القلابات تلقاهم الزاكي طمل بالاكرام واغدق
عليهم العطاء الوافر من أصناف الرقيق والنقود

وفي شهر شعبان سنة ١٣٠٦ هجرية هجم النجاشي يوحنا على (القلابات)
في مائتي الف مقاتل تقريبا جلهم من الفرسان واحاطوا بالقلابات وضربوا
خيامهم حولها وجلس النجاشي امام خيمته يحيط به خدمه وحشمه ووزاؤه
وهجمت جيوش الحبشة على القلابات هجمة الاسود على فرانسها واضرموا
النار في الزريبة فتقهقر الدراويش الى الجنوب واستولي الاحباش على نسايمهم
وأولادهم ونهبوا دورهم

وبينما كان الاحباش مشتغلين بالنهب وصل الى الدراويش مدد من جهة
الشمال تحت قيادة فرج الله باشا السوداني الذي كان قومندان نقطة أم درمان
الذي جعله المهدي قائدا من قواده بعد ان سلم له وقد تقدم ذكر ذلك
وكان هذا المدد ببضعة آلاف من الجهادية المسلحين بالاسلحة النارية

وهم من جنود الحكومة القدياء فتقدم فرج الله بانسا بجنوده وأطلق انارا على الاحباش فاصيب النجاشي يوحنا برصاصة وهو جالس امام خيمته فتقضت على حياته في الحال وانتشر خبر موته في عسكره فولوا منهزمين وساقوا السبي امامهم فتأثرهم الزاكي طمل حتي ارخى الليل سدوله فالتقوا عصا التسيار التماسا لراحة فداهمم الزاكي في الغلس على غرة ووضع السيف في رقابهم فانتهبوا من نومهم مذعورين وقتل منهم خلق كثير وفر الباقون واستخلص السبي من أيديهم وأرشدهم أحد الرواد الى تابوت وضعت فيه جثة النجاشي ففتحوه وحزوا رأسه وقبضوا على سائر اسلابه ومن بينها تاج مرصع بالاحجار الكريمة وخاتمه وملابسه وعاد الزاكي الي القلابات مسرورا وغادر أحمد على ومن معه من القضاة (القلابات) يحملون بشرى الانتصار الي التعاشي ومعهم رأس النجاشي وسائر الاسلاب

أما سرور التعاشي بهذا الانتصار فانه مما يعجز القلم عن وصفه حيث مكث أربعين يوما يذبح البدن ويدعو الناس الى تناول الطعام على قصمته المعلومة ولا حديث له غير هذا الانتصار وقد سمعته مرة يقول لمن حوله هل في الدنيا دولة تضارع الحبشة فيقولون كلا فيقول ان فتح مصر لا يكلفنا ما تكلفناه في الانتصار على الاحباش فيجيبونه بان حرب أوروبا برمتها أسهل من حرب الاحباش ثم أخذ يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بهذا الانتصار قبل وقوعه ببضع سنوات ثم قال ان المهدي عليه السلام أخبره بان ترك الحبشة الذي أشير اليه في الحديث الشريف مغي بزمن الخليفة عبد الله التعاشي

ولما نصبت رأس النجاشي يوحنا في السوق ووضع تاجه وسائر اسلابه

في مقصورة المسجد هرع الناس لرؤيتها وهم يشكون في صحة هذا النبا
ويقولون ان هذه الاسلاب قد سرقتها بعض الجواسيس من معسكر النجاشي
وأوصلوها الي التعاشي

هذا وقد كنت أنا وسائر الذين يترقبون الخلاص من نير المهديوة نود
من صميم افئدتنا انتصار الاحباش وفوزهم على الدراويش في القلابات عساهم
يتقدمون منها للاستيلاء على بقية السودان ولذا جاءت أخبارهم عنهم بمكس
ما كنا نود فسبحان من يؤتي النصر من يشاء

شان خط الاستواء والمهدويين

أورد تحت هذا العنوان حوادث خط الاستواء مع المهدويين فاقول
ذكرت في أوائل الجزء الاول الاسباب التي حملت الطيب الاثر غردون
باشا على فصلي عن ولاية أقاليم خط الاستواء وبينت باسباب المساعي السافلة
التي بذلها أمين أفندي طيب الحامية وقتئذ لنيل أمنيته من الولاية على أقاليم
خط الاستواء وكيف دفع السائح (ينكر) على الوشاية بي عند غردون
باشا حتى عاملني بالمعاملة القاسية التي شرحتها ثم ما كان من أمر ظهور
براهتي عنده بارشاد الضابطين اللذين كشفوا له حقيقة المسألة
وعلى أثر هاته الحادثة امتلأ غردون باشا غيظاً من أمين أفندي وتبدلت
ثقتة ومحبتة فيه بوصمه بالخيانة والكرهية

ثم لما عدت مع غردون الى الخرطوم في المرة الثانية وتجادنا في شؤون
كثيرة عن خط الاستواء علمت من حديثه انه حاقده على أمين بك حاكم خط
الاستواء سي الظن به

ولما استولى كرساوي على أقاليم (بحر النزال وشكا وحفرة النحاس)

غزا حدود خط الاستواء وعاد دون ان يظفر بشيء منها

وفي سنة ١٣٠٥ كان بام درمان رجل اسمه عبد الله الطريفي وهو عم
الحاج الزبير الذي ذكرنا في أول خلافة التمايشي انه أرشده الى سلوك
الطريق الذي سار عليه وكان عبد الله الطريفي هذا جابياً من قبل المهديونية
في إقليم القصارف فاغتال منه مالا جزيلا باتحاده مع ابن أخيه الحاج الزبير
وفي سنة ١٣٠٤ أرسل التمايشي الى (القصارف) من أوقفه علي خيانة الحاج
الزبير وعمه عبد الله الطريفي فقبض عليهما واستنصق ما اغتالاه من المال
وزجهما في السجن وبعد بضعة شهور أطلقهما وجعلهما تحت المراقبة النظرية
فعمدا الى وسيلة يتقربان بها اليه فدخل الحاج الزبير علي التمايشي وأخبره ان
عمه عبد الله الطريفي كان نخاسا في جهات خط الاستواء وله معرفة جيدة
بأخلاق وعوائد أهالي تالك البلاد وأبان له الثمرات التي تعود من فتح خط
الاستواء من جلب العاج وريش النعام والارقاء من تالك الديار فعول التمايشي
على انفاذ عبد الله الطريفي لفتح تلك الاقاليم

وعبد الله الطريفي هذا كان نخاسا وفي بداية ظهور دعوى المهديونية
قبضت عليه الحكومة وسجنته لاتيانه أمرا من انواع الحيل وذلك انه كتب
على بيض الدجاج لفظ الشهادتين وبعدهما ذكر اسم المهدي الذي عندهذا التزوير
من كراماته وكان عبد الله الطريفي هذا ذاهاء وحيل ومكر سيء

ولما صمم التمايشي علي انفاذ حملة لفتح خط الاستواء استدعاني الى داره
فذهبت اليه وانا في وجل شديد من هذه الدعوة فدخلت عليه فالتيت بالسأ
وحده فلما وقع بصره علي ههش وبش فقبلت يده وجالست علي الارض

امامه وهدى ذهب روعى لما آنت من بشاشته فخاطبني بما يأتي
 يا ابراهيم فوزى انى عزمت لي انفذ حملة لفتح اقاليم خدا الاستواء
 وبما انك كنت حاكماً عليها فانى اود انفاذك اليها لتكون سرشداً صادراً
 ومستشاراً أميناً لقائد الحملة وانى اود ان تكون راضياً بالقيام بهذه المهمة
 التي اهدى اليك القيام بها لاننى عالم بانك صرت من اخلص المخلصين لنا.
 فاجبته باننى اشكر مولاي على ثقته بي واعاذهه على القيام بما عهدت الي
 بالصدق والوفاء . فسرر هذا الجواب واعطاني عشرة ريبالات وتناولت معه
 الغداء على قصبة الضيوف وانصرفت الي منزلى مملوء الجوانح بالسرور وقد
 رايت انى استطاع النجاة من اسر هؤلاء البرابرة المتوحشين لدى وصولي
 الي خط الاستواء فقضيت لياتي لايزور الكرى جفنى لشدة ما داخاني من
 السرور الذى تلاه الترح حيث استدعاني التعاشى الي مجلس حافل بالقضاة
 والخلفاء وارباب الشورى وبعد ان شكرنى علي قبولي القيام بمهمة الدلالة لقائد
 حملة خط الاستواء عبد الله الطريفي قال لي انى اخشى عليك متاعب السفر
 واود ان تكون قريباً منى ولذا اقلتك من مأمورية مرافقة عبد الله الطريفي
 ولكن اكلفك بوضع رسم مشفوع بالعمليات التي يجب العمل بها اذا وجدت
 باخرنا النهر مسدوداً فوعده باحضار الرسم في الغد وبعد خروجي علمت
 ان سبب تاخيري ان عبد الله الطريفي وابن اخيه الحاج الزبير وشيابه عنده
 حيث قال له ان ابراهيم فوزى كان حاكماً لاقليم خط الاستواء وقد
 شهد وقائع فتحها مع غردون باشا وانه من أعرف الناس باخلاق وعوائد
 أهلها وانا نخشى من مغبة وصوله الي تلك البلاد اذ بذلك يمكنه ان يأتي أي
 عمل يريد من ضروب الاضرار بنا وانه اذا لم يستطع ذلك فانه يستطيع

الفرار الى ماوراء بحيرة فيكتوريا نيازاً فأثرت وشايتها على التعايشي وعدل عن
انفاذي مع تلك الحملة

هذا وقد اشتغلت ليأتي بعمل الرسم وتدوين التعليمات وفي اليوم التالي
قصدت دار التعايشي فالفيتة جالسا ومعه الذين كانوا معه بالامس وغيرهم من
الامراء وهو يأتي التعليمات على عبد الله الطريفي قائد الحملة فقدمت له الرسم
فتناوله كاتبه واوقفه على كل ما فيه فالتفت اليّ وشكرني وقال اني صرمت على
انفاذ الحملة ووجهتها كيت وكيت فهل عندك نصيحة فقلت نعم يا مولاي وقد
مالت نفسي للانتقام من عبد الله الطريفي وابن أخيه الحاج الزبير لوشايتها
التي سدت في وجهي بابا كنت أرجو الخلاص بولوجه

فقال التعايشي هات ما عندك فقلت ان عبد الله الطريفي وسائر الذين
انتدبتهم لهذه الحملة كانوا نخاسين وقد ذاق أهالي خط الاستواء من مظالمهم
ما جعلهم يبغضونهم أشد البغض وهم قوم لا اخلاق لهم اذ كانوا يقتلون النفس
التي حرم الله قتلها الا بالحق ليكتسبوا من وراء قتلها دجاجة فلذلك تري
أهالي تلك البلاد يبغضونهم ويفرون من وجوههم كما يفر الانسان من
الضواري فاذا ذهب هؤلاء النخاسون الى تلك البلاد جاءت النتيجة بمكس
رغائبك حيث يلجأ الاهلون الى حاكم خط الاستواء ليكونوا معه على الذين
ذاقوا مرارة سيطرتهم فيما مضى ورزحوا تحت نيرهم زمنا والاولى عندي ان
يعهد مولاي قيادة الحملة الى أحد آل بيتته ويشد أزره بجيش من الجهادية
ليكون قادراً على كبح جماح هؤلاء النخاسين الذين بمجرد ان تظأ أقدامهم أرض
تلك الارعاء يعودون الى أعمالهم السيئة التي تاباها عدالة مولاي وما وصلت
الى آخر هذه العبرة حتى بدت علامات السرور على وجه التعايشي والتفت الى

وبائع في الناء على وشكرني قائلاً إن ما قلته حل في لبي كجرة مملوءة بماء
الشهد وعملاً بنصيحتك سأعين أحداً لبيتي لقيادة الحملة وقد أرجأت أمر سفرها
الذي كنت مزوماً انفاذه في الغد ريثما اختار القائد الجديد الذي لا بد من
إمهاله أياماً يأخذ في خلالها اهبطه للسفر

وكان من جملة الحاضرين عبد الله الطريفي وابن أخيه الحاج الزبير نخرجا
يتعثران في أذيال الفشل ووجوههما مكفورة والله أعلم بما في قلوبهما من
الذبيذ والاحنة على

ولدي خروجهما قابلاً أحداً صدقائي المصريين وقال له أليتي من فلان
إن يأتي ما أتاه امام الخليفة فقال لهما الجزاء من جنس العمل لأنكما بدأتما
بالوشاية عليه فنجحتما في أن نضار به وهكذا يكون جزاؤكما

وعلى أثر هذه المحادثة انتدب التعاشي أحد أقاربه المسحى عمر صالح ومعه
نحو الخمسمائة جهادي وجعله قائداً للحملة وجعل عبد الله الطريفي كدليل له ويبلغ
مجموع رجال الحملة نحو ستة آلاف رجل جلهم مسلحون بالأسلحة النارية

وفي أواسط سنة ١٣٠٥ غادرت الحملة أم درمان على أربع بوأخر ولما
وصلت إلى أماكن السدود وجدتها متراكمة بها فتعذر عليها متابعة السير إلى جهة
الجنوب فمكثت بقية سنتها تعالج فتح السدود فهلك من رجالها كثير وهلك
أيضاً عبد الله الطريفي مع من هلك وقوبلت الحملة من أهالي البلاد بنفور عظيم
وامتنع الأهليون من تقديم الأغذية للرجال الذين انقسموا شطرين أحدهما
اشتغل بتحصيل القوت بالسلب والنهب من القبائل القريبة من شاطئ النهر
والآخر اشتغل بفتح السدود

هكذا وقد رايت أن أورد هنا شذرة من وصف السدود تماماً للفائدة التي

ربما تدور في اليها القاريء فيقول

يبتدىء خط السير في النيل الأبيض من الخرطوم قبل ان يختلط مع
النيل الأزرق وهذا النهر هادئ ووضفته متراميتان عن بعضهما حتى يتعذر
في بعض الامكنة رؤية من بالشاطئ الشرقي الشاطئ الغربي مثلاً ولو بالنظارة
المعظمة وذلك من بعد بركة السنيورة فاذا غادرت بحر الزبال متجها الى
الجنوب عند حدود الاقاليم الاستوائية كان الامر بعكس ذلك فتشاهد ضفتي
النهر متقاربتين والماء مندفع بقوة حتى ان خريره يصم الآذان
وتربة تلك البلاد من طينة لزجة تكاد تضارع المواد الغروية الشديدة
اللزوجة كالصمغ ونحوه

وينبت علي ضفتي النهر حشيش في طول قصب السكر والناظر اليه
لايشك انه قصب السكر ولكنه مملوء بشوك صغير يتطاير على من يدنو
منه وتحدث منه قروح قل ان يبرأ من تعلق به ولشدة اندفاع ماء النهر
تقطع من الجزر قطع من الطين عليها اجزاء من هذه الحشيشة التي يطاق
عليها اسم (ابو صوفه) فتتراكم عند مضيق النهر وتمنع سير السفن وطريقة
ازالتها هي ان تقطع اجزاء صغيرة يدفعها التيار الى المتسع من النهر
هذا ما كان من امر حملة المهديين واما امين باشا حاكم خط الاستواء
فانه غادر (اللادوه) عاصمة الاقاليم الاستوائية الى الجهات الجنوبية على اثر
ما اصاب جنوده من الفشل منذ عامين امام (كرم الله كرساوى) داعية المهدي
في (شكا وبخر الزبال) وقد تقدم ذكر غارته على حدود خط الاستواء
ولما وصل عمر صالح الى (اللادوه) ووجدها خالية علم ان الحامية لحقت
(بالرجاف) جنوب اللادوه فتقدم نحوها وشن عليها الغارة وذبح بعض من بها من

الجنود وفر البعض فاجتمعت الحامية في مكان اسمه (اللابورية) وهاجموا
ال دراويش فدارت الدائرة على الحامية وقتل كثير من جنودها وفر الباقون
الي (الدفليه) فاعاد الدراويش الكرة عليهم واستولوا على خطوط النار عنوة
وتقهقرت الجنود ثم كرت على الدراويش وقتلت منهم خلقاً كثيرين واجلبتهم
عن الدفليه فمادروها منهزمين لا يلون على شيء ولحقوا بواخراهم في
(اللا دوه)

وفي غضون اشتغال الحامية بدفع غارة الدراويش وصل المسترستانلي
الرحالة الذي كلفته الحكومة الحديوية بسحب حامية خط الاستواء عن
طريق زنجبار

ولما سمعت الجنود بأمر هذا الانسحاب وعلمت ان طريقها الي جهة
زنجبار مملوءة بالمخاطر والصعوبات ولادواب الحمل في تلك الارحاء واشيع
بينهم ان مسافة الطريق تبلغ مسيرة سنة تمرد السودانيون منهم على امين باشا
وقبضوا عليه وسجنوه وعينوا حا كما وضباطاً من صفار الضباط السود كما قبضوا
على سائر الضباط المصريين والموظفين الملكيين وزجروهم في السجن

ثم نعى الى أولئك الجنود المتمردين ان الدراويش متقدمون نحوهم فهرعوا
الي لقاءهم في جهات جبال (الدفليه) فقام ضابط سوداني يدعي سليم مطروهمجم
علي السجن واطلق امين باشا وساروا الي جهة قريبة من بحيرة فيكتوريا نيانزا
وقابلوا المسترستانلي هناك فهدد المسترستانلي الي سليم مطر تسكين ثأرى
الحامية واستمالهم لمرافقته فتوجه الي (الدفليه) وحاول اقناع الجنود بوجوب امثال
أمر الحديوي الذي يجعله ستانلي فلم يفلح ورموه بالحياة وكادوا يجهشون به وظل
المسترستانلي ينتظر عودته نحو شهرين ثم اجتاز النهر وابتدأ مسيره الي زنجبار

ثم لحقته في الطريق كتب من الضابط ساي اغا مطر يخبره فيها بحبوط مسماء فتابع
المسترستاني سيره حتى وصل زنجبار بعد مسيرة تسعة شهور هلك فيها اكثر
من نصف الذين رافقوه من متاعب السفر حيث كانوا يسرون على الاقدام
ولولا سوء تصرف امين باشا وذبحه الافئال الهندية والثيران المروضة
لكانت رحلة ستانلي الي زنجبار من اسر الاسفار اذ الذين رافقوه لا يبلغون
ألفي نسمة والثيران المروضة التي ذبحها تقرب من ثلاثة آلاف رأس عدا
بضعة افئال

وعلى أثر ذلك صفا الجوال للمهدين في خط الاستواء وانطلقت ايديهم
فيه يجابون منه العاج والريش وسائر محصولاته والله الامر من قبل
ومن بعد



ذكر عزل محمد الخير من بربر وموته

ذكرنا ما كان من امر محمد الخير وقيامه بدعوة المهدي في بربر واحتلاله
دقناة بعد جلاء الحملة الانكليزية عنها

وفي اوائل سنة ١٣٠٤ حين استتب السلطان للتمايشي على البلاد ووجه
اهتمامه الي عزل الامراء الذين ولاهم المهدي واستبداهم بذوى قرابته او عز
يعقوب اخو التمايشي الي الحاج علي سعد امير الجميلين الذين يسكنون القرى التي بين
بربر وام درمان ان يكثر من الشكوى الي التمايشي ويتذمر من أعمال محمد
الخير ويقبح سيرته فيهم ويرميه بكل منكر وفضيحة وكان محمد الخير قد
احتكر وظائف الجباية والقضاء لاقاربه واتباعه ووعد يعقوب الحاج علي
سعد بالولاية بدل محمد الخير فاغتر بوعده واسترسل في الطعن على محمد الخير

ونسب له أموراً هو براء منها وتعالى في تقبيح سيرته وتشديد النكير عليه
 فارسل التمايشي يستدعي محمد الخير الي أم درمان فقدم عليه وعند ذلك عقد
 التمايشي مجلساً عاماً جمع فيه بين محمد الخير والحاج علي سعد فاسمع بهذا الأخير
 محمد الخير مطاعنه فيه فبكى واتحب ورفع يديه الي السماء قائلاً اللهم اني أشهدك
 اني بريء من هذا كله وكانت هذه المطاعن مما يتجاني القلم عن ذكره ومن
 جملتها رمي محمد الخير بارتكابه الزنا وقد ذكرنا انه كتب للمهدي على اثر فتح
 بربر يقبح له استباحة اعراض المصريين بضروب السبي التي سار عليها ملتمساً
 منه الكف عن ذلك فاجاب التماسه وهذه الحسنة ادل دليل على أن الحاج علي
 سعد كاذب في مطاعنه على محمد الخير لانه لو كان فاسقاً كما ادعى لما رغب عن
 سنة السبي السيئة ولما رأي وجوب الكف عن هتك اعراض المصريين في بربر
 على أن هذه الاذكايب مدبرة بين التمايشي واخيه يعقوب يقصدان
 بها ابعاد محمد الخير عن بربر ليخلفه في وظيفته شخص بقارى ولما كان محمد الخير له
 شهرة بين اهالي السودان رأوا أنه لا يحسن الاقدام على عزله بدون اسناد
 فظائع اليه مثل التي فاه بها الحاج علي سعد

وفي ذلك اليوم أصدر التمايشي أمراً بعزل محمد الخير وتولية عثمان الدكيم
 بدله فسار الي بربر في خمسمائة فارس ونهب القرى التي في طريقه واتلف
 الزرع قبل ان يحصد وكان هذا العمل من مقدمات القحط الذي ضرب اطنابه
 في السودان وستري تفصيله فيما سيأتي

أما عثمان الدكيم هذا فهو شقيق يونس الدكيم واعماله واخبار جهالته تفوق
 الذي ذكرناه عن شقيقه

هنا وقد بقي محمد الخير في أم درمان بضعة شهور ثم هجرن بهمة انه

فاه بكلام يمس شرق التمايشي ثم أطلق والحق بدقلة كأحد صغار القواد
وتوفي بها في سنة ١٣٠٧

وحدث أناس من الذين حضروا وفاته انه لما احتضر جزع وقال اني
كنت اظن أن دعوة المهديّة لله ورسوله فدعوت الناس اليها وأما الآن
فقد علمت انها دعوة الشيطان اراد بالاسلام والمسلمين شرا بظهورها وان الله
تعالى سيؤاخذني على ما جنته يداي ان لم يرحمني ويعف عن سيئاتي ثم نطق بالشهادتين
وفاضت نفسه

النور ابراهيم الجريفاوي وتجار المصريين في بربر
النور ابراهيم الجريفاوي ذكروري استوطن ابوه أوجده قرية (الجريف)
التي تبعد عن الخرطوم جهة النيل الازرق ببضعة اميال وكان مشتغلا بصناعة
الابن وحرقة وبينه اسكان الخرطوم لتشييد المنازل
وقد ذكرنا انه اغتال قدر آمن المال دفتمته له الحكومة ليورد لها به الغلال
فسرّب المال الي جيبه وكان اذ ذلك من أعضاء مجلس السودان حائزا للرتبة
الرابعة ثم لحق بدعاة المهدي

ولما عزل الخليفة التمايشي محمد الخير من بربرولي النور الجريفاوي هذا
امانة بيت مالها وكان النور هذا مشهورا لدى سكان الخرطوم بازا اشتغاله بصناعة
الابن بالورع والتدين ودماثة الاخلاق وحسن المعاملة مع الحقير والعظيم
والصغير والكبير

ولما دخل في سلك موظفي المهديّة السابغ عن هذه الصفات وأنقلبت
كلها الي ضدها وصرت لا ترى منه غير رجل ظالم غاشم خرب الذمة قد نبذ

الورع والتقوى وراء نذيره شرس الاخلاق سيئ المعاملة لا يقول الا سوا
والويل ثم الويل لمن كانت له حاجة عنده والنفوس اليه ان كان مصريا فانه
لا يسع منه غير الشتام المؤلمة ولا يرى منه الا سائر ضروب الاذنانة وحاجته
لاتقضي ولو كانت عنى طرف الثمام وبالجملة انه قد صننا له الجوحى حتى خلناه شخصا
غير ذلك الذى كان يبيع اللبن ولاغرو فان الظلم كين في النفوس تظهره القوة
ويخفيه الضمف

وفى إبان اسناد امانة بيت مال بربر اليه كان يفد اليها ألوف من التجار
المصريين من أهالى مدبرية اصوان ولم يكن غرضهم الحقيقى الاتجار بل كانوا
ميايلين الى دعوة المهديية وانما تذرعوا بالتجارة لقضاء ما ربههم من المباينة وحمل
تعاليم المهديية الى بلادهم ونقل اخبار الحكومة للتمايشي فكتب النور الى
التمايشي يقول له ان هؤلاء التجار رواد للحكومة الخديوية وهم يتسترون
بالتجارة وعندهم من المال ما يجب ان يكون حقا لبيت المال فكتب التمايشي الى النور
ياصره بمصادرة أموال اولئك التجار مع انه لا يجهل أنهم معه على الحكومة
وليسوا مع الحكومة عليه ولكن طمعه فى أموالهم ألجأه الى سلبها

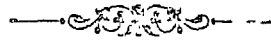
وعلى اثر ذلك وثب النور الجريفاوى على تجار المصريين وقبض على بضعة
آلاف منهم وعذبهم ومنق اجسامهم بالسياط كي يدلوه على أموالهم التى
بلغت قدرا طائلا ثم اطلقهم وهم لا يصدقون بالنجاة بمد أن وردوا موارد
الموت فعادوا الي بلادهم بقلوب مملوءة ببنفس المهديين وحب الفرار من دعوتهم

السودان الشرقى

بمد أن دارت الدائرة على عثمان دقنه فى (كوفيت) وفر من وجه الراس

الولا عاد الى كسله ثم استخلف عليها ابن أخيه وغادرها الي (طوكر)
ولم تمض سنة حتى ثقلت وطأة عثمان دقنه على الاهلين فارتفعت
أصواتهم بالتذمر من مظلمه الفادحة التي أحسوا بثقل ووطأها عليهم فهرعوا
الى الخليفة يشكون مالا قوا فلم يجدوا منه غير التسوية والمطل والاتهم بالانحراف
عن جادة الصراط المستقيم فناروا على عثمان دقنه عدة ثورات
وفي أواخر سنة ١٣٠٣ كتب التمايشي الى عثمان دقنه يستقدمه وكانت
أول مرة استقدمه فيها بعد ان قبض على زمام الملك فشخص من
(طوكر) الى بربرومنها الى أم درمان فاستقبله التمايشي بصنوف الاكرام وبعد
انتضاء أيام عيد الاضحى أعطاه خمسة آلاف مقاتل من البقارة فسار بهم الى
كسله عن طريق (القضارف) ثم سير خلفه الحاج محمد أبا قرجة في عشرة آلاف
مقاتل وسلمه أمرا بانه امير شرقي السودان بدل عثمان دقنه الذي عزل من
الامارة وجعل كواحد من القواد فسار أبو قرجة على طريق القضارف أيضاً
قاصداً كسله ولدى وصوله اليها أعلن عزل عثمان دقنه وولايته بدله فسكنت
الاضطرابات وأمنت السبل وفتح طريق الاتجار بين مصوع وكسله . وبعد
بضعة شهور أصدر التمايشي أمرا الى أبي قرجة بمغادرة كسله الى (طوكر)
واستخلاف حامد على أحد أقارب التمايشي على كسله فسار أبو قرجه الى
(طوكر) وعسكر فيها وجرت بينه وبين الحكومة في سواكن مخابرات سلمية
أوجبت ارتياب التمايشي في الثقة به فنزله عن الامارة وأعادها الى عثمان دقنه
وفي غضون ولاية أبي قرجة تقدمت جيوش الدراويش الى (هندوب)
وضيقت الحصار على سواكن فخرجت حاميتها عليهم وفرقت جموعهم فنادوا
الى (طوكر) وعسكروا فيها

أما أبو قرجة فقد ولاه التمايشي على بربر فمكث بها ثلاثة شهور ثم
 عزله وولى بداه الزاكي عثمان البقاري وبنى أبو قرجة إلى خذل الاستواء
 وسنعود إلى ذكر هزيمة عثمان دقنه من (طوكر) والقضاء على نفوذه في
 السودان الشرقي



ظهور المهدي أبو حمزة في دارفور

لما رسخت قدم عثمان آدم في دارفور انحن في التباثل نهباً وسلباً وخرب
 المدن وحمل الأهلين نيراً ثقيلاً حتى باتوا ولاهم لهم غير الإخلاص من ذلك
 النير فقام بين ظهرانيهم رجل من المشايخ اسمه محمد كان يجلس تحت شجرة
 من الجيز حتى كنى باسم (أبي حمزة) وادعى أنه المهدي المنتظر وكان مشعوذاً
 ذا قدرة على عمل خيالات يخلفها الناظر حقائق فآبعه أهل دارفور كلهم
 وترامت أخباره إلى الممالك المجاورة لها فنسل إليه كثير من سكانها ولحقوا به
 واجتمع حوله جيش كثيف عسكريه في الجهات الغربية وكتب إلى عثمان آدم
 يدعوهُ إلى التسليم فأرسل له جيشاً تحت قيادة (الختيم موسى) التمايشي فهزمه
 شرهزيمة وبمد اللتيا والتي وجد القائد إلى النجاة سبيلاً

فأرسل عثمان آدم إلى التمايشي يعلمه يامر أبي حمزة ويطلب منه الإمداد
 فارتاع التمايشي لهذا النبأ وأرسل الإمداد إلى عثمان آدم الذي أرسل لحرب
 أبي حمزة جيشاً آخر تحت قيادة (محمد بشاره) التمايشي فلم يكن نصيبه غير
 نصيب القائد الختيم موسى ثم توالى الحروب بين أبي حمزة وعثمان آدم
 فكانت الدائرة تدور على دراويش عثمان في جميعها وخضعت بلاد دارفور
 الغربية كلها لأبي حمزة وشمرت معه على حرب عثمان آدم الذي ضاقت الدنيا

في وجهه كما ضاقت في وجه التعاشي الذي أصدر أمرا الي عثمان آدم بالتقهقر
من دارفور الي كردفان

وبينا كان عثمان آدم يتأهب للتقهقر زحف عليه أبو جيزة في جيش
عمره مرم ولكنه في غضون سيره أصيب بمرض الجدري ثم توفي بعد أيام
بسيرة فتابع أصحابه مسيرهم قاصدين (الفاشر) محل إقامة عثمان آدم
الذي قسم جيشه قسمين جعل أحدهما كميناً وتربص هو مع الآخر فتقدم
جيش أبو جيزة حتى اجتازوا موقع الكمين والنقوا مع عثمان آدم فخرج عليهم
الكمين من الخلف وصاروا بين نارين فسقط منهم عدد كثير وتمسك الباقيون
بأذيال الفرار فأثرهم عثمان آدم وقتل منهم خلقا كثيرين وما زال عثمان آدم
متأثرا للمهزمين حتى اجتازوا حدود دارفور ولحقوا بمملكة (أبي ريثة) وحملت
الي التعاشي رؤس جماعة من وزراء أبي جيزة وهجر أهالي دارفور ديارهم
الي ممالك الغرب كي يتمصوا بهم من انتقام الدراويش فتخربت البلاد وصارت
بلقما ليس فيها ساكن ولا مساكن وانقطعت جباية الخراج وأصبح عثمان آدم
وجيشه في حاجة عظيمة الي النفقات فوجه اهتمامه الي النزول في الجبال التي
حوالي دارفور ليتحصل منها على قوته وقوة حاميته

شأن التعاشي وقبيلة التعاشية

لما تقلب التعاشي على مناظريه وسلب من أقارب المهدي القوة التي
كانت في أيديهم استبد هو بالملك وانفرد بالسلطان على كل بلاد السودان
وأضعف نفوذ الخليفين على حلو ومحمد شريف حتى صاروا لا يعبأ بهما خصوصا
محمد شريف فقد وضت حالته الي فقدان الضروري من القوت وانحط شأن

أقارب المهدي حتي صاروا في حالة يرثى لها ولا سيما أولاد المهدي فانهم صاروا يقاسون من شذف العيش ومرارة الفقر مايجز القلم عن وصفه وفي أواسط سنة ١٣٠٥ اتجهت عزيمة التمايشي الى استنفار قبيلة التمايشة من ديارها في جنوب دارفور ليشد بها عضده ويكون ذا عصبية امام الاقوام الخاضعة لجبروته وكان قبل ذلك يتألف قبائل البقارة لينال منهم مزايا العصبية والموازرة اذ لم يكن معه من أقاربه التمايشة الا نحو ثلاثين رجلا احتكر لهم الوظائف وولاهم الاعمال الخطيرة واستوزر أخاه لاييه يعقوب وأشركه في سلطانه حتي صار ذا نفوذ كبير وأصبح يضارع أخاه التمايشي في كل خراص الملك والسultan وصار يعقوب هذا القائد العام للجيش والمدبر المطلق لامور مملكة أخيه

وكتب التمايشي الى عثمان آدم في دارفور يأمره باستنفار قبيلة التمايشة كما كتب الى رؤساء هذه القبيلة يخبرها بانه صار ملكا عظيما وسلطانا فخيا على جميع الاقطار السودانية وانه في حاجة شديدة لمعاضدتهم فانقسمت قبيلة التمايشة الى قسمين أحدهما رأي وجوب المبادرة لتلبية نداء التمايشي والآخر أظهر بفضه قائلا لا يرجي خير من سفل نال ملكا من طريق المصادفة صملوك كان متسولا بين ظهر انينا بالامس واليوم نذهب لننزل على حكمه ونضع أنفسنا بين يدي جبروته ثم هجر هؤلاء ديارهم ونزحوا الى مملكة (وداي) مفضلين النأي عن الديار على اللحاق بالتمايشي وانصاع القسم الآخر لمطالب التمايشي ونزحوا من ديارهم الى دارفور ومنها الى أم درمان وكانوا زهاء مائة ألف نسمة أو يزيدون

وقد أنفق التمايشي على استقدامهم أموالا طائلة حتي بلغوا أم درمان فتلقاهم

بالحفاوة والاكرام ووزع عليهم الاقوات والملابس
 وكان بين هؤلاء القادمين (الغزالي احمد خوف) زعيم التمايشي وكان حائزا
 للرتبة الثالثة من الحكومة وكان التمايشي يعده بالهيل والهيلمان لدى وصوله
 أم درمان فلم يوف له بوعده وسنعود الى ذكر بقية أخبار عثمان آدم وموته
 هذا وقد كانت قبيلة التمايشة تحب السكر والتمر وطريقة تناولهم السكر
 أن يكسروه قطعاً صغيرة ويأكلوه كما يأكلون الخبز
 ومن النكات المضحكة ما نورده عن أحد المصريين الذين يشتغلون في
 مهامل الذخيرة للتمايشي وذلك ان الزاكي عثمان الذي كان أمير بربر كلفه بتعبئة
 خرطوش لغدارة صغيرة فأتى المصري العمل وذهب الى منزل الزاكي
 ليدفع له الخرطوش فتلقاه بالاكرام وقدم له طبقاً كبيراً مملواً بقطع السكر
 الصغيرة وجاءه باناء فيه نحو خمسة أرطال من اللبن الحليب فأخذوا يأكلان من
 السكر ويشربان من اللبن ثم قال صاحبنا المصري لمضيفه لما اذا لاتضع
 السكر في اللبن فقال وهمل يوضع السكر في اللبن فقال نعم وتناول المصري
 السكر وألقاه في اناء اللبن فصاح به مضيفه فداتلفت السكر واللبن معاً فقال
 له المصري لاتعجل فسكت الزاكي ثم هز كتفيه ورأسه علامة على
 اليأس فقدم له المصري اناء اللبن وقال له ذقه فقال له والغضب باد على وجهه
 لاذوقه حتى تذوقه قبلي فشرب المصري وناوله الاناء فشرب منه ثم وضع الاناء
 من يده قائلاً (قاتلكم الله يا معشر المصريين انكم خبيرون باتقان كل شيء) أما نحن
 فلا نعرف ان مزج السكر باللبن يصيره حسناً مثل هذا ولم نتعود منذ
 خلقنا الله إذابة السكر في اللبن ثم سأل المصري وهل يكون السكر لذيذا كهذا اذا
 القيناه في الماء فقال نعم فظهر الارتياح ثم دخل الى بيته وعاد منه بسكر وقال

له ألقه في الماء لذوق طعمه فالتقه المصري في الماء فأمره ان يشرب منه
قبله كما شرب في المرة الاولى ثم عاد فشرب منه واخذ في ابداء الاستغراب
فساله المصري عن سبب امتناعه عن الشرب قبله فقال اني كنت اظن ان طرح
السكر في اللبن ربما تولد منه ضرر واخذ المصري يصف له الاطعمة التي يصلحها
السكر ثم انصرف عنه

ولقد اطلمت على منشور كتبه التعايشي الى قبيلة التعايشة يجب اليها
القدوم عليه وفيه اني ملكت بلاداً فيها جبال من السكر وشجر التمر وان أهالي
هذه البلاد الذين هم (الجلابة) صاروا عبيدي فسارعوا بالقدوم الى لتأخذوا
النصيب الاوفر من جبال السكر وشجر التمر وتقضوا وطركم من نساء
الجلابة وتركبو الخيول والحميز والهجج

ولما وصلوا الي كردفان كانوا يسألون من لاقاهم عن جبال السكر وشجر
التمر ومدوا ايديهم ونهبوا ساثر قري كردفان وقتلوا مئات من الاهلين الذين
رفعوا ظلامتهم الى التعايشي فكان جوابه لهم لا تتأثروا من فعل المهاجرين
لانهم اخوانكم وشاهدوا ما حل بكم من الله تعالى ولا تنسبوه الي هؤلاء
المهاجرين اذ الفاعل الحقيقي هو الله

ذكر ضرب بخانة التعايشي

اسلفنا ذكر ضرب بخانة المهدي وما ضرب فيها من المسكوكات من نوع
الجنيه المصري والريال الذي نقش عليه (في المهجرة) وفي الطغراء (باسم المهدي)
ولما عزل التعايشي أحمد سليمان أمين بيت المال وخلفه ابراهيم عدلان
كانت مسألة الضرب بخانة من الامور التي احتج بها التعايشي على سوء ادارة

أحمد سليمان وشدد النكير عليه مدعياً ان اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينفش في النقود ولا انشئت دار للمسكوكات على عهدہ صلى الله عليه وسلم فامر بجمع النقود التي ضربت في عهد المهدي فجمعت وانشأ ضرب بخانة لسك النقود من نوع الريال وجعل نصفه من الفضة والآخر من النحاس وضرب على أحد وجهيه (ضرب في أم درمان) وعلى الآخر طغراً مكتوب فيها (مقبول) فسمى الريال المقبول وكان في كل سنة يأمر بتخفيض الجزء الفضي حتى صار الريال كله من النحاس الا الطلاء الذي يفيرون به حمرة النحاس

واقدم هبطت قيمة هذا الريال الى حد أن صار لا يساري اكثر من ملليم اما المسكوكات الذهبية فقد منع اعادة ضربها كل ذلك ليحتكر لنفسه الذهب والفضة ولا يدع للناس ما يتعاملون به غير النحاس على ان التعايشي لم يكن يجهل ان ضرب المسكوكات وانشاء الضرب بخانة كان بامر المهدي الذي ذكرنا ان أحمد سليمان كان لا يضع خيطاً في خياط الا بعد صدور أمره له بوضعه والحاصل ان التعايشي لم يترك شيئاً وضعه المهدي الا نقضه

ذكر انشاء دار للخيرة والبارود

لما سقطت الخرطوم جمع المهديون رجالاً من المصريين كانوا عمالاً في الجبه خانات وجعلوا لهم رواتب طافية ليشتغلوا بتعبئة الخرطوش ووضع المواد المفرقة فيه ثم أدرك التعايشي ان البارود والخيرة التي عنده لا بد من نفاذها فاخذ يسعى الي التوصل الي طريقة استخراج البارود فعهد الي يوناني اسمه (ديمتري بردغاجي) استخراج البارود وانشأ داراً لهذا العمل

جعلها تحت نظر أخيه يعقوب وانفق أموالا طائلة لاتمام هذا العمل ورتب
لعماله رواتب كبيرة فنجحت تجارب بردغاجي واستخرج شيأ من صنف
البارود وعرضه على التمايشي الذي سر بهذا النجاح وسجد شكرا لله على
ما منحه من النعم ومكث بردغاجي مشغولا باستخراج البارود بضع سنوات
وبينما كان ذات يوم يباشر عمله اذ التهب جزء من البارود وتفرقع فامات
بردغاجي وعماله واحرق الدار ونسف جدرانها فاستاء التمايشي وأظهر الحزن
وركب الى محل الحادثة وأمر بجمع الاشلاء ودفنها

وكان التمايشي يتغالي في استرضاء بردغاجي ولدى شروعه في عمل
البارود منحه خمسمائة ريال ومحظية من محظياته وجواري وغلمانا للخدمة
وجعل راتبه الشهري مائة ريال عدا رواتب عماله

أما المواد التي يستخرج البارود منها فخم شجر الصفصاف و ملح
البارود وكبريت المامود وكان يستخرج في كل شهر عشرة قناطير من البارود
وانشأ دار الاستخراج ملح البارود وكلف أحد الصيادلة المصريين
بالعمل فيها

وكذلك انشئت دار لعمل المادة المفرقة التي توضع في الكبسون المسماة
(عجينة الكبسون) واسند العمل فيها الى (لبتن بك) مدير بحر الفزال
وحسن افندي زكي أحد أطباء الحامية في الخرطوم

وانشئت أيضا دار لعمل الخرطوش وأطلق على الجميع اسم (الورث
الحرية) وكان المشرف عليها كلها يعقوب اخو التمايشي
وشيدت دار لحفظ الاسلحة وسميت (بيت الامانة) وكانت رواتب رؤساء

العمل مائة ريال شهريا من ريبالات التعاشي لكل واحد منهم واقل راتب
لاصغر عامل عشرة ريبالات

ذكر موت لبتن بك مدير بحر الغزال

ذكرنا أخبار لبتن بك وسجنه قبل سقوط الخرطوم
ولما سقطت الخرطوم أمر المهدي باطلاقه فخرج من السجن في حالة
يرثي لها من الفقر والحاجة ولما اشتدت به الحال قدم نفسه للخليفة التعاشي وقال
له انني أعرف صناعة تجهيز عجينة الكبسون فاثني عليه وأمر له بجائزة
وفي سنة ١٣٠٥ مرض لبتن بك ولما حضرته الوفاة أوصي سلاطين
باشا على بنتيه وامر أنه التي أصلها سودانية تنصرت بدعوة الآباء الكاثوليك
ثم تزوجت لبتن بك وورثت منه بنتين
وبعد وفاة لبتن بك زوج سلاطين باشا امرأته بحسن أفندي زكي
الذي كان يساعد زوجها في عمل عجينة الكبسون
واعنتى سلاطين باشا بامر البننتين اعتناء عظيما حتى غادر أم درمان

المقدم عمر الجعلي واستخراج الرصاص

لما نفذ ما في مخازن التعاشي من الرصاص جاءه ذات يوم رجل من
الجميلين اسمه المقدم عمر مشهور بالشعوذة يختلف على مدينة الخرطوم
ويحتال على ضمءاء العقول ويطلب منهم المال لشراء الادوات كي يحول النحاس
والرصاص ذهباً

وقد عرفه الناس فصاروا لا يخذعون باكاذبه فقال للتعاشي انني أقدر

على استخراج الرصاص من اخجار ام درمان فاعطاء التمايشى عشرة من
 العمال وامر باعداد ما يازمه من آلات النفخ وعدد العمل ومنحه قدرا من
 المال فاخذ يوصي اقراره بشراء الرصاص فاذا اجتمع لديه بضع اقات وضعها في
 التنور ووضع حولها الحجارة ثم اضرم النار حتى يذوب الرصاص وتحترق الحجارة
 فيذئذ يستدعي يعقوب اخا التمايشى لمشاهدة نتيجة العمل فياتي يعقوب
 ويرى الرصاص مذابا وسط الحجارة فيعتقد انه تحلل من الاحجار فيبلغ اخاه
 التمايشى فيامر للمقدم عمر بالعطايا من الجوارى والمال

وفي ذات يوم صعد التمايشى المنبر وتكوف الناس حوله فقال لهم ان
 النبي صلى الله عليه وسلم اخبره بان المقدم عمر الجملى يستخرج له من الحجارة
 رصاصا يكفيه لفتح الدنيا كلها وان الخضر عليه السلام اخبره بان وجود الرصاص
 في جوف الحجارة من كرامات المهدي عليه السلام

ولسكن لم تمض بضعة شهور حتى فقد المقدم عمر الرصاص الذي كان
 يشعوز به عليهم وانقطع عن العمل مدعيا ان ادوات النفخ قد ضعفت فصنعوا
 له غيرها فلم يات بشيء ثم وكل التمايشى مراقبته الى اثنين من جواسيسه فعلم انه
 كان يبتاع الرصاص من الخارج لان الناس الذين كانوا يبيعونه له كانوا
 يلتقطونه من حول متاريس الخرطوم وغيرها من مواقع الحروب ثم يذبه
 وسط الاحجار فاستدعى التمايشى المقدم عمر وعدد له سياته وما ارتكبه من
 الغش فاجابه المقدم عمر بان ما قيل عنه من الغش ليس بصحيح ثم قال له
 اأست قلت ان النبي صلى الله عليه وسلم والخضر عليه السلام اخبراك بكيت
 وكيت مذكرا له ما فاه به على المنبر وزاد ان قال له ان دعوى المهدي قامت اركانها
 بمثل هذه الاخبار فان كذب هذا الخبر فالهديتة كلها كذب في كذب فاغتاظ

التعاشي واستفتى التضاضة فافتوا كما أوعز اليهم بقطع يده ورجله من خلاف
فقطعا في السوق وفي اليوم التالي توفي المقدم عمر وانقضى الامر

ذكر احراق كمال الدين عظام قتلى الخرطوم ونبش القبور
لما توفي لبن بك واستمر حسن زكي في عمل عجيبة الكبسون ونفذت
المواد الكيماوية التي تستخرج منها هذه المادة اهتم التعاشي لهذا الامر
فقام رجل يدعي كمال الدين من الهنود الذين ذكرنا نبأ قدومهم على المهديين
وقال للتعاشي اني اقدر على استخراج عجيبة الكبسون بغير احتياج الى المواد
الكيماوية التي نفذت فسر التعاشي هذا القول وقال له من أي شيء تستخرجها
فقال من عظام الاموات فقال له هاهي عظام كفار الخرطوم وأمر باعداد
ما يلزم لانجاز العمل فجمع كمال الدين عظام قتلى الخرطوم واحرقها بالنار ثم
سحقها في الاهوان ووضعها في أحواض كبيرة وصب عليها الماء ثم نبش
قبور قدماء اموات الخرطوم وصنع في عظامهم مثل ما صنع في عظام القتلى ثم
أقفلت الابواب على الاحواض وتركت ستة شهور فتولدت منها الديدان
وتصاعدت الروائح الممتنة منها

وبعد الستة شهور جاء يعقوب شقيق التعاشي ومعه جمع من الامراء
وفتحوا الابواب فراوا الديدان تولدت والروائح الكريهة تتصاعد منها فسألوا
كمال الدين فقال ان تولد الديدان وتصاعد الروائح علامتا نجاح العمل فاذا أقفلت
الابواب ثلاثة شهور اخرى ثم فتحت بعدها وجدت هذه الاحواض مملوءة
بعجيبة الكبسون التي تؤخذ مباشرة لوضعها في الخرطوش فلم يصدقته يعقوب
وعاد الى ام درمان واخبر اخاه بان كمال الدين كاذب محتمل فاحتمت التعاشي

غيطاً على كمال الدين ولكنه لم يعاقبه بمقبوبة
وبلغت نفقات هذا العمل اكثر من اربعة آلاف ريال انفق كمال الدين
جلها في حاجاته الخصوصية عندما أخذه من الجوازي والركائب
وبعد وقوف الخليفة على حيلة كمال الدين أصدر أمره له وللنود
الذين قدموا معه بأخذ الالهبة للعودة الى بلادهم وأعطاهم كتباً بالدعوة للمهدية
وخرج لوداعهم فقال له كمال الدين اني أريد منك أن تعطيني شيئاً على سبيل
التذكاري فاعطاه التمايشي نعله فأخذ يقبلها ووضعها في جيبه فطلب منه القاضي
احمد على رد النعل الي صاحبها فلم يفعل حتى أعطاه اربع جوار وحماراً
ثم قال القاضي لمن حوله لو طلب مني كمال الدين كل ما أملكه من حطام
الدنيا لافديت به نعل الخليفة وقصد القاضي من هذه الاقوال أن يبلغها
الحاضرون للخليفة فتزدد ثقته به وسار كمال الدين ورفقاؤه الى سواكن ومنها
الى الاقطار الهندية

تخريب بلاد الجزيرة

(وحشد أهلها بام درمان)

في أواخر سنة ١٣٠٤ هجرية اصدر التمايشي أمراً عاماً الى جميع سكان
الجزيرة من الخرطوم الى حدود الحبشة والى حدود مديرية بربر من جهة
الشمال وحدود مديرية فشوده من جهة الجنوب بالوفادة الى أم درمان وتوعد
من بقي في داره ولم يهدم منزله بيده ويأت الي أم درمان وضرب لذلك أجلاً
هو أواخر شهر رجب من السنة المذكورة ومن لم يصمدع بالامر في ذلك
الاجل عد حاصياً محارباً للمهدوية

وما اقترب الاجبل حتى خربت جميع الترى والمسدن التي في الجزيرة
وقدم سكانها الي أم درمان، وتركوا غلالهم وحاصلات أرضهم في البلاد مودعة
في بطون الارض فمنهم الذين ساروا في البر حتى اجتازوا النهر الي أم درمان
باجرة باهظة فرضها عليهم أصحاب الزوارق ومن سار في السفن للشراعية
أدي أجرة لا تقل عن عشرة أضعاف الاجرة الاصلية لركاب السفن الشراعية
وبعد اجتماع سكان هاته البلاد في أم درمان وهم سكان مديريات الخرطوم
وسنار وفيزوغلي أنزلهم التعاشي في أم درمان في أماكن متفرقة حيث جعل
سكان كل قرية أو مدينة وحدهم فهلكت ماشيتهم التي لم تجد مرعى بام
درمان وانتدب التعاشي سرية من رجاله تحت قيادة (أبوأم فضالي) ليمروا على
القرى ويقبضوا على من تخلف عن امتثال ما أمر به التعاشي فخربت هذه
السرية ما بقي من القرى ومد رجالها أيديهم الي الحاصلات المخبوءة تحت الارض
فنهبوا ولم يبقوا على شيء منها

وكان سكان الجزيرة اكثر أهالي السودان دعة وسكونا وثروة
وبسبب هذا الانتقال فقدوا ماشيتهم وورثتهم وجاء هذا العمل من اكبر اسباب
تفشي المجاعة في السودان وهي مجاعة سنتي ١٣٠٦ و ١٣٠٧ اللتان أبادتا النفوس
وخربتا البلاد

وبعد استقرار هذه الحلات في تلك المنازل استعرضها التعاشي في أم درمان
مرات عديدة ثم بعد مضي بضعة شهور أذن للمزارعين بمغادرة أم درمان لمزاولة
الزراعة فمادوا وقد عم الدمار بلادهم ولم يجدوا حاصلاتهم التي أودعوها
في بطن الارض فسادت حالتهم وأقاموا موسم الزراعة ولم يعودوا الي

أم درمان وسعود الى وصف تلك المجاعة وفشت أمراض الجدري والحُميات بين أهالي الجزيرة وصارت الوفيات في كل يوم تعد بالآلاف والحاصل ان أهالي الجزيرة هلك نحو نصفهم بالأمراض التي تفشت فيهم وذهب الباقون الى مزارعهم بالحالة التي وصفناها

ذكر تخريب الخرطوم

ذكرنا ما كان من أمر التعايشي مع اسرى الخرطوم يوم جمعنا في المقرن وأمرنا بمغادرة الخرطوم والسكنى بأم درمان وبقي بعض الامراء ساكنين في الخرطوم ولما عزم التعايشي على تخريب مدن الجزيرة أصدر أمراً للدراويش الذين كانوا ساكنين في الخرطوم بهدم المنازل التي يسكنونها وحمل الاخشاب لتشييد منازل بأم درمان فكانوا يهدمون الدور يأخذون الانقاض يشيدون بها منازلهم في أم درمان وهكذا تم خراب الخرطوم حتى لم يبق من المنازل غير بضعة دور حوالى (الترسانة) أبقى لسكنى عمال الترسانة وبقيت الحدائق التي على ضفة النهر عامرة يبيع بيت المال محصولاتها وتجلب منها الفاكهة والحضراوات الى أم درمان واحتكر التعايشي لنفسه حديقة سراي الحكمدارية وكان المهدي وهب أحمد شرفي إحدى حدائق الخرطوم الكبيرة واختص الخليفة شريف بحديقة كنيسة الكاثوليك والحاصل ان الخرطوم صارت خرابا بلقما ومنازلها وقصورها تلالا والدوام لله

ذكر فرار المؤلف وارجاعه الى أم درمان

في أول سنة ١٣٠٥ هجرية بعث لي صهرى عثمان فهمي باشا مائتي جنيه

انكازى مع شخص اسمه الحاج صالح على من قبيلة العباددة فدفع لى منها
 مائة جنيه واقتال المائة الثانية فاخذت المائة جنيه ولم أطلع أحدا على أمرها
 وفي غضون ذلك جاءنى اعرابيان من قبيلة الكبابيش واخبرانى ان محمد
 ماهر باشا محافظ القاهرة الآن ووكيل محافظة الحدود وقتئذ أوصاهما بمساءدنى
 على الفرار ووعدهما بمكافأة قدرها مائتا جنيه لى وصولى الى الحدود المصرية
 وبعد ان تداولنا فى كيفية الفرار قال لى اناسفر من أم درمان على احدى السفن
 الشراعية قاصدين (الترعة الخضراء) التى تبعد عن أم درمان مسيرة ثمانى
 مراحل جهة الجنوب على النيل الابيض ثم تقصد جهة (شركيله) فى الجنوب
 الشرقى من إقليم كردفان ثم نخطي الجمال من هناك ونحترق إقليم كردفان
 من الجنوب الى الشمال حيث نكون فى جنوب (صحراء بيوضه) التى نحترقها
 الى الشمال وينتهي سيرنا بالوصول الى حلفا

على ان اختراق الصحراء كان يستدعى مسيرة ثلاثين مرحلة بسير الهجن
 الحديث عدا مسافة السير من الترعة الخضراء الى (شركيله) وجهات كردفان
 الشمالية وقد كانت هذه الرحلة على ما فيها من الشقة كافلة لنجاتى وخلصى من
 الاسر اذ المسافر فيها يأمن ان يدركه رجال التمايشى الذين لا يعرفون هذه
 الطريق وغاية ما يفعلونه ان يتأثروا القارين فى الطريق التى تمر على بربر
 والصحاري التى حولها

ولما اجتمعت أمرى على الفرار مع ذينك الاعرابيين اللذين تعهدوا لى
 بأنهما لا يأخذان شيئا من النقود قبل ان نصل الى الحدود المصرية تركت
 لعائتى خمسين جنيها من المائة جنيه ودفعت نحو عشرين جنيها كنت مدينا
 بها لبعض التجار ولم أخبر أحدا بأمر الفرار وقات لعائتى انى ذاهب الى جهة

قرية في البحر الأبيض لاعدود منها بشيء من الذرة تقتاتون به وتزودت
بشيء من خبز الذرة المجفف وأخذت قليلا من البصل وركبنا السفينة ومعي
الاعرابيان وقد أوصياني بالابتعاد عنهما والتظاهر بعدم معرفتهما مادمننا
في السفينة فغادرنا أم درمان وكان الفصل شتاء وليس معي غير الوعاء
الذي فيه خبز الذرة وملاءة من الانسجة الخفيفة المسماة (مرمر) ومعي
ثلاثون جنيا انكازيا وضعتها في منطقة من الجلد تمنطقت بها تحت الملابس
وبعد مسيرة أربع ليال رست بنا السفينة في ساحل الترعة الخضراء فحملت
وعاء الزاد ونزلت من السفينة والماء يكاد يبلغ تراقي والشاطئء بعيد عنا بنحو
خمسة مائة متر وتعني الاعرابيان كأنهما لا يعرفان من امرى شيئا فخرجت من
الماء وقد جمد الدم في عروقي من شدة البرد فلجأنا الى غابة مظلمة
تأر فيها الاسمد وتتوابع فيها النور والذئب وسائر الضواري فقضينا تلك
الليلة حول نار أوقدناها للاصطلاء بها واتقاء السباع لأن صاحبي قال لي ان
السباع تفر ولا تقترب منها وقضينا مدة الليل لم يزر الكرى لنا اجفانا ولم
نضطجع على الثرى

وفي الغداة سرنا نحن الثلاثة على اقدامنا نحترق الغابة متجهين الى جهة
الجنوب الغربي وقضينا مدة النهار في السير حتى أرخي الليل سدوله فسمعنا
نباح الكلاب حيث وصلنا الى قرية (الترعة الخضراء) وهي قرية كبيرة
سكانها زهاء خمسة آلاف نسمة ثم غادرناها واتهينا الى اكواخ خربة فدخلت
انا وواحد منها في أحدها وذهب الآخر الى القرية كي يعود منها بالجمال
فذهب بعد ما قطع غصنا من الشوك ووضعه على باب الكوخ فاضطجعت حتى
كان الثلث الاخير من الليل جاء صاحبنا الذي ذهب الى القرية بجملين فامتطياهما

وارد فني أحدهما خلفه وماسرنا نحو عشرين ميلاً وسط الفلاة ووجهتنا الجنوب
 الغربي حتى اسفر الفجر وهكذا ظللنا سائر نهار كله حتى مضى الثلث
 الأول من الليل حيث بلغنا (شركيله) في حدود كردفان الجنوبية وهناك
 نزلنا ضيوفاً على اعراب حلفاء لصاحبيّ فقدموا لنا جانباً من اللبن الحامض
 وخبزاً من الذرة وفي الغد قلت لصاحبي هيا بنا نتابع سيرنا فقلاً اننا منتظران
 شخصين تركناهما في أم درمان ليا تيا باناس فارين مثلك فضقت ذرعاً من هذا الكلام
 وأخذت في حثهما على السفر وأظهرت تخوفي من اقتضاح الامر اذا عثر بنا الدر اويش
 فلم يصغيا لقولي وأقننا في (شركيله) سبعة أيام ننتظر القادمين من أم درمان فلم يأتيا
 وفي صبيحة اليوم الثامن جلست أمام الكوخ فاذا اناب شخص راكب على حمار وخلفه
 عبد فأمنت النظر فيه فاذا هو قبطي من ككتبة جيش يعقوب أخي
 التمايشي فتقدمت للسلام عليه فترجل عن دابته وحياتي وصاحني وعلامات
 الدهشة بادية علي وجهه ثم ابتدرني بالكلام قائلاً ان الحليفة فقدك وقد
 سير الركبان الى كل الجهات في طلبك فقلت له اني قصدت هذه الجهة لان
 لي بها صديقاً قديماً أرجو أن أتال من رفته دريهات ثم استحلقتة على أن
 يكتم خبر رؤيته اياي في ذلك المكان خلف أن لا يذكر شيئاً من هذا الامر ثم
 انصرفت وتابع هو سيره قاصداً كردفان وعدت الى صاحبيّ فاخبرتهما بما
 أنبأني به القبطي وقلت لهما إما أن تسيرا بي في هذه الليلة واما أن ترجعاني الى
 الترة الخضراء فقلاً لا سبيل الي السير مالم يجيء صاحباناً فألححت عليهما
 بارجاعى الى الترة الخضراء وقضيت ذلك النهار وفي الاصيل رضيا باعادتي
 الي الترة الخضراء فكباهجيتيهما وأردفني أحدهما خلفه وابتدأنا السير من أول
 النهار وفي الغلس وصلنا الي ضفة النيل الابيض عند المسكان الذي رست فيه

السفينة فأراد صاحبها أن يرجع على أعقابها فألححت عليهما بالبقاء ريثما يتأرجح الصباح ولما بدأت طلوع الصباح وولت جيوش الظلام ودعاني وعاداني طريقتهما إلى (شركيله) والسباع تزجر حولي فحمت وعاء الزاد وسرت على ضفة النهر فوق بصري على زورق يشبه قوارب الصيادين فدنوت منه عساني أجد عنده أنيسا فلم أجد فقلت في نفسي لا بد لهذا القارب من صاحب يأتي إليه فكشفت نحو ساعتين ولما لم يأت احد وأدركني بأس عظيم هون على حياتي التي سئمتها دخلت في الزورق وقذفته في لجة البحر ووضعت وعاء الزاد تحت رأسي واضطجعت في الزورق الذي توسط لجة النهر وسار به التيار إلى جهة الشمال وظل هكذا حتى اذا كان الاصيل أبصرت قرية على ضفة النهر الغربية فرسا الزورق عند هذه القرية فوثبت للنزول إلى البر فأمسك بملابسي شخص وقال لي (يا ولد الريف ياسارق) ولطمني على وجهي عدة لطمات فأخذت أنضرع له وكنت أود أن أعطيه جنيتها من الثلاثين التي معي ولكنه مديده وسلب مني ملاءتي وعمامتي ومنطقتي ثم انصرف فدخلت القرية وسألت هل بها مصري فقيل لي ان فيها مصريا اسمه عبد الفتاح فقصدت محله فاذا هو ضابط برتبة ملازم ثان كان بحامية الخرطوم فتلقاني بالاكرام وأخبرني بان رسل الخليفة قصدت جميع الجهات في طلبي فأخرجت بضع جنهات وقلت له أدركني بشراء عشرة أرادب من الذرة لاضعها على ضفة النهر وأجلس بجانبها حتى اذا أدركتني رسل الخليفة وجدتي على هذه الحال فأسرع عبد الفتاح بشراء عشرة أرادب من الذرة ووضعها على شاطئ النهر وجالست بجانبها وفي ضحوة الفهد بينا كنت مضطجعا أبصرت راكبين قد أناخا هجينهما بالقرب مني وبصرهما مصوب نحوى فعقلا جليلهما وتقديما

نحوي فوقفت لهما وصاحفهما فجلسا بين يدي بأدب ووقار فقلت لهما أأنتما قادمان من البقعة المنورة فقالا نعم فقلت لعل خليفة المهدي عليه السلام بخير فقالا نعم بخير وهو يقرأ عليك السلام فوقفت على قدمي أجلا لا لذكر الخليفة وقد طار قلبى فزعا من هذا الكلام ثم قال لي ان الخليفة يدعوك للحضور عنده فقلت ولماذا لم تخبراني بذلك قبل التحية لان أوامر الخليفة يجب انفاذها في الحال فسالني أين غمامتك ومنطقتك فقلت سرقهما اللصوص مني في هذا المكان فقالا وما الذي جاء بك الي هذا المكان فقلت قصدت بعض معارفي هنا فاحسنوا عليّ بهذه الذرة وعا أنا قديم لأجل حراستها ريثما تمر سفينة أحمله عليها وأقصد اذ ذاك أم درمان فقالا اننا نريد إشخاصك معنا الي أم درمان فكيف تقابل الخليفة بلا عمامة ومنطقة فارسلت في طلب عبد الفتاح فاسرع بالحضور وقال للرسولين انه جاء اني هذا المكان بقصد ان يحصل عليّ شئ من الذرة يناله من أولى البر والاحسان فجمع هذا القدر من الذرة وأخيراً أعطاني عبد الفتاح عمامته ومنطقته وترك الذرة وديعة عنده ريثما يجد سفينة يرسلها بها الي بام درمان ثم قمنا للسفر فاردفني أحد الرسولين خلفه وغادرنا قرية (ولد الزاكي) قاصدين أم درمان وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصلناها قبيل العصر وانخنا الجمال امام باب دار التعاشي الذي خرج علينا فقال له يوسف منصور ها هو عبدك ابراهيم فوزي فالتنت الي وقال الي أين ذهبت يا ابراهيم فوزي فقلت يا مولاي اني شخصت الي احدى قري النيل الابيض لانال شيئاً من احسان أولى البر فجمعت عشرة أرادب من الذره فلم أجد سفينة شرعية تحملني فالتت في حراسة الذرة حتى جاءني هذان الرسولان وهنا قصص عليه الرسولان ما راياه من حالي فسكن جاشه وقال من الذي أذنك بالسفر فقلت أخذت اذنا من المقدم وهو قائد عشرين

مقاتلا في ترتيب جيش الدراويش فقال لي أمثلك يكون اذنه بيد المقدم فقلت
 كلا ولكنني اضطررت لهذا السفر بسبب ما لحقني من الجوع وضيق العيش
 فصاح التمايشي قائلا أين القاضي أحمد علي جنيء به فقال له أسلم هذا وأشار
 اليّ لاحد الاعراب المواظبين على الصلاة بالمسجد ليكون رقيبا عليه فاسلمني
 القاضي الي بقارى كان أول كلمة سمعتها منه قوله لي (يا ولد الريف لماذا أنت
 ضخم هكذا) فاحنيت رأسي تدللاً له وقلت (هكذا خلقني الله) وبعد انقضاء
 صلاة العصر قال لي (يانوبي) وهي كلمة يقولها البقارة لكل انسان لم يكن
 بقاريا من جنسهم وهي تدل على ان المنادى بهارقيق الي أين تذهب فقلت
 الي منزلي فقال أذهب معك لأنعشى معك فقلت لا بأس فذهب معي وتناول
 الطعام وسأود الي ذكر بقية أخباري مع هذا البقارى الذي ظلت أربع
 سنوات في اسره وتحت مراقبته

أما نبأ غيابي فقد وصل الي الخليفة بعد غيابي ببضعة ايام من يوسف
 منصور الذي كان موكلا ببحراستي منذ سقوط الخرطوم وهو من ضباط
 الحكومة وقد هال التمايشي امر غيابي حيث أيقن اني فررت الي الديار المصرية
 وفي مساء يوم وصولي لأم درمان أظهر التمايشي من الفرح والسرور
 ما حمله على أن دعا نفاخي الابواق وعازفي الطبول فقصوا ثلاث ساعات في
 اللغو والطرب ولم يخرج التمايشي لصلاة العشاء الا بعد منتصف الليل والحاصل
 أنني أنفقت في بضعة شهور نحو عشرين جنيها من الثلاثين جنيها التي كانت
 معي في سبيل مدارة الاعراب الموكل بي ولولا ان الله لطف بي ووصلت الي
 نقود مرسله من صديقي الحميم محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن لأوقعني ذلك
 الرقيب في مهاوى الهلاك وسيأتي ذكر الرسائل والله الموفق

ذكر حرف المؤلف

ذكرت اني كنت مقبلاً بجوار منزل يوسف منصور وبجوارى ضابط
 برتبة يوزباشى اسمه على خير الدين كان بحامية سنار
 وفي ذات يوم زارني أحد معارفى من أهالى السودان فأعطاني
 خمسين ريالاً مجيدياً وأعطى جاري على خير الدين عشرة ريالاً ثم
 انصرف فقال لى جاري أرى اننا فى حاجة شديدة الى حرفة نرتزق منها فقلت
 ماهى الحرفة الذى ترى اننا قادران على القيام بها فقال نفتح حانوتاً نبيع فيه
 (القهوة) فى ساحل الموردة فقلت لا بأس وذهبنا الى ذلك الساحل واشترينا
 بوصاً وأخشاباً واستأجرنا أناساً عاونونا على تشييد كوخ فرشناه (بالابراش)
 وهى نوع من الحصر يصنع من الخوص وفى اليوم التالى فتحنا الحانوت وما
 مضت ساعتان على فتحه حتى جاءنا الحاج خالد العمرانى محتسب ساحل الموردة
 وقتئذ وأمرنا بهدم الكوخ فأخذنا نتضرع له ونستعطفه فلم يجاوبنا بغير
 الشتائم القبيحة ومنها يا كفار يا أولاد الريف يا أسرى وأخيراً أمر أعوانه بهدم
 الكوخ فهدموه ونهبوا أدوات القهوة وأخذوا الحصر والاششاب ولم يتركوا
 لنا شيئاً من البوص وكانت نفقات تشييد هذا الكوخ قد بلغت عشرين ريالاً
 مجيدياً عدائماً أدوات القهوة فقلت لصاحبي على خير الدين ماذا نعمل فقال نبتعد
 عن ساحل الموردة ونشيد كوخاً آخر نبيع فيه القهوة أيضاً فقلت ان مابق
 لدينا من المال لا يكفي لتشييد كوخ آخر فقال نفق مابق عندنا من النقود
 أما ثمن البن فقد اتفقت مع تاجر مصري يبيع البن على أن نشتاين منه
 ما يكفيننا من البن فابتعدنا عن دائرة نفوذ الحاج خالد العمرانى وشيدنا كوخاً

آخر وباشرنا بيع القهوة فيه

ولما أبصر من حولنا من الدراويش حانوتنا صاروا يترددون علينا شرب
القهوة وإذا طلبنا منهم ثمنها أهانونا وضربونا وانصرفوا وبعضهم يقول لنا
أتركوا نحن القهوة (في شان الله) اى لوجه الله فاذا قلنا لهم لا نتركه يضربونا
ويقولون انكم مازلتكم كفاراً

ومكثنا نحو شهر نباشر هذه المهنة وقد بلغ ماتدايناها من التاجر عشرين
ريالا لم تحصل منها على اكثر من ستين قرشا وما بقى ذهب بين (في شان
الله) وبين ديون على بعض دراويش لا تقوي على مطالبتهم بسدادها لاننا
موقنون أننا لو ذهبنا الى مطالبتهم لقينا مانكره وربما رمونا بتهمة
السكر وساقونا الى موقف يستحيل عودتنا منه سالمين فهدمنا الكوخ
وبعنا أخشابه وحصره وأدوات القهوة وذهبنا الى التاجر لنوفيه حقه فتنازل
عن النصف ودفعنا له النصف الآخر ثم زين لصاحبي عقله أن نحترف بمهنة
شراء البطيخ من المزارع وبيعه فاستحضرنا ثلاثين ريالاً مجيدياً جعلناها
رأس مالنا وذهب صاحبي الى قرية (الميلقون) واشترى بطيخاً شحن به مركبا
صغيرة وعاد الى أم درمان في مصر وكان ذلك في شهر رمضان فأخرجنا
البطيخ من المركب ووضعناه على شاطئ النهر زيمان نبيعه للبيعة وذهبت الى
منزلي وتركت صاحبي يحرس البطيخ وبيننا كنت عائداً من المنزل رأيت
موكب التمايشى ماراً فابصرت الدراويش الذين خلقه قد اختطفوا البطيخ
وبعد ان اجتاز الموكب ذهبت الى صاحبي على خير الدين فالفيتة جاثياً على
ركبتيه واضماً يديه على رأسه شاخصاً ببصره الى الارض ووجدت
عنده بعض بطيخ مهشم فعضم على نهب البطيخ واكفني أخذت في

تسليته وتهوين المصيبة ومازلت به حتى أخذته وذهبنا الى منازلنا وكان التعالشي ذاهبا بموكبه الى منزل له بالقرب من هذه الجهة وبعد ان أوصلت رفيقي الى منزله ذهبت خلف التعالشي فوجدته جالساً في المسجد فقال له أحد الحاضرين ان ابراهيم فوزي ورفيقا له كانا يبيعان البطيخ فداهمهم الانصار ونهبوا البطيخ فقال (في شأن الله) ثم قال لمخاطبه من هو ابراهيم فوزي كأنه لا يعرفني فوقف بين يديه فقال هل البطيخ الذي أخذه الاخوان لك فقلت نعم فقال ومن أين لك رأس المال فقلت تدانته من بعض الناس على شرط ان يكون الربح بيننا فقال وماذا قلت لما أخذه الانصار فقلت لم أقل غير (في شأن الله وفي حب سيدنا الخليفة) فتبسم وقال أهكذا قلت مع ان رأس المال دين فقلت لم أقل غير ذلك ثم حان وقت الافطار فدخل التعالشي داره وذهبت الى منزلي للافطار أيضا ثم عدت وأنا لا أشك في انه سيعطيني تمويضاً فقضيت الليل حول مقصورته حتى انتهت صلاة القيام ودخل الى منزله وبعد أيام قلائل ارسل لي مع أحد خدامه أربعين ريالاً من الريال المسمى (مقبول) الذي تقدر قيمته وقتئذ بخمسة قروش

وفي اليوم التالي قال لي صاحبي على خير الدين ان كثيراً من الذين يتبايعون البقر والنعم يرغبون ان يكتبوا عقوداً بين البائع والمشتري يضمونها أوصاف البهيمة المشتراة وان أجرة تحرير عقد بيع الراس من المعز أو الضأن قرش ومن البقر قرشان وكذا الابل فذهبت مع صاحبي الى السوق واستأجرنا مظلة من البوص وجلسنا تحتها وجاء أصحاب الماشية للبيع فاخذنا نكتب العقود فاجتمع لدينا نحو أربعين قرشاً قبل ان ينتصف النهار ثم أذن لصلاة الظهر فجاء الدراويش بالسياط وأوسعوني وصاحبي ضربا وأخذوا ما جمعناه

وقالوا اذهبوا الى الصلاة ومن العادة المتبعة عند الدراويش أنهم يضربون الباعة
وأصحاب الحوانيت بالسياط لانهبوا لاداء الصلاة في المسجد والحقيقة انهم انما
يفعلون ذلك لينهبوا ما في الحوانيت من السلع فسرنا مع الدراويش الى المسجد
ونحن تلج في الضراعة وتلتمس الاحسان علينا بشيء من القروش التي أخذت
منا وبهد اللتيا والتي اعطونا خمسة قروش بعد ان اشترطوا علينا عدم مباشرة هذه
الحرفة لما فيها من كثرة الايراد وحيث اننا مصريون وكفار بزعمهم فلا يصح
ان نحصل على شيء يزيد على ثمن الخبز بلا اذام
هذا وقد استطاع صاحبي على خير الدين الحرب واللحاق بمصر بعد هذه
الكوارث بنحو عامين



ذكر عثمان الملقب بشيخ الدين بن عبد الله التعايشي
لما أفضت خلافة المهديوية الى التعايشي كان سن ابنه عثمان لا يتجاوز
عشر سنين تقريبا
ولما كان التعايشي ذا طموح لجعل الملك وراثيا في آل بيته مهد كل الصعوبات
التي تعترض هذا السبيل وحط من قدر انجال المهدي وسائر ذوى قرابته
وأخذ يعيرهم في مجالسه الخصوصية بانهم دناقله أسافل لا يصلحون لشيء غير
حراسة الابواب

وفي أواخر سنة ١٣٠٥ دعا ابنه عثمان وعمره لا يتجاوز اذ ذاك ثلاثة
عشر عاما وقال على رؤس الملأ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعه بلقب
(شيخ الدين) وانه مرشح ليكون خليفة رابعا ويجلس على كرسي عثمان بن
عثمان عليه سبحانه الرضوان

وبعد ان أعلن التعايشي بين أهله ترشيح ابنه عثمان للخلافة عاد فسكت
عن هذه المسألة ولم يتكلم عنها بعد لان اخاه يعقوب حذره من ولوج هذا
الباب وقال له انك ان فتحت باب الكلام في أمر الخلافة أوجبت على نفسك
السير على حسب ترتيب الخلفاء وإذ ذاك يجب تقديم على حلو خليفة الفاروق على
ابنك الذي تريد جملة خليفة لعثمان ولا يبعد ان الخليفة على حلو يحول بين الخلافة
وبين ابنك ويجعلها وراثته لأولاده اذا قدر له ان يخلفك فعدل التعايشي عن تولية
ابنه الخلافة واخذ في أسباب تناسي الناس ذكرى الخلافة واهمية الخلفاء فجلس
ذات يوم والناس حوله وقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم والحضر والمهدى
اخبروه بان لا خلافة بعده وان الملك والسلطان سيكونان بيد اقرب الناس اليه
وقال مرة ان النبي صلى الله عليه وسلم اخبره بعبارة مبهمه حيث قال له انت اربعون
فلم يفهم معنى الاربعين أهي اربعون عاماً ام اربعون شهراً أم اربعون يوماً
فاخذ من حوله من المتعلمين في البكاء وكان ابن النجومي حاضراً فقال لماذا
تبكون فقالوا لقد ساءنا ان سنى حكم سيدنا اربعون سنة فقال لهم التعايشي
سواء كانت سنو حكمى اربعين سنة أو اربعين شهراً أو اربعين يوماً فانه لا يبتى
بمدي على وجه الارض مؤمن وان الساعة لم يبق عليها غير ما هو باق من أجلى
وفي هذه السنة أى سنة ١٣٠٥ زوج التعايشي ابنه عثمان بنت عمه
يعقوب وبالرغم عن التقاليد التي سنها المهدي بتخفيض مهر البكر الى عشر ريات
والثيب الى خمس ريات وتحذيره من الاحتفالات في ليالى الاعراس وتوعده
من خالف هذه القواعد بالعقوبة الصارمة تغالى التعايشي في إظهار الإبهة
في الاحتفال بقران ابنه حيث اقيمت الافراح وادبت نحو خمسين مأدبة
حضر كل واحدة نحو الالفين من المدعوين ومع بساطة الأطعمة في هذه المآدب

التي كانت قاصرة على اللجوم والتمر وبعض الخضراوات قد بلغت نفقاتها
قدراً طائلاً من المال

وكان لحمدان أبي عنجة دار كبيرة شيدها بالآجر واللبن الاحمر فاخذها
التعايشي وأسكن فيها ابنه عثمان ومن ثم ظهر عثمان بن التعايشي بمظهر الامارة
وحاول أبوه ان يولييه قيادة الجيوش ويستورزه بدل أخيه يعقوب الذي اضرب
لعثمان الكراهة وأوجس خيفة من ان يشرع أخوه التعايشي في اقصائه عن
منصبه ويستعويض عنه بابنه عثمان الذي أخذ يجاهر عمه يعقوب بالمداداة ويعيب
أعماله ويشدد النكير عليه حتى أفضى ذلك بينهما الى مناظرات شديدة ظهر بها
للتعايشي ان قبائل الاعراب البقارة سيما التمايشة شديدو التعلق بأخيه يعقوب
وانهم منقادون له انقياداً أعمى وكثير من القواد صنائه وفي الحقيقة ان صفات
يعقوب هي التي جذبت هؤلاء الاقوام وجمعت قلوبهم على ولائه والاخلاص
له لانه كان اكرم خلقاً من أخيه التعايشي وألين جانباً منه ولشدة دهاؤه وتفنته
في أساليب الخداع كان لا يباشر أحداً بسوء أما سياسة أخيه فكانت خرقاء ولذا
كان لا يظهر بغير مظهر القوة والجهروت فامتلات الافئدة برهبتة وفزعت
من قهره ومالت الى جانب أخيه يعقوب الذي كان قابضاً على زمام أعطية الناس
وبيده ارزاقهم فمن أراضاه منهم أمن غائلة أخيه التعايشي وتناول عطاءه وحصل
على رزقه وان كان من أولى الوظائف فانه يصير آمناً على وظيفته بعد ان يؤدي
الى يعقوب مايفترضه عليه من المال وسيأتي أن ماكان يتناوله يعقوب من
رشا الوظائف وغيرها كان يدفعه الى أخيه التعايشي

هذا وقد ايقن التعايشي ان محاولة اقصاء يعقوب ستكون ذات
منفعة سيئة وكان يخشى أن يهب لمناواته حيث ان القوة في جانب أخيه

كانت ارجع منها في جانبه فضلا عما يعلمه من سير ابنه الذي شب ولا هم له غير
 اللهي والتفاني في حضور ليالي الرقص وشرب الخمر مع ان المهدوية منذ ظهر رها
 شددت التركيز على الراقصات وسنت العقوبة الشديدة عليهن كالجلد بالسياط
 وحلق الرأس ومصادرة الاموال وفي الحقيقة ان المهدوية بسنها هذه الاحكام
 احسنت صنعا لان عادة الرقص سيما في الاعراس من اقبح عوائد السودان
 واشدها مساسا للآداب العمومية اذ يجتمع في ليلة الزفاف عدد كبير من
 الشبان والفتيات يغنون بانغام مختلفة بين ثقيل ووسط وخفيف ويطنبرون
 باصوات مزججة كأنها حشرة الصدور ثم ترقص الفتيات ومن ضمنهن
 العروس على هذه الانغام ويحنن ظهورهن حتى تكاد رؤسهن تمس الارض
 واجسامهن عارية ليس عليها غير الخلي وعلى عوراتهن سيور من جلد طولها
 أقل من عشرين سنتمتر تري من خلالها عورة الراقصة وتسمى هذه
 السيور (الرهط) ويظل الرقص والغناء مستمرا في منزل العروس مدة
 أربعين ليلة أو لاهن ليلة الزفاف

هذا ولعمد الى ذكر عثمان شيخ الدين الذي طرح الوقار وتهتك في حب
 الراقصات ووالي السهر في ليالي الرقص وجمع حوله عددا كبيرا من المغنين المطنبرين
 وأخذ عمه يعقوب يرفع الى والده التماسي أخبار ما يقف عليه من قبيح سيره
 واسترساله في قضاء الشهوات وشرب الخمر ولم يترك بابا من أبواب الفسق الا
 ولجه وبالجملة انه ظهر في مسرح الخلاعة وضروب الفحش والمتهتكين وامسى ولا هم
 له غير اغتصاب كل بنت تعجبه والتمتع بها بضع ليال وجمع حوله عددا كبيرا
 من الخنثين وصار الامراء وسائر الناس يخفون اولادهم عنه حيث كان
 يأخذهم بصفة حراس وخدام له ولم يعمل أبوه لكبح جماحه عملا

سوى انه كان في بعض الاوقات يقبض على بعض ندمائه ويهدمهم الى جهات
خط الاستواء

هكذا وقد مد عثمان يده الى الجباة وامراء الجهات فكانوا يدارونه
بالهدايا اتقاء شره وكانوا في حيرة من أمره لان عمه يعقوب كان يحذرهم
من إعطائه شيئاً من بيت المال

وجمع التماشي نحو أربعمائة من غلمان الاحباش الذين أخذوا أسرى في
حروب الاحباش واركبهم الخيول الكريمة وجعلهم حراساً لابنه

وقد حذا حدو عثمان شيخ الدين في جميع اخلاقه واطواره شبان البقارة
الذين شبوا في أم درمان وصرت تري دور أمرائهم وقوادهم خاصة بالمغنين
والمطنبرين وانغمسوا كلهم في الترف واللغو وشرب الخمر حتى صاروا يتباهون
بذلك ويفاخر بعضهم بعضاً بهذه المنكرات وسيأتي الكلام على المخنثين وما
كانوا يعاملون به في ايام المهديين ثم ما صارت اليه حالتهم من الانقلاب
على عهد عثمان شيخ الدين واضرابه من شبان البقارة

والحاصل ان التماشي رأى ان لا مناص له من ترك أخيه يعقوب يشاطره
النفوذ والسلطان في ملكه بالرغم عن طموحه لرفع شان ابنه وترشيحه لنيل
الملك من بعده ويهد الله كل شيء

الكلام علي الخراج والجباة والعمال

عقدنا هذا الباب لنا في فيه على ذكر نظامات المهديين وعواندهم
في جباية الخراج وتعيين الجباة والعمال اذ من هذا الباب يقف القارئ على
نظامات القوم ويعرف أساليب الخراج وتعيين الجباة فنقول

تنقسم البلاد السودانية في كيفية جباية الخراج الي قسمين. القسم الاول
 أمراء البلاد الذين لهم شبه استقلال في اماراتهم ولاسلطة لأمين بيت
 المال عليهم وهؤلاء أمراء شرق السودان كعثمان دقنه وأمير دنقلة عبد الرحمن
 النجومي والذين خلفوه وأمير جيش النلابات حمدان أبي منجبة ومن خلفه
 وأمير دارفور وكردفان عثمان آدم ومحمود أحمد الذي خلفه بعد وفاته وكذلك أمير
 بربر فهؤلاء الامراء لهم شبه استقلال في أعمالهم بحيث يقتلون وينفون في دائرة
 نفوذهم لانهم يقودون جيوشا جرارة ويحكمون على عدة أقاليم ولكل واحد
 من هؤلاء الامراء بيت مال خاص وسجن وشرطي خاص بامارته وهو الذي
 يعين الجباة من طرفه وينفق ما يجتمع في بيت ماله على الحامية التي تحت إمرته
 وكانوا في ظاهر الحال غير مكافئين بارسال شىء من خراج بلادهم الى أم درمان
 ولكن الحقيقة انهم يؤدون اكثر من نصف ما يجمعونه من الخراج الي يعقوب
 أخى التمايشي بصفة هدايا واذا صودرت أموال أحد الاغنياء فان القيمة
 التي صودرت ترسل برمتها للتمايشي وأخيه وابنه وفي جميع الاحوال كان
 ما يرسل الى الخليفة من نوع الذهب والفضة الخالصة ونوعي الريال
 المجيدى والنمساوى وان كان الذهب أحب هذه الاصناف الي التمايشي .
 والقسم الثاني جباة صغار يعينهم أمين بيت مال أم درمان يبلغون عشرة
 جباة كل جاب لا تتجاوز دائرة نفوذه قسما من أقسام مديرتي الخرطوم
 وسنار وهذان الاقليمان هما اللذان بقيا تابعين لبيت مال أم درمان

اما الخراج الذي يجبي فهو عبارة عن عشر الجبوب وزكاة الماشية من النعم
 والبقر والابل حسب الفريضة الشرعية وزكاة الفطر يأخذونها قهراً من كل من
 صرهم وليس بيده قسيمة بتوقيع أحد العمال تفيد انه أدى زكاة الفطر وزكاة المال

تؤخذ قسراً من التجار ومن يظن انه ذومال

هذه موارد خراج المهذوبين ومقاديرها ظاهرة ولكن الحقيقة انهم كانوا يأخذون اكثر من ثلث محصول الجبوب وهذا اذا لم يدعوا على المزكي انه شرب خمرأ أو استعمل دخاناً ليتوصلوا بذلك الي مصادرة أمواله كلها

ويدفع الجابي قبل تعيينه الي يعقوب النى ريال من العملة القديمة ونحو خمسمائة ريال الي أمين بيت المال ونحو خمسمائة ريال لكتابة يعقوب وبيت المال وحجاب يعقوب فالجملة ثلاثة آلاف ريال ثم تصدر الاوامر من التمايشى بتعيين أولئك الجباة فينادرون أم درمان في شهر محرم من كل سنة ويعودون اليها في العشر الاولى من شهر ذي الحجة فيؤدي كل جاب اثني عشر الف ريال الي يعقوب ونحو خمسة آلاف أردب من الفلة عدا الماشية من أنواع البقر والغنم وعدا الركائب الجيدة من الخيول والحمر الاهلية والهجن وعدا هذا وذلك الجوارى الحسان

واذا صادر الجباة أموال أحد الناس أرسلوا المال كله الي يعقوب والوہل

ثم الوہل لمن اخفى ولو شيئاً نافعاً

وجملة القول ان ما يتناوله يعقوب كان يبلغ خمسة وعشرين الف ريال ولا يحيص للجابي عن تقديم مثل هذا القدر الي بيت المال عدا ما يرشى به أمين بيت المال فيكون المجموع نحو ستين الف ريال أما الفللال فانها لا تدخل تحت حصر لكثرتها ثم ان الجابي وكتبته واعوانه يتناولون من المال ما لا يقل عن نصف هذه القيمة عدا نفقاتهم مدة العمل حيث الأهلون مكافون بتقديم الاغذية لهم والعلف لدوابهم

ولا يفوتن القارى ان ما كان يتناوله يعقوب من الرشوة كان يصل خزائن

التعاشي بحيث لا ينتفع يعقوب منه الا بالطفيف
وكثير من كبار اصراء البقارة يرسلون المال رأساً الي التعاشي بدون
وساطة يعقوب وللاسباب التي سردناها تحولت ثروة السودان الي خزائن
التعاشي وأخيه وابنه وقبيلته وبات الاهلون يقاسون الفقر المدقع ليس
لديهم من المال غير ما يحرثونه وليت المهدوية كانت تترك لهم من ثمار أرضهم
ما يقوم بحوائجهم الضرورية ولا حول ولا قوة الا بالله

ذكر المختنين

يوجد في بلاد السودان مختنون يتشبهون بالنساء في ملابسهم وربما
سدلوا شعورهم مثلن وهم يأرون الى اماكن المومسات ليقوموا بمهنة القيادة
اليهن ولا تخلو بلد من بلاد السودان من مومسات اكثرهن من الجوارى
التي يفرض عليهن مواليهن ضريبة يقمن باداؤها في كل شهر وقد جاء في كتاب
(السيف والنار) ذكر أولئك البنايا ومواليهن الذين هم وجود أهل السودان
واغنياؤهم ولأعيب عندهم في ارتكاب البنايا هذا الفعل الشنيع لما ان هذه
العادة قديمة متأصلة عند أهالي السودان ولذا لا يأنفون من أخذ المشاهرة
من هؤلاء الجوارى

ولما ظهرت المهدوية وأقيمت الحدود الشرعية على الزانى والزانية مد
المهديون أيديهم الى البنايا فاغضبوهن من ملاكهن بصفة سبباى وبقي أمر
المختنين على ما هو عليه حيث ظالوا قائمين بحرقهم في أمكنة الفجور السرية
وفي سنة ١٣٠٤ قبض التعاشي على مئات منهم وزجهم في ظلمات السجون
وعذبهم بالاشغال حتى اشرقوا على الهلاك ثم استتابهم وجعل عليهم حراساً

ورقباء وأمرهم بمواظبة الصلوات الخمس في المساجد فتركوا التشبه بالنساء
وصاروا في وجل شديد ثم انه قبض على كثيرين منهم أيضاً ونفاهم الى خط
الاستواء فلقوا حتفهم في الطريق قبل أن يبلغوها

ولكن مالبثنا بضع سنوات حتى رأينا لرقباء والمولكين بالخنثين قد تركوهم
وشأنهم وصرا ناري أولئك الخنثين قد عادوا الي ما كانوا فيه من التشبه بالنساء
وارخاء الشعور وصار عدد ليس بقليل منهم يسكن دور عثمان شيخ الدين
واضرابه من شبينة البقارة ومنهم محمود احمد اسير وقمة ابره وأخوه ابراهيم
الخليل فتعلق الناس بالخنثين وبعد ان كانوا لا يسكنون في غير محلات الباغيات
وأحياء المومسات صار مأواهم دور الأمراء ومنازل القواد ولا غرو فالناس
على دين ملوكهم وكان محمود احمد قد تعالي في تعلقه بالخنثين الذين جمع منهم
في منزله اكثر من عشرين واحدا منهم يرافقونه في الشخصوص الي دارفور
ويودون معه لدى قفوله راجعاً الي أم درمان

والبقارة يطلقون على الخنث اسم (عقريط) ومن ثم صار الخنثون أصحاب
الكلمة النافذة عند عثمان شيخ الدين ومحمود احمد وسائر الأمراء وبالجملة انهم
صاروا شفعاء لا ترد شفاعتهم عند عثمان وسائر الأمراء حتى صار أولئك الأمراء
المفتونون يناظرون بعضهم بأولئك الخنثين

وقد بلغ من تقرب عثمان شيخ الدين للمخنثين والانتصار لهم ان أحد
الرقباء الذين كانوا مولكين بمراقبة الخنثين وكان شديد الوطأة عليهم حتى كان
من أمرهم ما ذكرناه رماه بعضهم عنده بتهمة أنه يود إعادة المراقبة عليهم
قبض عليه وسجنه ولم يطلقه إلا بعد عناء شديد

ويزعم أولئك الأمراء انهم لم يأووا الخنثين في منازلهم الا ليوكلوا اليهم

أمر تطيب نساءهم وتدريبهن على أساليب الفنج والدلال لانهم على زعمهم
أعرف من نساءهم بهذه الاشياء وهو عذر ان صح نقته عنهم أقبح من الذنب
لانه لا يبعد أن يتمتع أولئك الخنشون بالنساء ويشاطرون هؤلاء الامراء المغفلين
الخطوة بهن كما ان العقل يستبعد سلامة أولئك الامراء من التلطيخ باوضار تهمه
الواطأ عاذنا الله منها

حوادث دنقلة وقتل ابن النجومي

لم نذكر من حوادث دنقلة غير وصول عبدالرحمن النجومي وهنا نذكر
بقية حوادثها الي سفره منها ومهاجته بعد ان اجتاز حلفا فنقول
لما غادر عبد الرحمن النجومي ام درمان قاصدا بربر ومنها الى دنقلة كان عدد
مقاتلته سبعين ألفا ولكنه لما وصل الي بربر تفرقوا عنه ولحقوا ببلادهم
ولم يبق معه منهم الا عشرون ألف مقاتل عدا الجهادية الذين يبلغ عددهم نحو
عشرة آلاف مقاتل وكان قد ارسلهم من بربر الي دنقلة تحت قيادة مصطفى
جبارة وكيل الجيش وكان قواد أولئك الجهادية آدم كرامة وسرور أبا عنجة اللذين
كانا في جنديفة المحكومة في الايام السالفة ولما وطئت اقدامهما أرض دنقلة
ورأوا أنفسهما قريين من حدود الحكومة اشتد ميلهما الي اللحاق بها
فتشاورا علي اضرام نار الثورة وشق عصا الطاعة علي المهديين فاجتمع ابا عنجار القواد
المرؤسين بهما وتحالفوا علي أن يباغتوا الدراويش ويأخذوهم علي غرة وعينوا
آدم كرامة قومنداناً عاما عليهم ولقبوه بآدم (باشا) كرامة ومنحوه رتبة
أمير اللواء ومنحو سرور أبا عنجة رتبة (أمير الأبي) وسموا لواءهم اللواء

الرابع وأحسن أمير اللواء على بقية الضباط بالرتب ومن بينهم واحد اسمه عبد الله محمد كان حائزاً للرتبة ملازم ثان من الحكومة الحديوية منحه رتبة الملازم فاستاء من ذلك وعده إهانة كبرى لشخصه ولكنه لم يخبرهم باستيائه . على انه لو أخبرهم بما داخله من الغيظ لنعوه ما يشتميه من الرتب ولكنه سكت فخالوا سكوته رضاً

وأجمع آدم كرامة وأعوانه على الوثبة على الدراويش في الغلس ورسومها كيفية الهجوم وانصرفوا الى منازلهم على ان يجتمعوا في وقت عينوه ولكن لم يتم لهم ما اردوا فقد ذهب عبد الله محمد الى مصطفى جباره واخبره بما دبره الجهادية فتقمص الجمد وجمع حوله الفا وخمسمائة فارس وارسل خمسمائة مقاتل قبضوا على آدم كرامة وسرور أبي عنجة وبعد ان سئلا فانكرا استشهد بعدد الله محمد الذي قال لهما انكما دبرتما كيت وكيت ثم ضربت اعناقهما وأعناق نحو عشرين من القواد الذين معهم وأرسل مصطفى جباره يخبر عبد الرحمن النجومي بهذه الحادثة وكان عبد الرحمن ينفذه فاتخذ هذه المسألة ذريعة الى الانتقام منه فكتب الى التعايشي يبيري الجهادية مامراً به مصطفى جباره وادعى انه ما قتلهم الا لقصده سيء فرد التعايشي على عبد الرحمن النجومي قائلاً ان الحضرة النبوية أخبرته بصحة ما قاله مصطفى جباره وان ما فعله لم يكن عن سوء قصد كما قال عبد الرحمن النجومي الذي غادر بربر على أثر هذه الحادثة ولحق بدقلة وتكاملت جيوشه بها

هذا وقد أئمننا الى ان النجومي كان من حزب الخليفة شريف الذي كان التعايشي يسمى في تلاشي أمره واضمحلاله وقد كان من أمر النجومي انه رغب عن الخليفة شريف واحتقره ومال الى التعايشي الذي قابل ميله بالفتور وعده

خيانة توجب الازدراء بمرتكبها وكان ابن النجومي ذا بساطة فطرية مع به
فلم يظن لطفوته هذه وبقي منزلاً للتعاشي
وبعد أن وصل ابن النجومي الي دنقلة انتدب التعاشي مساعد قيديم
البقاري في بضعة آلاف مقاتل كلهم من البقارة وارسله الي دنقلة ليكون
وكيلاً لعبد الرحمن النجومي

ولما وصل مساعد الي دنقلة زاره النجومي ذات يوم بمنزله فقدم له
شرباً من العسل دس له فيه زرنيناً فتناول منه النجومي جانبا فابتدأت فيه
اعراض التسمم ولزم داره واشتدت به العلة حتي اشرف على الهلاك
وبعد مدة عوفي وزال عنه الخطر واشتد النفور بينه وبين مساعد الذي كان
يطالب أمين بيت المال بنفقات باهظة تمدل نفقات الجيش كله فشكاه ابن النجومي
الي التعاشي الذي كان لا يجاوبه بنفي العبارات المهمة مثل أنت قائد
الجيش ومساعد انما هو وكيلك والامر مشترك بينكما فاستحکم النفور بين
مساعد وابن النجومي حتى خيف انتشار الحرب بينهما وتفرقت كلمتهما وصار
كل واحد منهما يستعرض جنوده على حدة

وفي ابان ذلك نهي الي ابن النجومي ان السير غرانفيل باشا سردار الجيش
المصري ينوي الهجوم على معسكر الدراويش في جنوب حلغا وهو معسكر
(صرص) فارسل يبلغ التعاشي الخبر ويستأذنه في التقدم الي صرص فكتب
له التعاشي يقول انك لن تزال في دور النقاها فابعث مساعداً بجميع فرسان
الجيش وهم زهاء ثلاثة آلاف فارس فانفذ النجومي مساعدا الي صرص
فالتقي قبل وصوله اليها بجواسيس المهديوية قادمين من حلغا فاخبروه بان
السير غرانفيل معه قوة كبيرة وانه ربما كن لكم في الطريق فارتاع مساعد وكان

جباناً وعديداً ثم تقدم الى صرص فلقية جواسيس أخر اخبروه بمثل ماخبره به الاولون فترك الجيش وعاد الى دنقلة واستخاف أحد أقاربه على الجيش فتابع سيره الى صرص ولم يصادف كيداً في طريقه ثم قفل راجماً الى دنقلة ولم يلتق بالجيوش المصرية التي قصدت صحراء (المرات) لاكتشاف آبارها

وفي سنة ١٣٠٥ استدعى التمايشي عبد الرحمن النجومي الى أم درمان واكثر من تأنيبه وتحقيره أمام الملاء حتى قال له انك رجل مغفل لا تصلح للولاية على امرأتك وأولادك فضلاً عن ولايتك على جيش جرار

ولقد ذكرنا فيما مضى ان ابن النجومي كان من أعظم قواد المهدي الذين لهم عنده اكبر منزلة وقد كتب اليه مرات عديدة يقول ان الحضرة النبوية تقرأ عليك السلام وقال له يوم سقوط الخرطوم مفسراً الآية الشريفة (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) ان الذي قضى نحبه هو عبد الله بن النور البدي ذكرنا خبر قتله في واقعة (الجريف) وان الذي ينتظر هو عبد الرحمن النجومي فانظر كيف كانت منزلة عبد الرحمن بن النجومي عند المهدي وكيف سقطت الي الحضيض عند التمايشي الذي أنبأت أفعاله انه لم يكن مصدقاً بشيء من دعوى المهدي وتخرصاته وانه كان واقفاً على كنهه اكاذيبه بل كان مشاركاً له في وضعها واختلاقها

ثم أعيد ابن النجومي الى دنقلة في أواخر سنة ١٣٠٥ وأمر باخذ الالهبة لفتح مصر فدخلت عليه سنة ١٣٠٦ ولم يتقدم اليها بل أخذ في مماطلة التمايشي وود الاستقالة من عمله

وفي أواسط سنة ١٣٠٦ فشت الجماعة في السودان واشتدت وطأتها

على أهل دنقلة فاصدر التمايشي أمراً بمزل ابن النجمي وتعيين يونس الديكيم
التمايشي بدله وأمر يونس المذكور باكره ابن النجمي على مغادرة دنقلة
لفتح مصر

هذا وقد كان من الاسباب التي بعثت التمايشي لانفاذ عبد الرحمن النجمي
الى فتح مصر أن بعض الجغافرة سكان مديرية أصوان كانوا يبعثون الكتب
تباعا الى التمايشي يظهرون فيها ولائم له وانهم ينتظرون بفروغ صبر تقدم
جيش المهديوية الى بلادهم وانهم سيلة ونه في عدد عظيم من المقاتلة ويقدمون
له ما يحتاجه من الاقوات وتفشى المجاعة في السودان كله مع ما ظهر له من ان
الاهلين يودون الخلاص من ظلمه سيما وقد تفرقت دراويشه من حوله
وأسي وليس معه منهم في أم درمان اكثر من بضعة آلاف فأشار عليه
بعضهم بانفاذ جيش ابن النجمي الى حدود مصر ليظهر من الضعف قوة
ومن جهة أخرى كان هلاك جيش النجمي مما يسمي اليه التمايشي لانه كما
تقدم لنا من القول كان حزب الخليفة شريف وكان ابن النجمي بعد ان هاد
من أم درمان قد عاوده المرض وانكست صحته فكتب يونس الديكيم الى
التمايشي يخبره بان ابن النجمي ملازم للقراش وان حالته منذرة بالخطر فاجابه
بان يحملوه على نمش ويسيروا به امام الجيش لان الحضرة النبوية اخبرته بان
فتح مصر سيكون على يده فخذل ابن النجمي على نمش سيروه امام الجيش
كانه تابوت نبي اسرائيل وشخص من دنقلة ومعه اثناعشر الف مقاتل
وعشرون الفا من النساء والصبيان وأعطى لكل مقاتل من مقاتله كيلتين
من الذرة وهو قدر لا يكفيه بضعة أيام

ولما اقتربت الدراويش من حدود الحكومة عند مكان اسمه (ارغين)

هاجمته الحامية هجوما عنيفاً فسقط في ساحة القتال نحو نصف مقاتلته الذين صاروا لشدة فتك المجاعة بهم كغنم تساق الى الذبح

ومن المضحك ان أحد قبيلة الكنوز الذين كانوا مع ابن النجومي أرسل كتابا الي بعض أقاربه في أم درمان قبل مذبحته (أرغين) جاء فيه ما يأتي
انني ذبحت فرسى في هذه الليلة وتمشيت من لحمها أنا ومن معي
وادخرت الباقي للتزود به حيث صرنا على مقربة من حدود الكفار وعمما
قريب يا تيكم نبأ فتح مصر اه فانظر هذه العباوة واعجب لسخانة عقل من
تمشى من لحم فرسه وتزود بالباقي كيف يفتح مصر

وبعد واقعة (أرغين) سار ابن النجومي بجيشه حتى التقى بالسير غراقتيل
باشا قائد الجيش في (طوشكي) حيث قتل ابن النجومي وتمزق جيشه
كل ممزق

ولما كانت هذه الواقعة معلومة عند المصريين وقد وقفوا على تفاصيلها
فلا حاجة لا يراد شيء عنها زيادة عن هذا
اما تأثير هذا الخذلان على التعايشي فكان سيئاً ولكنه اظهر عدم
الاكثرات به

ذكر زواج المؤلف باحدى نساء التعايشي

بعد أن أسلمني التعايشي للبقاري الذي وكل اليه مراقبتي في الصلاة
ببضعة شهور جلس في محراب المسجد بعد اداء صلاة الظهر وأخذ يكلم الناس
بامور زعم انه أخبره بها النبي صلى الله عليه وسلم ومن جملتها انه قال لهم سيظهر
كذاب يدعى انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه وان أوصافه

كيت وكيت فقال له من حوله ان ذلك الكذاب مصرى وكنت مصفيا لا قواله
 فسمعتة يقول انه أبيض اللون قصير القامة ضخمة الجثة مستدير الوجه فقال
 لي بعض الحضور سرا يمازحني ان هذه الاوصاف تنطبق عليك فداخنتي
 وجل شديد وقلت في نفسي رب واش أبلغ هذا الطاغية عني أني مزعم
 على ادعاء هذه الاكذوبة وانه قال مقالته هذه ليهد بها طريقا للقبض على
 والايقاع بي . فتنحيت من موقفي وجلست في المسجد واسندت ظهري
 الي حائط وانا غارق في بحار الافكار فسمعت مناديا يقول يا فوزي فعلمت
 ان التعالشي يدعوني فذهب عتلي وقت وانا لأشك في تحقق ماوقع في روعي
 واني مدعو الآن للتكميل بي فشيت مسرعا حتى بلغت مقصورة التعالشي
 فلما رأني قام على قدميه وخرج منها وأمسك بيدي ومشينا الى باب داره فقال
 الناس لا ريب ان الذي أمسكه الخليفة هو الذي قال عنه انه سيدعي انه المسيح
 عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه

ولما وصلنا عند الباب وقف معي وقال مخاطبا لي يا فوزي فقلت نعم
 ياسيدي خليفة المهدي عليه السلام فقال اني أريد ان أزوجك امرأة مؤدبة
 مهذبة حسنة التربية حسنة الخلق متدينة متورعة وهي احدي نسائي فقلت له
 ياسيدي انني متزوج فقال أليس لك زوجة واحدة فقلت بلى فقال وما المانع من
 ان يكون لك ثلاث زوجات أو أربع فقلت لا مانع سوى أني فقير مدقع وليس
 لي كسب يماونني على القيام بواجبات زوجتين فقال لا تلتفت الى ذلك لان الله
 متكفل بارزاق العباد ثم قال لي ماقولك قلت انا لا أرغب عميختاره لي مولاي
 فقال بارك الله لك فيها ثم قال لي لا تخبر أحدا بشيء من هذا الحديث ثم
 تركني ودخل منزله فتكأ كأ الناس على يسألوني فكنت أضرفهم بالجملة

وأقول لهم لم يقل لي الخليفة شيئاً تخشى مغيبته

وبعد بضعة أيام استدعاني التمايشي الي داره فوجدته جالسا ومعه
 القماغي احمد على وقاضيان آخران وبعد ان قبلت يده أمرني بالجلوس
 فجلست على الارض بجانب هؤلاء الثلاثة ثم قال لاحد غلماناه أحضر الطعام
 فجاء بقصعة مملوءة بخبر الذرة ادامها من الطبخ الذي يصنع من البامية
 الجففة (الويكة) وعلى وجه القصعة خمس قطع من اللحم يبلغ وزن القطعة
 منها رطلا فتناول التمايشي قطعة منها وقال خذ هذه يا فوزي ثم دفع ليكل
 واحد من القضاة الثلاثة قطعة واطي لنفسه قطعة فامسكت قطعتي بيدي
 اليمنى ونهشت جزءاً منها فوجدتها غير ناضجة وعلمت انها من لحم الابل
 فامسكتها بيدي اليسرى واخذت أكل بيدي اليمنى ولما فرغنا من الاكل وجدت
 ملابسني ملوثة بالطبخ فصاح بي التمايشي ماهذه القطعة التي تحملها يا فوزي
 فقلت له انني اكلت منها كفايتي واريد أن حمل الباقي الي آل بيتي ليتبركوا بقطعة
 اللحم التي صنعت في بيت مولاي وناولني اياها بيده الشريفة فتبسم والتفت الي
 القضاة وقال لهم لاريب ان فوزي صار من خيرة انصار المهدي وانه نبذ
 الرفاهية ولم يلتفت الي شيء من الدنيا والتفت اليّ وبلغ في الثناء عليّ ثم
 تناول من القضاة ما بأيديهم من قطع اللحم وضمها الي قطعتي وناولني الاربع
 قطع وقال اذهب بها الي آل بيتك فحملتها بي جيتي وخرجت من الدار
 حتي اذا صرت في طريق خالية من المارين طرحت اللحم من جيتي على الارض
 وذهبت الي منزلي واخبرتهم بما اتفق لي فاخذوا الجبة وغسلوها ومكثت
 حتى خفت اذ لم يكن لي غيرها ثم لبستها وذهبت الي المسجد

وكان للتمايشي منزل في الجهة الجنوبية لام درمان عند حصن الحكومة

القديم فركب اليه ذات يوم بعد الظهر واستدعاني بعد وصوله اليه فقال اتني
 ذاهب الي معسكر خارج المدينة وقد أمرت الخليفة على حلو بمباشرة عقد
 زواجك بالمرأة التي أخبرتك بامرها وقد أمرت الخصيان ان يتقلوها الى
 دارك في هذه الليلة فشكرته ودعوت له وبعد غروب الشمس أرسل الخليفة
 على خلوصيا الى داخل الحرم ليسأل المرأة عن توكله فمادقائله انت وكيها
 وكنت انتظر ان تجري صيغة العقد طبق الشرع فلم يفعل الخليفة على شيئا خير
 انه رفع يديه وقرأ فاتحة الكتاب ثم قال لي بارك الله لك فيها وانصرف فدهشت
 لهذا العقد الذي لم يكن فيه ايجاب ولا قبول ولا ذكر للمهر ألبتة ثم قال لي احد
 الخصيان أرسل حمالين لحمل متاع السيدة فاحضرت عشرة حمالين ليحملوا
 متاعها ولما اخرجوه اذا هو عبارة عن (عنقرب) وحصير من الخوص (برش)
 وصندوق من الخشب فيه ملاءتان من القماش فتمجبت من هذا المتاع وانصرفت
 مع حمال واحد حملة وقصدنا منزلي

على اني أقول انني كنت خائفا من هذه الزوجة حاسبا لها الف حساب اذ
 كنت أظن انها ستكون عينا للخليفة في بيتي ورقيا على أعمالى في داخل منزلي
 ولذا امرت آل منزلي باخراج الدخان الذي أستعمله سرا في منزلي وايداعه بمنزل
 احد أصدقائي وبعد هنيئة جاءت العروس راكبة على حمار التعاشى يحيط
 بها خصيان وبعد دخولها في الدار استدعيت اربعة من جيراني المصريين وقدرنا
 المهر وجددنا عقد النكاح بما يطابق الشرع الشريف سرا

وقد اتفق ان منزلي كان في تلك الليلة خلوا من الطعام فقدم لي احد جيراني
 المصريين أطباقا مملوءة اداما وخبزا من الذرة فقدمته للخصيين فامتنعوا من
 الاكل حيث كانوا يريدان عطية من الدراهم التي لم أكن املك منها شيئا اعطيها اياه

فقالا وشتماني وقالوا (يا ولد الريف) اعلم ان هذه السيدة كانت حرم خليفة
الزدي فافتح دينك هكذا وحلقا بأصبعيهما الإبهام والسبابة اشارة الى الريال
فكنت أجابهما بنبي عارف بذلك ومقدر هذه النعمة حق قدرها وأخيراً
النصر فإغاضبهن وبعد نصف الليل دخلت منزلي كاني أساق الى الموت
لشدة ما تولاني من النزاع من هذه الزوجة التي مكثت معي بضعة أيام
لم أعرف شيئاً من أمرها ومعاملي لها كانت بالحنو الشديد ولم أسألها عن
عائلتها ولا عن بلدها

وفي ذات يوم جلست لتناول الطعام معها وكان ردياً من خبز الذرة وادامه
من ورق الأوبية فرأيت الدموع تتساقط من عينيها فقلت لها ماذا يبكيك
فاشارت الى الطعام قائلة أما ترى هذا الطعام فقلت لها هذا طعام انصار
المهدي فحقتها العبارة ورفعت صوتها قائلة لعن الله المهدي وخليفته
الظالمين الباغين أليساهما اللذان هتكاً عرضي وقتلاً أهلي وسلباً نعمتي فاندحشت
من كلامها ورفعت هي صوتها بالمويل والنحيب اللذين فتاكبدى فسألتهما
من هم أهلك وأين كان مقامك فقالت أنا بنت حسن أغا أرناؤد وكان مقامي
في الخرطوم فمجبت من ذكرها هذا الاسم لانني اعرف أباهما وانه
تركي من قواد الأتراك في الخرطوم استوطن بها وصار من وجهائها
وكان له ابن اسمه علي كان موظفاً معي في خط الاستواء بوظيفة سامية فقلت
لها ثم ماذا صار فقالت من يوم سقوط الخرطوم الى هذه الساعة مارأيت أهلي
ولا أعلم هل هم أحياء أو أموات فداخنتي الريب في أمرها وظننت انها كاذبة
في دعواها حيث انني أعرف والدها وأخاها ومالهما من الوجاهة وأعرف ان
من أهلها من هم على قيد الحياة ومن حسن الحظ أنهم كانوا يسكنون بالقرب

منا فارسلت اليهم في الحال فجاءوا وما وقع نظرهم عليها حتى عانقوها وارتفعت
أصواتهم بالبكاء والنحيب ثم قصوا عليّ حديثها وأنها أخذت منهم مسبية بعد
سقوط الخرطوم فلم يقفوا لها على أثر ولم يعلموا الى أين طوحت بها المقادير
وقد قالت هي انها أخذت الى بيت الطاغية التمايشي وما زالت فيه حتى أراد
الله خلاصها منه وقد رزقت منها بنت وهي في عصمتي الى الآن

على انني كنت اخاف مستقبلا ربما كان مما يزيد في شقائي ويضعف على
أنواع الذل وعذاب الاسر حيث انه كان لي كما تقدم زوجة غيرها وكنت أخشي
ان يتسع نطاق الخلف بينهما بسبب الغيرة فاقع بينهما في شقاء لا يذكر في
جانبه ما أنا واقع فيه من شظف العيش وذل الاسر الذي سيأتى ووصف كثير من
ضروبه ولكن الله من فضله كفاني ما كنت اخشاه اذ صارت زوجتي
كانها أختان لا أثر للغيرة عندهما ولا هم لها غير تخفيف ويلات حزني وتسلية
خاطري من الاكدار التي تساورني فكانتا تقضيان النهار وشتراً من الليل
في خياطة بعض الملابس للدراويش باجرة طفيفه

وقد كانت حالي المعيشية تنتقل من ردى الى أردأ حتى سجننت ومع
ذلك بقيتا على ما كانتا عليه من الصفاء والوفاق الى أن منّ الله عليّ بالخروج من
السجن الذي سيأتى الكلام عليه في مكانه

ذكر الميرالاي حسن البهنساوي بك

كان الميرالاي حسن البهنساوي بك ميرالاي اللواء المصري الخامس
وأصله ضابط مصري قضى من عمره زهاء عشرين سنة في السودان وكان
لواؤه قائماً بحراسة الخندق الجنوبي جهة المسكان الذي دخل منه المدويوم

سقوط المدينة وقد شرحنا كيفية دخوله وان اللذين اطلعا المهدي على عورات الخندق هما الصنجان الخائنات عمر ابراهيم والمطا الدود ولم نعلم شيئاً يدعوا الى اتهم الميرالاي حسن بك البهنساوى بانه تواطأ مع المهدي على انخال دراويشه من جهة الخندق الجنوبي اذ يستحيل وقوع مثل ذلك من مثل حسن بك البهنساوى حيث هو من خلاصة من صدقوا في ولاء الحكومة

وبعد سقوط المدينة وقع حسن بك في الاسر وعذب عذاباً شديداً وصودرت أمواله وأخذت بنته مسبية وقدمها أمين بيت المال للمهدي وكانت له زوجة هي بنت رجل من مشاهير التجار اسمه عبد السلام أصله من مدينة حلب قدم السودان مشتقلاً بالتجارة فأتى وكنيت أنا متزوجاً باختها فأخذنا مسبيتين وماتت زوجتي غماً بعد ايام قلائل مضت بعد أخذها

وقد ذهبت يوماً مع حسن بك البهنساوى الى المهدي وكنناه في أمر زوجتنا فامر أحد نوابه بردتيناك الزوجتين فشكرناه وانصرفنا من حضرته وما كدنا نخرج من باب الدار حتى ابتدرونا جماعة من الدراويش اللذين اغتصبوا هاتين المرأتين بالضرب والاهانة وتوعدونا بما نخشاه اذا عدنا الى الشكوى فانصرفنا واقنعنا النائب باستحالة رد المرأتين ثم ذهب الى المهدي وكله بما جري لنا فلم يكن لكلامه أثر ومكث البهنساوى بك في الاسر زهاء سنة ثم فر الى بلاد الحبشة ماشياً على قدميه وما بلغها الا بعد ان تآدت روحه تزهق لشدة ما ناله من المشقة ثم غادر بلاد الحبشة ولحق بمصر وعلى أثر وصوله سمعنا خبراً ادهشنا وهو أن الحكومة اتهمت حسن بك البهنساوى بالخيانة وانه ادخا الدراويش مدينة الخرطوم في حين اننا نعلم الحقيقة دون الكثيرين وقد كان الطيب الذكر غردون باشا الى الساعة الاخيرة من

اجتماعنا يقول ان عورات الخندق لا بد ان يكون المهدي علمها من عمر ابراهيم والمطا الدود وانها هما اللذان اطعماه في الهجوم على الخرطوم بعد ان كان يتأهب للتقهقر الى كردفان على اثر ما اصاب دراويشه من الهزيمة والانكسار في واقعة (أبو طليح)

وبعد ان سقطت الخرطوم ووقعنا في الاسر تحققتنا من نفس قواد المهدي ومستشاريه انهم كانوا على وشك الزحف الى كردفان لو لم يقيض الله عمر ابراهيم والمطا الدود لاطلاعهم على عورات المدينة. رجلة القول ان حسن بك البهنساوي براء من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب وقد ظهرت براءته امام المجلس العسكري العالي الذي عقد لمحاکمته وكفى بذلك حجة على ان الذين رموه بالخيانة كانوا ذوي قصد سيء به

وقد يحار الانسان من اقدام الحكومة على محاكمة البهنساوي بك مع انها عاملت كثيرا من الخوان الذين لا يختلف اثنان في صحة مانسب اليهم من الخيانة بالاعزاز والاکرام حتى انها قد اغدقت النماء على عمر ابراهيم ولم تترك وسيلة لاسترضائه الا فعلتها وقد أعجز الناس فهم مقاصدها ولم يفسره كثير من السودانيين الا بأنه من كرامات المهدي الذي تكافىء الحكومة الذين صدقوا في ولانه ولقد قال لي واحد من السودانيين انظر الى عمل حكومتكم كيف تصنع الجميل مع الذين ادوا خدما جليلة للمهدي مما يدل على صدق مهديته وكيف عاملتكم انتم الذين بقيتم على ولائها وناوآتم المهدي فأخفني هذا القاتل ولم أحر جوابا أقنمه به لانني لم أفقه كنه مقاصدها فلعلها أقصي نظراً مني

على ان الحكومة التي هدمت قبة المهدي لتفضي على الاعتقاد بمهديته

قد أحسنت معاملة جميع الذين والوه ولم تقم ببعض من كل للذين والوها
 وبهذا التصرف الغريب مهدت كرامة جديدة للمهدي يتمسك بها السخفاء
 الذين يقولون ان جثة المهدي رفعت الي السماء من قبره قبل أن ينشئ ببضع
 سنوات وسيأتي ذكر ذلك في مكانه

ذكر ما لقيه المؤلف في مقابلته بعض الأمراء

من أنواع الذل التي قاسيناها وضروب الاهانة التي كنا نعامل بها من
 أتباع المهدي ما أورده هنا

وذلك اني كنت ذات يوم ماشيا مع يوسف منصور في الخرطوم فررنا بمنزل
 أحد أتباع المهدي المسمى الحاج خالد العمراني الذي أصله من تجار الابيض
 فدعاني يوسف منصور للدخول إليه لاجل زيارته فدخلنا عليه فأقمناه
 جالسا على فروة فقام واقفا على قدميه واستقبل يوسف منصور بكل
 احتفاء وفرش له فروة أيضا أجلسه عليها فتقدمت للسلام عليه فانهرنى وقال لي
 اجلس هناك وأشار بيده الى أقصى مكان منه فجلست على الارض فجيء
 بالقهوة فتقدمها للسلام الى يوسف منصور فقال له قدمها للقوزي فقال له الحاج
 خالد ولماذا تقدمه على نفسك فقال لانه ضابط. عظيم وكان ضابطاً عليّ ولأنه
 عزيز قوم يجب اكرامه فقال كان عزيز قوم كفره وأنت سيده وأفضل منه
 وهو رقيق بل من يخرج من صلبه من الاولاد أرقاء الى يوم القيامة وانه
 كافر يجب على كل مؤمن ومؤمنة اهانتة واحتقاره واطهار كراهيته فقلت له
 يا سيدي الحاج خالد اذا كنت كافراً فنيا مضي من عمري فقد أسلمت على يد
 المهدي فأجابني بالثتم وقال بل لا تزال كافراً يحمل بيعك واسترقاؤك أنت

وأولادك فقال له يوسف منصور مهلاً أن هذا الكلام غير لائق بك وإن المهدي عليه السلام أوصانا بمراعاة الأسرى وعدم كسر خاطرهم واشتد اللجاج بينهما فقامت من بينهما وانصرفت لسبيلي ومن النوادر المضحكة انني كنت يوماً بحضرة محمد بن البصير الحلاوي داعية المهدي في (الحلاوين) وكان معي أيضاً يوسف منصور فقال ابن البصير إن أصحاب المهدي أفضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والدليل على ذلك ان نبي الله الخضر شرب من هذه (الركوة) وهي إناء يصنع من الجلد ولم يشرب من ركوة أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمنا الى تلك الركوة وقبلناها وضمناها الى صدورنا ووضعناها على رؤسنا التماساً لبركتها فقلت لاحد الحاضرين هل أنت مصدق بهذه لا كذوبة فالتفت اليّ وقال يزعم التعايشي ان الخضر جاسوس له وهذا يقول انه شرب من ركوته ونحن نقول لها صدقتا مادمننا لا نقدر على تكذيبهما ثم قال لي وهل نستطيع تكذيبهما لو ادعيا على جبريل أمين الوحي باضعاف ما ادعياه على الخضر فقلت واني لنا القدرة على تكذيبهما فقال قبل وضم وضع واسكت والسلام

ذكر نفي عبد القادر بن أم مريوم

ذكرنا ماجري بين عبد القادر بن أم مريوم والمأسوف عليه غردون باشا ولما أفضت خلافة المهديين الى عبد الله التعايشي قرب اليه عبد القادر المذكور وأدخله في عداد النواب الذين يعاونون القاضي في نظر القضايا التي ترفع اليه مع بقائه في وظيفة قائد لمرتب (الكلاكله) الذين هم أقاربه فازداد نفوذه بين أولئك الاعراب حتي صاروا يحكمونه فيما يشجر بينهم

وكانوا يتعمدون داره زرافات لهذا الغرض ويقدمون له الهدايا وكانت أخباره
تصل الى التمايشي الذي كان يكره تزلف الناس الى غيره فيغض الطرف عنها
ولا يبدي لعبد القادر شيئا يكرهه

وفي ذات يوم جاء رجل يحمل البريد للتمايشي من احدي الجهات
فقال له عبد القادر سلمني المظروف الذي باسم التمايشي لاسلمه له فدفعه له
فاخذه وذهب الى المسجد ووضعه امامه مما يلي مقصورة التمايشي حتى اذا
فرغ من الصلاة ناوله له فتركه وذهب الى منزله بعد ان قضيت الصلاة فمثر
به احد حراس الخليفة وقرأ عنوانه وسلمه له فاستغرب التمايشي وجود ذلك
المظروف فاستدعى الذي جاء به فاخبره ان عبد القادر بن أم مريوم استلمه منه
ليدفعه اليه فاستاء من ذلك ولم يكشف عبد القادر بشيء من أمر المظروف
ولكنه أعرض عن كل الاعراض واقصاه من قربه فعمد عبد القادر الى طريقة
يستجلب بها رضي التمايشي فاشار عليه احد اصداقاه بتقديم ابنته هدية للخليفة
فقدمها له وكانت بارعة في الجمال فنالت حظوة عظيمة عند التمايشي فخرج
من منزله واستدعى عبد القادر واثى عليه وزاد في تقريبه والاحتفاء به بما أدهش
الناس اذ لم يكونوا عالمين بسبب الجفاء والابعاد الاولين كما انهم كانوا يجهلون
اسباب هذا التقريب الفجائي ولكن ظهرت الحقيقة بعد ايام قلائل وصار
عبد القادر بن أم مريوم أقرب مقرب الخليفة الذي آانس هو منه شدة الميل الي
قضاء شهواته من التفتيات الحسان فاخبره بوجود فتاة جميلة هي بنت رجل من
أهالي (الكلاكة) أقاربه فارسله الى ذويها يطلبها منهم فبعثوا بها اليه فراعه
جالها ولكنه لما اقترب منها وجد خفاضها ليس على طريق خفاض النساء
في السودان فسألها عن سبب ذلك فقالت ان عبد القادر بن أم مريوم أشار

على أهلها ان يعملوا بها هذا العمل فاحتدم التعاشي غيظاً وخرج من غرفته ليلاً وأمر عشرة من رجاله أن يحضروا قطعة من جلد بقر نىء ويقبضوا على عبد القادر ويضعوا قطعة الجلد على عينيه ويتركوها عليها حتى تجف ويلفوا يديه ويسافروا به الى الابيض حاصمة كردفان واعطاهم أمراً الى عامل كردفان باستلام عبد القادر منهم وزجه في السجن فذهب الرجال الى منزله ليلاً ووجهوا عليه بصورة مزعجة وساقوه من بين أهله واولاده وانفذوا ما اشار به التعاشي وسافروا به ليلاً قاصدين كردفان واصبح الخبر شائعاً في المدينة والناس لا يعلمون اين ذهب به الذين قبضوا عليه وخرج التعاشي علينا للصلاة الظهر والغضب ظاهر على وجهه والشرر يقدح من عينيه وبعد انقضاء الصلاة عاد فدخل الى منزله ولم يتكلم بشيء يختص بامر مريوم ولا بفيره ثم لزم السكوت ولم يتكلم بشيء ماعن هذه المسألة وبعد نحو ثمانية عشر شهراً جاء عبد القادر بن أم مريوم الذي ظل في سجن كردفان وعيناه معصوبتان لا يعرف في أى بلد هو ثم بعد ثمانية أشهر أمر التعاشي بازالة الجلد عن عينيه فازهل واكنه مكث اياماً لا تبصر عيناه شيئاً ومكث بعد ذلك نحو عشرة شهور في سجن كردفان ثم اعيد الى ام درمان وأطلق سراحه ولم يعده التعاشي الى سابق قربه

ولما اعاد التعاشي عبد القادر بن أم مريوم اعاده بهيئة مزعجة حيث بلغت اظفاره منتهى الطول وشعر رأسه ولحيته يكاد يستر جسمه وكان مسجوناً في غرفة ليس فيها غير نافذة صغيرة يناولونه الماء والحبز منها ومن أعان ظالمها ساط عليه



ذكر قصتي المرأتين

المرأتان هما حماة عبد المولى صابون أمير الجهادية وشقيق حميدان أبي عنجبة.
وقصة الاولى هي انها كانت امرأة أحد صناجق الشايقية ولها منه بنت ذات
جمال بارع أخذها المهديون سبية فاعطاها التمايشى لعبد المولى صابون الذى
تغالي في حبها وأقبل عليها وترك نساءه ولم يلتفت اليهن

وفى سنة ١٣٠٥ أصيب عبد المولى صابون بداء الجذام ولزم الفراش
فخرج التمايشى عليه اذ كان يحبه وأخذ يتردد على داره ليعوده فاغتم نساؤه
فرصة وجود التمايشى عنده للايقاع بالمرأة التي حازت منزلة عند سيدها اكثر
منهن حيث تركن كما قلنا ولم يلتفت اليهن فاجتمعن وقلن للتمايشى ان مرض
عبد المولى صابون مسبب من كثرة أعمال السحر والشعوذة التي تعاملها له المرأة
الشايقية للاستئثار بمحبته فصدقهن التمايشى لانه كان يعتقد السحر والشعوذة
ويخاف على نفسه كثيراً منها فسأل المرأة فانكرت وقالت انها لا تخرج من
دارها وأنى لها بالدجالين والمشعوذين الذين يعملون هذه الاعمال فلم يصدقها
وعزم على القبض عليها فالح عليه زوجها وتضرع له ان يتركها فقبل له ان
امها هي التي تذهب الى خارج الدار وتروح الى الدجالين فاستنطقها فانكرت
وقالت له اني لم أصنع شيئاً من الاسحار والشعوذة ألبتة فقال لها ولم اذا
أصيب عبد المولى بهذا المرض اليس ذلك نتيجة أعمالك السحرية وأمر بقطع
يدها فقطعت وتوفيت بمد بضع ليال

ولشدة جبن التمايشى خاف على نفسه من مثل ما أصيب به عبد المولى
معتداً ان ذلك المرض لا يحدث الا من الشعوذة والاسحار وكانت له حماة من

أهل دارفور بنها من نسائه الأول وقد رزقت منه بولد وكان يمنع أقارب
 نسائه من رؤيتهن حتى ان المرأة كانت تظل عامين أو ثلاثة لا يؤذن لها بالدخول في
 بيته لرؤية بنتها وكان خصيان التمايشي يعظمون هذه المرأة ويكرهونها نظرا
 لاحفادها أولاد التمايشي ولذا كانوا يدخلونها خلسة لرؤية بنتها وفي ذات يوم
 رآها التمايشي لابسة تمام كألوف عادة نساء السودان اللواتي يلبسن
 أحجية كبيرة فامر بالقبض عليها وتمزق أحجبتها التي جعل يتأمل فيها كأنه
 يقرأ ما فيها بادية عليه علامات الدهشة والاستغراب وبعد أن أمر بسجنها
 نفاها الى خط الاستواء فماتت جوعا في الطريق وعاقب الخصيان أشد
 العقاب وقطع يد الذي اذن لها منهم في الدخول فتأمل

ذکر رسالۃ محمد ماهر باشا للمؤلف

كنت قد عرفت محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن منذ كنا تلميذين في
 المدارس واتصلت المحبة بيننا من ذلك العهد
 ولما وليت على مديريات خط الاستواء كان هو وكيلا لبراوت بك
 الامريكاني الذي كان حاكماً على تلك الاقاليم قبلي. وفي أوائل سنة ١٣٠٦
 أمر التمايشي بهدم منزلي ومنازل جيراني لتوسيع موردة أم درمان فوقعت
 في حيرة شديدة لما كنت فيه من الاعسار وزيادة علي ذلك انني كرهت المقام
 بجوار يوسف منصور فعزمت على الاقامة بجوار السوق في حي المسلمين
 واسكنني كنت غير قادر على انفاذ هذا العزم لما كنت فيه من الفقر المدقع
 وبينا أنا في هذه الشدة طرق باب داري طارق بعد العشاء فسألته عن اسمه
 فلم يجاوبني فداخني الخوف وظننت أنه جاسوس وامتنعت من فتح الباب له

وأخيراً خفض صوته وقال لي انني آت اليك برسالة من مصر فطار عقلي ولم أشك في أنه عين عليّ فانتهرته من داخل الباب وقلت له اذهب أيها الكاذب فاسرع الرجل بالانصراف خوفاً على نفسه أيضاً وبت ليلتي وأنا خائف أترب وفي ضحوة الغد جلست أمام بابي فجاءني رجل بزي التجار المصريين فسلم عليّ وقال لي انني جئتك البارحة لأدفع لك نقوداً وكتاباً من أخ لك في أصوان فقلت له اني أخاف أن تكون عيناً عليّ فان كنت صادقاً فأقسم لي علي المصحف الشريف أنك صادق فيما تقول وانك لست بجاسوس فخف لي علي المصحف فاطمأنتت وسكن روحي ثم دفع الي كتاباً ففضضت غلافه فرأيت فيه توقيع محمد ماهر باشا فقرأته فاذا فيه السؤال عن صحتي وانه مرسل اليّ باربعين جنيهاً انكليزيا ورجاني أن أخبره عن كل ما يلزمني ثم دفع اليّ الرسول الاربعين جنيهاً فأحببت مكافأته باعطائه خمسة جنيهاً فلم يقبل وقال لي ان الذي أرجوه منك هو أن تكتب لي كتاباً الي أخيك محمد ماهر محافظ أصوان بانني أسلمت اليك الاربعين جنيهاً تامة لتظهر أمانتي عنده نوعده بذلك ثم انصرف وعاد اليّ في المساء بهدية من السكر والصابون والبن والملابس فكتبت له الكتاب بما أراد وأودعته ذكر الهدية التي قدمها لي الرجل من نفسه. فجزي الله عنى الشهم الهمام محمد ماهر باشا خير الجزاء وبلغه مأموله في الدنيا والآخرة آمين

وعلى اثر ذلك ذهبت الي حيّ المسلمين وبنيت فيه منزلاً انفقت عليه اكثر من مائة ريال فذهب يوسف منصور وأخبر الخليفة بانني سكنت في حي المسلمين وطلب منه الاخلاء عن المسؤولية اذا فررت فاستدعاني التعاشي وأمرني بالعودة الي جوار يوسف منصور فبعت المنزل بربع قيمته

وعدت الى جوار يوسف المذكور

ومن الحوادث التي اتفقت لي بعد عودتي انه كان لي ابن اسمه محمد ولد بعد سقوط الخرطوم ببضعة شهور وكان عمره وقتئذ ثلاث سنوات وكان يراني اختبي في قعر بيتي وأدخن السجاير وفي ذات يوم أخذ الورق الذي ألف فيه الدخان وقعد امام المنزل ولف فيه رملا على هيئة السجاير واتفق ان حسن ابن حسين أمير المصريين جاء لزيارتي وكان شديد التعلقي بالمهدوية لكنه كان يحب بني جلده المصريين ويغار عليهم ويدفع عنهم كثيرا من المصائب فخرجت للقاءه فرأى ابني محمدا وبين يديه سجائر الرمل فسأله قائلا ما هذه يا بني فقال له ان ابي يصنع مثل هذه ويشعلها بالنار فيخرج الدخان من انفه وفيه فقطن حسن حسين الكلامه وادرك اني أدخن في منزلي فهالني ذلك وانهرت ابني فقال لي اأذهب الى داخل البيت وآتي بالسجاير التي تدخنها فاسكنه حسن حسين واثقت الي يحذرنى من وخامة العاقبة اذا شاع عنى ذلك ولم يثني منه اقل مكروه لانه كان كما قدمنا مصريا لا يرضى لقومه ان ينالهم سوء من المهدوية بالرغم عن تعلقه بها وبعد انصراف الزائر أمسكت الغلام وأوجعته ضربا كيلا يعود الى مثلها

ذكر مسألة الشيخ محمد عبد الماجد وصلبه

كان في أحد أحياء أم درمان القريبة من سوقها رجل من اهالي مديرية بربر وكان ذا دين وورع وكان ناقما على المهدوية منكر آكل أعمالها وكان الخليفة كما تقدم قد حذر الناس من الاجتماع لجمعة أو جماعة في غير مسجده وكان الشيخ محمد عبد الماجد ملازما لمنزله منقطعا عن شهود الجمعة مع المهديين

وجاعتهم وكان جيرانه وجلهم مصريون يجتمعون في منزله فيصلي بهم جماعة ثم يعظهم ويبين لهم فساد دعوي المهديونية ومخالفة مدعيها للشريعة المحمدية الفراء حتى أفتى بوجوب قتال هذه الفئة الضالة فمني خبره الى التماشي الذي أرسل اثنين من خاصته حضرا مجلسه وسمعا مايقوله وعادا اليه فاخبراه به فارسل اليه مائة رجل قبضوا عليه وعلى جارين له احدهما مصري وطرحوهم في السجن وكان الوقت ليلا وفي الغد عقد مجلس اجتمع فيه القضاة كلهم برئاسة الخليفة على حلو وقدم الرجل وجاراه للاستئناف وكان المجلس هائلا اذ كانت القضاة والرئيس محاطين بألوف من الفرسان والمشاة والسيوف مسلولة على رؤسهم فلم يهب الشيخ محمد عبد الماجد هذا المنظر الهائل بل جلس ثابت الجنان ولما سئل اعترف بكل ما اسند اليه من التهم وسردها معززة بالادلة الشرعية وقال لهم هذا هو الحق واتم في ضلال وأنا أدعوكم الى التوبة والمدول عنه أما صاحباه فانكرا انهما يبرفانه وادعيا ان ليس بينهما وبينه علاقة وهما في ذلك صادقان اذ احدهما لم يكن ساكنا في هذا الحي بل جاء لزيارة الثاني الذي هو تاجر مشغول بتجارته لاعلاقة له مع هذا الرجل الذي أخم من في المجلس بادلته حتى احتدم من فيه بالغيظ والحلق عليه فامروا بالرجل وصاحبيه ان يصلبا فسيقوا يحيط بهم بضمة آلاف رجل حتي قدموا الى المشنقة فصاب الشيخ محمد عبد الماجد الذي كان من أمره انه لما اقترب من المشنقة صعد الى الكرسي ساكن الجاش وفاه بكلام يدل على انه آثر الموت دفاعاً عن الحق وانتصاراً للملة الخيفية فرحمه الله رحمة واسعة واكرمه بكرامة الشهداء أما صاحباه وهما عبد المجيد حسن ومحمد نور فاعيدوا الى السجن وعوفيا من الصواب

ذكر تشييد قبة المهدي

سردنا كثيراً من أعمال التعاشي بعد وفاة سلفه المهدي ولما كان بعضها يدل دلالة صريحة على انه انما كان يظهر اعتقاد دعوي المهدي حرسا على سلطانه الذي ورثه من وراء هذه الدعوى ويدل على ذلك انه صادر أموال أقارب المهدي واضطهد أولاده وصار يحقرهم في مجالسه الخصوصية ويميرهم بانهم دنقلون لا يصلحون الاحراسة الابواب والاشتغال بمهنة ملاحاة السفن وتداولت الاسن هذه الاقوال وعدها الناس دليلا ساطعا على انه لم يكن مصدقا بالمهدي وانما كان يراءى الناس عزم على تشييد قبة على قبر المهدي ليبرهن للناس على عكس ما خالج صدورهم فكاف مهندسا مصريا اسمه اسماعيل افندي فوضع رسما لهذه القبة ذا أربع زوايا يبلغ طول كل زاوية منها سبعة عشر ذراعا وجعل عرض الاساس اكثر من مترين وبعده رفع البناء نحو خمسة امتار جعلوه مثنائهم مستديرا وفي يوم وضع الاساس اقيم احتفال كبير وذبحت البدن والثيران والحرفان وقدمت الاطعمة للالوف من الحاضرين وامسك التعاشي بيده معولا وبدأ بحفر الاساس

أما الاحجار فانهم كانوا يجلبونها من انقاض منازل الخرطوم التي كانوا يهددهونها من انقاض ديوان الحكمدارية والمديرية والارصفة التي على ضفة نهر المرقن وانقاض ما هدم من الكنيسة الكاثوليكية. وجميع البنائين الذين بنوها مصريون أما الفعلة فيهم متطوعون من الدراويش والامراء وكان البنائون يقعون اياما عديدة في العمل ولا يعطون شيئا ما وفي بعض الايام جلس التعاشي وكلم من حوله قائلا ان الذين يباشرون ببناء قبة المهدي في الحقيقة هم الملائكة اما الذين

تروهم من البنائين والعملة فلا عمل لهم في الحقيقة بل هم متحركون بارادة
 الملائكة فتال المهندس اساميل اغندي للبنائين اسمعتم ماقاله الخليفة فتالوا
 بلى فقال لهم ان الخليفة اعتبركم ملائكة في الحقيقة وهذا الاعتبار هو الذي
 حال دون اعطائكم شيأ من الاجرة لان الملائكة في غنى عن الطعام والشراب
 اللذين من كان منزهاً عنهما لا يعطي شيأ من أجرته فضحكوا وتمجبوا من
 وقاحة الخليفة وبعد سنة تم تشييد القبة ووضعت في داخلها المصابيح وفرشت
 بالابسطة وأحيط القبر بمقصورة من النحاس ووضع عليه تابوت من الخشب
 صنعه نجارون مصريون ووضع على التابوت كسوة من الجوخ وثريات من
 الفضة والذهب وصار الناس يقصدونها للزيارة في كل يوم

ذكر المجاعة في سنتي ١٣٠٦ و ١٣٠٧

لما كانت هذه المجاعة قد لحقت السودان كله وكانت أسبابها مختلفة رأينا
 ان نذكر تأثيرها في كل إقليم على حدة مبتدئين بذكرها في أم درمان فنقول

المجاعة في أم درمان والجزيرة

من عادة أهل الجزيرة انهم يخزنون محصولاتهم من الذرة اتقاء
 شر المجاعات التي تناب البلاد بسبب انحباس المطر عنهم
 وقد ذكرنا ان التعاشي لما أصدر الاوامر لأهل الجزيرة بمغادرتها
 وسكني أم درمان عادوا الى بلادهم فوجدوا المخزون من محصولاتهم قد نهبه
 الجهادية وفي سنة ١٣٠٦ لم تجد السماء عليهم بمطر فانتدب التعاشي ابراهيم
 عدلان أمين بيت المال ومعه عشرة من الامناء ووجههم الى الجزيرة لاغتصاب

ما يابدي الاهلين من الجيوب وأخيرا أصدر التعاشي أمره بمصادرة
 نصفها وترك النصف الآخر لهم فارتفع ثمن الذرة حتى بلغ ثمن الاردب
 منه أربعين ريالاً مجيدياً أي نحو سبع جنيهات انكليزية واغتال ابراهيم عدلان
 ومن معه من المندوبين عشرة آلاف أردب تقدر قيمتها بأربعمائة الف ريال
 وكانت بلاد العبيد الواقعة جنوب الخرطوم قد هطل فيها المطر بكثرة
 فخرج التجار اليها لطلب الغلال منها فأصدر التعاشي أمراً بأخذ نصف جميع
 الغلال التي تجلب من خارج أم درمان بسعر ست ريات من الريال المسمي المقبول
 تباع لأقاربه التمايشة الذين تقدم لنا ذكر وصولهم لام درمان فارتفعت الاسعار
 وعز وجود القوت وهاكت أهالي القرى الواقعة جنوب سنار وبادوا حتى
 صرنا ندخل القرية فلان نجد فيها دياراً والناس أموات على أسرة نومهم
 وداخل حجراتهم هم وأولادهم ولم تصب كردفان بشيء من هذا القحط اذ كانوا
 أمطروا بمطر غزير أحبي موات الارض وأبنت الزرع فخرج التجار
 اليها ليجلبوا غلتها كما هرعوا الي بلاد العبيد وكان ثمن الاردب من دخن كردفان
 لا يتجاوز ريالين ولكن لا توجد جمال للحمل واني توجد وقد قصصنا عليك
 فيما تقدم ما حاق بالابل والقبائل الرحالة فسكانت أجرة حمل الاردب من كردفان
 الى أم درمان أخذ نصفه ثم كانت النتيجة صعود الاسعار في (كردفان وفشوده)
 اللتين هرع الناس اليهما لطلب الاقوات منهما واشتدت وطأة المجاعة وتضاعفت
 ويلاتهما وزاد الطين بلة نقشي الطاعون البقري في ماشية السودان نقشياً مريباً
 حتى هلك جل البقر ولم يبق منه في أنحاء السودان كله الا شيء قليل
 جداً فارتفعت أسعار اللحوم وساءت الاحوال وفي أواخر السنة هطت الامطار
 فتنعم الناس خيراً وجادت الارض بمحصول وافر ولكن قبل اوان الحصاد

ببضعة أسابيع نزل الجراد على المحسول فاتمه ولم يبق منه شيئاً
 ودخلت سنة ١٣٠٧ والمجاعة لا تزال في أم درمان والجزيرة ولكن الاسعار
 هبطت الى النصف حيث بيع الاردب بعشرين ريالاً مجيدياً وليس لذلك من
 سبب غير فناء الناس ويقول الخيرون ان الذين هلكوا بالمجاعة لا يتقصون
 عن ثلاثة أرباع السكان

المجاعة في اقليم بربر

ذكرنا ما كان من أمر عزل محمد الخير عن بربر وتولية عثمان الديكيم عليها
 وفي أوائل سنة ١٣٠٦ حين بدأ القحط بام درمان والجزيرة أصدر
 التمايشي منشوراً بمنع ارسال الاقوات الى بربر وتوعد من حملها اليها بالقتل ووضع
 حراساً على ضفة النهر لمنع السفن التي تحاول الوصول الى شمال أم درمان
 ثم أصدر أمراً الى عثمان الديكيم حاكم بربر ببث الرجال في انحاء البلاد لاتلاف
 الزرع قبل استوائه فقلع الزرع وطوله نحو شبرين وبعد ذلك أمر بقطع
 السبل ومنع أهالي بربر من مغادرة ديارهم وخطب على المنبر خطبة عدد
 فيها سيئات الجمالين سكان ذلك الاقليم ولم يترك وصمة الا نسبها اليهم وقال
 انهم اغتالوا المال يوم فتح بربر ولما أرسل لهم المهدي المنشورات وأمرهم برد
 ماغلوهم من الغنائم كادوا يشورون على المهدي ويخرجون عن طاعته وكان
 الانكليز وقتئذ زاحفين على (بربر وابوطليح) ثم أمر أن لا يترك زرع لهؤلاء
 المنافقين وأن يحجر عليهم ليموتوا جوعاً في بلادهم فنفذت اوامره وهلك
 الجمليون وماتوا في مضاجع نومهم ولم ينج منهم الا نحو العشر وبلغ ثمن الكيلة
 من الذرة عشرين ريالاً وفقد القوت بالكيلة

المجاعة في دنقلة

اما المجاعة في دنقلة فمن أهم أسبابها انخفاض النيل في تلك المديرية لان ري مزرعاتها مثل ري اطيان صعيد مصر يتوقف على زيادة النيل وزد على ذلك ان المهديوية منذ حلولها في دنقلة حافت على النفوس وصادرت الاموال وبلغ ثمن الكيلة من الذرة عشرين ريالاً ولكن ساعد على تخفيف وطأة المجاعة وجود التمر بكثرة في دنقلة من محصولات النخيل

المجاعة في كسلة

ذكرنا ان التمايشي فصل مديرية كسلة عن سلطة عثمان دنقنة وولى عليها قريبه حامدين على الذي حكمها بصرامة وصادر أموال قبائلها وقطع السبل عليهم فهلكت القبائل ونزح اكثرها الى بلاد الحبشة وهلكت قبيلة الهدندوة التي كان عدد نفوسها نحو مليون نسمة . وبما يجب ذكره هنا ان حامدين على أرسل الى التمايشي نحو مائتي ألف ريال عدا الذهب والفضة اللذين سلهما من الاهلين

المجاعة في القضارف

ذكرنا القضارف وخصوبة تربتها وكثرة حاصلاتها ولما نفشت المجاعة في السودان في أوائل سنة ١٣٠٦ لم تكن وطأة القحط شديدة على تلك الجهة وفي بداية سنة ١٣٠٧ زحف الزاكي حامل من القلابات بعد ان تركها حامية لا تتجاوز ألف مقاتل الى القضارف ووزع جنده في القرى فانهبوا ما بأيدي الناس من الغلال وجمعوا في بيت المال وأمر أن لا يباع الا ردب منها الا بمائتي ريال

فهلك الناس واكلوا الميتة والجلود واكل بعضهم اولادهم وقد حكى لى من كان بالقضارف وقتئذ ان احدى نساء الامراء توفيت بغتة وكانت ضخمة الجثة فتآمر أناس ممن عرفوها ونبشوا قبرها فى الليل وقطعوا لحمها وانضجوه فى القدور واكلوه قبل ان يسفر الفجر وفى الغد وجد القبر منبوشا ففتشوا المنازل فوجدوا فيها لحوم الآدميين وعظامهم مما يدل على ان أهالى القضارف كانوا يقتاتون بلحوم بعضهم ولذلك لم يعرف من نبش قبر تلك المرأة

ولم ينبج من مخالب المجاعة فى القضارف غير أولى اليسار ولقد رأيت فى ام درمان رجلا من اهل القضارف متسولا وقد كان رأس مال تجارته لا يقل عن مائة الف ريال وكان له نحو النى مملوك يشتغلون بجرأنة أراضيه الواسعة فذهب رأس ماله وأراضيه ومماليكه فى شراء الغلة حتى خرج من تلك السنة لا يملك شروى نقير. والحاصل ان القضارف لم يبق فيها من السكان اكثر من بضعة آلاف نسمة وهلكت قبيلة (الضباينة) ايضا وهى قبيلة رحالة كبيرة تفوق قبيلة الشكرية التى تقدم ذكر فنائها ماشية ونفوسا

وأما كردفان فقد قلنا ان المطر هطل فيها بكثرة فرويت ارضها ونبت حاصلاتها من الجراد وبالرغم عن ذلك كله وقعت فى المجاعة لان التعاشي جمع اكثر من عشرة آلاف فارس من أقاربه وانفذهم اليها فنزلوا القرى ونهبوا ما بيدي سكانها من الحبوب وذبجوا ماشيتهم فارتفعت أسعار الحبوب وفشت المجاعة فى البلاد حتى تجاوز ثمن الارذب عشرين ريالا أما مظالم المهديوية فى كردفان فحدث عنها ولا حرج اذ قد تجاوزت حد العقول وبعد ان كان أهاليها اغني أهالى السودان لان الصمغ ورايش النعام من اكثر محصولات بلادهم صاروا فى نهاية الفقر المدقع وخربت قري عديدة

وهجرها سكانها ولحقوا بالجبال التي حوالى كردفان وسكنوا بها ليعبدوا عن
المهدويين وظلمهم الفاحش

وأما دارفور فقد اجتاحت الحروب بلادها وفشى القحط في أرجائها
وخربت بلادها ونزح أكثر سكانها إلى الجهات الغربية واستوطنوها ومنهم
من اعتصم بالجبال ولحق بها. والخلاصة أن البلاد السودانية كلها قد عضت
بناب القحط وحل الخراب والدمار محل العمار حتى صارت تلك البلاد كلها
ينطبق عليها قول الشاعر

أمتت خلاء وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

وليس لذلك من سبب سوى قصد التعايشي حلول هذه المصائب بأهالي
تلك البلاد ليضمهمهم ويأمن عاقبة ثورتهم عليه فانه لو لم يرسل الجهادية
ويوعز اليهم بنهب محصولات الجزيرة لما وصل حال المجاعة إلى الدرجة التي
وصفناها لان أهالي السودان يخزنون الغلال بكثرة حتى ان الواحد منهم ليخزن
في السنة غلة تقوم بقوته عدة سنوات اتقاء شر المجاعات التي تنتابهم في
أكثر السنين وقد علمت ان مجاعة الجزيرة لم تصل إلى الحد الذي تقدم لنا
ذكره الا بعد ان صودرت غلات أهلها ومجاعات بربر لم يقصد بها التعايشي
غير هلاك أهلها وكذلك مجاعة كسيلة والمضارف قد علمت أسبابهما وكل
ذلك لم يقصد به التعايشي الا اضعاف الأهلين فانه لما أحس بامتعاضهم منه
وخشى عاقبة ثورتهم عليه لم يغير سياسته العوجاء التي أوجبت امتعاضهم
منه بل عمد إلى اهلاكهم وفنائهم ليصبح آمناً على مركزه ويبيت مطمئناً على
ملكه فصار مثله مثل اليوم يسر بالخراب أكثر من العمران

ونقل لي ثقة أن أحد مقربي التعايشي قال له يوماً ان الكلب اذا جاع

لزم سيده فقال له التعاشي ان قتل الكلب ومحو اثره من الارض خير من اجاعته وكان قصد ذلك المقرب من كلامه أن يصادر التعاشي غلات رعاياه فتكون نتيجة ذلك الجوع فاجابه بان موتهم خير من هذه الطريقة أما ما اصاب المؤلف من هذه المجاعة فانه يفوق الوصف فن ذلك أني ذهبت يوما الى دور البقارة لالتقاط الحبوب المبعثرة حول اسطبلات الحيول وبعد ان جمعت نحو مدين منها جاءني اعرابي فاخذني مني فيست من الحياة وكدت أهلك انا واولادي لو لم تصل اليّ نقود مرسلة من صديقي الوفي محمد ماهر باشا محافظ مصر الآن اذ بها امكنتي أن أتخلص من مخالب المجاعة الاولى حتى دخلت سنة ١٣٠٧ وهبطت أسعار القوت الى النصف والذين استطاعوا الخروج من هذه السنة من أولي اليسار لم يخرجوا الا فقراء لا يملكون شروى نقيرا أما الفقراء فقد ماتوا رحمة الله عليهم

وقد نك التعاشي كثيرا من اقاربه البقارة لاراضى التي مات اهلوها في سنتي المجاعة فانطلقت ايديهم في البلاد بالسلب والنهب وما بقي في ايدي الاهلين من مواد الحياة اصبح عرضة لعبث البقارة ومع ذلك كله كانوا ناقلين عليه غير راضين باحكامه حتى أنهم كانوا يحنون الى ديارهم ويودون العودة اليها

ذكر فرار الغزالي وقتله

الغزالي بن احمد خوف زعيم قبيلة التعاشيه وكان ذا ثروة واسعة من الماشية ونفوذ عظيم في قبيلته وكان فارسا صنديدا تهابه القبائل وتتي باسمه الاعداء

ولما استقدم التمايشى قبيلة التمايشة ليشد بها عضده واعد زعيمها
الغزالي بان يجعله وزيره وبذلك تمكن من استمالته
وكان الغزالي بعد وصوله أم درمان يستنجر التمايشى الوعد فلا يجد منه
غير المماطلة والتسويق وكان من سياسة التمايشى ان يسند الوظائف الى
ضعفاء البقارة وزعائنهم ممن تؤمن غائلته لا الى من يكون فارسا قوى الشكيمة
مثل الغزالي خوفا من استمالته الناس بقوته وحزمه

ولما يئس الغزالي من نيل ما تنوق نفسه اليه من الرئاسة وشاهد مظالم
التمايشى وسوء تصرفه وطن عزمه على الفرار من أم درمان واللاحاق ببلاد
التمايشة في دارفور حيث يلحق بالذين تخلفوا عن مرافقته الي أم درمان من
قبيلته وكان يظن ان اكثر قومه الذين جاؤا معه يرافقونه ولا يتقاعدون عنه
ولكن خاب ظنه ولم يتبمه الا أحد مواليه وابن أخته فغادر الثلاثة أم درمان في
أول الليل وساروا متجهين الى جهة الغرب وفي الغد نبي خبرهم الي عبد الله
التمايشى فامر نحو سبعمائة رجل ان يتأثروهم وبعد مسيرة بضع ليال ادركوهم في
الطريق وقد بلغوا جهة يقال لها (كجمر) بالقرب من بلاد كردفان الشمالية
فوقف الغزالي وقفة من لا يحسب لادوت حسابا وأطلق على رجال التمايشى
النيران من بندقيته حتى طرأ عليها خلل أوقف متابعة الاطلاق فامتشق
حسامه حتى أحاطت به الخيل وقتلوه وحملوا رأسه الي التمايشى اما رفيقاه
فقد وقعا أسيرين وقتل القوم راجعين الي أم درمان ، وقد ساء وقع هذه
الفاجحة في قلوب التمايشة واشتد حنهم على عبد الله التمايشى وسيأتى ذكر
شيء من نتائج هذه المسألة

هذا وقد تقدم لنا ان نحو النصف من قبيلة التمايشة كرهوا ان يرجعوا

الى أم درمان فسادروا دياره وبقوا ببلاد (وناي) ولولم يفتت الغزالي
بسراب وعود التمايشي ويجب دعوته لما جاء الى أم درمان أحد من قبيلة التمايشي
التي كان يحيا شوفا وويلا على البلاد وعلى كل حال فان الغزالي ذهب كما ذهب
غيره من الذين ساعدوا المهديونية وعاونوا المهدي وخليفته على المظالم ولا غرو
فمن أمان ظالما سلب عليه

وكان يعقوب شقيق التمايشي يضرر السوء للغزالي ويخاف على مركزه
منه لزمته على قبيلة التمايشة ولذا سمي بينه وبين أخيه التمايشي حتى أوقع
النفرة بينهما لينام مطمئنا في منصبه الذي كان حريصا على بقائه فيه

ذكر صلب ابراهيم عدلان امين بيت المال

ذكرنا ما كان من أمر عزل أحمد سليمان أمين بيت المال واسناد منصبه الى

ابراهيم عدلان الذي كان صنيعته وأحد اعوانه في بيت المال

ولما مات المهدي وظهر ما يضره التمايشي لأحمد سليمان مال ابراهيم
عدلان عنه وصار يشي به عند التمايشي حتى بواه منصبه وقربه منه وصيره
من ذوى شورا فاستخدم هذا المنصب وجمع بسببه أموالا طائلة وقد أشرنا
الى ما اغتاله من الغلال في سنة المجاعة الاولى والحاصل انه أصبح ذا ثروة
كبيرة تمد بمئات الالوف وتمكن الفرور منه حتى صار ينازع يعقوب
في النفوذ ويسمى به عند أخيه التمايشي الذي كان يندش من جرأته
ويخفي تأثره من وقاحته التي دفعت الى منازعة أخيه وقد رأيت ابراهيم المذكور
جالسا بحضرة يعقوب غير مكترث به ولا جاث على ركبته كما يفعله
الدررايش

وصار ابراهيم المذكور ذانفوذ عظيم وشاد لنفسه داراً واسمة ملائها بالمحظيات من الفتيات الحسان وجمع حوله عدداً كبيراً من الفلجان وتغالي في اظهار الابهة وتمادي في الغرور حتى حسده القريب والبعيد واكثروا من السعاية به عند التمايشي وكان يعقوب في طليعة أولئك الواشين

وفي أواخر سنة ١٣٠٥ قبض عليه التمايشي وزجه في السجن وصادر ما ظهر من أمواله حيث لم يهتد الى جميعها ثم اطلقه وأعادته الى منصبه

وفي جمادى الثانية سنة ١٣٠٦ نفذت الاقوات التي كان ابراهيم عدلان صادرها من أهالي الجزيرة كما ذكرناه فيما تقدم ثم دخلت سنة ١٣٠٧ وقد اتهم الجراد محصولات البلاد قبل زمن الحصاد وقل ورود الغلة الى أم درمان حيث لم يجد الجباة محصولاً جديداً يأخذونه لبيت المال وهلك الناس من مجاعة السنة الماضية ولم يبق غير أولي الثروة الذين نفذ معظم ثروتهم ولم يبق لديهم من المحصول غير قليل من الذرة استبقوه لقوتهم وأصبح التمايشي عاجزاً عن تقديم الاقوات الى أقاربه البقارة فعزم على مصادرة ثلاثة ارباع ما بقى من الغلال في ايدي أهل الجزيرة فاستدعي ابراهيم عدلان وعرض عليه انفاذ هذا الامر فامتنع من قبوله وقال للتمايشي ان ما بقى بايدي الاهلين لا يقوم بحاجتهم وان مصادرة هذا القدر منهم ضربة قاضية على من في الجزيرة من السكان فاجابه هكذا أمرت وعليك ان تسافر بنفسك لانفاذ هذا الامر فامتنع وغازر أم درمان وأقام بالجزيرة زهاء ثلاثة أشهر فتكت في خلالها المجاعة فتكا ذريماً بالبقارة وظل التمايشي ينتظر من وقت لآخر مجيء الاقوات من ابراهيم عدلان الذي لم يوافه بشيء ما وأخيراً عاد الى أم درمان وطبق يخبز التمايشي بما استعقب المجاعة من تدمير البلاد وهلاك

السكان ظنا منه ان هذه الاقوال تكون اعظم شفيح له لدي التعاشي الذي كان لا يجمل صدق قوله ولكنه لما كان يقصد خراب البلاد وهلاك سكانها اظهر تكذبه واستدعى القضاة فاستنطقوا ابراهيم عدلان عن سبب عدم ارساله الغلال من الجزيرة فاعتذر لهم بما تقدم فاستدعى التعاشي رجلا اسمه (أحمد السني) من عمال بيت المال فتمهد له باحضار الغلال من الجزيرة فزوده بالأوامر وذهب اليها وبعد ايام قلائل أرسل له السفن مملوءة بالغلال. ويحيى فيما بعد ذكر بقية أخبار أحمد السني وما آل اليه أمره من الرئاسة على الجزيرة كلها ولا يعزب عن القاري انه قام بانقاذ رغبة التعاشي حيث صادر ما بقى بيد الاهلين من اسباب الحياة. على ان امتناع ابراهيم عدلان من انفاذ ما أرادته التعاشي عاد بفائدة هي قرب موسم الزراعة حيث كان ما بيد الناس من الغلال يقوم ببعض ضرورياتهم ريثما يجيء زمن هطول الامطار ثم ان التعاشي قبض على ابراهيم وكبله بالحديد وفي التمد شكل مجلسا لحاكمته تحت رئاسة الخليفة على حلو فحكم عليه بالاعدام شنقا ونفذ ذلك الحكم بعد ساعتين من صدوره

وابراهيم عدلان هذا أصله من قبيلة حقيرة في الجزيرة اسمها (الحوالدة) وأمه من قبيلة تسكن (ولد مدني) يقال لها (المدنيين) وكان يتجر في كردفان بأموال بعض تجار الاسرائيليين المصريين ثم لحق بالمهدى حينما حاصر الابيض ومن ثم اصطنعه احمد سليمان أمين بيت المال ووكل اليه بيع الارقاء والماشية التي لبيت المال ثم جوزي كما جوزي سنمار وسيأتي ان أحمد السني سمي بابراهيم عدلان عند التعاشي فكان من أمره ما كان

ذكر بقية اخبار ابراهيم عدلان ومسألة مصادرة العاج
لما أتى التعايشي القبض على ابراهيم عدلان انتدب الزاكي عثمان
البقارى واحمد دى أحد كتبتة لمراجعة دفاتر بيت المال وابداء رأيهم في أعماله
فقبضوا على كاتب أسرار ابراهيم عدلان وأودعوه السجن وقتشوا بيته فوجدوا
ضمن أوراقه وريقة فيها رسم من نوع الرسوم التي يسميها جماعة المشعوذين
(الافواق) أو (الخواتم) مكتوباً فيها « الملك عبد الله) أي التعايشي
وفيه أيضاً اسم ابراهيم عدلان فاستنتجوا من ذلك ان تلك الورقة صنعت
لاستمالة قلب التعايشي لمحبة ابراهيم عدلان فعرضت تلك الوريقة ضمن
أوجه الاتهام التي اتهم بها ابراهيم المذكور فقال قضاة الجهل والظلم ما يأتي
« ان تسمية الخليفة بالملك تدل على ان فاعلها غير مصدق بالمهدية ومن كان كذلك
فهو كافر ودمه هدر وماله وأولاده غنيمة للمسلمين »

ومنذ استولت المهدوية على أقاليم بحر الفزال وخط الاستواء صار عمالها
يجلبون لها العاج وفي آخر عهد ابراهيم عدلان جاءت ارسالية من العاج
فاصدر التعايشي أمراً ببيعها من التجار الذين أذن لهم بحملها الي سواكن
ليبيعها هناك فتلاعب ابراهيم عدلان في تقدير قيمتها حتي انه كان يبيعها
للتجار بنصفها ويشركهم في الربح وأثبت كاتب أسراره انه أعطى أحد أولئك
التجار أربعة آلاف ريال وكتب صكاً بينهما على أن يكون رأس المال ديناً
على التاجر والارباح مناصفة بينهما فاشترى التاجر بالاربعة آلاف ريال عاجا
من بيت المال تقدر قيمته الحقيقية بثمانية آلاف ريال فمقد التعايشي مجلسا
من القضاة وقال لهم انه لم يأذن لابراهيم عدلان في بيع العاج وقد باعه وأنفق

ثمنه في مصارف بيت المال العامة مع ان العاج فيء والفيء من نصيبه الخاص به واستدعى أعوان بيت المال ووبخهم على ما فعله رئيسهم ابراهيم عدلان فلم يكن منهم غير الاستغفار والتضرع بطلب العفو وهم لا يجهلون ان الأمر ببيع العاج هو التعايشي وفي بيت المال الامر الصادر منه ببيعه ثم أفتى القضاة بابطال بيع العاج وجواز مصادرته من التجار فأرسل مندوبين خلفهم الى سواكن أخذوا مابأيدي التجار من العاج قبل أن يتصرفوا فيه وكتب التعايشي بدفع العاج المصادر الى تاجر سواكني اسمه (عمر كشه) ليبيعه بمعرفة وليشترى منه بمض أدوات كياوية تحتاج لها معامل الخراطوش وبلغت قيمة ما صودر من العاج أربعمائة ألف ريال مجيدي وبقداً أكثر من أربعمائة تاجر رأس الملم وصاروا في حالة يرثى لها ولم يبق لديهم نفقة عودتهم من سواكن الى أوطانهم

وأكثر التعايشي من البحث والتنقيب على ثروة ابراهيم عدلان فلم يعثر على شيء منها والمرجح انه غيب أمواله في جوف الارض ولا يعرف موضعها غيره وستكون نصيب من يخدمه الحظ فينتهم تلك الحبيثة التي تقدر بمئات الالوف من الذهب

وخلف ابراهيم عدلان في وظيفة أمانة بيت المال النور ابراهيم الجريفاوى الذي كان أمين بيت مال بربر وقد ذكرنا فيما مضى طرفاً من سيرته وأعماله

ذكر حادثة العباددة وإبعادهم

العباددة قبيلة تسكن حوالي مدينة أصوان وهي تنقسم الى بطنيين (المشاباب) و (المليكاب) وهؤلاء أقل عدداً من الاولين وقوام معيشتهم

الماشية كسائر الاعراب ولكن بسبب عدم خصب البلاد التي يسكنونها لا تقوم الماشية بمعيشتهم قايما يصرف وجهتهم عن غيرها من سبل الارتزاق

ولما افتتح المغفور له محمد علي باشا السودان اشتغل رجال قبيلة العبابدة بمهنة تسيير القوافل التجارية والحربية في طريق الصحراء بين (كروسكو وأبو حمد) وبالرغم عن قلة عدد المليكاب وكثرة سواد المشاباب استأثر المليكاب بالزعامة على القوافل التي تسيير بين مصر والسودان وبالعكس ونبغ منهم رجال احرزوا الشهرة والنباهة في الازمان التي تقدمت ولاية ساكن الجنان محمد علي باشا على الديار المصرية

ولما قامت ثورة المهديوية في السودان كان حسن ابو خليفة بن اخي حسين باشا خليفة قابضا على رئاسة تسيير القوافل بين مصر والسودان فانضم الى المهديين وكتب له المهدي أمرا بالرئاسة على قبيلة العبابدة والدعوة له حوالى مديرية اصوان وشهد بعض الوقائع التي انهزم فيها دعاة المهدي في اقليم دنقلة وبسبب استبداد المليكاب بالرئاسة على القوافل دون المشاباب تولدت بينهم العداوة واستحكمت الاحنة في صدورهم ونالوا من دماء بعضهم ما زاد الطين بلة والطنبور نفمة واستقرت العداوة بين تينك البطين وتوارثها الخلف عن السلف

وقبض كثير من المشاباب على وظائف بريد التعاليشي وبمض وظائف بيت المال فاشتدت المناظرة بينهم وبين المليكاب الذين ولي التعاليشي رئيسهم حسن ابا خليفة الامارة عليهم ووكل اليهم رئاسة القوافل أيضا وجعلهم مرابطين في (آبار المرات) بين كروسكو وأبو حمد

واستخدمت الحربية أيضاً عدداً ليس بقليل من رجال العباددة ليجولوا في الصحاري وناطت بعضهم مهنة التجسس للحكومة وصار آخرون منهم تجسسوا للتعايشي فاستحکم النفور بين المليكاب والعشاباب وصار جواسيس الحكومة من العشاباب يسمون عند الحكومة بجواسيس المهديوية ويلحقون بهم المصائب اذا كانوا من المليكاب أما اذا كانوا من العشاباب فلا يتعرضون لهم وربما اعانواهم على قضاء أوطارهم وبمثل هذه المعاملة يعامل المليكاب جواسيس المهديوية فينكفون بالعشاباب ويتركون أقاربهم

ولبت العشاباب والمليكاب يحاربون بعضهم في دائرتي نفوذ الحكومة والتعايشي وينكفون بعضهم أشد النكال وفي سنة ١٣٠٦ قويت خطوة محمد بشير كرار أحد العشاباب عند التعايشي حتى جعله قائداً لدابته يأخذ بخطامها في المواكب واتفق ان الحكومة ارسلت صالح بن حسين خليفة الى ابن عمه حسن خليفة للمخابرة فنزل عليه ضيفاً في (آبار المرات) ثم قفل راجعاً الى اصوان فنعى خبره الى التعايشي فاستشاز غيظاً وكانت وشايات قائد دابته قد تمكنت من قلبه وكتب جمع من الامراء الذين في بربر والمرابطين في أبو محمد الى التعايشي يتهمون حسن خليفة بالخيانة والميل لجانب الحكومة فاستقدمه التعايشي الى أم درمان فلما قدمها قبض عليه فيها وسجنه وأصدر أيضاً أمراً بالقبض على سائر أفراد قبيلة المليكاب من ذكر وانشى وكان معظمهم يسكن حوالى بربر فقبض عليهم وصودرت أموالهم وسيقوا الى أم درمان يرسفون في القيود والاغلال وسبيت نساؤهم وهم يبلغون بضمة آلاف

وتوفى محمد خليفة والد حسن خليفة غمماً مما أصاب ابنه وقومه وكان

شيخا كبيرا وفي أوائل سنة ١٣٠٧ حملوا الى منقام في خط الاستواء على السفن الشراعية بغير زاد فمات النساء والاطفال جوعا وهدكت الرجال أيضا وعلى أثر ذلك خلا الجو للمشاباب واستأثروا بمنافع دولة التعايشي وانتقموا من اعدائهم شر انتقام وقطع دابر المليكاب من السودان فسبحان من يغير ولا يتغير

ذكر غارة العبابدة علي ابو محمد وقتل سليمان نعمان قمر
ذكرنا ما كان من أمر المجاعة التي فشت في السودان وقد دخلت الحدود من المرابطين فيها وقتل وجود المقاومة حتى صار عدد الموجودين بام درمان من المقاومة لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل وبات التعايشي خائفًا يتربص تقدم الجنود المصرية لمناجزته حيث لا يجدون من يدافع عن البلاد أقل دفاع

وزيادة على ذلك ان التعايشي أيقن بانحراف الناس عنه وميلهم بجانب الحكومة على أثر ما أروههم به من المظالم والمغارم قلنا ان الحكومة وكلت حراسة (آبار المرات) الى صالح بن حسين خليفة الذي هاله ما أتاه الخليفة مع ابن عمه حسن أبي خليفة وقومه المليكاب فجمع نحو مائتي راكب من قبيلته وأغار بهم على معسكر (أبو محمد) وانتشبت الحرب بينه وبين دن فيه من الدراويش ومعهم سليمان بن نعمان قمر قاتل السكولونيل ستيوارت فاقتحم سليمان صفوف العبابدة وقاتل حتى سقط قتيلًا بينهم فحزوا رأسه واحتملوهما

وكانت الحكومة نشرت نشرة فخوها ان من يأتيها برأس

سليمان هذا فله جائزة عتامة ثم أني امر هذه الجائزة قبل قتله ورجع
 المفكرون من العبادة بعد ان قتل منهم وقتل من اعدائهم فكوفي صالح
 خليفة رئيسهم على قتل سليمان نعمان براتب خمسين جنبها شهر ياقده كان
 أثر هذه الحادثة على التمايشي سيئا حيث وقع في روعه ان الحكومة تنوي
 التقدم لفتح السودان واستبدل الناس على ذلك بانه خرج بعد ان قرأ
 بريد (أبو حمد) فصلى بالناس صلاة العصر ست ركعات ثم سجد للسهو فعرف
 الناس ارتباكهم اذ كانت عادته ان يسهي في الصلاة اذا فوجيء بنسأ يفزعاه
 ثم هدأ روعه بعد ايام حيث علم انها غارة بسيطة ليس وراها فتح

ذكر موت الحاج علي سعد

الحاج علي سعد من قبيلة الجميلين وكان وضيعاً خامل الذكر ذا مهنة دينية
 ولما دخلت دعوة المهدي في بربر رفع محمد الخير منزلته حتى صيره أميراً
 على سكان القرى الواقعة جنوب نهر (اتبره) ثم كان من أمره مع محمد الخير
 أمير بربر ما تقدم لنا ذكر طرف منه حيث سمى بمحمد الخير عند التمايشي
 على أمل أن يخلفه في اماره بربر وقد وعده التمايشي بالوصول الى غايته
 وقضاء لباته فبالغ في توجيه المطاعن الى محمد الخير فعزله التمايشي وولي
 بدله أحد أقاربه البقارة وقلب ظهر الحين لعلي سعد ثم أمره باحصاء عدد المقاتلة
 الذين تحت امرته فبلغوا سبعة آلاف مقاتل فأمره بأن يصحبهم الى دنقلة
 في أوائل سنة ١٣٠٦ لينضموا مع ابن النجومي فقاد علي سعد بربر ولحق
 بابن النجومي في دنقلة فأحصى من معه من المقاتلة فاذا هم ستمائة مقاتل فقط
 فكتب ابن النجومي الى التمايشي يخبره بأن مقاتلة علي سعد ستمائة رجل فقط

لا سبعة آلاف كما قال فاستاء التمايشي وأضرر السوء لعل سعد الذي يش من
 نيل أمانة بربر وامتعض من التمايشي وإخيه يعقوب الذي خدعه
 وأغراه علي الطمن في محمد الخير توصلا إلى عزله واقصائه عن الامارة وأطمعه
 في تبويء ذلك المنصب ثم لم ير منه وفاء بل قلب له ظهر المجن

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ استقدم التمايشي علي سعد من دنقلة وقدم
 له غذاء وضع فيه مادة سمية فما كاد يفرغ من تناوله حتى أحس
 بانحراف شديد فلزم داره وتوفي بعد ليل قليلة بعد أن ظهرت عليه
 اعراض التسمم

وخلفه في وظيفته أخوه عبدالله سعد الذي خرج على التمايشي قبل فتح
 أم درمان فقتله الامير محمود في من قتله ويجيء ذكر ذلك فيما يلي والله الامر
 من قبل ومن بعد

ذكر موت عثمان آدم وتولية محمود احمد بدله
 ذكرنا ما كان من أمر عثمان آدم أمير دارفور وكيف جمع جيشاً جراراً
 هاجم به دارفور واستولى عليها بعد ثورة اهل سلطنتها القديمة ثم ما كان من أمر
 ظهوره على (أبو جيزه)

ولما فرغ عثمان من أمر أبو جيزه عم الدمار بلاد دارفور حيث اباد
 القحط البعض والبعض الآخر هجروا بلادهم ولحقوا بالبلاد التي في الغرب
 وكانت لم تخضع للمهدبين مثل بلاد (أبوريشه) وبلاد (وداي) وغيرها
 وأخذ عثمان يوالي النارة على سكان الجبال ليتحصل على نفقات جنده حيث
 صارت البلاد خراباً لا تقوم ببعض نفقات واقوات أولئك المقاتلة فنحصل

على شيء كثير من الاقتارات والمماشية ثم وجه عزيمة إلى بلاد الغرب لفتح بلاد (مسلات) وبلاد (أبوريشه) وهما مملكتان واقعتان بين (برقو ودارفور) فظفر ببعض قرى في تخوم تلك البلاد وقصد التوغل لفتح البلاد كلها حتى يقف عند حدود (برقو) فاصيب بحمي خبيثة وقضى نحبه بعد ثلاث ليال فاحتمله جنده وتقهقروا به راجعين إلى دارفور وأخفوا وفاته على العامة واقاموا وكيله محمد بشاره مقامه وارسلوا بنميه إلى التعايشي الذي وقع عليه هذا الخبر وقع الصاعقة وسالت الدموع من عينيه لانه كان يحبه ويعتقد فيه الكفاءة في دفع الملهمات ومقدراً نجاحه في دارفور حق قدره

وبعد أيام يسيرة من وصول نبي عثمان آدم أعلن التعايشي نبأ تعيين ابن عمه محمود أحمد بدله

وعلى ذكر محمود هذا أتى هنا على ترجمته تيمناً للفائدة فنقول. انه ابن أحمد دى عم التعايشي وكان مولده ببلاد التعايشة بجهة (الساككه) وقد رأيناه بعد سقوط الخرطوم مع والده وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز خمسة عشر عاماً ووجهه مشوه بأثار الجدري والثربة ظاهرة على اطماره البالية لا يأنف من مديد السؤال إلى أولي اليسار من الامراء والوجوه حتى وصلت خلافة المهديين إلى ابن عمه التعايشي. والحاصل أن المترجم كان مثل سائر أقاربه في الغاية التصوي من النفاقة وشظف العيش وأهالي السودان الاوسط يحتقرون سائر البقارة الذين هم في الدرجة التصوي من الهمجية والبدائة الوحشية ولتقم مع كونها شبه عربية تكاد تكون غير مفهومة. وبالجملة ان المترجم كان بقارياً في جميع أخلاقه وأطواره ولكننه مالم يثبت بعد ان صار قريبه التعايشي ذا سلطان على السودان حتى غير أخلاقه وعوائده وتشبه بأهل السودان

الأوسط واسترسل كعثمان ابن التعايشي في الدعارة وانهمك في حضور ليالي الرقص والنفاء التي ذكرنا بعض اوصافها وتغالي في حب المومسات. وجمع حوله عددا ليس بقليل من الخنثين المتشبهين بالنساء وله أخ اسمه ابراهيم الخليل هذا حذوه وسار على وتيرته

وقبيل توليته توفى والده وكان فيما يزعمون بارعا في معرفة علم الرمل ومعرفة البخت مثل ابن أخيه عبد الله التعايشي الذي كان خيرا بهذا الفن والحاصل ان ترجمة محمود أحمد لا تختلف كثيرا عن ترجمة عثمان ابن التعايشي وفي أوائل سنة ١٣٠٨ خرج التعايشي لتشييع محمود وسار معه أيضا مندوبون من القضاة ليعلموا أمر توليته ويأمروا القواد بطاعته

ولما وصل الي دارفور امتعض القواد منه لانهما كه في الشهوات وعكوفه على المعاصي والدنات وظهر لمؤسسه الفرق بينه وبين سلفه الذي كان على نهج كبار المهديين

والحاصل انه قبض على زمام دارفور وبقي بها حتى شغب الدنقلدون أقارب المهدي على التعايشي وتحفز الاهلون كلهم للثورة عليه فاستدعاه من دارفور الي أم درمان بجيشه وسيأتي ذكر ذلك في مكانه

ذكر صفة معيشة التعايشي

كان التعايشي قبل ان يفضى اليه الملك مثل سائر بني جلده البقارة في الدرجة القصوى من الحشونة والبداوة لا يعرف شيأ من ضروب التنم في الاحوال المعيشية على طريقة المترفين من أهالي السودان الاوسط التي هي وان كانت عوائد بربرية غير مألوفة الا انها تمد مدنية بالنسبة لحشونة البقارة

الذين لا يعرفون من أنواع الاطعمة غير المصيدة وادام (المندجية) الذي سبق لنا تعريفه ولحوم الصيد

وقد كان التعاشي عريقاً في هذه العوائد وكان يتطيب بكبريت الامود ذى الرائحة الكريهة التى تنقبض النفس من شهها وكان احسن الطيب عنده وهذا بخلاف اهالي السودان الاوسط فانهم يتطيبون بعبور الصندل والمحب وغيرها من انواع الطيب التي يتخذها المصريون وينفرون من رائحتها والحاصل أن عوائد التعاشي وقومه تباين عوائد اهالي السودان الاوسط وتختلف عنها اختلافاً كبيراً وهى كما قلنا في منتهى الخشونة والبداوة

وكان قبل افشاء الخلافة اليه نحيف الجسم مقوس الظهر كانه شيخ هرم طويل الوجه غائر الصدغين المنتشر بهما آثار الجدري وكان يلبس مرقمة بالية ممزقة يظهر جسمه من خلال خروقتها ويتعمم على قلنسوة من (الدمور)

ولم يلبث بعد ذلك حتى نبذ عوائده كلها ولبس المرقعات النظيفة وتشبه بالمهدى في ملابسه واخذ يتطيب بعبور المحلب والصندل وصار يأكل الاطعمة المصرية التي كان يقوم باتقانها نسوة مصريات من أهل الخرطوم وجمع عنده نحو مائة وعشرين امرأة من أجمل نساء السودان وضخمت جثته وتغيرت سحنة وجهه حتى انه يخيل للناظر اليه انه شخص آخر غير التعاشي ولكن لم تمض عليه ثلاث سنوات حتى تنقص عيشه بما اعتراه من ضعف أعضاء تناسله وخود شهوته فاستدعى طبيباً مصرياً اسمه حسن زكي من أطباء الحكومة السابقين وناجرين اسم أحدهما محمد طه الشامي واسم الثاني بندليه اليوناني وشكاهم ما اتابه من الضعف وفقدان الشهوة وسألهم ان

يحثوا له عن الاشياء التي تقوي الباه وأكد عليهم في السكتان فذهبوا وباد
 المداولة قر رأيهم على ان يحضروا له شيئاً من العنبر مثلاً على نوع الحشيشة
 المطبوخة المسماة (قراوش) فقصدوا محل رجل كان يبيع الحشيشة سرّاً اسمه
 بكتاش أغا وعادوا بالقدر الكافي ثم طبخوه مع العنبر ووضعوه في حق
 وذهبوا الى دار النعائشي الذي فتمته رائحة العنبر فأمرهم ان يأكلوا منه
 بحضرتة خشية ان يكونوا قد دسوا له فيه السم فاكلوا منه فشكرهم واجاز
 كل واحد منهم بمئزر رياتات وأكثر من أكل هذا النوع حتى نفذ فأمرهم
 بتجهيز غيره وصار ذلك عادة له لا يقدر على تركها

ذكر حادثة البطاحين

البطاحين قبيلة بدوية تسكن شرق النيل الازرق غرب صحراء (بره)
 وماشيتها من النعم والبقر وبيض الابل ورجالها مشهورون بالشجاعة والاقدام
 مع قلة عددهم وكلهم لصوص وقطاع طرق ولا توجد عصابة سطو أو جمية
 سلب في سائر انحاء السودان الا من البطاحين وقد أمسكت الحكومة
 كثيراً منهم قبل المهديّة وعاقبتهم على ما كانوا يأتونه من قتل النفوس
 ونهب الاموال

ولما ظهرت دعوة المهديّة كانت قبيلة البطاحين في مقدمة القبائل
 التي مالت اليها طمعاً في النهب والسلب اللذين هما دينها. ولحق بالمهدي
 في جبال (قدر) أحد رجال هذه القبيلة المدعو عثمان بن أحمد وكان
 من حفظة القرآن وهو كقومه البطاحين الذين جبلوا على الفساد وسفك

الدماء وكان ذا دهاء تمكن به من الظهور بمظهر الزهادة والتفاني في حب المهدوية والاخلاص لها فجعله المهدي نائبا من النواب الموكل اليهم النظر في القضايا الكلية فاستخدم هذه الوظيفة في سبيل اطلاق يد قومه البطاحين في النهب والسلب ووقف وظيفته لدرأ كل عقوبة يراد عقابهم بها على ما يرتكبونه من جنائيات السطو والقتل وقطع الطرق فانطلقت ايديهم في النهب والسلب بلا خوف من طائلة عقاب حيث صار قريتهم نائبا من نواب المهدوية ومقربا من مقربي التمايشي وارتفعت الشكوى منهم الى التمايشي الذي كان مع ظلمه لا يرضى بجولان يد في العبث والفساد غير يده وايدي قومه البقارة فكتب الى قبيلة البطاحين يأمرها بمغادرة ديارها واللحاق بابن النجومي في دنقلة وذلك في سنة ١٣٠٥ فسافر منهم نحو الف رجل واخفى الباقون في قفار بلادهم وصحاريها حتى كانت سنة ١٣٠٦ وفشت المجاعة في السودان

وفي أواخر هذه السنة ازدادت مفاهد البطاحين وانتشروا في بلاد شرق النيل وقطعوا الطرق على القوافل التجارية والسابلة التي تجتاز الصحراء بين النيل الازرق ونهر (اتبره) وحدرد الحبشة وأبادوا عدة قوافل بعد ما نهبوا وسطوا على أكثر القبائل النازلة في أنحاء تلك الصحراء وكلما رفع المجنى عليهم شكواهم وأحيلوا على القضاء الذي من اكبر رجاله قريتهم عثمان السالف الذكر خرجوا ظافرين بريئين

وفي ذات يوم جلس التمايشي في محرابه وحوله القضاة والنواب فقال لهم لقد طغى البطاحون وزادت شرورهم ومفاسدهم فأجابهم عثمان النائب بقوله يا مولاي انهم تركوا السطو وقطع الطرق منذ بايعوا المهدي وانصروا دعوته

فقال له التمايشي كلاً بل أخبرني الحضر عليه السلام انهم لم يتركوا شيئاً مما كانوا فيه بل زادوا جرأةً واقداماً على السطو وقطع الطرق فسكت عثمان واذعن لقول التمايشي

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ نفذ اليهم التمايشي رسولا اسمه ابن جار النبي فذهب الي جيهم وقرأ عليهم أمراً من التمايشي بمغادرة بلادهم واللحاق برباط دنقله فقبلوا الرسول بالضرب والاهانة وهموا بقتله وألقوا به وبمن معه جروحاً خفيفة فقر من وجوههم وقتل راجعاً الى أم درمان فاتي التمايشي خارجاً من داره لصلاة المغرب فأخبره بما أصابه فأمر في الحال باعداد نحو عشرة آلاف مقاتل بين فرسان وجهادية مسلحين بالبنادق وان يغادروا أم درمان بعد صلاة العشاء تحت قيادة قريبه عبد الباقي عبد الوكيل

وبعد صلاة العشاء ركب التمايشي والابواق حوله قاصدا ضفة النهر لتوديع الجيش وتزويد القائد بالوصايا التي يعمل بها وما انتصف الليل حتى اجتاز الجيش كله النيل على البواخر والسفن وتابع مسيره في الصحراء الى المساء وبعد ثلاث ليال داهم حى البطاحين في الغلس وأمطرهم النيران الحامية فسقط منهم نحو ألفي قتيل وسبق الباقيون أسرى بنسائهم وأطفالهم ونهبت ماشيتهم كلها وجرى نحو ثلاثة آلاف أسير منهم الى أم درمان عدا الصبيان والنساء فاختر التمايشي مائة وخمسين رجلاً من أعيانهم ومشايخهم وأصدر أمراً بجلب خمسين منهم في ميدان السوق وضرب أعناق خمسين أيضاً وقطع أيدي وأرجل الخمسين الآخرين

وركب التمايشي في ظهر ثاني يوم ووصلهم الى ميدان السوق وشهد انفاذ هذه الاحكام القذيمة ومات أكثر الذين قطعت أيديهم وأرجلهم ونجا

الذين أدركتهم غيرة أولي الشبهة فصبوا على جراحهم الزيت المحسى بالنار
 لقطع نزيف الدم وقد قال التعاشي وقتئذ لمن حواه اني لم أفعل ذلك الا بأذن
 من النبي صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدي فانهم أمروني بالامس بهذا
 العمل فقال رجل من الدناقلة وهو نوتى ان صدقنا انهم أمروا بالصلب وضرب
 الاعناق وقطع الايدي والارجل فهل نصدق أنهم أمروا باخذ النساء الحسان
 ونكاحهن كوطوات بملك اليمين فسمعه بعض الحاضرين وأبلغ التعاشي مقالته
 فأمر بإحاطته على المحاكمة حيث ادعي عليه أنه لعن أبا المهدي فحكم القضاة بضرب
 عنقه فضربت في اليوم التالي في محل استعراض الجيش

وأخذت نساء البطاحين مسبيات ووزعن على البقارة والقواد وامتلات
 أم درمان بالمتسولين منهم وكانوا كما قدمنا من أشد القبائل تشيعاً للمهدوية ومن
 شدوا أزرها فانتم الله منهم بيدها ومن أعان ظالماً ساط على
 وبيعت ماشيتهم التي جلها من الضأن والبقر في أم درمان فهبطت اثمان
 المشية حتى بلغ ثمن الرأس من الضأن نصف ريال

شان محمد خالد زقل بعد ذلك

ذكرنا ما كان من حوادث محمد خالد زقل في دارفور وما وقع له مع
 حمدان أبي عنجه الي سجنه بام درمان بضعة شهور وخروجه من السجن حيث
 أمره التعاشي بملازمة الصلوات الخمس في المسجد معه وكان زقل هذا ذا دهاء
 شديد فأخذ يتظاهر بولاء التعاشي ومحبه حتى خدعه ما يتظاهر به الي أن
 دخلت سنة ١٣٠٦ وكثرت الاختلافات بين عثمان دقنه وأبي قرجة الذي
 تولى على شرق السودان بدله

ولما استعجلت تلك الاختلافات انفذ التعايشي الشيخ الطاهر بن المحذوب
ومعه محمد خالد زقل الى السودان الشرقي ليفصلا بين المختلفين فتوفي الشيخ
الطاهر في (طوكر) وقفل محمد خالد زقل راجعا الى ام درمان ومعه عثمان دقنة
ثم عزل التعايشي أبا قرجة واعاد عثمان دقنة الى الامارة ثم ولي محمد خالد
زقل على دنقلة زهاء سنة حتى دس له يعقوب أخو التعايشي الدسائس
وكان في دنقلة أميران من البقارة هما مساعد قيدوم الذي تقدم لنا ذكره
مع ابن النجمي وكان قائد المقاتلة من البقارة وعربي دفع الله وكان قائد الجهادية
المسلحين بالبندق

وعربي هذا كان خادما عند محمد خالد زقل تربى في منزله بدارفور
ولما عين زقل أميراً على دنقلة وصار عربي تحت إمرته حفظ لزقل
حق التربية فكان يتواضع أمامه ويجلس متأدبا بحضرتة ولم يكن
في الحسبان أن يتقلب حالهما ويتبدل صفاؤهما بالعداوة لولا مادسه يعقوب
أخو التعايشي لعربي حتى دفعه الى السعي بزقل عند التعايشي . وفي ذات يوم
جمع عربي رجاله وكانوا زهاء الفين وأحاط بهم منزل زقل ومنعه
من الخروج فانقسم جيش دنقلة فريقين فريقاً ينتصر لزقل والآخر
يظاهر عربي عليه وهذا مؤانف من الجهادية والبقارة وذلك من
الدناقلة والجمليين وكان قد وصل في غضون هذه الحوادث أحد أعداد
جريدة مصرية فيه نبأ يشير الى أن زقل أمير دنقلة اتفق مع الحكومة
على ان يسلمها دنقلة بغير مقاومة وأن الحكومة السودانية وعدته
بالمكانة الحسنة فلم يبق ريب لدي التعايشي في صحة الخبر وخشى ان يكون
زقل قد قرر ذلك مع من معه من القواد فانفذ اليه يونس الديكيم ومعه أمر

بانه عينه خادما يحمل نعل محمد خالد زقل فادرك سر المسألة وكتب الى التعايشي
 يستأذنه في القدوم عليه ويسأله ان يعين من ينوب عنه في دنقلة فاجابه بتعيين
 يونس نابيا عنه وأمره بالقدوم عليه فاستقبله بالأكرام وبعد أيام يسيرة عقد
 مجلساً لمحاكمته لما جاء في الجريدة المصرية لحكم المجلس باعدامه ولكن
 التعايشي أوقف التنفيذ وأمر بسرجته ومصادرة أمواله ووضع في رجليه من
 القيود ما أثقله حتى عجز عن المشي ونهبت أمواله وبقي في السجن بضع سنوات
 ثم نفي الى خط الاستواء في مستهل سنة ١٣١١

وكان زقل شديد البغض للمصريين مع انه كان موظفاً أميرياً بدارفور
 كما قدمنا وحائزاً للرتبة الثالثة ولما استولى على دارفور ارسل الى المغفور له الخديو
 توفيق باشا كتاباً ينصحه فيه بالتسليم للمهدوية واستهل كتابه بمقدمة مملوءة
 بالوقاحة والسفاهة والمطاعن الشخصية التي يتجاني اليراع عن رقتها. ولما لوى على
 دنقلة أرسل له كتاباً آخر لا يختلف عن الكتاب الاول مملواً بالمثالب والمطاعن
 وقد اتصل بنا ونحن نبين هذه السطور ان محمد خالد زقل فر من منفاه بخط
 الاستواء بمد هزيمة التعايشي بأمد درمان ولحق بمملكة (برقو) فأمسكه سلطانها
 كأسير ولم يفلته حتى الآن ويقول العارفون بمادات تلك البلاد انهم
 لا يسمعون لغريب ذهب الى ديارهم أن يعود من حيث جاء مخافة أن يكون جاسوساً
 يجوس خلال الديار ويعود منها مزوداً بالاسرار ومهما يكن من الحال فان زقل
 لم يتمتع بلذة الحكم على بلاد دارفور التي استخلصها من جنود الحكومة بالصفة
 التي تقدم لنا ذكرها الا زهاء سنتين كانت مغبتهما السجن ونهب ما جمعه من
 الاموال في خلالها ولا غرابة في ذلك فهكذا كانت معاملة المهدوية لكل من
 أظننا والله الامر من قبل ومن بعد

ذكر استخراج الرصاص والنحاس

والكحل من معادن حفرة النحاس

تقدم لنا ان الطيب الذكر غردون باشا افتح جهة (حفرة النحاس) المملوءة بمعادن النحاس وشرع في استخراج النحاس منها ثم أهمل خلفه أمر هذه الحفرة ولم يحفل باستخراج النحاس منها حتى دخلت بلاد دار فرر في حوزة المهديّة

وفي سنة ١٣٠٧ أنفذ التمايشي أناسا الى تلك الجهة فاستخرجوا شيأ كثيرا من الرصاص والنحاس والكحل فاستخدم الرصاص في تعبئة الخرطوش بعد ان حبطت مساعيه التي بذلها في استخراج هذا الصنف بسبب الغش الذي قطعت يد ورجل المقدم عمر الجعلي من أجله وصنع من النحاس ظروف الخرطوش ثم لم يعد لاستخراج شيء من هذه الاصناف بعد أن حصل على كفايته منها

ذكر بنات الجميلين

الجميلين اسم قبيلة تقدم لنا تعريفها في حوادث بربر وفي أوائل سنة ١٣٠٨ أنفذ التمايشي رجلا اسمه محمد وهي بن حسين اداى المشهور بالرئيس وكان من موظفي الحكومه في بربر الى قرى الجميلين الواقعة بين بربر وأم درمان على احدى البواخر ليأخذ كل حسان من بنات الجميلين ويحملها على الباخرة ويأتيه بها فكث بضعة شهور متجولا في شواطئ تلك القرى باخترته ثم عاد بها وهي مكنتة بالنساء الحسان وجلهن عذارى وسمعت من أحدهن ان التمايشي كان يأمر بنزع ثيابهن عنهن لدى وصولهن

اليه فكانت الواحدة ممن تدخل عليه في حجرته وهي عارية كيوم ولدتها أمها
وبعد أن ينعم نظره فيها وهي مقبلة يأمرها أن تدبر ثم يدينها منه فإذا أعجبته
أبقاها في داره موطوءة بملك اليمين وإن لم تمجبه أمر بإخراجها واهدائها
لأحد أقاربه البتارة

أما دخول النساء عليه وهن عاريات فكان لا يقصد به التمتع بالنظر اليهن فقط
بل كان يخاف أن يحملن تحت ثيابهن سلاحاً أو مادة سامة وهو يعامل كل نسائه
بهذه المعاملة إلا من يثق بامانها وقل أن يأتين واحدة ممن

ذكر انسحاب الجيش من القلابات

تقدم لنا ذكر ما كان من أمر محاربة الدراويش والاحباش الي قتل
النجاشي يوحنا

ويقولون ان النجاشي منليك الذي خلف يوحنا في سلطنة الحبشة
عقد مهادنة مع الدراويش على ان يكفوا عن حربه والتعدي على حدوده
لانه لم ينب عنه ان المملكة الحبشية مشتتة بدفع غارة الايطاليين عليها من جهات
(أسمره) وفتحها بابا للحرب مع الدراويش بضاعف مشغوليتها ويزيد خسارتها
فداهن الدراويش بل صافاهم على انه كان موقناً بان سوء تصرفات سلفه
هي التي فتحت على المملكة هذا الباب الذي كانت في غنى عنه لكي تنفرغ
لوقوف امام المنيرين على بلادها من الفاتحين الايطاليين

والتعاشي لم ينشر شيئاً يدل على وقوع هذه المهادنة الا ان قرائن الاحوال
تدل عليها لان بعض مصادر الاخبار تؤكد ان غارة الدراويش على الاحباش
لا تخلو من يد للايطاليين في تديرها . وفي نفس الوقت الذي كان منليك

يستعد فيها لمناجزة الايطاليين في الواقعة الاخيرة بينهما كانت جيوش
ال دراويش أيضاً ترحف من جهة أخرى لمهاجمة مراكز الايطاليين مما يدل على ان
ال دراويش كانوا أولاً علي وفائق مع الايطاليين ضد الاحباش ثم انعكس الحال
فصاروا مع هؤلاء على أولئك

والحاصل ان التعاشي بعد أن ملأ القلابات خيلاً ورجلاً ونال جنده
من الاحباش ما نالوه من الظفر حصن القلابات بسور من الحجارة وأصدر
أمراً الى الزاكي طمل قائد الجيش ان يترك القلابات ويوكل حراستها الى الف
رجل تحت إمرة أحمد علي البقاري فصعد الزاكي بالامر وغادر القلابات
وعسكر في القضارف وارهق أهلها نهياً وصادر غلاتهم بالكيفية التي ذكرناها
في الكلام على القحط الواقع في القضارف

وفي أواخر سنة ١٣٠٧ قدم الزاكي طمل على التعاشي ودفع له مائة
وثمانين الف ريال وقناطر مقلنة من الذهب والفضة فأمره بالعودة
الى القضارف وأخذ الالهبة لاختراق الجزيرة والغارة على بلاد (الشلك)
باقليم فشودة

ذكر غارة الزاكي طمل على الشلك

الشلك اسم لقبيلة من العبيد تسكن اقليم فشودة وهم حفاة عمارة يلبس
الاعنياء والعظماء منهم قطعة من خرقة تستر أنصاف أنفاذهم فاذا جلس احدهم
طوي الخرقة ووضعها على كتفيه وبقيت عورته بلاستر

أما النساء فيأتررن بفروة من الجلد اذا كن متزوجات أما اللاتي لم
يتزوجن فهن عاريات كيوم ولدتهن أمهاتهن وهؤلاء النسوة يخلقن شعر

رؤسهم مما يزيد في تقبيح مناظرهن وتشويه خلقهن والرجال يسبلون شعورهم
ويدهنونها بالمواد الغروية كالصمغ ويسملون منها شكلا يخاله الرأى من بعد
قبح الافرنج .

وهم غلف لا يعرفون الختان ويزعمون ان الختان هو كسر أربعة أسنان
من اسنان الرجل أو المرأة من الفك الاسفل ليتمكن احدهم من اخراج
اللسان بغير أن يقف شيء في طريقه

ويزين الرجال نحورهم وأذرعهم بكثير من الخرز وأجراس النحاس
الصفيرة وقطع العاج وزينة المرأة شيء من الودع والخرز على خصرها وعلى
كل حال تربو زينة الرجل وحليته على زينة المرأة وحليها والرجال مع استئثارهم
بالنصيب الاكبر من الزينة على ما ذكرنا تراهم مع سواد بشرتهم طوال القامات
حسان الوجوه مفتولي السواعد يبدو على وجوههم العجب والزهو ويحملون
بأيديهم الاسلحة من المزاريق والحراب ولا يعرفون هم ولا نساءهم لبس
نعل أو حذاء

ودياتهم وثنية همجية لهم صنم من الخشب اسمه (النيكامه) بتطيش
النون وأما (الكجور) فهو كعالم ديني يرجعون الى مشورته في أمور الدنيا
والدين والطب وهو إن صح مانسمه من قومه عنه لا يخلو من معرفة شيء
من علم النجوم والانواء علما نظريا لانه كثيراً ما يخبرهم بأخبار المطر وغيره
قبل الحصول

ومما يدل على ذلك ان وظيفة الكجور لا تكون الا وراثية من
الاسلاف للاعتقاد وبالجملة ان الكجور عند الشلك أشبه شيء بالكاهن
والعراف في عهد الجاهلية

وأغذيتهم من لحوم الصيد وابن الماشية والبوظة المسكرة وما شيتهم من
الغنم والبقر كثيرة جداً وهم يقدسون الفحل من البقر ويلقون على قرنيه
الاجراس والخرز وسائر أنواع الزينة ويسمونه (مجوك) ويخرجونه في الحفلات
والمواسم حيث يكون موضع احترام الجميع

وإذا خرجوا يستسقون المطر يخرجون الفحل أمامهم متوسلين به
والحاصل أن (مجوك) عند الشلك يشبه العجل (أبلس) عند قدماء المصريين
وعادة الزواج عندهم أن الرجل يتزوج بما شاء من النساء بمعنى أنه يتزوج
ما شاء من النساء بغير قيد ولا حد

ومهر الزواج لا يقل عن ستين رأساً من البقر للمتوسطة من النساء ومائة
لاهل الطبقة العالية ولا يجيزون أن يكون المهر أقل من أربعين رأساً من البقر
والمهر حق لا قارب الزوجة يأخذ أبواها القسم الأكبر منه ويوزع الباقي على
أقاربها من جهة الأب والام وهؤلاء ينالهم أكثر مما ينال أولئك

وإذا توفي الزوج خلفه أكبر أنجاله على جميع نساؤه عدا أمه والاولاد الذين
يولدون له منهم يعتبرهم اخوته لأنه يرى نفسه نائباً عن والده واسم (مريم)
علم لجنس النساء كما أن اسم (ثور) علم لجنس الرجال كلهم وتخضع قبيلة الشلك
كأهلها إلى ملك يسمى (الملك) وحكمه نافذ فيهم وطاعتهم له عمياء وهم يعتبرونه
متدسا يستمد سلطته من معبودهم (النيكامه) كما كان قدماء المصريين
يعتقدون شبه هذا الاعتقاد في فراعنتهم

وهذا الملك ماري الجسم مثاهم ولا يدنو منه أحد إلا بعد أن ينحني
ويزحف على ركبتيه ولا يرفع أحد عينه إليه بل يظنون جلوساً كأن الطير على
رؤسهم ويجاس حواليه الشيوخ والكجور فاذا عقدت جلسة لمحاكمة جالس

الملك وبين يديه أنواع السلاح كلها وإنما يعاقبون بالقتل وعند نهاية الجلسة يتناول الملك نوعاً من السلاح الذي بين يديه يرمي به نحو الجاني وينصرف فينفذ الحاضرون العقوبة عليه بنوع السلاح الذي أو مابه

ومن دأبهم مع ما هم فيه من التوحش والهمجية حيث لا فرق بينهم وبين الأنعام المحافظة على الآداب حتى يظن الإنسان أنهم في نهاية التسدين فلا توجد بينهم فاحشة ألبتة والزاني والزانية لا عقاب لهما إلا القتل

ومما زاد في إعجابي بأولئك الأقوام أن المرأة منهم في نهاية الحرية تختلط مع الرجال وتجالسهم وهي محترمة عندهم كاحترامها عند الأفرنج ومن عوائدهم أن الرجل إذا انتصب ذكره وهو جالس مع غيره عوقب بالقتل في الحال مع أنهم يجلسون صراة والنساء معهم

ومنازلهم أكواخ مستديرة وأعالها مستطيلة كالقبة والنظافة متوفرة فيها حتى أن أرض منازلهم مرصوفة بشيء من الحجارة يخالها الناظر لأول نظرة رخماً وفي كل قرية مكان كبير يحرقون فيه روث البقر حتى يصير رماداً ينامون عليه ويترغون فيه

وينسلون وجوههم ببول البقر ويتمضمضون به ويضعونه في اللبن والسمن وياكلون الميتة والدم ولا يذبحون الماشية إلا إذا اشرفت على الهلاك فيذبحونها بقصد الحصول على الدم إذ هو أحد غذاء عندهم وفي بعض الأحيان يجرحون البقر في شرايينها ويترفون الدم في آنية ثم يضمّدون الجرح ويربطونه حتى يندمل

ولهم مهارة غريبة في اقتناص الضواري كالقيل والسبع والنمر وبقر الوحش والزرافة وسائر أنواع الوحوش . ولندكر هنا طريقة صيد

الفيل وبقر الوحش وهى أن يجتمع اثنا عشر رجلا منهم بيد كل واحد منهم
 حربة طويلة ويقترّبون من الفيل أو بقر الوحش ثم ينفرد واحد منهم دون
 رفاقه فيطعم ما يريدون صيده في اقتراسه ويتجه نحو مطارده فيثب عليه الباقر
 ويطعنونه بحراهم في دبره قبل ان يتمكن من اقتراس رفيقهم لان الطعن
 لا يؤثر في بقية جسمه لملاسة جلده وصلابته. أما صيد بقية الوحوش فانه دون
 هذا في الغناء وللملك نصيب من كل ما يصطاده الافراد فاذا كان من نوع الفيل
 فله العاج وأطياب اللحم أما النزلان فانهم يقدمون له أحسن نصيب من لحمها
 ومهارتهم في صيد دواب الماء تكاد تفوق تفننهم في صيد وحوش القلاة
 وذلك انه يوجد في بلادهم فرس البحر بكثرة والتساح والاسماك الكبيرة الى
 يزيد طولها عن مترين ولهم زوارق صغيرة مصنوعة من الخشب ومن
 العجب انهم يربطونها بالخيوط فقط اذ لا مسامير من الحديد عندهم والزوارق
 المذكورة محكمة الصنع متساوية الاطراف يركبونها ويحملون بايديهم
 مزاريق صغيرة رؤسها كالصنارة ينفذون بها الاسماك في عمق الماء فلا تعود
 بغير مصيد ويندر أن يخطئ المزارق وصيد التساح يقرب من هذه
 الطريقة. أما طريقة صيد فرس البحر فهي انهم يربطون حبالا متينا في أسفل
 حربة رأسها كالصنارة وفي آخر الحبل حزمة من نوع خشب اسمه (المبيج)
 يشبه (الفلين) في خفته وطفوه على وجه الماء وتربصون على ضفاف النهر
 بعد غروب الشمس حتى تخرج فرس البحر لتأكل الحشائش التي تبت على
 الضفة فيرمونها بالحربة في دبرها فتولى عنهم وتعود الى اليم وقد
 غاصت الحربة في دبرها والحبل والمبيج خلفها وبعد أيام قلائل يتعفن الجرح
 فيجتمع الصيادون في زوارقهم الصغيرة ويمسكون الحبل ويطاردون الفرس

التي تظهر على وجه الماء بعد جذب الجبل فيرشتونها بالسهام حتى يقضى عليها
فيقتسمون لحمها بعد اخراج اطابيه للملك ويجففون جلودها الذي يصنع منه
السياط المروفة في مصر

وهم يسكنون الضفة الغربية للنهر ويسكن الضفة الشرقية أمة اسمها
(الدينكة) لا تختلف في شيء من العادات عن الشلك الا انهم لم يحرزوا
صفات الشجاعة التي للشلك ولا يعرفون صيد البر والبحر مثل الشلك
ولا ملك عندهم بل لكل قرية رئيس مطلق ولذلك يضطهدهم الشلك
وينيرون عليهم وينهبون ماشيتهم حتى ان الواحد من الشلك يطارد عشرة من
الدينكة الذين لهم صنم من خشب كصنم الشلك يسمونه (دينديت) وعدد
نفوس الدينكة يبلغ أضعاف الشلك وبسبب فرقة الدينكة صاروا عرضة لغارة
جيرانهم الشلك الذين هم مع ما هم فيه من القوة والعزة تراهم ذلاء امام جيران
لهم في الجنوب وهم أمة اسمها (نوير) حيث يوالون الغارة على الشلك وينهبون
ماشيتهم مع ان عدد نفوس الشلك يبلغ أربعة أضعاف عدد نوير والحاصل
ان نوير آفة الشلك كما ان الشلك آفة الدينكة

وعوائد نوير و اخلاقهم مشابهة لعوائد الشلك الا انهم اكثر ثباتا من الشلك
واجرا وقاماتهم أطول منهم

وأرض الشلك والدينكة ونوير خصبة التربة وريها بالامطار التي تهطل غزيرة
جدا عندهم غير انهم كسالي لا يحرثون من الارض الا شيئا قليلا يقوم
بضرورياتهم

وحاصلاتهم الذرة الرفيعة والسهم والدخان الذي يستعمله رجالهم ونساؤهم
صفارهم وكبارهم ويمتاز الدينكة عن الشلك بزيادة الحاصلات وكثرة الحرثة

ولما دخلت السودان تحت حوزة مصر لم يلتفت الحكام والولاة الى تنظيم حكومة للجهات الجنوبية على النيل الابيض التي منها فشودة بل كان الشلك وغيرهم من سكان البلاد عرضة لماراة عصابات النخاسين الذين يجلبونهم ارقاء وينهبون اصلاقتهم وماشييتهم

وفي سنة ١٢٨١ اغتنى المرحوم موسى باشا حمدي حكامدار السودان بامر الجهات الجنوبية ونظم حكومة لها فكانت فشودة أول مديرية أسسها وولى عليها الفاتم مقام حلعي بك الذي طرد النخاسين عنها ولكن الشلك قابله بالجفاء ونفروا منه وشهروا عليه الحرب حتى اضطر الى ان يتحصن منهم في نقطة فشودة الواقعة في وسط الاقليم واختارها عاصمة لمديريته وبعد ذلك هادنوه فقدم لحم كثيراً من الهدايا والملابس التي كان يفرغ جهده في اقتناعهم بضرورة لبسها فلم يفلح بل كان كبراًؤهم يلبسون بعضها عند قدومهم الى مركز الحكومة فاذا عادوا الى قراهم خلعوها وبقوا عمارة كما كانوا

ولما ولي المرحوم جعفر مظهر باشا حكامدارية السودان اهتم بشأن مديرية فشودة وبذات الحكومة الجهد في استئلافهم حتى صاروا يادون لها بعض ضرائب لا تقوم بعشر معشار نفقات الحامية والادارة

ولدى تولية الطيب الذكر غردون باشا على جهات النيل الابيض أنشأ في فشودة عدة مراكز وشاد معاقل في الجهات الشمالية والجنوبية وكان اذ ذلك ملك الشلك من عائلة اسمها (كيكون) فاخذ ذلك الملك في أسباب التمرد وصار يلبس الثياب ويأكل على الموائد. وقد اهدى له غردون باشا عدة هدايا ومنحه لقب (بك) فزاد اخلاصاً للحكومة الا ان قومه امتعضوا منه وذموا مخالفته لعوائدهم وتشبهه بالترك واضمروا له الشر فثاروا على الحكومة عدة

ثورات قتل في احداها يوسف بك حسن المشهور بكرده مدير فشوده
وتقدمت تلك المديرية في مدته تقدما عظيما. ولما ظهر المهدي على جند الحكومة
في جزيرة (آبا) ولحق بجبال (قدير) وحمل عليه راشد ايمن بك مدير فشوده
وكان من أمره ما تقدم لنا إرادته في مكانه كان (كيكون بك) ملك الشلك معه
وقتل مع من قتل فقمام أحد رؤساء الشلك وأخذ معه وفداً شخص
به الي المهدي في جبال قدير فكتب له المهدي بالامارة على الشلك وسماه
(عمر) واعطاء أبواقا من التي غنمها من الحكومة فماد الى الشلك وأخبرهم
بان المهدي اله وانه أخو معبودهم (النيكامه) وانه ولاه ما كما عليهم فاتبعوه
لانهم كانوا يعرفون المهدي مذكان شيخا في جزيرة (آبا) فجمع عمر قومه
وشرع في مناوأة الحكومة وامتنع عن تأدية الضرائب وتوطد نفوذه بينهم
وحافظ على عواندهم التي تقموا على كيكون بك ملكهم السابق من أجل نبذها
ولما فنك المهدي بحملة الجنرال هيكس وقررت الحكومة جلاء
حاميتها عن فشوده لتعزيز حامية الخرطوم خلا الجو لعمر ملك الشلك واستقل
بالتصرف في البلاد كلها

ولما توفي المهدي أعلن عمر أن المهدي استخلفه على العبيد واستخلف
الحامية على العرب وهم يسمون العرب (بون) بتمطيش النون واستمر
في بلاده مستبداً بالحكم فيها حتى دخلت سنة ١٣٠٦ هجرية وفشا القحط في
السودان ونسل الناس من جميع الفجاج الي فشوده جلب انغلة فارسل التعاليشي
باخرتين تقلان الف مقاتل احتلوا فشوده وكتب الي الملك عمر بأمره بتأدية
عشر محصولات بلاده منذ عودته من جبل قدير أي نحو ثمانى سنوات
وأرسل له هدية من الجوارى الحسان والسكر وبيض دلابس فسألهم عن ثمره

السكر فاذا قوه طعمه فقال انه لذيق ثم قال ان الجواربي اللاتي اهداهن الي الخليفة يمنعي من قبولهن انهن متصدعات يلبسن الثياب وكان يمكنني قبولهن لو كنت أجدهن في بلادي ثياباً مثل التي يلبسها وأخشى ان يصبن بضرر اذا ألزمتهم بان يظلمن عاريات مثل نسائي وأما الملابس فلا أستحسن أخذها حيث اني لم أتعود لبسها والاولى ان اردتها الى الخليفة ليهديها الي من يلبسها وأما السكر فان في بلادى عسل النحل بكثرة ويمكنني أن استعيض به عنه واني وان وجدته لذيقاً واشتيت نفسي تناوله ولكنني أمنعها عنه لانه غير موجود في بلادى اذا أخشى أن تتعلق نفسي به في وقت لا أجده فيه

واما الاعشار التي يطلب الخليفة مني تاديتها فلا أدفعها اذ لست خاضعاً له لاني مولى من قبل المهدي الذي هو مثل (النيكامه) والخليفة ملك العرب وأنا ملك الشلك وانا مثله فلا تلزمني طاعته ولا تلزمه طاعتي غير اني أدفع له اثني اردب من الغلال على سبيل الهدية ومكافأة له على هديته التي رفضت قبولها لعدم صلاحيتها لي

وكتب الملك عمر كتاباً الي التمايشي ضمنه هذا المعنى وأنفذه مع رسولين من قبله فقدموا على التمايشي بام درمان فعجب من وجود من يحسن الكتابة عند الشلك وأخيراً علم أن الكاتب غلام ابوه مصري وأمه من الشلك وكان مع والده في الخرطوم حتي قتل يوم ستموطها فقر مع امه ولحق ببلاد الشلك اخواله وأمه قريبة احد رؤساء الشلك الكبار فجعله الملك كاتباً له

وحدث في بعض الايام ان أحد الدراويش أراد نهب جدي من ماشية لرجل من الشلك فلم تكده تصل يد المتعدي الى لمس الجدي حتى

طمعنه صاحبه بجرية جندلته في الحال وثار الشلك كلهم ورفعوا رايات الحرب التي من عادتهم رفعها بالليل بكيفية يفهم منها اخذ الالهبة للحرب وهي ان ياخذوا قنائة يدهنونها بالزيت ويشملون النار فيها فيراها أهل القرية القريبة منها فيرفعون مثلها لأهل القرية التي تليها وهكذا حتى يعلم أهل البلاد كلها بالحرب في ليلة واحدة ويحتشدوا في أسرع ما يمكن ويرسلوا وفودهم لتلقى الأوامر بالحرب .

وبعد عناء شديد وأخذ ورد بين قائد الدراويش وملك الشلك ثاب التأثرون إلى السكينة وعاد الأمن إلى مجراه

وكان مع الدراويش شلكي من رؤساء القرى التي في الشمال ولكنه بالنسبة لقربه من بلاد العرب تشبه بهم وصار يلبس الثياب فأخذه قائد الدراويش معه بصفة دليل واسمه (ايك) بن (غري) وهو من أقارب عائلة (كيكون) التي منها الملك كيكون بك. وحدثني أحد الحاضرين ان الملك عمر أرسل خمسين مقاتلا ومعه عشرة من الشيوخ والكجور إلى منزل (ايك) وكان بجوار معسكر الدراويش تجلس العشرة معه ووقف الخمسون على بعد واخذوا يبخونه على مخالفته عوائد الشلك وتشبهه بالعرب وانه جاء مع العرب بصفة دليل وعدوا ذلك خيانة للملك يماقب عليها ثم وثبوا عليه وضربوا عنقه وحملوا راسه إلى الملك فلم يجسر أحد من الدراويش على مقاومتهم أو الذب عنه واخيراً استاء التعاشي من عصيان الشلك وخطرت ملكهم فجهز اليهم في سنة ١٣٠٨ الزاكي طمل امير جيش القلايات في نحو عشرين الف مقاتل جلهم فرسان ومسلحون بأسلحة رامنجتون فسار الزاكي من القضايف ثم اجتاز النيل واخترق الجزيرة حتى وصل إلى اطراف فشوده

وهناك وجد البواخر التي انقذها له التمايشي وحشد الملك عمر جيشه
للذود عن بلاده فهاجمهم الدراويش هجوما عنيفا وقتل الملك عمرو حملت
رأسه الي التمايشي

ومكث الزاكي نحو ثلاث سنوات في فشوده يعمل في الشكك السيف
والنار فخرت القرى التي على ضفة النهر وسالت الدماء كالانهر وصادر
ماشيتهم وارسلها الي الخليفة فكان يختار منها ما هو صالح للتاج ويؤلف
منه قطعانا ينتفع بتاجها ويبيع الباقي بواسطة بيت المال هذا عدا الارقاء الذين
جلبهم منهم حتى هبط ثمن الجارية الي بضع ريبالات وثمان الرأس من البقر الي
ريالين وبالجملة ان الزاكي طمل خرب بلاد الشكك كلها ودمرها ووجب منها
اهلها ارقاء اختار التمايشي نحو خمسة آلاف من غلمانهم جعلهم من ضمن
الجهادية حراسه وسيأتي ذكر بقية أخبار الزاكي وقتله

ذكر بقية اخبار عثمان دقنه

قلنا في ما تقدم ان التمايشي استدعى عثمان دقنه الي ام درمان وعزز
قوته بعشرة آلاف مقاتل مع أبي قرجة على أثر ما علمه من انحراف القبائل
في السودان الشرقي ونفورهم عنه

ولما غادر عثمان دقنه طوكر اغارت عليها القبائل الخارجة عليه بمساعدة
بعض جنود الحكومة ثم عادت عنها بغير جدوى اذ لامقاتلة فيها ولا جنود
تدفع غارتهم عنها

وفي منتصف سنة ١٣٠٤ وصل عثمان دقنه الي سواكن معززا بقوة ابي قرجه
الذي ولاه التمايشي على السودان الشرقى بدله اتقاء ثمورة الاهلين ونفورهم

عن عثمان دقنه الذي شق عليه العزل ومكث في كسلة هو ابو قرجة الذي سار في الناس سيرة حسنة فثاب اكثر الثائرين على عثمان دقنة الي الطاعة وأمن أبو قرجة السبل واعاد الصلات التجارية بين مصوع وكسلة واخذ في مخابرة القبائل التي حوالي طوكر وسواكن بلهجة سلمية وقصد بذلك ارجاعها الي الطاعة فلم تفلح مخابراته لان أنصار عثمان دقنة كانوا يذيعون في الناس أن ولاية ابي قرجة اسم بلا مسمي وأن الغرض منها تسكين الثوار حتى يعودوا الي الطاعة فانما عادوا صاروا تحت سلطة عثمان دقنه الذي هو الأمر الناهي لابي قرجة في باطن الأمر فقشلت مساعي ابي قرجة وذهبت ادراج الرياح على اثر اذاعة انصار عثمان دقنة هذه الاقوال التي لا تخلو عن الصحة

وأفند أبو قرجة حملات متتابعة الي بعض القبائل التي تسكن في المنطقة القريبة من حدود الاحباش حوالي جبلي (البيكوت والمناع) وأكثرها القبائل مجوس لادين لهم وهم من قبائل الزنوج القديمة واشهرها قبيلتا (الباريه والبازه) وقوام معيشة هذه القبائل لحوم الماشية والصيد والالبان ويندر بينهم من يعرف الحبز وهم مثل سائر اهالي شرقي السودان من حيث العادات حيث لا يرفون اكل الحبز والخضراوات التي يعتبرونها غذاء الانعام يترفع عن اكلها الآدميون ويسكن معظم تلك القبائل فوق قمم الجبال الشاهقة وفي سفوحها وكوفها التي يتخذونها معقل اذا دهمهم عدو وهي متمسة بأوون اليها بماشيتهم التي هي الغنم والابل والبقر ورجال الباريه والبازه فرسان لا يشق لهم غبار ولا يصطلى لهم بنار يقطعون السبل ويعترضون القوافل للسلب والنهب

ولهم عادات ومراسم تقرب مما نسمة عن طوائف اليزيدية والدرور
هذا وقد أثنى أبو قرجة في هذه القبائل وأغار عليها إغارات كثيرة
ونهب شيئاً لا يحصى من ماشيتها

وبعد سنة زحف إلى طوكرو واحتل (هندوب) وهي موقع يبعد من
سواكن ببضعة أميال وأغار على القبائل التي خلمت الطاعة فظفر ببعضها وفر
أكثرها ولجأ إلى الجبال واعتصم بالكهوف

وحصلت جملة مناوشات بين عثمان دقنة والاعراب الموالية للحكومة وبينه
وبين الحكومة من جهة أخرى وقد جرح كتشنر باشا جرحاً أخفيفاً في إحدى
المناوشات وكان وقتئذ قرمندان حامية سواكن وكانت الحامية في غضون هذه
المناوشات مشغولة ببناء الحصون وتشديد الاسوار على سواكن

ثم حصلت بعد ذلك واقعة بين عثمان دقنة وحامية سواكن قتل فيها
ضابط إنكليزي اسمه السكا بن تاب

وفي شهر رجب سنة ١٣٠٥ شفي كتشنر باشا وعاد إلى سواكن. وفيه
هاجم عثمان دقنه معقلى (ردوت والجيزه) وأمد أبو قرجة عثمان دقنة
بسبعة آلاف مقاتل وتمززت قوة الدراويش في هندوب ولكن خرق
الحلاف اتسع بين عثمان دقنه وأبي قرجه فهذا يرى ان لا فائدة في مناوشة
سواكن والمرابطة في هندوب وذلك يخالفه ويهمه بالجبن وعدم الاقدام بل
بالحياسة والميل لجانب الحكومة واذاع عثمان دقنة ان أبا قرجة كان يجتمع
مع قواد الحكومة ليلاً فاستدعى التمايشي أبا قرجة على أثر ما علمه من عثمان
دقنه الذي أعيد للإمارة وخلال الجوف في السودان الشرق

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٣٠٥ اشتدت مضايقة عثمان دقنه لسواكن حتى

اقتربت متاريسه من الاسوار وصارت على بعد خمسمائة (برده) فقط
وعين عثمان دقنه رجلاً دقلياً اسمه عثمان النائب قائداً للمقاتلة الذين
في المتاريس الامامية وواتوا اطلاق النيران على سواكن حتى خيف سقوطها
في أيديهم لولم تدركها حماية السفن الانكليزية في البحر وأحرق حصن شانه
الذي كان من الشوك وضويقت سواكن وافتقرت حاميتها الى النجدة وكانت
الحكومة ترى وقتئذ اجلاء الحامية وترك المدينة للدراويش وبعد مداوات
قررت حفظها

ثم دخلت سنة ١٣٠٦ وسواكن في حالة ضيق شديد وطم العدو اكثر
الآبار التي تستقي الحامية منها انه كانت خارج الاسوار
وفي أوائل شهر صفر من السنة المذكورة وضع عثمان دقنه المدافع على
حصونه وصار يطلقها على حصون الحكومة فاندحش القواد من انتظام
مقدوفاتها واصابتها المرمي

وفي ربيع الثاني من السنة المذكورة وصل الى سواكن الجنرال غرانفيل
باشا سردار الجيش المصري وقتئذ فارسل اليه عثمان دقنه كتابا يخبره فيه بان
أمين باشا حاكم إقليم خط الاستواء والمستر ستانلي السائح الانكليزي المبعوث
لائقاً حامية خط الاستواء قد وقعا في أسر المهذوبة وكان مقصده من ذلك
الارهاب والتضليل

وبعد أيام قلائل هاجم الجنرال غرانفيل معاقل عثمان دقنه بعمدة طوابير
من الجيش المصري فدمرها وقتل من فيها من المدافعين وكانوا لايزيدون
عن سبعمائة مقاتل ولكنهم ابلاوا بلاء حسناً ودافعوا عن موقعهم دفاع الابطال
وكانت هذه الواقعة في أواخر شهر ربيع الثاني عام ١٣٠٦ هجرية

وعقب واقعة المتاريس تقهر عثمان دقنة الى طوكر وعسكر بها وكانت
 الجماعة وقتئذ ضاربة اطنابها في انحاء السودان كله خلا طوكر فان الاقوات كانت
 تجلب اليها من سواكن ومكث عثمان دقنة في طوكر بقية سنة ١٣٠٦ يوالي
 الفسارة على الاعراب الذين انحازوا الى الحكومة وشقوا عصا الطاعة
 عليه لاشتداد وطأته عليهم حيث زاد المكوس زيادة فاحشة وصار
 يقتل منهم في كل يوم عشرات فكانوا يهرعون الي الخليفة متظلمين منه فلا
 يجدون لديه مايشفي غليلهم وكثيراً ماأمسك المتظلمين وجلدهم بالسياط
 حتى أنه جلد واحداً منهم الفا وخمسمائة جلدة بسياط قد وضعت فيها حلقات
 من الاسلاك الحديدية حتى مات

ولما علم الاهلون ان لالصف من عثمان دقنة ولا راحة من مظالمه
 قلبوا للمهدوية ظهر الحن ووالوا الحكومة وحالفوها على حربه فوزعت
 عليهم الاسلحة النارية ومن ثم اشتغل عثمان دقنة بالنارة عليهم وكان في اكثرها
 يرجع مدحوراً متكبداً خسائر جمة

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ استقدمه التعايشي الى ام درمان عن طريق بربر
 ثم اذن له في العودة عن طريق القضارف فكسلة فطوكر واعطاه أمراً الى
 جميع الامراء ان لا يعترضوا من رغب من الناس في مصاحبته
 ولما وصل القضارف تبعه أناس كثيرون من أهلها فارين من الجماعة
 التي أناخت عليهم بكالكها ومنهم كثير من اسري المصريين الذين كانوا في كسلة
 ثم لما وصل الى كسلة تبعه كثير من المصريين أيضاً ولحقوا بطوكر فرارا من
 الجماعة أيضاً كمن تقدمهم

ووصل عثمان دقنة الى طوكر وجعل همه الفسارة على الاعراب

الموالين للحكومة وسنعود الى ذكر بقية أخباره وهزيمته في طوكر

ذكر هزيمة الدراويش من هندوب واخباراً مارأر
أمارأر اسم لقبيلة في ارباض سواكن وهي قبيلة رحالة ماشيتها من الابل
والغنم ولغتها أعجمية مثل سائر سكان السودان الشرقي وكانت هاته القبيلة
أول من خلع طاعة الحكومة وظاهر عثمان دقنة عليها وزعيمها أحمد بن محمود
كان اكبر انصار المهديوية في أوائل الدعوة اليها ولم يكن لذلك من سبب سوي
انه كان من مریدی الشيخ الطاهر المجدوب استاذ عثمان دقنة

ثم ما لبث طويلًا حتى ميج عثمان دقنة وبنفضه بسبب ما رهبق به (أمارأر)
قبيلته من المظالم والمغارم واشتد الخصام بينهما فتحفز عثمان دقنة للوثبة على
على احمد محمود شيخ أمارأر والبطش به ففر ولجأ الى حكومة سواكن ثم فر منها
ولحق بالتعايشي بام درمان وقدم مالا طائلا الى يعقوب اخي التعايشي وسأله
ان يكون وسيطا له عند اخيه ليكتب له بالامارة على قومه على أن لا تلزمه
طاعة عثمان دقنة فأجاب التعايشي طلبه وكتب له بالامارة على قومه وان
يجعل معسكره في هندوب وفوض اليه أخذ العشور من التجار الذين
يخرجون ببضائعهم من سواكن فعادر أحمد محمود أم درمان آيا الى سواكن
في أواخر سنة ١٣٠٧ فتوفي في أحد المناهل التي بين بربر وسواكن وكتب
التعايشي الى أحد اخوته بان ينوب عنه في عمله

وفي أوائل شهر رجب سنة ١٣٠٨ ارسل أحد جواسيس التعايشي في أصوان
عدداً من اخدي الجرائد المصرية فيه أن عدة طواير من الجيش المصري
ستبحر من السويس الى سواكن لتأليف قوة حربية تهجم معسكر الدراويش

في هندوب ثم تعوذه تلك القوة الى سواكن حيث تبحر منها الى نهر (تريا كيتات)
ومنه الى طوكر براً

وبعد ليلتين مضتا على وصول هذا النبا - بآء الى التعايشي خبر من هندوب بان
ثلاثة طوابير زحفت من سواكن على هندوب فباغت الدراويزن عند شروق
الشمس وكان شيخ (أمارار) ومن معه من قومه كانوا على علم بهذه المباغثة
فامتطوا دوابهم ولم يبدوا أقل مقاومة وولوا مدبرين من وجه الحماية
المصرية التي كانت سائرة الى المسكر بسكينة وانتظام كأنها داخلية الى
احدي ثكناتها العسكرية ونجا رجال (أمارار) ووقع في أسر الحكومة بعض
اعراب من الذين يجهلون ما بين الحكومة وشيخ أمارار الذي قيل إن ما
أخوه احمد محمود كان بايعاز من حكومة سواكن وان ما قدمه ليمقوب احي
التعايشي من المال كان من مصروفاتها السرية

ويدل على ذلك انهم بعد هزيمتهم من هندوب عادوا الى سواكن من
طريق آخر فقبولوا بالاكرام واجريت عليهم المرتبات وبلغني أن موت أحمد
محمود لم يكن الامن سم دسه له التعايشي في الدسم
والحاصل ان قبائل السودان الشرق التي كانت موالية لعثمان دقنة
على الحكومة رجعت بالمعاد عليه وصارت مع الحكومة عليه

ذكر هزيمة عثمان دقنة من طوكر

ان من يتأمل في الحالة الاولى التي كان عليها عثمان دقنة في اوائل دعوته
للمهدوية وما كان يصادفه في خطواته كلها من النجاح والظفر ثم ما آل اليه
أمره من النشل والهزيمة يرى انه قضى على نفوذه بنفس السلاح الذي كان

يضرب به هام رجال الحكومة

وذلك انك ترى فيما كتبناه عنه في ما تقدم من هذا الكتاب أنه أحرز شهرة تكاد تضارع شهرة المهدي نفسه لأنه قام بدعوة قبائل السودان الشرقي بالصفة التي تقدم ايرادها وكان في بداية أمره يتدرب بنفوذ استاذه الطاهر المجذوب ولكنه مع هذا النفوذ أظهر سياسة تكيفت بالتفاف القبائل حوله واستيلائه على قلوبهم حتى بلغ من أمره انه لو قال لهم خوضوا البحر الأحمر حتى تبلغوا الهند للبوا الى ذلك مسرعين

وتوجد مشابهة بين المهدي وعثمان دقة وذلك أن المهدي عرف كيف يتمكن من التأثير على أهالي السودان بما يفتره من الدعاوي الطويلة العريضة وهي مهارة لا يتردد أحد في ان متوخاها عرف ان لا سبيل للتأثير على الامم الا من الجهة التي تميل اليها

وكان عثمان دقنة يتأثر المهدي الذي كان ذا طلاقة في اللسان وتصرف في البيان يقدر معه على التعبير عما يمكنه فؤاده بجمل عامية يفهمها الجهلاء ويمثلون بمخمرة بلاغتها من حيث تأديتها المعنى المقصود بالفاظ عامية توافق أذواق السامعين سيما أهالي السودان الشرقي الذين لا يتكلمون باللغة العربية بل لغتهم أمجمية همجية وكان من الحال ان يبلغ المهدي غايته من التأثير عليهم فقام فيهم عثمان مقام المهدي وعرف طريقة استمالتهم بما أوتيته من البراعة في لغتهم حتى انه كان اذا قام فيهم واعظاً أو خطيباً يؤثر عليهم تأثيراً يجعلهم له أطوع من بنائه

وكان يقرأ عليهم آيات القرآن الشريف ويشرحها بتفسير معانيها . على ان أهالي السودان الشرقي كانوا لا يعرفون من الاسلام الا اسمه وكانوا في

حالة بدواة تكاد تكون قريبة من حالة الشك التي تقدم لنا وصفها
فاجتذب عثمان بمسذوبة الفاظه وبلاغة كلامه أفئدتهم للإسلام حتى تمكن
الإيمان من قلوبهم وحكى لنا أكثر من واحد أنه جمع ذات ليلة نساء
(المهندوه) ووعظن حائاهن على الصدقة وانفاق المال في سبيل الله فما
منهن واحدة الا ونزعت ما عليها من حلئ ومصاغ وألقته بين يديه فاجتمع
من هذه الصدقات مقدار وافر من الذهب والفضة وبلغ من حماس أولئك النسوة
انهن كن يرافقن أزواجهن في الغزوات يحملن الماء والزاد لغذاء المقاتلين
ويجهزن على الجروحين بما يحملنه في أيديهن من السلاح حتى صرن يمثلن
باشلاء القتلى تمثيلاً شنيعاً وقد تقدم لنا ذكر ذلك

والحاصل ان عثمان دقنة نال حظوة في السودان الشرقي كانت كافلة له
أن يسقى بمسد موت المهدي في مركزه ولو كره ذلك التمايشي الذي كان
يمجز عن مناواته ولكنه ما لبث أن انفض الناس من حوله وجاهره
بالعداوة ولا ضر وفان الظلم مرته وخيم

هذا وقد أمد التمايشي عثمان دقنه بالجيوش الجرارة بقصد ارغام الاهالي
على الطاعة فلم تقرن أعماله بالنجاح ولو فرض أنه نجح في اخضاع الناس فلا
يكون خضوعهم الا مداراة حيث كانت القلوب منصرفة عنه كما بات التمايشي
في أخريات أيامه تداريه الالمنة والقلوب تتربص به الدوائر لتتخلص
من وطأة ظلمه الذي أرهقهم به

وأصبح عثمان دقنه أرفلك فريداً لا أنصار له من أهالي البلاد وكان جنده
عبارة عن المقاتلة التي أمد التمايشي بهم وجلبهم من متاتلة أبي قرجة الذين
بعضوه ونفروا عنه لما كان بينه وبين فأئدهم أبي قرجة من المنافسة التي تقدم لنا

الاماع اليها وفر أذكر هؤلاء المقاتلة ولحقوا بديارهم في الحرطوم لانه كان لا يعطيهم ما يقوم بحوائجهم الضرورية

ويظن كثير من الناس ان عثمان دقنه قد ندم في أخريات أيامه على ما فرط منه من متابعة المهدي لما شاهده من أعمال التعاشي التي تخالف أعمال المهدي على خط مستقيم ولكنه كان لا يأمن جانب الحكومة بعد ان أتى ما أتاه معها

ولقد حكي لي أحد القواد الذين كانوا معه انه سامرته في خلوة وقال له ان الحكومة تدعوني الى الطاعة وتمدني بكل خير ان أنا خضعت لها فماذا تظنها تفعل بي اذا أسلمت نفسي لها فقال القائد وقد ظنه يختبر ما يضمرة لا تأمن جانب الكفار فاني أرى انهم اذا تمككوا منك سجنوك وجعلوا غذاءك الغلة تمضغها كما تمضغ الخيل الملوقة وربما فتموا عينيك وتركوك في قعر السجن فاربذ وجه عثمان وقال له ماقلت الا حقاً

وحكي آخر ما يفهم منه ان عثمان دقنه أدرك خشونة مركبه وانه صار بلا سند في السودان الشرق ولذا أصبح في حاجة للاستمرار على ولاء التعاشي الذي كان يبغضه في السر وينسب الى سوء ادارته ومظالمه خراب السودان وأنه قال يوماً لبعض خاصته ما يأتي

أحلف بكتاب الله هذا (ووضع يده على المصحف الشريف) اني لا أخاف الا من ثلاثة فقال جليسه ومن هؤلاء الثلاثة فقال هم الخالق عز وجل والمجذوب بن أستاذي الشيخ الطاهر والخليفة التعاشي فقال له لم أفهم قصدك وأرجو أن تصح لي عن مرادك فأجابه عثمان اني أخشى الله تعالى لانه قادر على خذلاني في الدنيا وعذابي في الآخرة وأما خوفي من المجذوب فلانه رجل

قليل الأدب يضيق صدري من وقاحتها وأخشي أن تفرط مني كلمة تغير
خاطره ولو تغيراً خفيفاً فإكون قد أسأت والده أستاذي الشيخ الطاهر
الذي أجله وأحبه أكثر من حبي لنفسي وأفديه بأبويّ وانه كما علمت أهدي
إليّ الامارة وبوأنى منصبها وانني أطلب من الله أن أخرج من الدنيا
وتكون حياتي ومالي فداء لشراك نعل اي أحد من عتره أستاذي الشيخ
الطاهر رحمة الله عليه. وأما خوفي من الخليفة التعايشي (وعندئذ تنهد عثمان
وخنقته العبرة وقال يضيق صدري ولا ينطلق لساني) فاني أخاف ان أنا
خالفته ان يقبض عليّ وينفيني الي خط الاستواء (ثم سكت طويلاً) فقال
واقسم لك على كتاب الله اني لا أهاب الموت ولست جباناً وليكني ألقى
شهادة الأعداء

ومن هذا الحديث يفهم القاريء ما وصلت اليه حالة عثمان دقته من
الارتباك في أيامه الاخيرة

ولما دخلت سنة ١٣٠٨ منعت الحكومة خروج الاقوات من سواكن
فتصاعدت الاسعار ثم عز وجود المؤنة في معسكر طوكرفقر من المعسكر
كل من قدر على الفرار من المقاتلة وتجهز عثمان فيمن بقى معه منهم للغزوي
يحصلوا من النهب مايقوم بحاجتهم من القوت فاوغل في وسط الجبال ونازل
الاعراب الموالين للحكومة ففاجأه نبأ احتلال الجنود المصرية هندوب فاسرع
الابوة الي طوكر فبلغها قبل ان تهاجها الجنود ببضع ليال

وفي أواخر شهر رجب سنة ١٣٠٨ هاجم هولدهسميث باشا طوكر
ببضعة طواير من الجيش المصري فخرج عثمان دقته للقائه في ببضعة آلاف
مقاتل وانشبت الحرب بين الفريقين وحاول الدراويش إقتحام المربع

فصدت بهم المقدوفات ووارى منهزمين، لا يلبون على شيء وكان عثمان واقفاً وراء مقاتلتهم بعيداً عنهم بمسافة ألى متر
وبعد الهزيمة اسبلوا ماخف من أمتعتهم ونساءهم وقصدوا كسلة وتخلّف، عن مرافقتهم عدد كبير من المصريين ولم تتقدم القوة الى طوكر وخاف المصريون ان يكر عليهم عثمان في الليل فلبوا الاسلحة واستعدوا لدفعه عنهم حتى تباج الصباح وسار أحد أسرى المصريين الى معسكر الجنود المصرية واخبر القائد بفرار عثمان دقنه وتخلّف المصريين عن مرافقته وانه ودرأويشه حملوا متاعهم ونساءهم وغادروا طوكر قاصدين كسلة منذ صباح أمس ولم يبق في طوكر غير المصريين الذين كانوا مأسورين فتقدمت الحامية واحتلت طوكر ومن العجب ان الجنود مدوا أيديهم وسلبوا ممتلكات المصريين وعاثوا في أعراضهم فلا حول ولا قوة الا بالله .

شان عثمان دقنة بعد ذلك

لما انهزم عثمان دقنة من طوكر سار فيمن بقي معه من المقاتلة خائفين مذعورين يتعدون عن الفجاج التي تقرب من العمران ويختفون في الغابات خشية أن تشمر بهم قبائل الاعراب النازلة بين تلك الغابات والجبال وجعلوا وجهة سيرهم كسلة فهلكت دوابهم ومات اكثر الضمءاء من الاطفال والنساء ونفذت أقواتهم حتى صاروا يقتاتون بورق الشجر وكان سيرهم بطيئاً لما هم فيه من الجوع وفقدان الدواب والخوف من الاعداء ولما وصلت أنباء هزيمتهم الى التمايشي أظهر غضبه على عثمان دقنة ونسب اليه سوء التصرف في الامور وان أنصاره ما انفضوا من حوله وتركوه

وحيداً إلا بسبب فظاظته وسوء سيره

وكان عثمان دقنه مدركاً لما أحدثق به من الخطر بسبب غضب التمايشي الذي لا يظفره غير الرشا التي تدفع لآخيه يعقوب ويحسن أن أورد هنا قصة تحتمت ثقة راويها وهي أن عثمان دقنه كان قد خبأ قدرًا عظيمًا من المال في أحد الجبال القريبة من كسلة فرج في سيره إلى كسلة على ذلك الجبل وأخذ نحو مائتي الف ريال وزع منها خمسين الف على من كان معه من الاعوان وحمل الباقي معه إلى أم درمان حيث بلغها في أواخر شهر ذي القعدة فدفع منه مائة الف ريال ليعقوب أخى التمايشي الذي توسط له عند أخيه فصفح عنه. وفي أواخر شهر ذي الحجة أمر التمايشي عثمان دقنه أن يذهب إلى جهة (دارامه) على نهر اتبره بين بربر وكسلة وأن يجتهد هو وجنوده في زراعة الذرة ليحصلوا على قوتهم منها ودفع لهم نحو مائة رأس من البقر والغنم ليقتاتوا من نتائجها فغادر عثمان دقنه أم درمان وعسكر في (دارامه) وأخذ يفسر على أطراف سواكن للسلب والنهب ولم تعد له أهمية تذكر

حالة السودان بعد ذلك على الأجمال

ظهر لك مما تقدم كيف استبد التمايشي بالملك وكيف قدر على التغلب على من ناوأه وكيف أزهق البلاد بمظالم تنوء بحملها الجبال وقد ذكرنا ما حاق ببعض القبائل الكبيرة من الهلاك والدمار ولا يظن القاريء أن القبائل الصغيرة والعشائر التي تسكن القرى قد سلمت من ضرر هذا السيل الجارف فانها نالت نصيباً من الحيف لا يقل عما نالته القبائل الكبيرة

عدا المجاعة التي عمت السودان كله

ونحن لم نذكر تفاصيل ما أصاب القبائل الصغيرة والمشائر التي تسكن القرى لعلنا ان ذلك يستغرق مجلدين ضخمين لا يقبل حجمها عن حجم كتابنا هذا ولكن الذي لا يدرك كله لا يترك جله. وهانحن موردون لك نزر من تلك المظالم ليكون لك دليلا على ما أصاب السودان وتبدأ بذكر حادثة « قري وادي شعير » فنقول

هذه القرى واقعة في جنوب شرقي الخرطوم بمسيرة بضع مراحل وتبعد عن النيل الازرق بنحو عشرة أميال وأرضها خصبة تجود بمحاصيل وافرة من الذرة والقطن ذهب اليها جماعة من الدراويش لجباية الضرائب ثم دخلوا احدى القرى ومدوا أيديهم الى الماشية فذبجوا منها ما زاد على كفايتهم ثم نهبوا الاغذية من داخل البيوت فلم يعترضهم السكان ولا حركوا ساكناً لمنهم بل تركوهم وشأنهم فعدوا بعد ذلك أيديهم الى النساء وعبثوا بهن فهبّ الاهلون حينئذ ووقفوا في وجوههم وقفة المدافع عن عرضه الذاب عن حريمه فلم يثن الدراويش عن الاعتداء ولجوا في الطغيان وضربوا الاهلين بالاسلحة فسقط منهم قتلى وجرح منهم كثيرون ونشبت الحرب بين القريتين وسالت الدماء واستصرخ أهالي القري بعضهم وتآلبوا على قتال الدراويش الذين فروا امامهم مدحورين حتى بلغوا ضفة النهر وهناك بمشوا يخبرون انتمايشي فأرسل خمسة من النواب توجهوا الى محل الواقعة وعادوا فاخبروه بما وقفوا عليه فأصدر أمره بمصادرة أموال سكان تلك القري وأخذ نسايتهم مسبيات لانهم كفار حاربوا دراويش المهدي ولم يرضخوا لكل ما أتونه من المنكرات

هنا ما وقع لاهالي (قرى وادي شعير) ولم توجد في بلاد السودان كلها قرية لم يقع لها مثل ما وقع لهاته القرى وانما آوردنا جادتها مثالا يقاس عليه ما حاق ببقية القرى لضيق المقام عن استيعابه

وكان من العوائد الوفرة عند الدراويش انهم اذا سافروا من بلد الى خري لا يحملون زاداً ولا مسيرة بل يذبحون ما يصادفهم في طريقهم من الماشية ويدخلون منازل السكان يأخذون ما يجدهون فيها من الاغذية يأخذون الحبوب لعلف دوابهم وينزل القواد في منازل الاكابر فيقدمون لهم الاغذية الفاخرة وليتهم يقفون عند ذلك بل لا بد من دفع الرشا لهم فاذا تناولوا المال وأكلوا ماشاؤا من الاطعمة ورحلوا عن القرية أو البلد بدون أن ينتحلوا لها أسبابا يستحلون بها أخذ المال وسبي النساء عد ذلك من أكبر النعم على أهل تلك القرية وفي غالب الاحوال تكون نجاتهم هذه لاسباب منها ان لا تكون نساؤهم جميلات وأن لا تكون أموالهم الاقدر ما يقوم ببعض ضرورياتهم أما اذا كانت النساء حسانا والمال زائدا عن الضروريات فلا بد لهم من يوم يدوقون فيه العذاب الاليم

ونقل اليّ واحد من المصريين سافر مع احدى السرايا الي جهة النيل الابيض وكان الدراويش زهاء ألفي مقاتل أنهم بعد ان غادروا أم درمان بمائة ميل ذبحوا مائة وخمسين رأسا من البقر ومائتي رأس من الغنم وهكذا كان فعلهم بالماشية التي تقابلهم في الطريق أما الغلال فكانوا لا يأخذون منها غير كفايتهم وفي ذات يوم وصلوا الى أحد الاسواق وفيه أجران الغلة فهبوها وكانت نحو ثلاثة آلاف أردب

وجملة القول ان بلاد السودان في أوائل سنة ١٣٠٨ أصبحت بسبب

المجاعة فاقدة تسعة اعشار سكانها وأصبحت البلاد قاعا صنفصفا وكأن التعاشي
انما رضى بتلك النتيجة لانه بها أمسي آمنا على ملكه من ثورة الاهالي عليه
وأخذ في توزيع أقاربه البقارة واسكانهم في المقاطعات الحصينة
أما بلاد كردفان فانها لم تصب بالمجاعة في السنتين الماضيتين لان الامطار
هطلت فيها غزيرة ولكن التعاشي أرسل لها نحو اثني عشر ألف فارس
انتشروا في البلاد انتشار الجراد فالتهموا محصولاتها في أشهر قليلة وما جاء آخر
سنة ١٣٠٧ حتى تصاعدت أسعار الاقوات ودخلت سنة ١٣٠٨ والمجاعة فاشية
في اقليم كردفان وانحبس المطر عنها وهلك من هلك من السكان وفر باقيهم
ولجؤا الى الجبال

ويرى الذين وقفوا على الحوادث السودانية منذ بدايتها ان المهديوية
تلاشى أمرها منذ سنة ١٣٠٦ ولم تقم لها قائمة بعد ذلك وأنهزمت جيوشها
في أكثر الجهات ففي سنة ١٣٠٦ قتل ابن النجومي في حدود مصر وسيأتى
ان الايطاليين هزموا الدراويش شر هزيمة قبل أن يحتلوا كسلة في واقعة
(غردت) ثم أخذت في التلاشي والهبوط

ومن الحقائق التي لامراء فيها ان الحكومة المصرية لو قصدت فتح
السودان في سنة ١٣٠٦ أو ما بعدها لقدرت على الاستيلاء عليه بغير عناء يذكر
بالنسبة لما صادفته في طريق فتحه فقد أرسل اليها في سنة ١٣٠٦ أكثر الامراء
المرابطين في دنقلة يعرضون خضوعهم لها ويسألونها العنوعن جرائمهم

أما التعاشي وقومه البقارة فقد انهزوا في الترف وتنعموا بالملادوبذلك
فقدوا ما كان فيهم من صفات الشجاعة والبسادة ومع ذلك فقد كان
لا يوجد بين الاهلين خمسة في المائة يخلصون لهم الولاء بل كان الكل يثنون

من ثقل وطأة مظالمهم ويتأففون من سوء سيرهم ولكن بقيت في قلوب
الاهلين بقية من الاعتقاد بمهدوية المهدي وكانوا يلقون تبعه المظالم كلها على عاتق
التعايشي ويسمون في الخلاص من ظلمه بمبايعة أحد الخليفين على حلو ومحمد
شريف الا أن آمالهم في هذا الأخير كانت أوثق منها في ذلك نظراً لقربته من
المهدي ولأن ذلك كان له بعض حظ في دولة التعايشي

ومن المضحكات ان الناس لفرط ما أصابهم من ظلم التعايشي قام الكثير
منهم وكل يزعم أنه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه يرومون
بذلك الوصول الي سلب الملك من التعايشي اذ ظهور المسيح يعقب المهدي فكان
لا يمر يوم الا ويظهر فيه كثير منهم عدا الذي ذكرنا خبره في (القلابات)
ولقد قام رجل مصري من أهالي الخرطوم اسمه (خليل جامع) مدعيًا
ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأنه خليفة عثمان بن عفان عليه
سحائب الرضوان وأمره بتوزيع مافي بيت المال من الاموال فقبض عليه
وسيق الى التعايشي الذي كان يعرفه حيث كان متزوجا بنت عمه فقال له
يا خليل ما هذا الذي تدعيه فاتهره وقال له هذا أمر جاءني من الله ورسوله
وأنت لا تجهله فقال التعايشي انه مجنون وان الجنى الذي مسه ساكن في بيت
المال فاذهبوا به الى سجن بيت المال فكث فيه بضع سنوات ثم أطلق سبيله
واستمر على حالة جنونه

وكان بجوار بيت المال قبطي اسمه (محروس) يسكن مع قرينته له
اسمها (مصطفية) وكلاهما من أهالي الخرطوم أصيب ذلك الرجل بجنون فصعد
علي رابية عالية وخطب في الناس قائلاً انه (ماري جرجس) فدنت منه
قرينته المذكورة وقالت له يا محروس انك بدعواك هذه تلمصق بنا تهمة أننا

لانزال نصاري فأرجوك أن تترك هذه الدعوى وتدعي غيرها كما يدعي المسلمون فانتهرها وقال لها اذهبي فقالت له انتظر الموت لان أصحاب الدعاوي الملائمة لا ذواق المسلمين يقتلون ويسجنون فكيف بمن يدعي مثل دعوالك التي تدل على انه نصراني ثم هرع أقاربه اليه وحملوه الى داره فمات بعد أيام يسيرة

وانماصل ان اهل البلاد صاروا في حالة غريبة وجل الناس تغيرت عقيدتهم في المهدوية وتبدلت أميالهم نحوها بالنفور عنها ولم يعد التعايشي يتق بأحد من الاهالي غير أقاربه البقارة ولذا جمع الوفا من المبيد (الجهادية) وسلحهم بالاسلحة النارية

وقد نمي الى خبر حادثة لأري بأسا بايرادها وان كنت لأجزم بصحتها وهي أن رجلا من التعايشة أقارب الغزالي الذي تقدم لنا ذكر قتله استأذن على التعايشي فأذن له ولين معه وكانوا زهاء عشرين رجلا وبعدان أخذ الحراس منهم من السلاح دخلوا عليه وأوجعوه ضربا (ولم يشعر بذلك غلانه لبعدهم عن غرفة جلوسه التي لا يؤذن لهم في الدنومنها الا اذا استدعي واحدا منهم) حتى أغمي عليه ثم تركوه وانصرفوا وكانت هذه النادرة في شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٨ وفي الغد قبض على الرجل والذين كانوا معه ونفوا الى خط الاستواء واشتد مرض التعايشي حتى أرجف الناس بموته ومكث مريضا الى العشر الاولي من شهر ذي الحجة. وقد تضاربت أقوال الناس في اسباب نفي أولئك الرجال فمنهم من يرى ان السبب فيه هذه الحادثة ومنهم من يقول ان التعايشي أسر اليهم كلاما فافشوه في ليلتهم فقبض عليهم في الغد والذين رووا الحكاية الاولي يخالفونهم ويؤيدون قولهم بمرض

التعاشي والله أعلم بالحقيقة

وقد حدث في خلال السبع سنوات التي مضت على ولاية التعاشي كثير من الحوادث التي لو اوردناها لضاق بنا المقام وأخصها مصادرة أموال كثير من الاغنياء لاسباب تافهة ان لم نقل انها مختلفة يقصد بها الحصول على أموال الناس

وقد حور التعاشي اكثر الاحكام التي وضعها المهدي في الحدود منها أن المهدي لما كان في جبال قدير أصدر منشوراً بشأن الدخان قال فيه ما يأتي « من استعمل الدخان مضغاً في النعم أو حرقاً بالنار أو وضماً في الانف يجلد سبعا وعشرين جلدة بالسياط »

ثم بعد استيلائه على كردفان أصدر منشوراً آخر جعل فيه العقوبة ثمانين جلدة وحبس سبع ليال وبمثل هذه العقوبة يعاقب شارب الخمر ولما ولي التعاشي قال للناس وهو على منبر الخطابة (من وجد في بيته ربع درهم من الدخان يجلد ثمانين جلدة ويؤخذ جميع ماله غنيمية للمسلمين) وذلك مخالف لما قاله المهدي وليست مخالفته من جهة العقوبة فقط بل ومن جهة ان المهدي اشترط ثبوت استعماله بالوجه التي اوردناها وامتلات البلاد بالجواسيس الذين يتجمعون على المنازل لضبط الدخان مع أنهم يحملونه معهم ويدعون أنهم ضبطوه في المنزل ليتذرعوا اني مصادرة أموال أولى اليسار ولهم في ذلك حكايات يطول شرحها

ونقل لي ثقة مارايت ايراده تفكها للقارىء وذلك ان أحد أهل العلم من أهالي الخرطوم فقد كل ما يملكه وقتل كثير من ذوى قرابته فصار في حالة تقرب من حالة الجنون . ومن نكاته المضحكة انه كان يتشام من يوم الاثنين الذي كان فيه سقوط الخرطوم فكان يعتكف في داره لا يخرج

منها منذ عصر يوم الاحد ويصبح منقطعاً عن كل عمل كما يفعل اليهود في السبت
ومكث على ذلك زهاء سنة ثم انه ذهب يوم الثلاثاء الى النهر الاستحمام فاختطفته
الامواج وكان لا يحسن السباحة فانتشل بعد أن أسرف على الهلاك فخرج
من النهر وهو يقول اللهم لا اعتراض على حكمك في يوم الاثنين عندتنا بالقتل
والنهب وفي يوم الثلاثاء عندتنا بالفرق فتشاءم من يوم الثلاثاء أيضاً وصار يمتكف
من عصر الاحد فلا يخرج الا صبيحة الاربعاء وبعد أشهر مضت وهو على
هذه الحال دخل عليه في داره جماعة من الدراويش وأسمعوه ضرباً بدعوي انه
يستعمل الدخان وبعد الاثنا والتي خلاص منهم فقال اللهم ارفع غضبك عنا في
يوم الاثنين عندتنا بكذا وفي يوم الثلاثاء بكذا وفي يوم الاربعاء بالضرب
بالسياط وتشاءم أيضاً من يوم الاربعاء وصار لا يخرج من داره الا في صبيحة
يوم الخميس ثم توفي بعد ذلك رحمة الله عليه

هذا وقد انهمك التعاشي وبطائه في الترف اكثر من ذي قبل
وصار في حالة من السمن بحيث يكاد الذي رآه حين افضاء الملك اليه
أن لا يعرفه وقد تقدم لنا انه كان نحيف الجسم مشوه الحلقة بآثار الجدري
التي تركت في وجهه كهوفا صغيرة زادت في شناعة منظره أما في سنة ١٣٠٨
فقد محيت آثار تلك الكهوف من وجهه فصار مستديراً بعد ان كان قبيحاً
مستطيلاً وصارت عيناه كأنهما عينا لث يظنهما الراعي مصابتين برمد اشدة
احمرار بياضهما

وقد فعل التعاشي أشياء كثيرة تخالف ما كان المهدي ينهي عنه ويحذر من
استعماله بل كان يرمي مستعملها بالمروق من جادة الحق وآداب الدين
فقد كان المهدي يلبس حذاء شرقياً ويلبس نعلًا عربيًا سبق لنا تعريفها

وأما التمايشي فلا يوجد في بلاده الا النعال العربية فكان في بداية أمره لا يلبس غيرها وقد رأيت بعيني شقوق قدميه التي تكاد تخفى الحشرات الصغيرة فيها كل هذا ذهب وأصبح في خيبر كان وصار يلبس الاحذية الشرقية والخف

وكان المهدي قد حذر من سكنى القصور وبالغ في ذلك حتى أزم الذين يشيدون المنازل باللبن النبيء ان لا يتجاوزوا في ارتفاعها أكثر من ذراع أو ذراعين وكان التمايشي شديد البغض لمن يرى داره مرتفعة عن هذا الحد وكثيراً ما أمر بهدم بعض المنازل التي يزيد ارتفاعها عن ذلك

هذا ما يعامل به الناس أما هو فقد شاد داراً واسعة شرقي الجامع واحاطها بسور من اللبن المحروق ورفع بناءها حتى كانت يخالها الانسان حصناً أو معقلاً وشاد قصر آفياً يلي جدار المسجد وجعل نوافذه مطلة عليه وعلى ساحة الاستعراض « العرضة » الواقعة غربي المسجد ومنع الناس ان يقولوا انه « قصر » وكان القضاة يزرون ممن يقول ذلك وقال التمايشي للناس انه ما شيده ليسكن فيه بل ليصعد عليه في كل غداة جمعة لينظر الى ساحة استعراض المقاتلة وأطلق عليه اسم « كشافة العرضة » مع ان نوافذ القصر كما قلنا مطلة على المسجد والناس يرون باعينهم المصابيح فيه وروائح العطر تفوح من نوافذه ولا يجسر أحد على القول بان التمايشي ساكن في ذلك القصر وهمم حمام سراي الحكمدارية ونقل انقاضه وأدواته من الخرطوم الى أم درمان وشاد بها حماماً في داره يستحم فيه ونقل منبر مسجد الخرطوم ووضع في مسجد أم درمان وشاد فواته بناء شاهقاً واحاطه بمقصورة من قضبان الحديد وخصصه للخطابة

في غير الجمعة فاذا صمد عليه احتشد الناس حوله فيبدأهم بقوله « السلام عليكم يا أصحاب المهدي » فيردون تحيته ثم يكلمهم بما شاء ويأمرهم بما يريد ويعظهم ويحثهم على مواظبة الصلوات الخمس في المسجد
وجملة القول ان التمايشي تغيرت عليه قلوب الناس وتبدل ولاؤهم له
بنفساً وسرت روح الثورة في جميع أنحاء البلاد وبتنا ننتظر انقلاباً نرجو
من ورائه فرجا

ذكر تعيين المؤلف وجماعة من المصريين امرأء

قلت اني لما رجعت من قرية (ولد الزاكي) في البحر الابيض اتر
هروبي الى (شركيله) ورجوعي منها أسلمني التمايشي الى بقارى يقوم
بمراستي في المسجد وقد ظلمت خمس سنوات في اسره وسيأتي بيان ما قاسيته
في تلك السنوات حتى دخلت سنة ١٣٠٩ هجرية وحالة السودان على الصفة
التي بينهاها

وفي عصر أحد الايام سمعنا مناديا يقول ان الخليفة يدعو جميع اولاد
الريف (المصريين) الى الاجتماع ضحوة الغد في ساحة دار أخيه يعقوب ففرعنا
من هذا الخبر وبتنا بليلة طويلة نتوقع في غداتها سوا يصيبنا وذلك ان التمايشي
عودنا انه لا يدعونا الا لامر نكرهه وتقدم بيان بعض دعواته فيما مضى
وفي ضحوة الغد اجتمعنا في منزل أخيه يعقوب وكنت جالسا خلف
المحتشدين من المصريين وكانوا زهاء خمسة آلاف رجل وبعد هنيهة جاء
التمايشي فوقفنا اجلالاً له ورفعنا أصواتنا بكلمة الشهادة فسلم على يوسف
منصور رئيس الطوبجية المهديوية والسيد جمعه الذي كان مدير الناشر ثم صار

طوبحياً مع يوسف منصور وأثني عليهما وامتدخ اخلاصهما للمهدوية وقال
ياحبسنا لو صار المصريون كلهم مثلهما في الاخلاص للمهدوية ثم التفت الى
يمينه ويساره وقال مالي لا أرى ابراهيم فوزي فأسرت بتلبية ندائه وخرجت
من الصفوف فقال لي يا فوزي أما ترى الاخوين الصادقين المخلصين لنا يوسف
منصور والسيد جمعه فهلا اقتديت بهما وفلت فعلهما ألم ترهما يقضيان أكثر
الوقت في بابي ولا تراح نفوسهم الى غير رؤيتي فقلت يا مولاي اني أشد اخلاصاً
منهما ولكنك لا تقربني منك كما قربتهما فسكت وقال لقد أزممتي الحجة ثم
جلسنا وقد موالنا أربع زكائب مملوءة تمرا ونثرها أمامنا على الارض
فصرنا نأخذ التمر من التراب ونأكله فقلت له يا سيدي أريد أن أحمل جزءاً
من التمر تبركاً لآل بيتي فضحك وقال لي حمل كل منكم ماشاء

وبعد الاكل استدعاني أنا واسكندر بك وأعطاني راية لا كون أميراً على
جميع المصريين الذين كانوا من جند الحكومة النظاميين ودفع الى اسكندر بك
راية وجعله أميراً على جماعة (الحلبة) أي الرعاع الذين يقضون حياتهم رحالة
وبحترفون بالتسول بعضهم بالقردة وبعضهم بالدفوف ويتغنون على
نغماتها ويضحكون الناس وهم المعروفون في مصر باسم (عجر الشام) ودفع
الى رجل كردي الاصل اسمه (حسن قره شوللي) راية وجعله أميراً على
الذين كانوا من جند الحكومة النسير نظاميين (باش-بوزق) وكان أيضاً
للمصريين أميراً آخر اسمه (حسن حسين) مصري الاصل كردفاني المولد
والنشأة عينه المهدي أميراً على جميع (المواليد) وهم المصريون الذين ولدوا في
انحاء السودان وكان حسن حسين هذا تقياً ورعاً صالحاً يتظاهر بالاخلاص
للمهدوية ذا منزلة عليّة عند المهدي والتماشي وسائر الامراء وموظفي المهدي

وكان مع ما هو فيه من شدة التمسك بالمهدوية ذاتوية حسنة لقومه المصريين فكان يدافع عنهم عند التمايشي الذي كان لا يرد له قولا وكثيراً مادفع عنهم الضرر وبالجملة انه كان يريد منهم أن يتظاهروا بولاء المهدوية ليتمكنوا من داخلتها ويقبضوا على كثير من وظائفها التي لا يمكن لغيرهم القبض عليها وقد ذكرت فيما تقدم انه رأى ابني محمد يمثل تدخين السجارة فسأله عن ذلك فأجابته بقوله هكذا يفعل أبي وأخيراً حذرني من اطلاع هذا الصبي على مثل هذا العمل ولم يصنع معي شيئاً يكدرني مع ان مثل هذه المسألة لو وقف عليها غيره جلبت علي ضرراً بليغاً

وعلى ذكر المصريين نذكر هنا حالتهم التي كانوا عليها في اسر المهدوية وهي لا تقل عن الحالة التي قاسيتها الا أن بمضهم نالوا وظائف كتابية في بيت المال وعند عمال الحراج ونال بمضهم وظائف صناعة البارود وتمتية الخرطوش وسائر الادوات الحربية وقد أشرنا الى ذلك فيما تقدم وفريق منهم وأكثرهم من الضباط وذوي المراتب السامية قبل الاسر احترقوا بمن تافهة وفتح كثير منهم حوانيت للاطعمة والحبز ومع ذلك كانوا كلهم في حالة الاضطهاد والتحقير من جميع السودانيين ولم يكن لذلك من سبب سوى بياض بشرتهم الذي يدل على جنسيتهم

ومن الغرائب المضحكة ان رجلاً كان جاويشاً مصرياً ثم صار يبيع « الترمس » وكان يرفع صوته في السوق ويقول (تفرج) فأمسكه حاكم السوق وقال له انك تقصد بكلمة « تفرج » عودة حكم الترك وزوال المهدوية فنصل من هذا التأويل وحلف انه لا يقصده فأمر بجلده بخمسة مائة جلدة وفي أثناء الجلد كان يصيح بقوله « لا تفرج » لا تفرج ثم إنه ترك

كلمة تفرح في ندائه على بيع الترمس واستبدالها بقوله « خليه على الله » فأمسكوه
 نانيا وجلدوه بعد ان قالوا له انك تقصد بهذه الجملة مقصدك الاول ومثل
 هذه العبارة كثير يعد بالالوف ومنها ان امام أحد المساجد في الجزيرة قال في
 خطبة الجمعة « اللهم حولّ حالتنا الى أحسن منه » فجلدوه وعزلوه وقالوا له انك
 تقصد عودة الحكومة السابقة فقال لهم ماذا أقول فقالوا قل (اللهم أدم علينا
 هذا الحال » فالتزم ذلك

على ان كثيراً من المصريين تقدموا عند المهديين ونالوا وظائف كتابية
 وصناعية حجة كانوا بواسطتها في رغبة من العيش الا انهم كانوا عرضة للسخرية
 والازدراء من العامة حيث كانت ألوان بشرتهم بيضاء وكانوا ممنوعين من السفر
 الى الجهات الشمالية كيلا يفرروا الى مصر حتى ان التعايشي كتب منشوراً باهدار
 دم أي مصري وجد في جهة (خورشنبات) شمالي بلدة أم درمان بستة
 أميال تقريباً

هذا وقد فاتني ان اذكر ان التعايشي لما مثلت بين يديه في هذه المقابلة
 قال يافوزي ان النصارى كتبوا لنا في شأنك وهم على ما ظن يحبونك فقطعت
 عليه الكلام وقلت هم يحبونني لانني خدمتهم باخلاص فيما مضى واني أقسم
 بالله اني أخذت بك باخلاص أشد مما خدمتهم به لانني اذا كنت خدمتهم
 بصدق وهم كفار فكيف لا أخدمك وأنت خليفة المهدي عليه السلام الذي
 هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك وتمايل طرباً من هذا
 المدح وقال لي جزاك الله خيراً وبارك فيك أيها الرجل الصادق
 هذا وقد فرحت بالامارة لانني رجوت بها خلاصاً من ربة الموكلين
 بحراستي في المسجد الذين سيحجىء ذكر ما قاسيته من عذابهم بضع مئة سنوات

ذكر ملازمتي الصلوات في المسجد

قد تقدمتني لما فررت في أوائل سنة ١٣٠٥ هـ إلى أم درمان بالكيفية التي مرّ الكلام عليها

وفي يوم عودتي إلى أم درمان أسلمني التعميشي إلى بقاري يقوم بحراستي في الصفوف التي خلف مقصورته ولما رأني ذلك البقاري قال (يا ولد الريف) لماذا أنت ضخم الجثة ولماذا وجهك أبيض مع أنك كافر فقلت هكذا خلفني الخالق فقال احمل سلاحي وسر خلفي فحملت سلاحه وذهب معي إلى منزلي وتناول طعام العشاء معي

وفي اليوم التالي بدأت بأداء الصلوات بجانب ذاك البقاري الذي انضم إليه آخر ليكونا معاً في حراستي فكانا يمتعاني من الخروج من المسجد ولو لقضاء حاجة الوضوء كما يمتعاني من أخذ الراحة فلا أجلس إلا جأياً على ركبتني كما يجلس المصلي وقال لي يوماً (يا ولد الريف) اعلم أنك كافر وإن الخليفة أسلمك إلينا لنعلمك الصلاة والصوم وضيقاً على حيث صرت لا أقدر على التخلف من الصلاة بالمسجد وكان منزلي يبعد عن المسجد جهة الجنوب بنحو أربعة أميال فكنت أخرج من منزلي قبل طلوع الفجر بنحو ساعتين وبعد أداء الصلاة أجلس لقراءة (راتب المهدي) حتى ترتفع الشمس ثم أعود لصلاة الظهر قبل نهاية الساعة الثامنة من النهار على الحساب العربي لأنهم إنما يصلون الظهر في بداية الساعة التاسعة وبعد نحو ساعتين يصلون العصر وفي بعض الأحيان لا يصلون العصر إلا قبل الغروب بنحو ساعة وصلاة المغرب في الغالب تكون بعد غروب الشمس بنحو ثلث ساعة وبعد ذلك أذهب

الى منزلي الذي كنت لا أدرك فيه راحة اكثر من بضع ساعات حتى صرت في حالة يرثي لها من العذاب الاليم والحاجة الى الراحة فاتفقت مع البقارين الحارسين على ان أدفع لهما ريالين عن كل وقت أتخلف فيه عن حضور الصلاة فقبلا بعد رجاء شديد وعدا ذلك أنهما كانا يذهبان معي الى منزلي ويتناولان معي الطعام ويكفاني بشراء ملابس لهما ولولادهما ونسأهما بعد كل شهرين أو ثلاثة وفي بعض الاحيان يأخذني احدهما الى الحى الذي تقيم فيه عشيرتهم فيجتمع حولي منهم نحو مائتى شخص أظل نهاري كله اكتب لهم الخطابات الى ذويهم في جهات مختلفة واقرأ لهم الخطابات التي تأتيهم منهم وكلهم يدعونني (النوبى الذى دفعه الخليفة رقيقاً لهم)

وتصنع نساوهم آنية من سعف (الدوم) محكمة الاطراف الى درجة ان الماء لا يقطر منها كانها من الاجسام الصلبة ويتخذها الناس آنية يشربون فيها الماء فكانا يأتاني ببضع أواني منها فى الاسبوع ويكفاني بيعها والويل ثم الويل لي اذا لم أجد من يشتريها فكنت أحملها واذهب الى همارى واكفهم بشرائها وأعود بثمنها اليهما .

وفى ذات يوم قضيت نحو نصف النهار ولم أجد من يشتري تلك الآنية فعدت بها اليهما فاعتاظا وقال لي انك لا تزال كافراً يا منحوس وسنخبر الخليفة بذلك نجمد الدم فى عروقي واسرعت الى حانوت أحد أصدقائى التجار وكان أوروبيا والدمع يسيل على خدي فاخبرته الخبر فاسرع باعطائي ثمن الاواني وأخذها لنفسه فعدت اليهما ودفعته لهما فقال لي الآن اسلمت .

وصرت بعد ذلك الح عليهما واكثر الاعتذار حتى صارا يقبلان رايالا واحداً عن كل وقت من أوقات الصلاة أتخلف عن حضورى فيه ثم بعد بضعة شهور

أعدت الرجاء عليهما حتى رضيا بثلاثة ارباع الريال ثم بنصفه وهكذا حتى صرت ادفع عن كل وقت قرشين

والاشتد انجاعة في سنتي ١٣٠٦ و ١٣٠٧ كانا يقولان لي يظهر لنا انك في سعة من العيش فكنت أحلف لهم اني في نهاية الضنك وفتقدان القوت وكنت في ذات يوم تناوت غداء من اللحم وجئت المسجد فتعجشيت فصاح بي هل تغذيت بلحم فقلت كلا فغضبوا وشماني وقالوا لي انك لا تزال مصرا على الكفر وكلما اعتقدنا فيك حسن الاسلام يبدو منك ما يغير هذا الاعتقاد لانك تاكل اللحم وحدك فاجتهدت في نفي هذه التهمة عنى وزدت لها الراتب وبمسد عناء شديد تحصلت على رضاها وصرت أمانع التجشي وانا جالس معهما

ومما يشبه هذه النادرة ان أحدهما قال لي يوما ان بنته مريضة وهي تشتهي السكر فقلت له انني ما ذقته منذ خرجت من الخرطوم لان المهدي أوصاني بالزهد في الدنيا والسكر ذو طعم حلو لا يليق بالزهاد تناوله فتعجبا من قولي وقالوا لي لا بد من احضار (عجل سكر) هكذا يسمون القمع من السكر فقلت لهما ان ثمنه مرتفع جداً ولا يمكنني دفعه وبعد اللتيا والتي تمكنت من إقناعهما بتركه وقلت في نفسي يكفيني تقديم الملابس لهما ومعلوم الاوقات فاذا فتحت باب السكر واللحم اكون قد جنيت على نفسي جناية ربما كانت مغبتها سيئة على

ومكنت على مثل هذه الاحوال من سنة ١٣٠٥ هجرية الي أوائل

سنة ١٣٠٩ حيث تعينت اميراً كما مر

ولما تعينت اميراً امتنعت من حضور الصلاة بجانب ذيك البقارين

فاعلم التمايشي فاستدعاني وهو جالس في مقصورته بالمسجد وقال لما
 ذا امتنعت من حضور الصلاة مع رفيقك فقلت له يا مولاي انك عينتني
 اميراً ولا ريب انك رايت في أهلية لان اكون مرشداً ان وليتني عليهم فانا
 أقوم اليوم بتربيتهم وحضور الصلاة معهم فضحك وقال لذيبتك البقاريين
 اتركاه وبذلك خلصت من ربة ذلها وبت أمناً من وشايتها في اكثر أوقاتي
 والله الحمد من قبل ومن بعد

ويوجد مئات من الناس قضاوا اكثر ايام المهديونية في مثل هذا الحال الذي
 وصفناه وكثير منهم فقدوا ثروة طائلة في سبيل استرضاء الموكلين
 بحراستهم بمثل الطريقة التي تقدم الكلام عليها مما يدل على ان المقصود الحقيقي
 من وضع الناس تحت المراقبة في الصلاة هو تسريب مافي جيوبهم من المال
 الى جيوب ضمهفاء البقارة وكذلك أمر السجن فان السجنان واعوانه يتناولون
 من المسجونين أموالاً طائلة حتى أصبح السجنان ارباب أموال كثيرة

ذكر انتقاض الخليفة شريف واولاد المهدي

الخليفة شريف ابن عم المهدي وثالث الخلفاء كما مر الالماع الى ذلك وهو
 الذي لقب (بخليفة الكرار) وكان قبل وفاة المهدي صاحب الخطوة عنده
 بالرغم عن تقدم التمايشي عليه

وقد ذكرنا انتقاضه على التمايشي بعد وفاة المهدي وكان للمهدي ثلاثة
 اولادهم الفاضل ومحمد والبشرى وكانوا في سن الطفولية لما توفي أبوم
 وفي أوائل سنة ١٣٠٧ زوج التمايشي محمد بن المهدي بنته واسكنه
 معه في داره فكان يظهر لها الكراهة والنفور لان التمايشي اضطهد اخوته

وأقاربه ومنع عنهم العطاء من بيت المال منذ وفاة المهدي فكان الخليفة شريف يعطى مرتباً شهرياً يبلغ مائتي ريال وهو قدر زهيد بالنسبة لما كان يتناوله في أيام المهدي ولتتهم كانوا ينقدونه اياه في كل شهر اذ الحقيقة انه كان لا يقبضه الا مرتين أو ثلاثاً على الاكثر في السنة كلها وزد على ذلك أن التعايشي انتزع راياته من يده ووزع جيوشه التي اهمها الجيش الذي هلك مع ابن النجومي في الحدود المصرية

وكان للخليفة شريف حراس من ذوي قرابته يطلق عليهم اسم (الملازمة) يركبون الخيول الكريمة ويحملون الحراب الطويلة ويحيطون به كلما خرج من داره فانتزعهم التعايشي منه واحقهم بثمان دقنة في السودان الشرقي وبالجملة أصبح الخليفة شريف مجرداً عن كل مميزات الخلافة التي كان حائزاً أوفر نصيب منها في أيام قريبه المهدي وكذلك أولاد المهدي الذين ذكرناهم فانهم صاروا في نهاية الاضطهاد الا محمداً الذي تزوج بنت التعايشي فانه كان معتمداً بشؤونها ويقدم الطعام لها ولصهره فقط

وكان للمهدي أولاد غير هؤلاء في سن الطفولية ونساء يزيد عددن على المائة وكان السكل في نهاية الضنك يتضورون جوعاً ولما فشت المجاعة في سنتي ١٣٠٦ و ١٣٠٧ كادوا يهلكون من الجوع لولم يتداركهم ذووم

ولما دخلت سنة ١٣٠٩ وصارت حالة السودان الى ما أشرنا اليه وتغيرت فلوب الاهلين وتحفزوا لاوثبة على التعايشي اغتم الخليفة شريف وأولاد المهدي والمضطهدون من أقاربهم هذه الفرصة وارسلوا الدعاة سرا الى بلاد الجزيرة يدعون الاهلين للانتفاض على التعايشي ومبايعة الخليفة شريف

وخرّبوا لذلك اجلا يجتمعون فيه بام درمان وهو السابع والشر من شهر
 رجب سنة ١٣٠٩ ودخل في هذه البيعة كثير من الوجوه والتواد واكثرهم
 من حزب التمايشى الذى لم يكن عالما مما دبروه حتى اذا كانت ليلة الثانى
 والعشرين من شهر ربيع الثانى دخل عليه أحد الجواسيس وأوقفه على المسألة
 فاستدعى رجلا من أهالي كردفان وهو دنقى الاصل اسمه السيد المكي بن
 اسماعيل الولي وكان أول انسان بايعه يوم توفى سلفه المهدي وقال له اذهب
 الى الخليفة شريف وبايعه بما يريد على شرط ان تقف على مادبره وتخبرني به
 فاطاعه وذهب الى شريف وعاهده على المصحف الشريف وعلم منه كل ما يريد
 التمايشى الوقوف عليه ثم عاد اليه واخبره به فجمع التمايشى أخاه يعقوب وذوي
 قرابته ليتداولوا في الامر فقر رأيهم على ان يهجم رجال التمايشى على الخليفة
 شريف وأولاد المهدي ويقبضوا عليهم قبل ان يحل الاجل المضروب
 وكان فوزي وأحمدى ابنا محمود باريه الدنقلين كاتبين للتمايشى فاعلما الخليفة

شريف بما أجمع عليه رأى التمايشى لانهم ما كانوا ممن عاهدوه على اتمام امره

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر ربيع الثانى فشا الخبر بين الناس
 فاصدر التمايشى أمرا الى الجهادية بالزحف من معسكرهم الى داره فخرجت
 الجهادية مارة على (الموردة) وما حولها من السوق فنهبوا كل ما صادفهم في
 طريقهم حتى وصلوا الى دار التمايشى

واجتمع حول منزل الخليفة شريف نحو عشرة آلاف مقاتل جهلهم من الدناقلة
 وأهالي القرى التي حول أم درمان وكان منزل التمايشى لا يبعد عن منزل الخليفة
 شريف باكثر من مائة متر واحتشد في المسجد اكثر السكان الذين يظن
 التمايشى انهم مع عدوه فامر الجهادية بالوقوف على أبواب المسجد ومنع من به

من الخروج حتى لا ينضدوا الى الخليفة شريف وحولت الازقة التي بين منزل

الخليفة شريف ومنزل التعاشي الى متاريس وخطوط نار

وكان التعاشي وقتئذ في بيته فلم يخرج حتى وثق من ان مذبذوبات

المنتفضين لا تصل اليه وأقيمت عدة متاريس على جدار منزل المهدي الملاصق

لمنزل الخليفة شريف ووقع الرعب في قلوب البقارة وفر ثلاثمائة فارس منهم

قاصدين كردفان وبلغ الحماس مبلغا عظيما من المنتفضين حتى ان النساء تسلحن

مع الرجال وفي أصيل النهار هجمت مائة امرأة منهم على نحو خمسين فارسا

من البقارة كانوا يسقون خيولهم على ضفة النهر فلو سمعهم ضربا بالاصحى ففروا

وتركوا خيولهم غنيمة للنساء المتحمسات

وبات الناس ليلتهم يحترس بعضهم من بعض والتعاشي يرسل الرسل الي

الخليفة شريف ويلين له الكلام

وفي منتصف الليل هجمت رجال الخليفة شريف على صفوف التعاشي

حتى زحزحهم عن مواضعهم ونهبوا بعض أمتعتهم

وانضم الى الخليفة شريف أحمد سليمان الذي كان أمينا لبيت مال المهدي

وسعيد محمد فرج من وؤساء القبائل في دنقلة وكان قد وفد على التعاشي في أم درمان

متظلمًا من يونس الديكيم أمير دنقلة وانضم اليه أيضا شايب بن أحمد أحد أمراء

الداقلة المشهورين وكان مع عثمان دقنة وأخبار فروسيته وإقدامه معروفة

يتحدث بها أهل سواكن

أما موقف الخليفة على حملو الملقب (بخليفة الفاروق) في هذا الانتفاض

فكان موقف خديعة للخليفة شريف ومباينة للتعاشي لانه كان يظهر للخليفة

شريف انه معه ويقال انه هو الذي أخبر التعاشي بامر انتفاض الخليفة

شريف عليه

وقد جمع الخليفة على حلوه مقاتلته وكانوا زهاء خمسة آلاف فارس ونحو عشرة آلاف من الرجال وكلهم من عشيرته (دغيم وكنانة) وهم الذين مررنا الكلام على انهم اول من بايع المهدي يوم اجتاز النهر من جزيرة آبا الى الضفة الغربية وهم الذين نصره في جبال (قدير)

وفي غداة اليوم التالي فرق التعاشي مقاتلته فأحاطوا بمنزل الخليفة شريف من جميع الجهات وابتدأ إطلاق النيران من الفريقين واستمر نحو ساعتين لم تظهر في خلالهما نتيجة غلبة أحدهما وهجم شايب احمد شاهرا سيفه على مائتين من جهادية التعاشي فولوا مذعورين

وفي ساعة وقوع القتال كان الخليفة على حلوه مع الخليفة شريف يعرض عليه شروط الصلح وهي كما يأتي

أولا تعاد للخليفة شريف رايته

ثانياً يدفع له مرتب ٢٠٠٠ ريال في كل شهر

ثالثاً يدفع لكل واحد من اولاد المهدي مرتب يكفيه

رابعاً يعفو التعاشي عن كل الذين بايعوا شريف على الانتقاص

خامساً يتعهد الخليفة على حلوه بانفاذ هذه الشروط.

سادساً يعزل يعقوب أخو التعاشي عن وزارة أخيه لانه مرتش

ولانه سبب جميع المظالم التي أخربت البلاد

سابعاً يعزل قاضي الاسلام أحمد على

ثامناً لا يقطع التعاشي أمراً دون مشاوره الخليفة شريف

تاسعاً يطلق سراح محمد خالد زقل (الذي تقدم لنا ذكر سجنه)

وقد تم الاتفاق شامهاً على هذه الأوجه وحلف الخليفة على حلوه على
 المصحف الشريف أن يكون ظهراً للخليفة شريف ان لم تنفذ هذه
 الشروط ثم اصطحب الخليفة شريفاً معه الى منزل التمايشي الذي قابله
 بالتيجاة والاكرام وأخذ يبكي ويمانق الخليفة شريفاً ويقول له ان المهدي
 جاءه في الحضرة وأمره باجابة مطالب الخليفة شريف وان النبي صلى
 الله عليه وسلم أوصاه به وحلف التمايشي على المصحف أنه لا يبدل شرطاً
 من الشروط التي اشترطها عليه الخليفة شريف وانصرف الخليفة شريف الى
 داره وارسل له التمايشي ثلاثة آلاف ريال وأمر الناس بالكف عن الحرب
 وأمر الرؤساء بالذهاب الى تجديد بيعة التمايشي فوقع ذلك على الجميع موقع الصاعقة
 وعلموا ان ذلك خديعة وان التمايشي سسيعة تنص منهم فلاموا الخليفة شريفاً
 على تسرعه في ابرام الصلح بدون مشورتهم فاخذ يؤكدهم استجابة
 اقدام التمايشي على الانتقام منهم فزوا بقوله ولكنهم لم يجدوا سبيلاً عن
 الكف عن الحرب والتوجه لمبايعة التمايشي الذي قابلهم بالبشاسة والاكرام
 وعفا عنهم وحلف لهم على الوفاء بما جاء في الشروط التي أوردناها فلم يصدقوه
 وابتعدوا ان العاقبة وخيمة

ويقال ان الخليفة شريفاً عمداً الى المصالحة مضمراً الفدر حيث كان
 موعد الاجتماع عليه في أواخر شهر رجب فصالح على ان يقوم بأمره عند حلول ذلك
 الاجل حيث يجتمع عليه الناس ولكن ساء فله واتخذ التمايشي الحيلة لاجباط.
 ذلك كله

وفي اليوم التالي ركب التمايشي في نحو ستة آلاف فارس واجتاز الاحياء
 التي يسكن فيها المنتفضون مع الخليفة شريف وأمر الفرسان بنهب ما في المنازل

من المتاع فقلعوا وكانوا يجردون النساء من ملابسهن حتى المآزر
وانفذ السرايا الى الجزيرة فقبضوا على رؤساء الذين بايعوا الخليفة شريفا
ونهبوا أموالهم

على ان اكثر الناس كانوا مشايخين للخليفة شريف وكانوا على يقين بان
قيامه سيأتي بفائدة الخلاص من نير البقارة وأنه لو لم يصلح على الشروط المتقدمة
وشهر الحرب لظهر على التمايشي الذي لا قوة عنده غير الجهادية الذين اكثرهم
يظاهرونه على التمايشي

والحاصل ان ثورة الخليفة شريف جاءت مغتبا سيئة عليه وعلى كثير من
الذين مالوا اليه اذ يبلغ عدد من ذهبت دماؤهم هدرا بسببها بضعة آلاف شخص
كلهم ماتوا في المنفى وقتلوا بسيف انتقام التمايشي كما سيأتي ذكر ذلك كله في
مكانه فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

ذكر القبض على كبار حزب الخليفة شريف وقتلهم

تقدم لنا الكلام على المعاهدة التي انجست بها ثورة الخليفة شريف
وقدم مضت على هذه المعاهدة اثنان وعشرون ليلة يبدى التمايشي في كل يوم
منها من دلائل الاحترام للخليفة شريف ما جعله له أطوع من بنانه حتى
أسلمه جميع الاسلحة النارية التي كانت عنده وكانت تبلغ زهاء الف بندقية من طرز
رامنجتون وكان التمايشي يركب في كل يوم والى جانبه الخليفة شريف الذي غمره
بكرمة عطاياد حتى وردت دايه انباء من انفذهم للقبض على رؤساء القبائل الذين
لهم ضلع مع الخليفة شريف وحيء بهم مقرنين في الاصفاة فقلب له ظهر
المجن وأرسل في اليوم الثالث والعشرين لتقرير المعاهدة من قبل على أحمد

سليمان امين بيت مال المهدي وفوزي وأحمد بن محمود باريه وأخويه
 وسعيد محمد فرج من رؤساء قبائل دنقلة وادريس وريدي أحمد قضاة
 بيت المال وهو قريب فوزي واخوته وخمسة عشر رجلا من أقارب
 المهدي وبنو عمومته وكأهم من الذين أسسوا دعوى المهديوية وجرى
 بهم الى منزل التمايشي وكان جالسا ومعه القضاة والخليفة على حلوه ومحمد
 شريف فلما مثلوا بين يديه رحب بهم وهش وبش في وجوههم كأنهم
 مدعوون لوليمة عنده وأمرهم بالجلوس وبالغ في إكرامهم ثم قال لهم
 يا اخواني ان النبي صلى الله عليه وسلم أمرني في الحضرة ان ازجكم في
 السجن اياما قلائل ربما يأمرني باطلاقكم فما قولكم فاجابه الخليفة
 شريف بقوله لا يمكن سجنهم لان ذلك مخالف لما تعاهدنا عليه فسكت التمايشي
 وأجاب الخليفة على حلوه الخليفة شريفا بمجدة وغضب قائلا أنت تعارض
 في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ووثب رجل من قواد (دغيم) اسمه
 ابن أبي بلال وانهر الخليفة شريفا وقال له كان المهدي قريبك يحكم في
 الخلق بأمر الحضرة ولا يستطيع احد ان ينكر عليه فلماذا أتم اليوم تحرمون
 على غيركم ما كان لكم حلالا بالامس فسكت الخليفة شريف وعلم ان
 الخدعة تمت عليه وترك الكلام في أمر معارضته في حبس رؤساء حربه
 وأخذ يحتج على ما كان من اهانة ابن أبي بلال له مع ان ذلك لم يحصل
 منذ قامت دعوة المهديوية لانه لا عقاب لمن يتجارى على مخاطبة
 أحد الخلفاء باقل شيء تشتم منه رائحة الاهانة غير القتل فغير التمايشي الكلام
 وخاطب أحمد سليمان بعبارات المحبة والتبجيل وذكر قربه من المهدي
 وحظوته عنده ثم قال يا اخواني طبوا نفسا ولا تظنوا سوا قوموا واذهبوا

الى السجن الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإدخالكم فيه وقال للخبراء الذين يحيطون بهم سروا السجن ان لا يضع في رجلي كل واحد منهم غير قيد صغير لانهم من أجل أصحاب المهدي عليه السلام وذوي قرابته ثم قال لهم هيا اذهبوا على بركة الله فودعوه وخرجوا من الباب فاحاط بهم نحو خمسمائة بقارى وضربوهم الضرب الذي يسمونه (مطر دصبت) وكيفيته ان يجتمع مائة نفر فاكثر ويضربوا بالمضى شخصاً واحداً أو عدة أشخاص

ثم سيقوا الى السجن وعاد الخبراء واخبروا التمايشى بانهم قد اودعواهم السجن فامر الناس بالانصراف الا واحداً من أقاربه فلما انصرفوا قال لاحد الخبراء عد الى السجن وقبل له ضع في كل واحد عشرة قيود وزن كل قيد عشرون رطلاً من الحديد ثم قال لقريبه اعلم انى منذ ست وعشرين ليلة مازار النوم اجفاني أى من يوم سمعت بامر الخليفة شريف الذي لم يكن في ظني ان مساعى تقرن في مسألته بالنجاح وتأتى بمثل هذه النتيجة المرضية ومنذ حبست أحمد سليمان ومن معه شعرت براحة في نفسى وهجم النوم على جفنى فاستودعك الله لاني ذاهب الى حجرة نومي فودعه وانصرف ودخل التمايشى الى حجرة نومه فلم يستيقظ الا بعد ظهر اليوم التالي ومكث أحمد سليمان ومن معه ثلاثين ليلة في السجن ثم حملوا الى فشوده على إحدى البواخر النيلية وأرسل معهم التمايشى كتابا الى الزاكي طمل وكان معسكراً وقتئذ في فشوده لقتال (الشك) كما قدمنا

ولما وصلوا اليه استدعاهم في مجلس خاص بقواده وخاطبهم لماذا يامعشر الدناقلة تحاربون خليفة المهدي فردوا عليه أقبح رد وقالوا له ان المهدي الذي أوزنكم الملك دنقلى منا وانتم بقارة ارقاء فساءه ذلك وقال لهم لا قتلنكم كما قتل

الكلاب وأمر أن يضرب كل واحد منهم عشرة أشخاص بالمصى الغليظة
حتى يموت فكثروا على هذه الحالة بضع ساعات حتى تهشمت رؤسهم
وسحقت سحقاً

ولما شرعوا في ضربهم قال أحمد سليمان لفوزي نحن الآن على شفا الموت
ولا مطعم لنا في الحياة فانا أناشدك الله هل المنشور الذي يتلى كل يوم في
المسجد وفيه ان التعاشي أوتي الحكمة وفصل الخطاب مطابق الاصل الذي
صدر من المهدي فقال فوزي اللهم لا بل التعاشي هو الذي أمرني بوضع الزيادة
التي زيدت فيه فقال أحمد سليمان اعلموا ان المهدي كان ينوي التفتك
بعبد الله التعاشي ولم يستخلفه الا لانه كان مطلقاً على كثير من امراره
وكان يظن انه ترك قوة عظيمة في يد الخليفة شريف تقدر على كبح جماح
التعاشي متى أراد الخروج عن طوره ولكن بالأسف ان الخانية شريفا خدع
في بداية الامر وأسلم رايته للتعاشي وأصبح بلا قوة ثم خدع في هذه المرة
وسيلاتي ماجنته يدها فالتفت اليهما سعيد محمد فرح وقال لهما كفا عن هذا
الهديان واعلم يا أحمد بن سليمان ان مهديكم كاذب ظالم وعقله اسخف من عقل
قريبه الخليفة شريف والدليل على ذلك انه لم يختار من جميع الناس الذين تبعوه
من هو أهل خلافته غير بقاري أجهل من الحمار وليته كان بقاريا ذا حية في
قومه بل هو كما يعلم الكل ذكروري من أوباش البقارة ثم طرأ عليهم كلهم
مامنهم عن الكلام فأتوا وألقيت اسلاؤهم للكلاب والذئاب

وكانوا كلهم عدا سعيد محمد فرح من اكبر انصار المهدي ومن خيرة اعوانه
وقد تقدم لنا كلام عن أحمد سليمان ومنزلته عند المهدي فلا حاجة لاحادته
هنا وقد ذكرت أيضا ما لحقني من تعذيبه لي

أما فوزي واخوته فانهم كما قلنا دنقلبون كان أبوم قاضيا في أحد مراكن
 كردغان فلحق فوزي بكتبة التمايشي حتى صار رئيسهم
 وقد صودرت أموالهم وأخذت نساؤهم مسبيات وهدمت منازلهم
 وأصبحوا عبدة لمن يعتبر والى الله مصير كل شيء

ذكر القبض على الخليفة شريف وحبسه

لما قبض التمايشي على احمد سليمان ومن معه لزم الخليفة شريف منزله
 وامتنع من الذهاب الى منزل التمايشي الذي أمر بالقبض على نحو ألفي رجل
 من حزب الخليفة شريف ونفاهم الى النيل الاعلى وقتل اكثرهم في الطريق
 وشاع بين الناس ان التمايشي ظفر بالقائمة التي فيها أسماء من بايعوا
 الخليفة شريفا وجلهم من الامراء ووجوه البلاد فخافوا العاقبة وأرسلوا
 للخليفة شريف سرا يدعونه للفرار من أم درمان واللاحاق بالجزيرة
 ليظهروا مبايعته ويقوموا بأمره وحيثما يكون أحد الامرين إما الموت
 أو الظفر وهذا قريب من الصحة لما قدمناه من انحراف الناس عن التمايشي
 وسميهم في الخلاص من يده

ولما كان الخليفة شريف هذا بليدا لم يلتفت لما أشار به أنصاره ولم يعبا بما
 عرضوه عليه من الآراء الحازمة وظل مقبلا في داره حتى شاع بين الناس
 ان التمايشي أوشك أن يقبض عليه فذهب واحد من خواصه وأخبره
 بذلك فسخر منه وقال له ان ذلك لا يمكن أبدا لاني ثالث الخلفاء وان
 المهدي أخبرني في أحد منشوراته بان المهدي لا تقوم قائمتها بفيري
 وعلى ذكر المنشور نقول انه يوجد منشور منسوب للمهدي ولكنه لم يدرج

ضمن كتاب المنشورات التي تقدم لنا ايراد بعضها لان التعاشي منع من طبعه
وفي المنشور معميات والغاز كالتالي يستعملها بعض المتصوفة ومنها كلتا (دهمودي
بهمودي) وفيه أيضا عبارة تشبه اللفز وهي (انه لن يصح انتقال من الدنيا
حقيقية مادام الخليفة شريف موجودا بها)

على ان بعض الناس ينكرون صدور هذا المنشور من المهدي والحاصل
ان الخليفة شريفا كان آمنا على نفسه اعتمادا على هذه الخزعبلات ولذلك لم
يعبأ بمشورة الذين حثوه على الفرار

وتوجد مسألة خلاف تديمة بين التعاشي والخليفة شريف وهي ان
المهدي زعم في أوائل دعواه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أهله سيئما
قال له هذا سيف النصر وخاصيته أنه لا ينصر أحد على من كان حاملا له وقد
جعل له من ضمن الكرامات التي خص بها وقد تقدم ذلك في كثير من
المنشورات التي تقدم ايرادها

ولما توفي المهدي أمسك الخليفة شريف هذا السيف وامتنع من تسليمه
للتعاشي الذي كان يلح في طلبه من الخليفة شريف لالاعتقاد بما يقال عنه
بل لانه كان يرى ان بقاء هذا السيف في يد غيره يخفض من شأنه قليلا في
حقوق الخلافة اذ العامة من الدراويش تتحدث بشيء كثير عن كرامات هذا
السيف فيقول بعضهم انه يضطرب ويسمع له صوت كقصف الرعد اذا
اقترب العدو من مدينة المهدي. ومنهم من يقول انه اذا اقترب منه الجنب
ضرب عنقه بغير ضارب ولا يستطيع أحد حمله غير صاحبه المهدي الى غير
ذلك من أقوال البسطاء. ونقل لي مصري كان مقربا من المهدي انه سيف
مثل سائر السيوف وليس فيه خاصية مما تتحدث به العامة ويصدق البسطاء

وشعراء المهديونية ينظّمون فيه الموشحات ويذكرونه كثيرا في قصائدهم
وكان الخليفة شريف متقلده في غضون ثورته

وفي اليوم الثالث من شهر رجب سنة ١٣٠٩ جمع التمايشي القضاة
والامراء وطلب منهم ان يكتبوا محضرا يقولون فيه ان الخليفة شريفا
اعتزل الجمعة والجماعة واصر على العصيان ولزم منزله فكتبوا ذلك ثم قال لهم اذهبوا
مع الخليفة نبي حلو وادعوه الى الحضور في داخل قبة المهدي ثم اقبضوا
عليه فذهبوا وارسل اليه الخليفة على حلو يدعوه الى الحضور فامسكه محمد أحد
أولاد المهدي وقال له لا تذهب واعتذرا بانك مريض فاذا أرخى الليل سدوله
فاهرب الى الجزيرة فقال له لا تخف فانهم لا يستطيعون ايصال الاذي الى
فذهب معهم وما كاد يستقر به المجلس حتى وثب عليه من حوله وقبضوا عليه
واخذوا سيف النصر من يده وأوسعوه ضربا وساقوه الى باب التمايشي
وأسلموه للحراس الذين أخذوا يلطمونه ويهينونه ودخل الخليفة على حلو
والقضاة على التمايشي واخبروه بما صنعوا. ويقال ان التمايشي طالب منهم ان
يوافقوه على صلبه وأخيراً أمر به فسيق الى السجن وما وصله الا بعد أن بلغت
روحه التراقي لكثرة ما لحقه من الضرب وهناك وضعوا في رجله عشرة
قيود من الحديد ووضعوا في عنقه جنزيراً وزنه خمسون رطلا وسنعود الى
ذكر بقية أخباره

ذ ك ر الق ب ض ع ل ي ع ب د الق ا د ر س ا ت ي ع ل ي

و م ح م د ع ب د الك ر ي م و ق ت ل ه م ا

ع ب د الق ا د ر س ا ت ي ع ل ي ا ب ن ع م الم ه د ي و م ح م د ب ن ع ب د الك ر ي م

ابن أخى عبد القادر سائى على وكان الاول فقيها شاعراً أديباً واد في الخرطوم
وتربى فيها ولحق بقريبه المهدي في كردفان فاكرم وفادته وعرف منزلته
وصار مبعلاً عنده وعهد اليه برئاسة الامناء الذين ينوبون عنه في نظر المسائل
المعمومية وجعله أميناً على خاتمه

وكان عبد القادر سائى على شديد البغض للتمايشى يمييه بالجهل ويرميه
بالظلم وكثيرا ما طالب من المهدي اقصاءه عن منصب الخلافة وكان يمانه في
انفاذ كثير من مآربه ويزدرية ويحقره ولا يجلس بين يديه جاثيا على ركبتيه
كما هي مادة الدراويش في آداب الجلوس عنده

ولما توفى المهدي كان اول عمل أتاه التمايشى عزل عبد القادر عن منصبه
ثم بعد بضع سنوات صادر أمواله وحبس به بضعة شهور. وكان لعبد القادر معرفة
بالطب فاشتغل بهذه المهنة ليحصل منها على قوته حتى اتصل بالتمايشى ان
عبد القادر أصبح ذا ثروة عظيمة من مهنة التطيب فاستدعاه الى مجلس حافل
بالتقضاة وقال له لا يليق بك وأنت عم الامام المهدي عليه السلام ان تشتغل
بمهنة دينية كالتطيب فقال له (نعم يليق بعم المهدي ان يموت جوعاً) فقال له
اياك ثم اياك والتطيب واعلم أنك ان لم تنته عن هذه الصناعة تكن قد
عصيت أمرى وأنت عالم بعقوبة من يعصيني فذهب الى منزله وامتنع من
التطيب خوفا على حياته حتى صار في حالة يرثى لها من الفقر وفقدان القوت
وأما محمد عبد الكريم فانه ابن عم المهدي وكان من اكبر قواده وهو
الذي فتح سنار واغتال منها قناطر مقلنة من الذهب كما سبق الكلام على ذلك
وكانت طريقته في الازدراء بالتمايشى لا تختلف عن طريقة عمه عبد القادر
وقد صادر التمايشى أمواله أيضا جملة مرات

ولما انتقض الخليفة شريف كان محمد عبد الكريم معه أما عمه عبد القادر فكان ملتزماً بجانب الحيات

وبعد ان قبض التمايشي على الخليفة شريف وسجنه قبض على عبد القادر ساتي وابن أخيه محمد عبد الكريم وأرسلهما الى الزاكي طمل في فشوده فقتلها ضرباً بالعصى كما قتل احمد سليمان ومن معه

وقد جرت بينهما وبين الزاكي طمل مكالمة تشبه التي جرت بينه وبين احمد سليمان ورفقائه وقد أظهر عبد القادر ساتي عليّ جلدأً وشجاعةً بخلاف ابن أخيه محمد عبد الكريم فانه جبن وخارت عزيمته وطمع في الحياة بالترف للزاكي الذي كان لامندوحة له عن انفاذ ما أمر به التمايشي

هذا وقد جئنا بذكر قتل هذين لشهرتهما بين أقارب المهدي الذين يقدر عدد من قتل منهم ومن اقاربهم بسبب هذه الحادثة بنحو ثلاثة آلاف رجل عدا الشيبان الذين كانوا حراساً للخليفة شريف فقد طرح عدد كبير منهم طعمة لاسماك النيل

وكان لمحمد عبد الكريم محظيات في نهاية الحسن والجمال فكان التمايشي يرسل الي الواحدة منهن ويحبها الي منزله فاذا قضي منها وطره أخرجها وأعادها الي منزلها

ذكر شأن نساء المهدي مع التمايشي

ذكرنا ان المهدي مات عن نيف ومائة امرأة اكثرهن قد استحل وطأهن بملك اليمين على الطريقة التي تقدم الكلام عليها فلاحاجة لاماداتها ولما مات المهدي وأتمت النسوة عدة الموت جمع التمايشي الخلفاء

والقضاة وعرض عليهم اخلاء سبيل كل امرأة لم ترزق ولدًا من المهدي لان كثيرا منهم لم يقترب منهم فعارض الخليفة شريف في هذا الامر وقال ان نساء المهدي كنساء النبي صلواته الله وسلامه عليه وعلى آله وهن أمهات المؤمنين اللواتي أمرهن الله بعدم الخروج من بيوتهن وأورد الآيات التي نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم كأنها نزلت في نساء المهدي فقبل الحاضرون قوله وأعرضوا عما أشار به التمايشي

ومكث أولئك النسوة في داخل بيت يسكن كل خمس مهن في كوخ من البوص واجري التمايشي على كل واحدة مهن راتباً شهرياً قدره خمس ريات يتناولنه في السنة كلها مرتين أو ثلاثة ووكل حراستهم إلى نحو خمسين من الحصيان الذين كانوا ملسكا لوجوه وأعيان المصريين في سائر مدن السودان وصارت حالة النساء والحصيان تنتقل من سيء إلى أسوأ. وبالجملة لولم يكن لهاته النسوة أقارب يتداركوهن ببعض القوت لمتن من الجوع وكذلك الحصيان كان قوام معيشتهم من التسول ومد ايدي السؤال للامراء واعيان البلاد

وفي سنتي المجاعة مات كثير من النساء اللواتي لم يكن لهن أقارب ومات كثير من أطفالهن أولاد المهدي

وكن كلما شكون إلى التمايشي ما هن فيه من شظف العيش يبكي وينتحب ويقول لهن انكن آل بيت المهدي لانصيب لكن في الدنيا وليس لكن غير الآخرة حتى اذا كانت سنة ١٣٠٩ وانتقض الخليفة شريف على التمايشي قام نساء المهدي بمظاهرة ولاء للخليفة شريف فاغتاظ التمايشي وأمر باحاطة منزل المهدي بسور من الحجارة ليفصله عن ملاصقة منزل الخليفة شريف وبعد أن

قبض على الخليفة شريف جاء التمايشى الى منزل المهدي ومعه ألف مقاتل
 مساحون بالاسلحة النارية فاحاطوا ببناء المهدي وهن داخل ستر وضع لهن
 وقال لهن (انكن عصيتن الله ورسوله ومهديه وكفرتن بهم وقد حكم القضاء
 باعدنكم رميا بالرصاص) فرنمن رؤسهن فوجدن أفواه البنادق موجهة
 اليهن نصرخن واطمن وجوههن ومنهن من هربن لتساق الجدران التي
 كانت تناطح السحاب ومنهن من القت نفسها في بئر وبالجملة ان أولئك النساء
 روعن روعا شديداً فضلاً عما هن واقعات فيه من شظف العيش وسوء الحال
 ولما رأي التمايشى ما صارت اليه حالتهن وأن بعضهن ثبتن وقبن له انا
 لا نرهب الموت الخدي تمهدنا به لانك انما تقتل نسوة لا يشرفك قتلن
 ومع ذلك فان قتلنا شىء لا يذكر في جانب كفرانك بنعمة المهدي الذي أجلسك
 على الملك فاذا كنت تنادي كل يوم ولاية على رؤس الاشهاد بان المهدي
 دنقلي فان قتلنا لا يذكر في جانب هذه الشتائم

ويقال ان زينب اكبر بنات المهدي امراة الخليفة شريف أغلظت
 له القول واهائه بالشتائم فانصرف وقال لنساء المهدي انني عفوت عنكن وانما
 قصدت بفعلي هذا ارهاب اللواتى تظاهرن منكن بولاء الخليفة شريف
 والحاصل ان نساء المهدي وخصيانه وكثوا في الذل والهوان يقاسون
 من شظف العيش أشده حتى فتحت أم درمان وانقشع ظلم دولة الدراويش
 عن السودان

ذكر سجن اولاد المهدي

لم يكتف التمايشى بما فعله بالخليفة شريف والذين بايعوه حتى أمسك أولاد

المهدي الثلاثة وهم الفاضل ومحمد والبشرى وسجنهم في منزل جدهم لامهم أحمد شرفي ومنعهم من الخروج منه وكان محمد متزوجا بنت التعايشي فطلقها منه ومكث الثلاثة في الحبس ولم يخرجوا منه الا بعد استيلاء الجيش المصري على دنقلة

على ان اولاد المهدي لم يكونوا طامعين في الخلافة وانما كانوا متذمرين مما اصاب ذوي قرابتهم من الظلم والاضطهاد ثم القتل والنفي وكان محمد كما قلنا متزوجا بنت التعايشي وكان ينفضها ويسب اباهما بحضرتها ويذكر كفرانه بنعمة ابيه وعدم وفائه بهدهه فكانت تخبر اباهما بذلك كله حتى آل الامر لطلاقها منه

وعلى ذكر اولاد المهدي نذكر الشيخ الحسين زهرا الذي اوردنا قصيدته الحمزية التي امتدح بها المهدي ونصحه فحبسه التعايشي ثم انه بعد وفاة المهدي قدم للتعايشي قصيدة مملأها بالنصح ومن ضمنها قوله له ان استخفنا فك باولاد المهدي واضطهادك لا قاربه يحملان الناس على الاعتقاد بانك غير مصدق بهديته فغضب عليه التعايشي وسجنه وبعد ايام اطلقه وامره ان يسكن في قريته في جهات (المسلمية) على بعد ثمان مراحل من ام درمان جهة الجنوب والحاصل ان جميع اقارب المهدي اصبحوا بين قتلى ومسجونين وكذلك الامراء والقبائل الذين اسسوا دعوة المهديوية معه فقد فعل بهم التعايشي ما فعله باقارب المهدي واولاده ولا غرو فان المهدي سبب كل هذه المصائب التي حاقت باقاربه وقواده حيث استخلف التعايشي عليهم وهو لا يدري ان عدوا عاقلا خير من صديق جاهل

ذكر مؤامرة عبد المولى صابون علي قتل التمايشي

عبد المولى صابون اخو حمدان أبي عنجة فاتح بلاد الحبشة الذي تقدم لنا ذكره وكان عبد المولى هذا قائدا للجهادية في أم درمان وفي سنة ١٣٠٥ أصيب بمرض الجدام وقد سر لنا الكلام على ان التمايشي كان يحبه وانه قد نفى أم زوجته بعد ان قطع يدها لما قيل له ان مرض عبد المولى ناتج من كثرة ما تصنعه له من الشعوذة والاسحار اللتين تقصد بهما استمالته لمحبة بنها ولا توفي حمدان أبو عنجة في القلابات كان أخوه عبد المولى يتوق لنيل منصبه فلم يفلح وولى التمايشي الزاكي طمل بدل أبي عنجة وعزل عبد المولى أخاه من قيادة الجهادية وولى بدله أحد أقاربه البقارة فاغتاظ عبد المولى من التمايشي وأضر له السوء وحالف الخليفة شريفا عليه لكنه لم يظهر محالفته له وانضم اليه نفر من التمايشة أقارب الغزالي الذي تقدم لنا ان التمايشي قتله لما فر من أم درمان وتآمروا على قتل التمايشي غرة بين منزله ومنزل أخيه يعقوب حيث تعود التمايشي ان يسير بينهما بحراس قليلين وكن المتآمرون في الطريق قبل الوقت الذي يخرج فيه التمايشي من داره الى دار أخيه يعقوب بنحو ساعة من الزمن ليقتكوا به اذ ذاك

وبما كان التمايشي يتأهب للخروج استأذن عليه أحد المتآمرين فاذن له ولدي دخوله عليه ترامي عليه مظهرا توبته واخبره بما دبره له عبد المولى ومن معه فارسل التمايشي من قبض عليهم وأودعهم السجن ثم نفوا الى خط الاستواء وهناك لقوا حتفهم

وكان عبد المولى هذا ذا فظاظة وكبر ونال من الرفعة والثروة في أيام التمايشي

ماله خطر مع انه عبد اسود من عبيد (البنضلة) لمجاورين للتعايشة كما انه أخذ
من حرار النساء نحو خمسين امرأة من بنات الاعيان كلهن موطوات
بملك اليمين

وبعد سقوط الخرطوم بامين كان لي عبد قد أبق ولحق بجهادية
أم درمان الذين يقودهم عبد المولى هذا فذهبت اليه أسأله ان يعطيني ذلك العبد
أو ثمنه فكان أول كلمة كلني به أن قال لماذا أنت ضغنهم يا ولد الريف أنتك مال مخبأ
تخرج منه ما تنفقه على نفسك فطار لي من هذا الكلام وقتلت له لا
ياسيدي بل أنا رجل فقير أعيش من هبات سادتي الامراء امثالك فقال
وهل هبات الامراء تسمنك الى هذا الحد فقلت نعم وان مولاي خليفة
المهدي عليه السلام يتاهدني باحسانه في كثير من الاوقات فانكسرت
شوكه حدثه وقال لي ماذا تطلب الآن فقلت أطلب عبيدي فقال أنت عبيده
نقات له نعم انني عبيده لانه صار عبيدك فشفع لي عنده أحد الحاضرين
فقال اني سمحت لك باخذ العبد اكراما لحاطر من شفيع فيك واحذر من ان
تعود الي بمثل هذا الطلب فاني اذ ذك أضرب عنقك هذا المملوء لحما فاخذت
العبد وانصرفت به الى النخاس وبمته باول ثمن عرضه على فيه

ذكر قدوم محمود احمد من دارفور

مر لنا الكلام على موت عثمان آدم أمير دارفور وتولية محمود أحمد
ابن عم التعايشي بدله وذلك في سنة ١٣٠٧ وقد سار محمود هذا سيرة عوجاء
أوجبت انحراف القواد عنه ونفور الجنود عن ولائه واشتدت الحالة في إبان
ثورة الخليفة شريف فتخوف التعايشي من هذه الحركة وكتب الى محمود

ليستقدمه الى أم درمان بمن معه من المقاتلة وقصد بذلك ان يهرب أهالي الجزيرة الذين مالوا للخليفة شريف ويربهم قوته التي في دارفور وأن يوفق بين محمود والذين تقموا عليه من جنوده ومقاتله فغادر محمود أحمد الفاشر حاصمة دارفور ومعه نحو أربعين الف مقاتل منهم بضعة آلاف من الجهادية ومثلهم من الفرسان والبقية من المشاة

وبعد ان وصلوا الى جهة (الهود) وهي أول بلاد كردفان مما يلي دارفور نار عليه قواد الجهادية واطلقوا عليه الرصاص وكادوا يقتلونه وكانت عدة الثوار خمسة عشرة قائدا يقود كل واحد منهم مائة مقاتل كلهم مسلحون بالأسلحة النارية من طرز (رامنجتون) وانفصل الثوار عن المعسكر وابتعدوا عنه فإسبل اليهم محمود قاضي المعسكر يدعوهم الى الطاعة ويهدم بلغفهم عن جريمتهم ثم دفع لكل واحد منهم الف ريال فاخذوا المال ولم يقبل العودة الى الطاعة غير ثلاثة منهم وأصر الباقون على عصيانهم وابتعدوا عن المعسكر ولحقوا بجبال (ابن جنوب) وهي جبال واقعة في الجنوب الغربي لكردفان وسكنها من المبيد (النوبة) الذين تقدم لنا الكلام عنهم فلا حاجة لتكراره هنا ووصل محمود الى أم درمان في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٠٧ أي بعد ان زالت مخاوف التعاشي من الخليفة شريف والذين بايعوه فخرج لاستقباله خارج البلدة وظهر سروراً عظيماً بمقدمه وبالغ في اكرامه الى درجة انه أمر بعمل ألعاب نارية اجريت امام محمود وجنوده وهي أول مرة صنعت فيها تلك الألعاب في ايام المهديوية

وارتفعت أسعار الاقوات على أثر قدوم محمود أحمد ومقاتله الذين قدموا بنحو مائة الف نسمة من الارقاء باعوها في أم درمان كما تباع البهائم

وقدم محمود هذا. والاطائلة للتمايشي وأخيه يعقوب
ثم انه تزوج براقصة شهيرة اسمها بنت بدوي كان الشعراء يتنزلون
بباعتها في الرقص وجاهر في حفلات الزواج بشرب الخمر وأحيى ايام
الرقص بما يخالف آداب الهندوية وصادر كثيرا من الجوارى المؤسسات
وشهرهن جارية اسمها « السكات » وجمع حوله كثير! من المخشيين والمغنين
الذين تقدم لنا الكلام عليهم وسيأتي ذكر الجارية السكات وانها اباحت قرية
(الجميعاب) للجهادية فنهوها وألحقوا بها العار
وأقام محمود بام درمان بضمة شهوز ثم قفل راجعا بجنوده الي دارفور
وستجيء بقية أخباره

ذكر القبض علي امراء الجمليين ونفيهم

ذكرنا ان جل تجار كردفان من قبيلة (الجمليين) التي تسكن بربر وقد سبق
لنا شرح احوالهم فلا حاجة لاعادته هنا وقد استوطنوا كردفان منذ زمن مديد
وكان من أمرهم انهم أعانوا المهدي على الاستيلاء على الابيض عاصمة كردفان
وكان الياس باشا أم بربر في مقدمة أولئك التجار الذين تقدم لنا الكلام عليهم
وقبيل ثورة الخليفة شريف باشا جمع التمايشي نحو أربعين من أمراء
الجمليين ودفع لكل واحد منهم راية وكان من بينهم عمر بن الياس باشا الذي
ذكرنا بمض مآثاه في دارفور لما ذهب اليها مع محمد خالد زقل
وعين التمايشي قائداً عاما على الاربعين أميرا اسمه البدوي بن العريف
كان أخوه محمد بن العريف سر تجار الابيض عاصمة كردفان ومن أكبر الذين

ساعدوا المهدي على الاستيلاء عليها

ولما نار الخليفة شريف كان هؤلاء الامراء في جملة من بايعوه من
الناس فوشى بهم الى التمايشي أحد خصميين المهدي المسمى « شكر الله » ثم
ذهب أولئك الامراء وأخبروا التمايشي بانهم ما فعلوا ذلك الا ليقفوا على سر
المسألة كي يوففوه عليه فشكرهم وأظهر لهم عظيم الميل والانمطاف وبعد
حبس الخليفة شريف بأيام دعاهم الي مجلسه وأخبرهم ان رباط كسله ذو أهمية
لاتحني وان الايطاليين يطعمون في التقدم الى كسله وان أميرها يساعد
في عدم البقاري ضعيف الرأي وانه ينوي انفاذهم الى كسله ليقوموا بحفظ
الرباط فشكروه وانصرفوا بعد ان تعهدوا له بأن يجهزوا أنفسهم ومقاتلتهم
من مالهم الخاص

وبعد أيام غادروا أم درمان وخرج التمايشي لوداعهم وساروا الى قرية
(رفاة) التي تبعد عن الخرطوم بست مراحل في النيل الازرق ليضموا
اليهم المتفرقين من مقاتلتهم في قري الجزيرة وأقاموا فيها نحو شهر وبدلا من
أن يجمعوا الرجال ويسيروا الى وجهتهم ضربوا على كل مقاتل ضربة يقدمها
كفدية ليتركوه فجعلوا من ذلك أموالا طائلة والتمايشي يكتب لهم في كل
يوم يحثهم على مفادرة رفاة واللاحاق بكسله وهم يقدمون له الاعذار في كل
مرة وفي ذات يوم أرسل لهم مندوبين قبضوا عليهم في رفاة ونهبوا أمتعتهم
وما جمعوه من ضريبة الكفدية وجيء بهم الي أم درمان يرسفون في القيود
والاغلال ونهبت دورهم التي بأمر درمان

ولما أدخلوا السجن ناداهم الخليفة شريف قائلا « ان خيانتكم لم
تدفع عنكم مكرها » ومكثوا في السجن نحو شهر ثم نفوا الي خط الاستواء

وقد رأيتهم وقت خروجهم من السجن يحيط بهم الحراس والاضلال في
 أعناقهم واقيدوني أرجلهم فكان الحراس يحملون الواحد كما يحمل المتاع ويرمونهم
 في عنبر السفينة كما ترمي الامتعة وهكذا ساروا الى خط الاستواء وكان
 ذلك في أواخر سنة ١٣٠٩ هجرية

ذكر نفي الامير ابي قرجة

ختمت سنة ١٣٠٩ وحوادث السودان فيها تحاكي ما جري على الخليفة
 شريف وحزبه وأقارب المهدي رذلت سنة ١٣١٠ ولم يبق من الامراء أو
 أصحاب المقامات من الذين تجمعهم مع الخليفة شريف جامعة التحزب أو
 الجنسية غير أبي قرجة الذي تقدم لنا كلام كثير عنه حيث هو من أكبر أمراء
 المهدي الذين حاصروا الخرطوم وولى اتميادة العامة على جيش السودان الشرق
 بدل عثمان دقنه كما مر ذلك

ولما عزل أبو قرجه عن بربر أعيد الى السودان الشرقى ولما ناز الخليفة
 شريف كان هو غائباً لم يحضر تلك الحوادث فاستدعاه التمايشي في أوائل سنة
 ١٣١٠ وأظهر له رغبته في توليته الامارة العامة على خط الاستواء لسابق
 خبرته بتلك الانحاء فجمع نحو ثلاثمائة مقاتل سافر بهم الى خط الاستواء
 على احدى البواخر وسافر معه قائد من قواد البقارة يحمل كتاباً من التمايشي
 فواء القبض على أبي قرجة ومن معه وزجهم في السجن حينما يبلغون خط
 الاستواء ودفع التمايشي الى أبي قرجة أمراً مضموناً انه أمير عام على سائر انحاء
 خط الاستواء

والحاصل ان أبا قرجة سافر من أم درمان أميراً على خط الاستواء ولكنه

كان موقنا بأنه ساع الى حتفه بظلمته لانه كان ذا ذكاء وعقل
ولما وصل خط الاستواء أودع السجن هو ومن معه وقد بلغنا ونحن نهيء
هنا الكتاب للطبع انه قد فر من سجن خط الاستواء وخلق باحد
معسكرات بلجيكا التي في جهات بحر الزل ثم خلق بمملكة «برقو» فاكرم
وفادته سلطتها وانزله على الرحب والسعة لكنه لم يسمح له بالعودة الى بلاده
على مالوف عادة اهل تلك البلاد خشية ان يكون رائداً يجوس خلال الديار
هذا وان أبقرجة وان كان ملاماً من عمال دعوة المهدي لكنه كان أقدم
شراً وأكثرهم خيراً واقربهم الى العدل والاحسان
وانني بسبب ما ذكرته عنه واحسانه اليّ في يوم كنت أساق فيه لادوت
لا يسمي الان اتمني له نوال الخير في غربته والخلص من رتبة أسره

عود الي ذكر بيت المال

ذكرنا آنفاً ما كان من صلب ابراهيم عدلان أمين بيت المال السابق
وتولية النور الحريفاوي بدله
وقد كان النور هنا ذا ثروة عظيمة جمعها مما نهبه من تجار المصريين
في بربر كما مر ذلك وقد تناول سبعة عشرة ألف ريال من الحكومة ليشتري
بها غلال فاغتالها وفر بها وخلق بالمهدين وبعد ان مضى عليه امان في
بيت المال زادت في خلالها ثروته زيادة عظيمة أخذ يفكر في وسيلة يتمكن
بها من ترك وظيفة امانة بيت المال ليتاح له الانزواء بعيداً عن نظر التمايشي
الذي كان يطمح الى ثروته منتظاه في أواخر سنة ١٣٠٩ بالجنون على أثر وتوابعه
بن جواده وأخذ يخاطب في الكلام بمحضرة التمايشي

وقد روى لي ثقة ان النور هذا كان سائراً من المسجد الى منزله في ليلة
 حالكة الظلام منفرداً وكان الراوي متأثره وهو لا يراه فسمعه يحدث نفسه
 ويقول « أحلف بالطلاق ان التمايشي سيصابني كما صلب ابراهيم عدلان
 ليحصل على ثروتي والاجدر بي ان أسلمه هذه الثروة واحفظ حياتي لانفرد
 بنفسى واحترف بادنى حرقة يتهيش منها اطفالى » ثم يعود فيقول « كلا اذا
 دفعت له أموالى فانه يظن اننى خبأت معظمتها ولم أظهر له غير جزء يسير
 منها واذا ذاك تحرك اطماعه ويعذبني لاسلمه الباقى ولا شك فى اننى أموت
 بسبب العذاب وحينئذ اكون قد جنيت على نفسى » ثم يقول « أحلف
 بالطلاق الثالث ان المسألة ممتدة لا يقدر أحد على حلها والاولى بي أن أظاهر
 بالجنون والله تعالى يفعل بي ما يريد »

ثم انه أظاهر بالجنون مدة حتى بداله أن يتضرع الى التمايشي ليقبله من
 أمانة بيت المال فأجابه التمايشي الى ذلك على شرط ان يجزىء اختصاص بيت المال
 الى ثلاثة اجزاء احدها أمين بيت مال يختص بمعامل الذخيرة (الورش
 الحربية) والثاني يختص بمال النهىء الذي يزعم التمايشي انه خاص به والثالث
 هو بيت المال الامام وأن يكون النور الجريفاوى اميناً لبيت المال الاول وان
 يكون محمد بشير كرار العبادي قائداً دابة التمايشي اميناً للثاني وأن يكون العوض
 المرضى اميناً للثالث

وعلى ذلك صار اختصاص أمانة بيت مال (الورش الحربية) منوطاً بالنور
 الجريفاوى وعليه ان يتفق مع التجار الذين يفدون الى الديار المصرية ليجلبوا
 المتقاير اللازمة املك المعامل ويهربونها حتى لا تظفر بها الحكومة ولهذا
 المسألة كلام خاص بها سنورده فى غير هذا المحل

أما اختصاص بيت مال النبي، فهي عبارة عن جميع موارد الإيرادات المهمة وذلك مثل خمس سلع التجار المصريين وعشر بضائع التجار السودانيين وخمس واردات بلاد الحبشة وغيرها من البلاد الأجنبية وعشر الصادرات التي تخرج من البلاد السودانية إلى البلاد الخارجية كالصمغ والعاث ودريش النعام وكذلك عشر واردات التجارة التي ترد على أم درمان من داخلية السودان وأهمها الحبوب والملح والبايع والنموص الذي يصنع منه الحصر المسماة (إراش) وكذلك إيراد السنن الشراعية التي تنقل الحاصلات من جميع الجهات التي اغتصبها التمايشي كلها وجعلها ملكاً له وكذلك عوائد التزام (التمندية) في جميع الجهات وكل هذه الإيرادات مضبوطة بدفاتر وحسابات جارية لا يصرف منها فلس واحد في غير لوازم التمايشي على يد رئيس خصيانه (عبد القيوم)

وأما اختصاص بيت المال الثالث فإنه قاصر على الإيرادات التي تجلب بواسطة الجباة التي تقدم لنا الكلام عنهم وله اختصاص آخر هو مصادرة أموال الاغنياء وطلب القروض المالية من التجار حيث لا ترد لهم أبداً ومن امتنع صودر ماله كله وتنفق هذه الإيرادات على أقارب التمايشي فقط والحاصل ان التمايشي استأثر بجميع إيرادات البلاد حتى أصبحت في نهاية الفقر المدقع وأخذ يتفنن في أساليب زيادة الخراج ومضاعفة المكوس التي صارت التجارة معها كاسدة لا تربح شيئاً وبالجملة فإن الحالة كانت تنتقل من سيء إلى أسوأ وبهد الله كل شيء



ذكر سورام درمان

قبل الكلام على السورتاتي بتمهيد في تخطيط مدينة أم درمان ومواقع
احيائها ليكون القاريء على بينة من ذلك فنقول

من الاصطلاحات التي جرى عليها المهديون أن يسموا كل جهة سكن
فيها للمهدي باسم (البقعة) وقد يضاف هذا الاسم الي اسم المدينة الاصلية
أو الجهة التي سكنها المهدي فيقال (بقعة الابيض) مثلاً لان المهدي كان
ساكناً فيها أو (بقعة الرهد) وهو منهل جنوب الابيض لانه كان نازلاً فيه
كما تقدم لنا ذكر ذلك

ولما زحف المهدي على الخرطوم كان أول معسكر اتخذته في جنوب أم
درمان على بعد عشرين ميلاً عند مكان اسمه (الفتيح) بعيداً عن شاطئ
النهر اتقاء لمقذوفات البواخر التي كانت تحاربه في الخرطوم ولم يجسر على الدنو
من شاطئ النهر الا بعد سقوط الخرطوم في قبضته

وقد أشرنا فيما تقدم أنه عقد مجلساً للمداولة في أمر سكنائه فلم يوافقته على
ذلك الامراء لانهم قالوا ان نقطة أم درمان يمكن أن نغادرها بسهولة الي
کردفان اذا حدث ما يضطرنا الي التقهقر فنزل المهدي بها واختط المسجد
وداره بعيداً عن ضفة النهر بنحو ميل واحد ونزل التعايشي جنوب بيت
المهدي بنحو مائة متر في الجنوب الشرقي للمسجد حذاء منزل المهدي المقابل
لنقطة الوسط من قبلة المسجد وكان بين منزل التعايشي ومنزل المهدي ميدان
فسح ويح نزل الاعراب والبقارة الذين أصلهم من جهات كردفان ودارفور
وهم التابون لرايات التعايشي جنوب منزله وامتدت مساكنهم الي الجنوب

الغربي والجنوب الشرقي الي قرب المعسكر الذي كانت به جنود الحكومة وهو (خندق أم درمان) ويبعد عن المسجد جهة الجنوب ببضعة أميال وقد اتخذ هذا الخندق معسكراً للجهادية الذين يقيمون بأم درمان وسمى معسكر أبي عنجه

ونزل جماعة من المصريين الذين كانوا بكردفان شمال هذا المعسكر عند نقطة (الموارد) وأمير هؤلاء المصريين هو حسن حسين الذي تقدم لنا الكلام عنه

ونزل يوسف منصور رئيس الطوبجية ومن معه من المصريين شمال معسكر أبي عنجه

ونزل الخليفة على حلو في الشمال الشرقي من منزل المهدي ونزل أتباعه (دغيم وكنانة) في الشمال الغربي من المسجد ممابلي السوق الذي نزل فيه جماعة من التجار وجاهم من اليونانيين واليهود والسوريين وأطلق على حيم اسم (حارة المسلمين) ونزل الخليفة شريف شرقي منزل المهدي ونزل أقارب المهدي وسائر أتباع الخليفة شريف الذين جاهاهم من أهالي السودان الاوسط في الجهة الشرقية من منزله وامتدوا الي الشمال حتى اتصلت منازلهم ببضعة النهر وحد المدينة يومئذ يقف في جهة الشمال عند معسكر ابن النجومي الواقع في شمال المسجد بنحو ميلين فقط ولما أمر التعايشي بتخريب مدن الجزيرة في سنة ١٣٠٤ وحشد سكانها في أم درمان نزل سكانها في الجهة الشمالية لمعسكر ابن النجومي وصاروا يسدون أحياءهم بأسماء بلادهم الاصلية فيقال (حى المسلمية) و (حى رفاة) وغيرهما من بلاد الجزيرة حتى وصل امتداد حدود المدينة الي جهة (خور شنبانة) التي تبعد عن المسجد بسنة أميال

وعقب افضاء الخلافة للتمايشي وسع منزله حتى ادخل فيه الميادين
الذي بين منزله ومنزل المهدي

ولما نار الخليفة شريف وأقاربه وصارت مقذوفات جماعة الخليفة
شريف تقع في وسط دار التمايشي خاف التمايشي طائفة اختلاط المنازل
فامر باخراج جميع اقارب المهدي واتباع الخليفة شريف من منازلهم التي
هدم جلها وأسكن أقاربه البقارة فيما بقي منها ليكون منزله محاطا من جميع
الجهات بمن يأمنهم على حياته

وأسكن من أخرجوا من منازلهم في الجهة الواقعة شمال معسكر ابن
النجومي الذي صار لا يسكن جنوبه تدير البقارة وقد قاسى الناس أحوالا
شديدة من جراء اخراجهم من منازلهم وصاروا في حالة تفتت الكبد اذ
صاروا بينما يكونون في منازلهم يدخل عليهم البقارة فيأسرونهم بالخروج
منها بغير ان يتمكنوا من حمل امتهم التي يأخذ البقارة جلها فيخرجون
وليس عليهم غير ثيابهم وما خف حمله من نافة مناعهم فيتضون على هذه
الحالة النميسة زمتا لا يستطيعون في خلاله تشييد مساكن ان كانوا من أولى
اليسار وقليل مالم وظل الفقراء في هذا الشقاء حينما وقد كان نصيب من
هذه المصيبة عظيما وسيأتي تفصيله بعد حيث اخرج المعريون الساكنون
بالقرب من معسكر أبي عنجه من منازلهم وكنت أنا من جملتهم
على أن بناء سور أم درمان يدل على ما خسر التمايشي من الخوف على
حياته من ثورة الخليفة شريف

وفي ذات يوم رقى التمايشي منبر الخطابة وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم
أمره باخراج من أخرجهم من منازلهم وأمره ببناء سور من الاحجار بتدبير

من ضفة النهر حتى يبلغ منزله ثم يتجه الى الشمال حيث يصير شرقي المسجد
وغربي منزله ثم ينتهي الى ضفة النهر أيضا وانه صلى الله عليه وسلم أمره أن
لا ياذن في السكنى داخل هذا السور لغير البقارة والجهادية ووضع أساس السور
وجعل عرضة أربعة أمتار ووزع حصصاً على القبائل ومن جملة المصريين
الذين يكلمهم الكلام كنت أحد أمراءهم فكانوا ذهب الى شاطئ النهر فاستخرج
منه الحجارة ونحوها الى محل العمل ومكثنا على هذه الحالة نحو سنتين ثم في
خلالها تشييد السور بسخرة الناس وبلغ ارتفاعه فوق خمسة أمتار

ذكر قدوم الزاكي طبل من فشودة الى ام درمان

لما فرغ الزاكي طبل من قتل الشلك وأخضعهم لسلطة المهديوية حيث
قتل ملكهم (عمر) لذي قيل عنه أيضا انه مولى من قبل المهدي وحمل رأسه
الى التمايشي الذي أمره بمهادنة الشلك وابعاد ما هدم معهم وتولية ملك
عليهم يكون من اعداء عائلة الملك السابق فأقام رجلا من أطراف الشعب
سماه (عبد انضيل) ملكا عليهم غادر فشوده بجيشه فأصداً أم درمان وذلك
في أوائل سنة ١٣١٠

ولما بلغ أم درمان استقباله التمايشي بالخفاوة والاكرام وقدم له الاغذية
ثم قدم الزاكي للتمايشي مقدارا عظيما من المال الذي غنمه من الشلك وكثيرا
من الماشية وأمره بأخذ الالهبة والاستعداد لمغادرة أم درمان الى بلدة
أبو حرز

انراكي في ابو حراز

أبو حراز قرية في الضفة الشرقية للنيل الأزرق تبعد عن أم درمان مسيرة سبع مراحل وهي مفتح الطريق الوصول الي التضاريف عن طريق الصحراء المسماة (عقبية النندابية) وهو موطن لقبيلة صغيرة اسمها (العركيين) ومن هذه القبيلة نبغ رجال في القرون الماضية اشتهروا بالصلاح وحازوا منزلة عالية في مشيخة الطريقة القادرية وأشهر هؤلاء النابغين (الشيخ الطربني) وكان معاصراً على ما يروونه للشيخ تاج الدين الفاكهاني من مشاهير رجال الطريقة القادرية ببنداد وقد صحبه الشيخ الطربني وأقام معه في بنداد زهاء عشرين عاماً عاد الى قرية أبو حراز وانتشر نفوذه الديني في سائر أنحاء السودان حتى اكرمه مارك السودان واقطعوه الاراضي الواسعة وخلصه عند كبير من اولاده كانوا على قدمه في الشهرة واعتقاد الناس وماتوا كلهم ولهم قبور شديدة عليها قباب

ومن نسلهم الشيخ حمد النيل العركي وكان ذا نفوذ كبير في السودان وكتب له المهدي كتاباً تقدم لنا ايراده يتوعده هو وعوض الكريم بن أبي سن زعيم قبائل الشكرية لانهما ساعدا الحكومة على قتل داعيته الشريف احمد طه الذي تقدم ذكر قتله

ولما ولي التعاليشي بهد المهدي صادراً موال الشيخ حمد النيل وقتله صبراً في سجن أم درمان

ولنمد الى ذكر لزاكي طمل فنقول انه لما وصل الى أبو حراز عكروها وأباحها لجنوده فأرهبوا سكانها سلباً ونهباً وأمر بقباب المشايخ فهدمت وشاد بانقاضها

داراً لسكنائه وأطلق العنان لمقاتلته فانتشروا في مدن الجزيرة كلها ونهبوا أموال
الاهالي وحملوهم من المظالم والمغارم ما تنوء بحمله الجبال حتي كان آخر سنة ١٣١٠
أصدر التعايشي أمره الى الزاكي طبل بمناذرة أبو حراز وللحاق بالقضارف وشي
البلاد التي ذكرنا فيما مضى أنه خربها وحمل أموالها الى التعايشي ثم من القضارف الى
كسلة التي اتخذها معسكراً له بقصد شن الغارة على حدود الايطاليين في مصوع

علائق التعايشي ومنليك

يدل تتبع الحوادث التي جرت بين المهديين والاحباش على أن منليك
نجاشي الحبشة الذي خلف النجاشي يوحنا الذي مات قتيلا بيد الدراويش
في واقعة القلابات التي مر الكلام عليها وعلى ما تقدمها من حروب الدراويش
والاحباش على هزيمة هؤلاء وظهور الاولين

وأول هاته الأدلة أن الاحباش لما انهزموا من القلابات وقتل منهم
يوحنا كان المنتظر أن يعيدوا الكرة لاخذ الثار وجلاء العار فلم يفعلوا
وعلم من ذلك أن منليك الذي خلف يوحنا أيقن أن مصلحة مملكته تقضى
بالكف عن مناوأة الدراويش لينفرغ لصد الفاتحين من الايطاليين الذين اغاروا
على الحبشة من جهة مصوع وانتقصوا المملكة من أطرافها وهم طامعون في
الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها.

وقد أشرنا فيما تقدم الى أن سبب الحرب بين المهديين والاحباش أن
النجاشي يوحنا خاف من انتشار دعوة المهدي بين مسلمي الاحباش فشرع
في اضطهادهم واجبارهم على اعتناق النصرانية ديناً فساء عمله اقبال الحبشة
واسمجنوه وخافوا تفرق كلة الاحباش الذي لا تحمد عاقبته وكان منليك

قبل (التيبره) وقتئذ أول مستهجن لهذه السياسة الحرقاء وقد نصح النجاشي بالمدول عنها فلم يلتفت لنصائحهم

ولما قتل يوحنا النجاشي السابق وخلفه منليك أعاد الحرية الدينية إلى حالتها الأولى ومن ثم أزمّت جنود الحبشة حدودها وامتنعت من الاعتداء على تخوم الدراويش وبعد سنة سحب التعايشي جيشه من القلايات كما تقدم ولم يترك لحراستها أكثر من ألف مقاتل

وقد ذكرنا أنه وجه جيش القلايات لاختضاع أشلك في فشوده ثم وجهه إلى القصارف ومنها إلى كسله لمهاجمة تخوم الإيطاليين من جهة مصوع وكان هذا الاستعداد في وقت كان الإيطاليون يستعدون فيه للربّة على الاحباش في (لاريتره) مما يدل على أن تقدم الزاكي إلى كسله متفق عليه بن التعايشي ومنليك وسبجى، أن التعايشي لما أحس بدنو الحملة الانكليزية المصرية من أم درمان أنفذ سفيراً يستصرخ منليك لمعاونته

ولا مندوحة لنا عن الإشارة هنا إلى أن الإيطاليين كانوا حلفاء للدراويش على الحبشة وقد تمت هذه المحالفة بمعاوضة بعض رؤساء الحبشة الذين كانوا على رأي البعض معاضدين لانكائرا التي كانت ترمي بهذا الغرض لأشغال المهديين بمحاربة الحبشة عند حدود مصر حيث تجني انكائرا وإيطاليا من وراء تلك الحروب أضعاف ما يجني الدراويش والاحباش معاً لتقضى إيطاليا أمانتها من هؤلاء وتذكر انكائرا غايتها من أولئك

على أن ذلك كله مأخوذ من قرائن الاحوال ومن روايات بعض الذين لهم اطلاع على سياسة التعايشي الذي لم يصرح بشيء من أمر المحالفتين مما يدل على أنهما سريتان والحاصل أن منليك أنجح في سياسته التي نهجها اذ جني

من عاقبتها اراحة الحبشة من حرب دينية كحرب الدراويش ومن جهة أخرى
 ان تمكن من اشغال قسم من حامية ايطاليا بدفع الدراويش عن حدود بلادهم
 ثم كان من وراء ذلك انتصاره الباهر في واقعة (الاريتره) التي لا يجملها
 القراء وهو ما يجعلنا في غنى عن التصدي لابرادها وتدوين تفاصيلها

ذكر سجن الزاكي طمل وقتله بام درمان

الزاكي طمل هو الذي خلف القائد ابا عنجه في قيادة جيش القلابات
 كما بسطنا ذلك في مكانه وفي بداية ولايته انهزمت جيوش الحبشة في القلابات
 وقتل النجاشي يوحنا ثم وجهه التماسي لاختضاع الشلك في فشوده فقتل
 زعيمها عمر وأتى فيها ما سبقت الاشارة اليه وأهله من قبيلة اسمها (البنضله)
 وهي التي منها أبو عنجه سلفه وهي قبيلة من المبيد المتوحشين في جنوب
 دارفور تسكن قبيلة (التماشة) وقد تقدم تعريفها بأوفى من هذا فلا حاجة
 لتكراره هنا وكان الزاكي هذا في بداية أمره جنديا مع النخاسين الذين يعيشون
 الفساد في بلاد المبيدوم المعروفون باسم (البحارة) وفي أيام المهدي صار قائداً
 من قواد جيش أبي عنجه حتى صار وكيله

ولما خلف ابا عنجه في الامارة خلفه في كثير من أحواله وصار فظاً
 غليظا بسفك الدماء ويقتل مرؤسيه لاقل هفوة وأخذ يتظاهر بالانتماس
 في الترف وشاد اسكناه القصور في القلابات حتى أنه شاد تصراً زوج فيه
 ابنه وشرع في نقشه وزخرفته بصفار بيض الدجاج وفرض على الاهالي تقديم
 البيض ومن تأخر عن الميعاد المضروب له عاقبه عقابا صار ما فارفع ثمن البيضة
 الواحدة الي بضعة قروش ورحل الناس من القضايف على ظهور الهجن الي

بلاد الجزيرة لجلب البيض حتى تم النقش والتبييض
ولما اتصل بالتعايشي خبر هذا القصر أرسل الى الزاكي يأمره بهدمه فهدم
الدور الاعلى وترك الدور الاسفل وكان قد جاب له البنائين والنجارين من
الخرطوم وكلهم مصريون

وبمدهم القصر أمر التعايشي الزاكي بمغادرة القضايف واللاحاق بكسله
لاخذ الاهبة للغارة على الايطاليين فغادر القضايف وعسكر في كسله
وكان الزاكي في جميع احوال ولايته كحاكم مطلق يفعل كل ما يراه واذا
قدم أم درمان يستقبل بالحفاوة والاكرام ويخرج أنى سار فى موكب يحيط به
خمسون حارسا مسلحون وكان بما احرزه من الانتصارات على الاحباش والشك
وما كان يقدمه للتعايشي من الاموال الطائلة يرى نفسه ذامنة على
التعايشي حتى أخذ يتفوه في حديثه بانه قادر على سلب الملك من يد التعايشي
ولولا لم تقم له قائمة فسمى به الى التعايشي وبعد وصوله القضايف نظمت فيه
السماية وارتاب التعايشي فى أمره ونمي اليه انه طامح للاستقلال فارسلا
اليه يستقدمه فقدم عليه وخرج للقائه وبالغ فى الاحتفاء به حتى انه تنازل
الى معانقه وهي حفاوة لم يسبق من التعايشي مثلها وبعد بضعة أيام اجتمع فى
منزل يعقوب جماعة من مشيريه أحدهم القاضى أحمد بن على وانفتوا على
طريقة القبض على الزاكي فاستدعوه من منزله وجلس يعقوب داخل ثلاثة
أبواب فلما دخل الزاكي الباب الاول حجبوا عنه الحراس فدخل بالحراس
ثم قابله القاضى أحمد وجلس معه داخل الباب الثانى ثم فارقه حيث ولج الباب
الثالث الذى فى داخله يعقوب فجاء اليه جماعة بصفة رجال من حراس يعقوب وجثوا
على ركبهم امام الزاكي ومد أحدهم يديه مسلما عليه فدفع له يده ليقبلها فأسكها

ووثب الآخرون وأمسكوا سيفه ثم صرعه وغلوا يديه فأخذ يصبح مستغيثا
يعقوب الذي أمر بإرساله إلى السجن فوضعوا في رجليه عشرة قيود
وجنزيرا كبيرا ومكث ثلاث ليال مع سائر المسجونين ثم عزل إلى غرفة في
السجن تسمى (غرفة الاعدام) فأجلسوه في وسطها وشبحوه بالأغلال
حتى كان لا يتمكن من التزحزح عن مقعده يمنة أو يسرة وربطوا إكمام ملابسه
وصار اثنان من السجنائين يذهبان إلى الخربات ويلتقطان المقارب ويدخلانها
داخل ملابسه وقد منع عنه الغذاء والماء فكث أربع ليال يصبح صياحا يفتت
الجمادات حتى ضعفت قوته ومات في منتصف الليلة الخامسة وحملت
جثته وأقيمت خارج البلد غذاء للطيور والكلاب وعين أحمد علي التماشي
قائدا للجيش بدله وخلق بكسلا بعد أن تلقى أوامر التماشي بالهجوم على
الإيطاليين وسيأتي ذكر هزيمة الدراويش من وجه الإيطاليين

ذكر قتل صالح حسين خليفه

تقدم لنا إيراد شيء عن قبيلة (العبادة) والمناظرات الشريفة التي بين
(المشاباب) و(المليكاب) وقد أوردنا أن المشاباب نالوا إرهابهم من المليكاب
في دولة التماشي وتمكنوا من الإيقاع بحسن أبي خليفه الذي كان معسكرا
في نقطة آبار (المرات) بجيش من قبل التماشي
ولما قبض التماشي على حسن أبي خليفه ونفاه إلى خط الاستواء كما مر
ذلك احتل ابن عمه صالح بن حسين خليفه تلك النقطة برجال من قبيلته
(المليكاب) الذين كانت الحكومة المصرية تدفع لكل رجل منهم رواتب
من جنبيه لاثني فآخذوا يغيرون على حدود المهديين وقد ذكرنا فيما مضى

إغارهم على (أبو حمد) وقتلهم ابن نيمان قاتل الكولونل ستيوارت قبل
سقوط الخرطوم

وفي أوائل سنة ١٣١٠ هجرت شردمة بن الدراويش على ضابط انكليزي
برتبة بكباشي وآخرين في جهة وادي حلفا وقتلوهم غرة وحملا ورؤسهم الى التعاشي
وقدم صالح خليفة ومن معه بالسبل وقبضوا على كثير من جواسيس
المهدوية الذين هم من مناظرهم (العشاب) ومن بينهم رجل اسمه كرار
ابن بشير كرار رئيس حملة بريد التعاشي وأسلموه للحكومة فأودعته
سجن اسوان ولم تطلقه الا بعد ان كلما في شأنه بشير ابو جبران شيخ قبيلة
العشاب فماد الرجل الى أم درمان وأخبر التعاشي بما يقاسيه جواسيسه من
تضييق صالح خليفه عليهم وقطعه السبل عليهم فسأله التعاشي عن عدد المقاتلة
الذين معه فأجابه بأنهم لا يتجاوزون لما تين فأرسل التعاشي الى يونس الديكيم
أمير دنقله يأمره بانفاذ خمسمائة راكب من (المرات) تحت قيادة عثمان ازرق
لل هجوم على صالح خليفه فانفذهم وفي صباح بعض الايام هجموا عليه ونشبت
الحرب بينهم فقتل صالح خليفة وحمات أسلابه الي التعاشي الذي خطب
في الناس بأن الله تعالي قد أهلك صالح بن خليفه وتسله بيد أنصار المهدوية
شر قتلة

ذ كر واقعة (غوردت) بين الايطاليين والمهديين

لما وصل أحمد على الذي خلف الزاكي طمل في القيادة الى كسله سار
بجيشه وكان نحو عشرين الف مقاتل واغار على حدود الايطاليين وأثنخ
في القبائل الموالية للحكومة الايطالية واستولى على أحد الحصون وفر من

وجبه الايطاليون خدعة ثم كروا عليه وهاجموه على غرة فسقط أكثر من
اثنى عشر الف قتيل من الدراويش وقتل أحمد علي ومن معه من القواد
ولم ينج غير النور عقرة أحد القواد ومعه نحو ستة آلاف مقاتل ولو امدعوربن
حتى وصلوا الى كسله وأرسلوا يخبرون التماشي بأمر الهزيمة التي ساء وقعها
عنده وجزع جزعا شديدا حيث لم يبق عنده جيش يعول عليه غير جيش
محمود الذي هزم في واقعة ابره

ذكر احتلال الايطاليين كسله

ذكرنا ما كان من أمر كسله وسقوطها في قبضة المهدي وبين الذين نفتت
القبائل حولهم في بادي لامر عددا القبائل التي كانت قاطنة بالرب من
نهر مصوع فانها بقت على ولاء الحكومة حتى احتل الايطاليون نهر مصوع
وأشهرهاته القبائل قبيلتنا (بنى عامر و١١ باب)

وكانت كسلة تابعة لامارة عمان دقنة الذي لم يمض على سقوط للمدينة
في قبضته الاعام واحد نفرت في خلاله القبائل عنه واشتدت وطأته عليهم
فلجأ إليها الى ارباض مصوع واحتموا بالايطاليين

وكان الحاكم على كسله من قبل عمان دقنه محمد بن علي دقنة وهو ابن
اخى عمان دقنه وفي أيامه نارت قبيلة الهدندوه عليه لانه سجن زعيمها
وهجمت على السجن وأطلقت من اعتقاله

وعقب ذلك ولي التماشي ابانرجة وعزل عمان دقنه عن منصب الامارة
كما مر ثم عزل ابانرجة أيضا وفصل حكومة كسله عن إمارة السودان
الشرقي وولى عليها حامد بن علي أحد أقاربه البقارة فعمها الظلم والدمار

وهاكت قبيلة الهدندوه التي كان عدد نفوسها تربو على مليون نسمة كما هلك غيرها من القبائل التي لا يقل مجموع نفوسها عن مليوني نسمة وحمل حامد بن علي القاطير المنطرة من الذهب والنفضة الى التمايشي وأخيه بيتوب

وفي سنة ١٣٠٩ عزل التمايشي حامد بن علي وولي عليها مساعد بن قيدوم الذي كان في دنقده مع ابن النجومي وقد ذكرنا بعض أخباره ضمن حوادتها التي تقدم إيرادها

ثم تلا ذلك الواقعة التي قتل فيها أحمد بن علي وهلك معه أسنا عشر ألفا من الدراويش

وكان مع مساعد في حامية كسله عبد الرحمن بن بان النقا الذي كان مع الجنرال هيكرس وقد ذكرنا بعض أخباره هناك وأنه أصابه ضربة سيف فقات عينه فأخبر عبد الرحمن هذا مساعد بأن الإيطاليين اقتربوا من المدينة فهزأ بقوله ولم يأخذ لنفسه حيلة حتى ارتفعت الشمس فاذا الإيطاليون زاحفون على المدينة بانتظام حيث كانت القوة مشككة من قلب وجناحين فاندعر مساعد ومن معه من الدراويش وأسرعوا بالفرار وتركوا نساءهم في المعسكر الذي دخله الإيطاليون ووضعوا السيف في رقاب من فيه وأحرقوا الاكواخ بالبترول والنار

وتخلف عن الدراويش كثير من أسري المصريين وكذلك تخلف في المعسكر عبد الرحمن بن بان النقا الآنف الذكر فاصابته رصاصة أودت بحياته ويقال انه كان يرسل الإيطاليين ويظلمهم على عورات الدراويش هذا ما كان من أمر الإيطاليين أما مساعد ومن معه من الفارين فانهم لحقوا بمكان اسمه (اصوري) في الضفة الاخرى من نهر اتره وعلى

بعد نحو ست مراحل من كسله وهناك أرسلوا يبلغون التمايشي الذي كاد يفقد صوابه لشدة الفزع ماجرى فأرسل الى بان النقا والد عبد الرحمن يخبره أن ابنه مات كافراً لأن مساعدا لم يجد عذراً يمتد به عند التمايشي غير اخباره بان عبد الرحمن كان يطلع المدو على عورات المعسكر ويرفع اليه أخباره واخيراً قدم مساعدا الى أم درمان فتوبل من البقارة والتمايشي بالازدراء والاحتقار لفراره من وجه المدو ولكن التمايشي أصدر منشوراً قال فيه ان المهدي أخبره بامر هذه الواقعة وان مساعدا شجاع وليس جباناً ونهى الناس عن تحقيره وتعميره

وقد استولى الخوف والرعب على قلب التمايشي وخاف تقدم الايطاليين الى جهات القضايف فامر باقامة معسكر في جهة (اصوبري) على ضفة نهر اتيه

ذكر معسكر اصوبري واخبار حامد علي واحمد فضيل (اصوبري) اسم لمكان على نهر اتيه لم يكن حوله عمران ولا بلاد وغاية الامر انه علم على جهة صحراء (ريه) التي كانت قبيلة الشكرية البائدة ضاربة أطناها في ارجائها وهي صحراء واقمة بين النيل الازرق ونهر اتيه ولما خلت الصحراء من أعصاب الشكرية باتت اصوبري وغيرها قفرا بلقما ليس فيها دار ولا ديار غير وخوش الفلاة وحيوانات القفار ولما نهزم الدراويش وأجلوا عن كسله لحق الفارون بجهة اصوبري حيث اجتازوا النهر وصاروا آمنين غارة الايطاليين الذين كانت طلائعهم تصل الى الضفة الشرقية من نهر اتيه الذي صار حداً فاصلاً بين العثتين

وبعد ان جاءت اخبار الايطاليين الى أم درمان بايام جمع التعايشي رؤساء قبيلتي (الجمليين) والدنقليين وجعلهم من التجار وأولى اليسار وخاطبهم في المسجد «قائلا انكم انصار الدين واصحاب المهدي الاقدمون وقد توفى المهدي وهو عنكم راض وقد علمتم امر الايطاليين وأنهم قد أخذوا كسله منا ونحن نود منكم ان تكفونا ما اهننا من أمرهم وقد جعلت لكم ميزة على غيركم وذلك اني تركت لكم الخيار في من رضونه أن يكون قائداً عاماً عليكم وانكم لا تجهلون ما فيه بيت المال من العسر وأنتم بحمد الله موسرون فعليكم أيضا أن تقوموا بنفقة سفركم من خاصة أموالكم» وأعقب ذلك بكلام طويل في مدح المجاهدين بأموالهم وأنفسهم واستشهد بالآيات الشريفة الآمرة بالمادحة للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم فقام جماعة منهم وقالوا لا نرى أهلاً لهذا المنصب غير حامد بن علي الذي كان أميراً على كسله وهو أخو أحمد بن علي الذي مات قتيلاً في واقعة اتره فاندھشنا من كلام هؤلاء الذين لم يروا أهلاً للرئاسة عليهم غير بقاري واكنا ما لبثنا أن علمنا انهم موعن اليهم بهذا الاختيار لانه لا يمكن أن يولي الرئاسة في دولة التعايشي غير البقارة . فاستدعي حامد بن علي وصدر نطق التعايشي الذي كانوا يسمونه ابان دولته باسم (النطق الشريف) كما كانوا يسمون بابه باسم (الباب العالي) بتعيين حامد على قائداً على الجمليين والدنقليين ومرابطاً في ممسكر أصوبري

هذا وقد كنا نظن أن التعايشي يروم أن يرمي الايطاليين من هذا الجيش المرمر بما لا قبل لهم به ولم يكن يدور في خلدنا أن غاية الاستفادة من ثروة الجمليين والدنقليين وجعلهم كما قلنا من التجار وأولى اليسار فقد أصدر أمراً خفواه النفويض لحامد بن علي في إشخاص من يري إشخاصه وترك من يري تركه

من الرؤساء والمرؤسين من الاجناد والمقاتلة قبل الناس الى داره يقدمون له
الرشا على تركهم فكانت الرشوة عن كل شخص خمماية ريال فصاعدا
كل بحسب ثروته وما يملكه من المال اغتتم حامد بن علي القناطير المقنطرة
من الذهب وانفضضة وقد كان للتمايشي وأخيه يعقوب النصيب الاوفر
من هذه الغنيمة

وبعد أن فرغ حامد بن علي من أخذ الرشا سار في بضمة آلاف
الى أصوبري وجعل معسكره على ضفة نهر (اتبره) وأقام الناس وهم في حالة
ضنك شديد لان ما حوالى اتبره لم يكن مأمولاً بغير الاعراب الرحالة الذين
بادوا وختل الديار منهم منذ أعوام وكذلك كان من في الممسكر في شظف من
الميدش تجلب لهم الجبوب من القضارف التي تبعد عنهم بمسيرة عشر مراحل
ودواب النقل قليلة جداً وليس في الممسكر شيء من الحضر وقس على ذلك
سائر حاجيات الافرنج وشاة حامد داراً واسعة لسكناه وقصره على
مصادرة أموال من معه من المقاتلة واغتصاب نساءهم حتى جمع في داره من
المحظيات اللواتي تضرب الامثال بجمالهن اكثر من عشرين محظية ونحو أربع مائة
غلام لا تتجاوز أعمارهم خمسة عشر عاماً ناشد البلاء على الذين معه من
القواد وعيل صبرهم وأخذوا في رفع الشكاوى تباعاً الى التمايشي يوضحون
بها سوء سلوك حامد المذكور ويخبرونه بأن ممسكرهم لا أهمية له وأن
الايطاليين لا يتقدمون خارج كسله

وكان في القضارف أحمد بن فضيل البقاري ابن عمه التمايشي أميراً من
قبله عليها فكتب اليه يأمره بالاشخوص من القضارف الي معسكر أصوبري
لتحقيق شكاوى الامراء من حامد بن علي فشخص الي أصوبري وقدم له

الامراء أموالا طائلة ليدعي في خلاصهم من ظلم حامد بن علي أولا ومن
معسكر اصوبري ثانياً فأمرهم بتدوين مطالبهم في عريضة يقدمونها له فعملوا
وكتب الى التمايشي يسأله اجابة التماسهم فاصدر امره الى احمد بن فضيل بمصادرة
أموال حامد بن علي والغاء معسكر اصوبري واضافة مقاتلته على القصارف
فتناول احمد بن فضيل أموالا طائلة من حامد وأرسلها الى التمايشي وقفل
راجعاً الى القصارف ومن يومئذ أنى معسكر اصوبري

اجمال حال السودان بعد ذلك

رأيت من مفصلات ما سردناه أن حالة المهديوية تبدلت تبديلاً عظيماً
وتوالى عليها الفشل في أماكن متعددة وبالجملة فإنها لم تقم لها قائمة منذ سنة
١٣٠٦ ولم تجني ثمرة انتصار في ميدان قتال بعد نصرتها على أبي حمزة في
دارفور ونجاشي الحبشة يوحنا في (القلابات) وكلا الانتصارين كانا في سنة ١٣٠٦
ثم تلت ذلك الفتن الداخلية والاضطرابات الاهلية كالتفويض الخليفة
الشريف وغيره ممن بينا لك حوادثهم واستقصينا فيما تقدم اخبارهم
وقد اضربنا عن ذكر كثير من سفاسف الامور فراراً من التطويل
ولانها كثيرة تحتاج الى مجلدات ومنها اخبار الذين حاولوا قتل التمايشي الذي
صار لاهم له غير المحافظة على حياته ودفن من يريدون به السوء ولذلك زاد
في عداد حراسه حتى بلغوا ثلاثين ألف مقاتل فكان اذا خرج من منزله الى
المسجد احاط به عشرون ألفاً مدججون بالاسلح ثم يحيطون بالمقصورة بعد
دخوله فيها فلا يستطيع أحد الدنو منها
أما هو فقد انغمس في ملاذة أكثر من ذي قبل وضحخم جسمه حتى

صار أضعاف ما كان عليه قبل ذلك

أما الأهلون فقد فقدوا كل شيء ولم يبق بأيديهم من وسائل الحياة سوى بعض الأراضى التى يستغلون منها الحاصلات التى يأخذ بيت المال نحو ثلاثة أرباعها

وكثر النفي والقتل فى الأعيان لآبى غير انتقاض الخليفة شريف ومن الذين نفوا وقتلوا فى منفاهم اسماعيل بن عبد القادر ابن أخت الشيخ المكي وكان فقيهاً أزهرياً اجتمع بالمهدى فى الأبيض واشتغل عدة سنوات بكتابة سيرة المهدي وتدوين وقائع المهديّة وفي أخريات أيامه صار من مقرري التعايشى فوثبى به حساده بأنه يمتد اجتماعاً سريراً ضد المهديّة فنفى الى خط الاستواء وقتل فى منفاه

وأصدر التعايشى أمراً قال فيه ان كل رجلين اجتمعا بعد صلاة العشاء خارج المسجد يمد اجتماعهما لغاية هى الانتقاض كما أصدر أمراً بإبطال المنتديات العمومية (القهاوى) لان أكثر الذين يدبرونها مصريون ولان الذين يجلسون فيها لشرب القهوة يتكلمون فى أشياء تمس المهديّة وهذا كله كما لا يخفى خوف من الاجتماعات التى ربما اتفق المجتمعون فيها على خلع طاعة التعايشى وقد تغيرت حالة المال والجباة الذين سبق لنا الكلام عنهم حيث عين التعايشى أحمد السني جاباً عاماً على أقسام الجزيرة وألزمه بتقديم مائتى ألف ريال الى أخيه يعقوب وثمانين ألف أردب من الذرة ومائة ألف ثوب من خرقة (الدمور) وهذا عدا الهدايا والتحف والجوارى الحسان والحبول

وعلى ذكر أحمد السني نورد هنا ترجمته فنقول هو من عشيرة صغيرة تنسب

الى رجل اسمه مدني السني وأصله من عشيرة (البصيلية) في جنوب مقاطعة
قنا سكن هذا الرجل في قرية بين الخرطوم وسنار يطلق عليها اسم (ودمدني)
ثم مصرتها الحكومة ابان الفتح الاول وجمعتها قاعدة حكومة السودان وكان
المرجع من رعاغ وأوفاد هذه العشيرة وكان يرعي غنم المرحوم الشيخ محمد
بخت الجمل سر تجار تلك المدينة

ولما خضع السودان للمهدوية وصار ابراهيم عدلان الذي تقدم لنا
ذكر تعيينه أمينا لبيت مالها وكانت أمه من هذه العشيرة لحق به المترجم فلم
يزال ابراهيم يرفعه رعاية لحقوقي القرابة حتي صار رئيسا لقلم مبيعات بيت
المال فكان جزاء ابراهيم أن أحمد السني هذا صار من ألد أعدائه الذين وشوا
به عند التمايشي وكانوا السبب الاقوي في الايقاع به كما ألمعنا الى ذلك فيما
تقدم من هذا الكتاب

وبسبب وشاية هذا الوضيع بمن أحسن اليه ورفعه من حضيض
الخلول الى ذروة العلي التي صار بها ذا حيثية في الوجود رفعه التمايشي حيث
آنس منه لؤما ودناءة هو في حاجة الى استخدامهما للنهب والسلب وأكل
أموال الناس بالباطل فولاه على الجزيرة كلها فارهق أهلها ظلما يمجز عن
وصفه القلم وسلب ما بقى في يد الاهالي من الثروة ووسائل الحياة وجمع
لنفسه أموالا طائلة تقدر بمئات الالوف

والحاصل أن حالة السودان في هذه السنة أي سنة ١٣١١ هجرية
كانت تفتت الاكباد وتندر بسوء المصير ولاغربة فان الظلم مدمر لكل عمران



ذكر قراءة الناس بالالواح

كان التمايشي أميا يجهل الكتابة والقراءة وكان اذا أم الناس في الصلاة الجهرية يسر في القراءة حتى لا يسمع من وراءه قراءته التي يرجح الا كثرون انها لم تكن قرآنا لانه فضلا عن جهله المركب كان بليد الفهم حتى قيل ان الذي أقرأه فاتحة الكتاب نضي معه مدة في سبيل تلقينه اياها وفي سنة ١٣١١ شرع في قراءة السور الصغيرة من القرآن الشريف وخطب في الناس قائلا يجب على كل فرد من أفرادكم صغيرا كان أو كبيرا أن يحضر بعد ثلاث ليال لوحا من الخشب ويبتديء في كتابة القرآن كما يفعل صبية المكاتب فاجابه أحدهم بأن كثيرا من الناس يحفظون القرآن عن ظهر قلبهم ومنهم العلماء والفقهاء فالاولى أن تكون القراءة الزامية بالنسبة للاميين والذين لا يحفظون القرآن فاجابه التمايشي بان حفظه القرآن والعلماء والفقهاء لا تنفعهم معرفتهم ولا تنفي عنهم شيئا الا اذا امتثلوا ما أشرت به عليهم فاجابوا بالسمع والطاعة وانصرفوا الى حوانيت النجارين لصناعة الالواح فارتفعت أثمان الالواح وكان الفائز من يتحصل على لوحه قبل الميعاد المضروب لكي لا يصبح تحت طائلة العقوبة

وبعد ثلاثة أيام أحضر جل الناس الالواح فلما رآهم رقى منبر الخطابة وقال لهم هيا ابدأوا بقراءة القرآن من اوله وعلى كل أمير أن يجمع آعاه في المسجد بعد غروب الشمس ويودع بارا من الخطب يحيط بها الناس ويقرؤن ألواحهم على ضوءها حيث يصير الأمير كفقهاء يعلم الصبيان فينتهر هذا ويزجر ذلك وهكذا ثم يمر التمايشي متفقدًا تلك الحلقات كأستاذ أكبر ويقف على كل حلقة

ويهدى ما يعين له من الانتقاد فانظروا الى هذه السخافة فكأن هذا الطاغية
 الفشوم لم يكف بما صار له من السلطان على الناس يحكم فيهم كيف شاء
 حتي أراد ان يجعل نفسه معلم صبيان ويجعل شعبه كأطفال يتعلمون
 على أنه ربما كان الباعث له على هذا الأمر هو أن والده (التمايشي) كان
 يعلم الصبية القرآن وقد كانت نفسه قبل نيله الملك تتوق لأن يكون معلم
 صبيان كآبيه وكان بينه وبين تلك الامنية صعوبة تعلمه القراءة والكتابة فلما قدر
 له أن يكون ملكا رأي أن يقضي وطره من تلك الامنية التي كان دون وصوله
 اليها خرب القواد هذا ما يمكنني ان ابرر به سخافة ذلك الظالم ان كان تمت ما يبرر
 السخافة والا فالناس كاهم كانوا في حيرة لا يفتنون معبالي الباعث له الي
 هذا الأمر

والحاصل أن الناس ظلوا أكثر من عامين حاكفين على القراءة في المسجد
 والتمايشي بتلذذ بالتبخر حولهم وتمتد حلتاتهم التي كانوا يتكوفون فيها
 ويرفمون أصواتهم بالقراءة

ولسنا ندري بعد ذلك هل زالت عنه بلادة الفهم ووفق الى حفظ بضع سور
 من القرآن الشريف فانه استمر على القراءة سرا سرا كانت الصلاة مما يسرفي
 قراءتها أو يجهر فيها وكان يحمل لوحا مثل بقية الناس يخرج به من منزله ويعود
 به وكان من جملة ما أمر به أن يحمل أيابها وانابت من التجار والصناع الواحا
 تكون معهم مسدة العمل وبعد غروب الشمس يحملونها الى المسجد ينضموا
 الي الحلقات التابعة لها حتي ارتفعت أصوات الناس بالندصر والشكوى وبعد
 أكثر من عامين أصدر أمره بمعاقتهم من اقراءة فتركوها وهم فرحون

ذكر بقية اخبار سلاطين باشا وشراره

وعدت بذكر بقية اخبار سلاطين باشا التي وفقت فيها عند ذكر سجنه لما وقعت عليه تهمة مخاربة المأسوف عليه غردون باشا واقول الآن انه ظل مسجوناً الى ما بعد سقوط الخرطوم حيث أطلقه التمايشي من السجن وأمره بالازمة بابه مع شرفة من حراسه يطاق عليهم اسم (اللازمة) فظل مقبلاً هكذا وشاد لنفسه داراً بالقرب من منزل يعقوب أخي التمايشي وكان يقضى معظم ليله ونهاره في باب التمايشي رافعاً صوته بالتهليل وكان صوته أشبه بنغمات الأفرنج وكان عنده من الخيل حصان يركبه كلما ركب التمايشي وكان في بيته جوارح خدمته أهداهن له التمايشي وعن رقيات عليه وكان يلبس الملابس الرثة اظهاراً لازهد وتمويهاً على اجتناب الرفاهية وكان يمضي في أكثر الأحيان حافياً وكان له حذاء من نوع النمل الذي يقال له (شقبانه) واذا ركب جواده في موكب التمايشي تميم بعامة حمراء وتمنطق بمنطقة حمراء مثل سائر الفرسان وفي بعض الاوقات يحمل بندقية من طرز رامنجنون من النوع المخصص للفرسان وكان شديد الحدروالتيقظ فلا يظهر ماتكنه نفسه من المقاصد وله أصدقاء كثيرون منهم من لا يصدق بدعوى المهذوية أصلاً وهؤلاء لا يجترس من التصريح لهم بما يوافق مشربهم وله أصدقاء أيضاً من الذين يصدقون بدعوى المهذوية لكنهم ينتمون على التمايشي ويودون أن يكون سيره مطابقاً للمدالة التي تكفل عمران البلاد وتنظيم الحالة وهؤلاء يظهر لهم انه من الذين من الله عليهم بالهداية الى الاسلام وانه يود من صميم فؤاده ان تصبح دولة المهذوية من أرقى دول الارض ويتخفهم بكثير من اخبار تقدم الممالك وما

يلزم له من ضمانه العدالة والمساواة اللتين هما اس العمران وله اصدقاء غير هؤلاء واولئك وهم البقارة والذين معه في ملازمة باب التمايشي وهؤلاء يظهر لهم في كل لحظة وحين انه من اخلص الخالصين للتمايشي وربما ألقى عليهم من المواعظ ما يزيدهم تمسكا بولاء التمايشي حيث يقول لهم ان لاسلامه للانسان في الدنيا والاخرة بغير ان يكون طائعا لحليفة المهدي في كل ما يأسر به

والخلاصة انه صار ذا صداقة مع جل الناس ومع ذلك كله لا تجرد منهم من لا يحترمه ويشهد له بالعقل والدهاء
وأما علاقته مع قلم المخبرات في مصر فبالطبع انه كان يكتبها كل الكتمان ولكن يظهر انه كان ذا علاقات كثيرة معه اذ كان يوافيه ببعض الانباء مع حذر وتيقظ

هذا بمجل حال سلاطين باشا وفي اواخر سنة ١٣٠٣ كان التمايشي انفذه بمأوزية الي يونس الديكيم لما كان مسكرا في (ود العباس) فناد منها ويقال انه قدم للتمايشي نصائح عديدة كان البعض يظن وقوعها موقع القبول عند التمايشي فخابت ظنونهم

وأما فراره فقد تم الاتفاق عليه بين قلم المخبرات وشخص يدعى (احمد الفحل) احد أفراد قبيلة الجملين وكان علي ما بلغني جاسوسا لقلم المخبرات براتب قدره عشر جنيهات وكان يتستر بالتجارة في ذهابه وايابه الي مصر وكذلك يوجد شخص آخر اسمه (الصادق بن عثمان) كان يعاون أحمد الفحل لانجاز هذه المهمة فقدم الشخصان أم درمان وخبأ الآجال وادلاء الطريق خارج ام درمان واخبراه بالامر فلم يربدا من الفرار لانه أصبح في خطر من

التعاشي بسبب ان بعض التجار جاء باعداد من احدي الجرائد المصرية وفيها من الاخبار ان الحكومة باذلة جهدها لانتقاذ سلاطين باشا وان الجائزة التي كانت مجبولة لمن يتقدم ضوعف مقدارها فاشترى سلاطين باشا احدي تلك النسخ بمبلغ من الريالات ثم علم بوجود غيرها وانه لاسبيل الى شرائها بغير مبالغ عظيمة وذلك من جملة الاسباب التي جرته على المخاطرة بحياته في سبيل الفرار كما قيل

اذا لم يكن غير الاسنة مركبا فلا يسع المضطر الا ركوبها
وكان التعاشي وقتئذ ملازما داره لانحراف طرأ على صحته فاغتم سلاطين باشا الفرصة وغادر ام درمان فارا الى اصوان حتى بلغها بعد جهد جهيد وبعد ما عين الهلاك بمينيه ولا فائدة لنا بعد ذلك في سرد ملاقاه في الطريق من الصوبات وما قاساه من فادح الاخطار لانه والحق يقال شجاع من الذين لا يبالون بالاخطار وذو ذكاء تضرب بحذقه الامثال على انه اذا كان الفضل لك تشتر باشا فيما أبداه من الحنكة والتدريب في فتح السودان وونجت باشا في ادارة المخبرات التي تتوقف عليها اسباب النجاح فان سلاطين باشا لا يصح أن يغفل ذكره كلما ذكر هذان القائدان اذ هو صاحب المعلومات التي كان الاثنان في حاجة لها في جميع أطوار الحملة. والحلاصة انه من الذين كانوا السبب الاكبر في انتقاذ بلاد السودان من ربة الظلم والاستبداد وسيدكر ما ذكر هذا الفتح المجيد والى الله عابدة كل شيء.

وأما التعاشي فلم يتصل به نبأ فرار سلاطين باشا الا بعد ايامين مضت على فراره فاحتدم غيظا واركب خلفه الركبان الذين رجحوا بغير أن يدركوا غباره وقد كان من شدة غضب التعاشي انه أمر بسجنى خوفا من فرارى كما سيحكي.

ذكر لك مفصلاً فيما يأتي وكما سيجيء ذكر القبض على اللذين دبرا له الفرار
وهما أحمد الفحل والصادق عثمان

ذكر نفي أحمد الفحل والذين ساعدوه علي فرار سلاطين باشا
قلت ان أحمد بن الفحل كان جاسوساً لقلم الخبارات المصرية يتناول
راتباً قدره عشرة جنيهات ورفيقه الصادق بن عثمان كان كذلك لكنني لأعرف
مقدار الراتب الذي كان يتناوله على الجاسوسية

وأحمد الفحل هذا من قبيلة صغيرة من الجميلين تسكن قرية اسمها
(الغلاب) في الضفة الغربية للنيل وعلى بعد بضعة أميال جنوب بربر وأما
الصادق عثمان فانه كان من أهالي بربر وكان من جنود الحكومة (الباشبوزق)
ثم ترك الجندية وصار يتجر بالسلع ظاهراً وبالجاسوسية باطناً

ولما عقدا الاتفاق مع قلم الخبارات الذي لا بد أن يكون نفعهما شيئاً من
المال يستعينان به على اتباع الجمال وشراء الدواب واستئجار الادلاء غادرا
القاهرة ولحقا بربر ويظهر أنهما كانا ذير مبالغين بما عقدا النية على انفاذه
حيث أخذوا في شراء الجمال بنفسهما ومعهما الادلاء وهما في بربر وقد كنت في
حيرة عس على الاهتمام معها الى الاسباب التي ملات قلوبهما جرأة حتي
صارا في حركة كانت سببا في وقوعهما في برائن التعايشي حتى نقل الي بعضهم
أن أحمد الفحل قدم رشوة من المال الي الزاكي عثمان أمير بربر يومئذ وأطاعه
على ما ينويه فوعده بالكف عن عرقته حتي صار يباشر شراء الجمال غير خائف
ولا متهمب حتي أن التعايشي لم يستدل علي الذين هربوا سلاطين باشا الامن
احد أهالي بربر كما تراه مبسوطاً في هذا الباب ويظهر جلياً للمتأمل صحة هذا

القول ولو لم يكن كذلك لما خفي على الزاكي ما يحاوله أحمد الفحل ولا استطاع أن يقبض على سلاطين باشا قبل مغادرتهم قرية الفحل وقد نقل الى مخبري أيضاً أن أحد الجواسيس أخبره بأن سلاطين باشا لما بلغ قرية الفحل ذهب وأخبر الزاكي بمكمنه فأمر بإيداعه السجن لكيلا يذاع الخبر وبعد بضعة ليال أطلقه بعد أن أمره بكتمان هذا الأمر

والخلاصة اني أرجح اشتراك الزاكي في مسألة هرب سلاطين باشا وأنه تناول رشوة إذ كان أحمد الفحل صديقاً حميماً له ومقرباً عنده. والحاصل أن أحمد الفحل ورفيقه لما غادرا بربر ولحقا بأمر درمان وأوعزا الي سلاطين بالهرب وظل التمايشي في حيرة لا يعرف معها من ساعدته علي الهرب قدم عليه عبد الماجد بن الحاج محمد وهو ابن أخي محمد الخير الذي كان داعية المهدي في بربر فأخبره أنه رأي أحمد الفحل ورفيقه الصادق عثمان ومعهما دليل يتعاون الجمال في بربر فأرسل التمايشي العوض المرضي أمين بيت المال الى أحمد الفحل فاستدعاه اليه وقال له اننا نريد منك أن تجلب لنا موسيقي من القاهرة فتمال لهم نعم أنه هد لهم باحضارها وبينما هو في الكلام اذ هجم عليه البييد وقبضوا عليه وأوثقوه كتافاً ثم زجوه في السجن وكذلك قبض على رفيقه الصادق عثمان وعلى شخص آخر يدعي ابن أبي بشر اتهم بانه كان يمينهما ثم أرسل التمايشي الي بربر فقبضوا على الدليل الذي رآه معهم وهو عبد المساجد الآنف الذكر ولما أوقف الدليل بين يدي التمايشي خاطبه قائلاً اذا صدقتني الخبر فانت آمن علي نفسك ومالك فاجابه قائلاً ان أحمد بن الفحل والصادق عثمان استأجرا من بربر وجاءا بي مع الجمال التي اشتريها منها وتركتني في سفح جبل (كرري) ثم أتيتني في يوم كذا بنصراني بهتور الاصمعي الوسطى وقالوا

لى أوصله قرية (الفحلاب) وسلمه الى أخوة أحمد الفحل فذهبت
وأوصاته لهم ثم لا أعلم ماذا صار فامر به الى السجن وبعد أيام أطلقه ولم
يصبه بسوء إذ تحقق صدقه ثم أرسل فقبض على أخوة أحمد بن الفحل
الثلاثة وأودعوا السجن وبعد أن مضى عليهم شهران فى السجن سجنوا فى
خلالها معهم كما ذكر ذلك فى مكانه فاشعرت الاونحو خمسين عبدآ من حراس
يعقوب دخلوا السجن وبايديهم السياط فاخرجوا أحمد الفحل والصادق عثمان
وابن أبى بشر واخوة أحمد الفحل الثلاثة ونزعوا ثيابهم عنهم وقرنوهم فى
الاصفاد وأخذوا يضربونهم بالسياط حتى تمزقت جلودهم وسالت الدماء منهم
وكانت احدى البواخر راسية على ضفة نهر فسبوا اليها وهى على وشك
السفر الى خط الاستواء ولما وصل هؤلاء المسجونون الى ضفة النهر أغمى
عليهم من شدة الضرب فكان الحراس يحملونهم كما يحمل المتاع ويلقونهم
فى عنابر الباخرة فكنت تسمع مصادمة اجسامهم مع جسم قاع الباخرة
كانهم من نوع المتاع ثم اقلعت بهم الباخرة الى خط الاستواء وهناك لقوا حتفهم
فهؤلاء هم الذين ذهبوا ضحية سلاطين باشا وانا سابعهم لكننى ولله الحمد
نجوت بعد عذاب قاسية خمس سنوات فى السجن كما سيأتى ذكر ذلك

ذكر سجن ابراهيم حمزة وجماعة من اعيان بربر

ابراهيم حمزة عميد قبيلة فى بربر اسمها (الانقرياب) ولما وصلت دعوة
المهدي الى بربر نفر عنها ابراهيم وقومه وبقى على ولاء الحكومة حتى اكره على
الخنوع للمهدوية وهو كريم جواد ذو أيد بيضاء على جل اسرى المصريين
وذو سعة وسيجيء فى اخبار سجن المؤان ذكر كثير من شمائله الفراء

ولما فر سلاطين باشا كما تقدم وبلغ قرية (الفحلاب) ذهب مخبر الي
 ابراهيم حمزة هـ ا وأعلمه بممكن سلاطين فامتنع من القبض عليه وبحث اليه
 من حذره وامره بسرعة الرميل وأوصي نومه بعدم التعرض له وتظاهر
 بعدم العلم بامرہ فاتصل ذلك بالتمايشى فارسى يستقدم ابراهيم وبعض أقاربه
 ومنهم ابن عمه محمد الشايقى وكذلك استقدم منصوراً ومحمداً ابني العجمي وهما
 عميدا عشيرة في بربر أيضاً

ولما قدم ابراهيم جلس التمايشى مع التضاة واهل الشورى وادخل
 عليه فسأله قائلاً لماذا تركت سلاطين اجتاز بلادك فاجابه بأمولاي اني لم
 اعلم بامرہ وانه شيطان قد رعى الفرار من بابك وفتت من ايدي الالوف
 من حراسك فكيف لا يقدر على اجتياز بلادى التي هي فلاة مملوءة بالادغال
 والنباتات فاطرق التمايشى ثم امر بسجنه وابن عمه وكذلك ابني العجمي
 ووضع في رقبته كل منهم جنزيراً من الحديد وجملة من القيود فكثروا في السجن
 خمس سنوات حتى انقضى اللورد كتشنر يوم فتح ام درمان وسند ذكر بقية
 اخبارهم في السجن وما كان من احتفالهم بي فيه اذ لولا ما كان يبذلہ
 ابراهيم حمزة من المال في سبيل دفع اذى السجنين عنى لهلك جزاء الله
 عنى أحسن الجزاء

تمهيد في ذكر السجن ونظاماته واطلاق اسم

الساير على كل سجن

دلت مما تقدم كيف هرب سلاطين باشا الذي لم ألبث بهد فراره الا
 أياماً قلائل صار سجنى ثقبها حيث ظلمت في السجن خمس سنوات ثم أطلق

اعتقالي منه اللورد كيتشنر يوم دخل أم درمان
ولما كان جل ما يجيء ذكره في أخريات هذا الجزء من أخبار السجون
التي قاسيتها رأيت أن أقدم هذا التمهيد في ذكر نظمات السجون وترجمة السجون
المسمى (الساير) ادريس الذي اطلق اسم الساير على كل سجون من سجون
المهدوية وفي الانحاء الخاضعة لها لاجله فاقول أما ترجمة الساير المذكور فانه أعرابي
من قبيلة (الجمع) التي تسكن شرقي كردفان وقد تقدم لنا ذكر شيء من
عوائدها التي من جعلها ان الفتاة لا تتزوج الا بعد ان تلد بضعة أولاد من الزنا
ليدينوا اخاها ويطلق عليهم اسم (عينة خالهم) وكان الساير هذا من أكبر أشقياء
تلك القبيلة وكان رئيس عصابة تقطع الطرق بالذهب والاسباب
ولما ظهرت دعوة المهديوية في جبال قدير لحق بها الساير فقلده المهدي
وظيفة سجان ومن ثم اطلق على السجون اسم الساير
وأما أوصافه فانه كان ردة في الطول بدين الجسم ولونه نحاسي غامق ووجهه
عبوس وكان عيذه شعلة نار
وكان التمايش لا يدفع له مرتبا ولكنه ذو ثروة عظيمة تقدر بمئات الالوف
جمعها من الذين أوقفهم نكد الطالع بين يديه وسترى فيما يأتي أمثلة من ضروب
ابتزازة اموال المسجونين
وأما عوانه فمهم كثيرون وجلهم من المبيد (الجهادية) ورؤساؤهم من ذوى
قربته من قبيلة الجمع
وأما السجون نفسه فانه عبارة عن سور من اللبن الاخضر على أكمة
مرتفعة عند ضفة النهر وفي داخل السور العام عدة اوار ومبان سكنى
الخبراء وجلوس السجان

وأما غرف المسجونين فهي كثيرة منها ما هو مشيد بالحجارة وجلها ليس له نوافذ لتبديل الهواء ويوجد من الغرف ما يطلق عليهما اسم (الاعدام) وعلى كل حال فإن السجن نوعان خفيف وثقيل أما الخفيف فهو عبارة عما يعامل به الذين يسجنهم القضاة بسبب الديون أو الحدود وغيرها وأما الثقيل فمخصوص بالذين يسجنهم التعاشي وهم في الغالب ذوو الجرائم السياسية وما يالحق بها وسترى فيما يأتي ذكر كثير من أخبار السجن وغرائبه والله الموفق

—————

ذكر سجن المؤلف

لما فر سلاطين باشا استدعى التعاشي القضاة وكثيراً من أهل شوره وجلس معهم وعدد لهم مآثاه مع سلاطين باشا من أنواع الاكرام وما غمره به من الاحسان ومع ذلك فقد كفر تلك النعماء وارتد عن الاسلام ولحق ببلاد الكفار فأجابوه بالاستغراب وقال له أحدهم انه لا أمان لمن كان وجهه أبيض خصوصاً اذا كان ذا وظيفة في الحكومة وقال له آخر ان سلاطين قد كان مضمر الكفر مظهرًا للاسلام والدليل على ذلك انه كان صديقاً حميماً لبراهيم فوزي (المؤلف) وكانا يجتمعان في منزليهما ويشربان الخمر ويدخنان التبناك ولا بد أن يكون ابراهيم فوزي ذا ضلع في مسألة فراره فقام ثالث وقال للتعاشي انك اذا لم تأمر بسجن ابراهيم فوزي فر ولحق بسلاطين لان سلاطين أصغر منزلة في الحكومة من ابراهيم فوزي اذ هو حائز رتبة (باشا) أما سلاطين فلم يكن حائزاً الا على رتبة (بك) فصادفت هذه الاقوال أذنا صاغية من التعاشي فأرسل أحد حراسه لاحتضاري

وبينما أنا في غفلة من هذا اذ فاجأني الطلب فارتعت له وأدركت ان
 المصير سيئ فحاولت اخفاء ما ألم بي فلم أفلح وذهبت وكأني أودع الحياة
 على أن ما قاله مشيرو السوء لم يكن له نصيب من الصحة اذ كنت
 لا أجتمع بسلاطين باشا الا نادراً وليس بيني وبينه غير مودة سطحية لانه
 كان يخاف علي من تهمة كهذه ولكن لا يعني حذر من قدر
 ولما دخلت على التعايشي ألقىته جالسا على عنقريب (سرير) وحوله
 القضاة والمشيرون جاثين على الارض كعادتهم وسيفه موضوع علي نخذه
 ممسكا بيمينه علي قبضته كأنه يريد أن يستله والغضب باد علي وجهه فخاطبني
 قائلا يا ابراهيم فوزي فقلت ليبيك يا خليفة المهدي عليه السلام فقال أين سلاطين
 صاحبك فقلت لا أعلم ياسيدي وأظن انه في منزله فانتهرني بصوت جهوري
 قائلا اذهب اليه وأحضره لي فمشيت بضع خطوات نحو الباب فقال لي
 يا ابراهيم فوزي فعدت اليه فقال ألم يكن عندك خبر بهروب سلاطين فقلت
 كلا فقال لي انه هرب فقلت بانه هاش (أهرب أهرب) فقال لي ماذا تقول
 في أمر هربه فقلت يا خليفة المهدي عليه السلام ان سلاطين نصراني ارتد
 عن الاسلام وعاد الي دينه النصرانية وقد أبعد الله عن التمتع بمشاهدة أنوار
 خليفة المهدي عليه السلام في الدنيا والآخرة ومع ذلك فانه لحق بمصر التي
 ينوي مولانا الزحف عليها في هذا العام ولا بد من وقوعه في قبضة المهدي
 ويدوق جزاء خيائته وفراره فأطرق التعايشي الي الارض هنيهة ثم رفع رأسه
 وألقى علي الاسئلة الآتية

س - هل كان سلاطين يدخن التبناك - ج - لا أعلم شيئا من هذا -
 س - هل كان سلاطين يشرب الخمر - ج - أستغفر الله يا خليفة المهدي عليه

السلام أنا أعتقد أن مدينتك طاهرة مطهرة من كل رجس وليس فيها خمر أو محرّم - س - هل كان سلاطين تاركا للصلوات الخمس - ج - ان سلاطين كان ملازمًا لخليفة المهدي عليه السلام في أوقات الصلوات الخمس وبدا لا يكون تاركا للصلاة وهذا ما نراه نحن بأعيننا أما البواطن وما تخفى الصدور فان عليها عند خليفة المهدي عليه السلام

وعند نهاية هذه الكلمة التفت التماشي لمن حوله وقال خذوا هذا (وأشار الي) الى السجن وكان ذلك آخر عهدى بمحادثته ورؤية وجهه فاجتذبنى أربعة من الحراس الى خارج الباب وهناك اجتمع على نحو خمسين منهم فاخذوا يضربونني حتى سال الدم من أنفى وجسمى ثم نزعوا عمامتى وشدوا بها وثاقى وساروا بي الى السجن والسياط تمزق جسمى فلم أقدر أن أمشى الا بعض خطوات ثم سقطت على وجهى وقد أغمى على فأمسكونى وأسندنى بعضهم والبعض الآخر يضربنى بالسياط حتى بلغت باب السجن فتلقتانى حراسه بالضرب بالسياط أيضا ووضعوا فى رجلى ستة قيود يربو وزنها على أربعين رطلا ووضعوا فى رقبتي غلا كبيرا (جنزيرا) وامسك الحراس عن ضربى بالسياط فالتفت اليهم وقلت اسقونى ماء فكان جوابهم الضرب بالسياط وقالوا الى مثلك لا يستحق شربة ماء ياعدو خليفة المهدي عليه السلام ثم أدخلونى السجن

اول ليلة في السجن واخبار اثنين يدعيان النبوة

كان وصولى الى دائرة السجن فى أصيل النهار وبعد وضع الحديد فى رجلى ادخلت الى أودة يطلق عليها اسم (أودة الحجر) لانها مشيدة

بالاحجار وليس فيها نوافذ غير الباب الذي يدخل منه وهي مظلمة جدا
 فدخلت وليس على جسمي من الملابس غير السراويل فوجدت فيها نحو مائتي
 مسجون وهي لاتسع أكثر من ربع هذا العدد فرأيت بينهم ثلاثة رجال
 بيض الوجوه يكادون لفرط ما هم فيه من العذاب مع طول مدة السجن أن يكونوا
 أشباحا بلا أرواح فدنوت منهم وجلست بجانبهم فاذا أحدهم الموسيو شارل
 نيوفيلد الذي تقدم لنا ذكر خبره والآخر صيدلي مصرى اسمه خليل أفندى
 بسيم والثالث رجل من تجار اليهود في أم درمان جلست بينهم وأنا اتقلب
 في الام الجروح والضرب اللذين ذكرتهما قبل فاظهروا لى من المواساة
 والتوجع لمصابى ما كاد يعزىنى واخذت أجيل نظرى في العرفة فاذا الذين
 فيها جلهم مرضى مصابون بالاسهال واذا بجانب كل واحد حفرة يتغوط
 فيها ولضيق العرفة كان الناس متراكمين على بعضهم ومنهم من هو واقف
 على فخذه ومنهم من يصيح وطئت على رقبتي كل ذلك ولا منفذ يستنشق
 منه الهواء غير الشقوق التى فى الباب

ولم يمض على أكثر من ساعة حتى أغمى على وفقدت الشعور ولم أفق
 الا على صوت الموسيو نيوفيلد الذى كان يصيح من داخل الباب لخفير
 السجن قائلا (ان الرجل الذى جثم به قدمات) لانهم أيقنوا بموتى فلم يعبأ
 الخفير ولا السجنانون بكلامه ولما رفعت رأسى سمعت أصحابى الثلاثة
 يقولون ظنناك فارت الحياة فالحمد لله على سلامتك وكان عند كل واحد
 قطعة من الخرق بالية يروح بها على نفسه من شدة الحرق فكان
 الثلاثة يروحون على بخرقهم وقد نسوا أنفسهم فجزام الله عنى
 أحسن الجزاء

وقبيل الصباح دخل علينا السجناء فأسعوني واصحابي ضربا بالسياط
 قائلين لنا لماذا يا أولاد الريف يا كفار تجلسون مع بعضكم ثم وضعوا كل
 واحد منا في أودة مع أناس من المسجونين جلست بجانب عبد أسود تظهر
 عليه علامة المرض فبدأته بالحديث مستفهما عن جريمته فرفع رأسه وقال لي
 أما تعرفني فقلت كلا فقال أنا عيسى بن مريم نبي الله ورسوله فظننته مازحا
 فقلت له أصحيح ماتقوله فالتفت اليّ وقال لي ستري مصداق ذلك قريبا فقلت
 له ان عيسى صلوات الله وسلامه عليه أبيض اللون وانت عبد أسود فأجابني
 بثبات جاش ان جميع الالوان بيدي ولو شئت جعلت لوني أبيض ولكنني اخترت
 سواد اللون تواضعا لله تعالى ثم رأيت بجانب رجل آخر ذا ملابس نظيفة
 وهيئة مهيبة فقلت له هل سمعت ما يقوله هذا الذي يزعم انه عيسى بن مريم
 عليه السلام فلم يرد عليّ فظننت انه مستغرب هذا الخبر وأخذت أكله
 وقلت له حقا ان هذا الامر غريب جدا وهل يظن مثل هذا الكذاب
 ان دعواه تقابل بالتصديق ولو من البسطاء فلم يرد عليّ بشيء بل أعرض
 عني وبينما أنا متعجب اذ التفت الى خلفي فرأيت احمد الفحل ورفيقه
 الصادق بن عثمان اللذين سبق لنا الكلام عنهما وانهما هربا سلاطين باشا
 يضحكان فلم أفهم لماذا يضحكان فدنوت منهما وسألتهما عن سبب
 ضحكهما فقالا لي ان الرجل الذي تكلمه وتشكوه أمر المتنبّي يدعي هو ايضا
 انه عيسى بن مريم عليه السلام فازددت تعجبا ودخل ساعتئذ أحد
 السجناء واسمه (ابولباده) وقال لي يا ابن الريف لماذا حبسوك فقلت
 لا أدري فقال لي انكم معشر أولاد الريف لا تتركون كفركم وانكازكم على
 المهدي وخليفته فدنوت منه وأخذت أترامى على اقدامه ورجوته أن ينقلني

من هذه الغرفة التي فيها متنبئان فقال لي على شرط أن تنقذني ريالاً فقط له
أنتقدك الريال مع اني لا أملك قرشاً واحداً ولا في بيتي درهم ولا دينار
فأخرجني من تلك الغرفة الى غرفه أخرى فيها أكثر من مائة مسجون فقضيت
بقية الليل واقفا على قدمي والناس يضجون من شدة الحر والازدحام
وتوفي اثنان منهم في تلك الليلة

ولما لاح الصباح أخرجونا من الاودة فسمعت السجناء يقولون ان
(الاودة كرمت) اى أنها ضحت هذين الرجلين ثم جروا الرجلين من
أرجلها وألقوها في النهر

هذه أخبار الليلة الاولى في السجن أوردتها بإيجاز كثير وسأعود الى
ذكر بقية الاخبار في محالها والله الهادي الى سواء السبيل

انذار المؤلف بالاعدام

وبعد خروجي من الأودة جلست مع المسجونين في حوش السجن
وبعد بضع ساعات كنت أستنشق الهواء في خلالها جاءني أحد السجناء
يدعوني للخروج الى أودة أمير السجن فخرجت أرسف في قيودي فوجدت
بها اثنين من القضاة أحدهما سليمان بن الحجاز والثاني احمد بن حمدان
فقالا لي ان خليفة المهدي عليه السلام بلغه عنك انك كنت تصنع أشياء
مخالفة لمنشورات المهدي عليه السلام وانه رأى وجوب قتلك فقلت ان خليفة
المهدي عليه السلام أوتى الحكمة وفصل الخطاب وان المهدي عليه السلام
أخبر بانه من اهل الكشف فاذا كان هذا القول من عندياته فهو
صادق والا فان لي أعداء يرومون التشكيل بي من قبل زمن المهدي فمهم

كذابون وعلى كل حال فأنا لا اطلب لديناى أو آخرتى غير رضا خليفة المهدي
 فاذا عزم على قتلى فأنا راض بأمره واسأله أن يرضى عنى وان شاء استحيائى
 فاننى لا أرغب في الحياة الا اذا كانت مصحوبة برضاة فذهب القاضيان له
 وأخبراه بما قلته وبعد ساعتين عادا الى وقالالى ان خليفة المهدي عفا عنك
 واستبدل قتلك بسجنك مؤبداً فسجدت بين يديهما شاكرآ لله تعالى ثم
 رفعت رأسى وقلت لهما أبلغا تحيتى لمولاي خليفة المهدي عليه السلام وقولا
 له ان عبدك طامع في عفوك ومتوسل اليك بحملك وحنانك فذهبا ولم يعودا
 الا بعد سنتين وسيجيء ذكر ذلك في مكانه

ذكر قتل القاضي احمد بن علي

القاضي احمد بن علي أصله من عشيرة اسمها (بنى هلبه) تسكن جنوب
 دارفور وكان يحفظ القرآن الشريف ويعرف قليلا من الفقه على مذهب
 الامام مالك وولى القضاء فى أحد مرأ كز مديرية (شكا) احدى مديريات
 دارفور ولما ظهرت دعوة المهديوية فى جبال قدير فر احمد المذكور ولحق بها
 وشهد مع المهدي واقعة يوسف باشا الشلالى وقدم معه الى الابيض عاصمة
 كرفان حتى كانت وقعة يوم الجمعة التى قتل فيها احمد بن جباره الذى كان
 قاضيا للمهدوية كما مر ذكر ذلك باسهاب فى الجزء الاول

وكان احمد هذا ميالا لجانب عبد الله التعايشى الذى جعله قائدا صغيرا
 على عشيرته^{١١} (بنى هلبه) وأعطاه راية صيرها تابعة لرايته الزرقاء فتكلم
 مع المهدي فى شأنه وسأله أن يوليه القضاء بدل احمد جباره فولاه
 ولقبه بلقب (قاضى الاسلام) ولكن وظيفته هذه صارت اسما بلا معنى

وذلك لان المهدي أقام نوابا للفصل في القضايا المهمة ونصب أمناء ينوبون عنه في نظر ما يرفع اليه من المسائل وقد تقدم ذكر ذلك فيما مر من الكتاب

وقد ذكرنا ان لكل من القاضي والنواب والامناء اختصاصا في وظيفته ولكن النواب والامناء تجاوزوا حدود اختصاصهم ولم يتركوا للقاضي اختصاصا ينظر فيه حتى صارت وظيفته اسما بلا مسمى الى أن هلك المهدي واستبد التعالشي بالملك فألغى وظيفة الامناء ثم النواب وجعل المحكمة واحدة تحت رئاسة أحمد بن علي تنظر في كل ما يرفع اليها من الدعاوى والخصومات وقد أشرنا فيما مضى الى الغرض الذي كان يرمى اليه التعالشي من وراء هذا الانقلاب الذي يتوخى به الاضرار بأقارب المهدي واضطهادهم. وحاصل القول ان أحمد بن علي أصبح ذا مركز سام ونفوذ عظيم ولم تقف حظوته عند القضاء فان التعالشي وأخاه يعقوب كانا لا يقطعان أمرا دون مشاورته فاستفحل أمره وتلاعب بالقضاء أيّ تلاعب وانضم الى رايته أغنياء البلاد وسراتها في سائر أنحاء السودان وصار يكتب الى الجبابة بمعاذاة المنتهين اليه من أهالي البلاد من الضريبة والخراج التي صاروا يؤدونها له واقتنى عدداً كبيراً من السفن الشراعية وامتلك كثيراً من قطع الاراضي الخصبية أما الرشوة فقد كان دخله اليومي منها يقدر بالالوف من الريالات وشاد لنفسه داراً واسعةً بالقرب من ضفة النهر ملاًها بالنساء الحسان من السودانيات والمصريات وجلهن قبليات من سكان الخرطوم اللاتي استباحهن المهديون وامتلأت الفيافي وأماكن المرعى بقطعان ماشيته من الابل والبقر والغنم وبالجملة فقد أصبح ذا ثروة طائلة

ومن غرائب شعوذته في القضاء وخراب ذمته وميله الى الارتشاء ما ورد منه هذه النكتة ليقاس عليها بقية أعماله وذلك انه في احدى السنين تشاجر جاب اسمه حسيب مع احدى قبائل البحر الابيض لاسباب طفيفة كان الحق فيها مع رجال تلك القبيلة فأمر مقاتلته باطلاق الرصاص على الحى فقتل من الرجال نحو ثلاثين رجلا عدا الجرحى فرفعت الحادثة للتعاشى فأكبرها وغضب على الجابى وأحال محاكمته على القضاء فعقدت الجلسة الاولى ثم أرجئت الى الغد وفي تلك الليلة حمل الجابى الى القاضى أحمد بن على ثلاثة آلاف ريال فأمر في الغد بايداع المتظلمين من تلك القبيلة السجن وأفهم التعاشى انهم شهبوا حربا على المهدي وخليفته وبعد عناء شديد اخرجوا من السجن وذهبت دماء القتولين هدرًا ومثل هذا كثير لايسع المقام ايراده وانما أوردنا هذا مثالا تقاس عليه حالة ذلك القاضى

وفي أواخر سنة ١٣١١ كتب التعاشى سرا الى الجباة يأمرهم بارسال الكتب التي ترد اليهم من القاضى احمد بن على يأمرهم فيها بمعافة المتتمين لرايته من الضرائب والخراج فاجتمع عنده شيء كثير منها فجلس ذات يوم ومعه القضاة واستدعى القاضى أحمد وقال للحاضرين ما يأتى

أيها القضاة أخبركم اننى اجتمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدي عليهما السلام وبينما كنت معهم اذ رأيت شخصا معذبا بين السماء والارض فسألت عنه فأجابنى المهدي بانه القاضى احمد بن على فدهشت لذلك فقال لى الخضر عليه السلام انه نقض عهدك وجمع الاموال وظلم العباد فلماذا أنا أمر القاضى احمد بالتوبة والاستغفار كما أمره بالتخلي عن الرايات التي يقودها والانقطاع الى القضاء فقط اه

فقام القاضى وقبل يد التعاشى وبكى واتحجبت وتاب واستغفر وخرج مع زملائه يرجوهم أن لا يذكروا شيئاً مما جرى في هذه الحضرة لآحد من الناس وبعد مضي بضعة أسابيع على هذه الحادثة ضبط محتسب السوق شخصين يدعى أحدهما عبد المجيد عبد الله الدنقى ويدعى الآخر عبد الله سليمان زريفان المسكوكات من نوع ريبالات المهدوية وأحضرهما امام التعاشى الذى سألهما عن جنائيهما فقالا له لم نزيف بل نضرب العملة لك فتعجب من هذه الجرأة وسألهما الايضاح فقالا ان القاضى احمد بن على هو الذى أمرها بسك هذه النقود وأفهمها انه مأمور من قبل التعاشى وكانا يؤديان له كل ما يصنعهانه منها ثم أبرزنا كتابا من القاضى بخطه متضمنا هذا المعنى فأمسك التعاشى الكتاب واطلع من حوله عليه فأكدوا صحة صدوره من القاضى احمد بن على فاستدعاه وسأله قائلاً ألم يكفك ما اغتلته من الاموال حتى صرت زريف النقود فأنكر ذلك فأبرز له التعاشى الكتاب المذيل بتوقيعه ثم عاد الى الاعتراف فاحتدم التعاشى غضبا وقام من مجلسه ودخل الى أودة جلوسه واستدعى القضاة فجلسوا ولم يكلمهم بشيء بل أمر باحضار القاضى احمد ابن على فلما حضر بين يديه أمر الحراس بايداعه فى السجن فسيق اليه ثم قال لمن حوله من القضاة سأقوم فيكم خطيباً بعد صلاة المغرب فليكنم أن تسمعوا ما أقوله لكم ومروا الناس بانتظارى لسماع ما أقوله فخرجوا من عنده وبعد صلاة المغرب صعد منبر الخطابة وقال ما يأتى

ان احمد الاسود (لانه كان أسود اللون) أصله مولى قبيلة بنى هلبه ولم يكن منها وقد أفسد وظلم العباد واغتال أموال المسلمين فذلك أرى ان موته خير من حياته فرد عليه الحاضرون بلسان واحد حسناً تفعل

ومن هذه الخطبة أيقن الناس ان القاضي احمد سيقتل
وفي اليوم التالي ذهب يعقوب أخو التعايشي الى السجن وانقرض بالقاضي
احمد وخذعه بانه سيسعى في خلاصه من السجن فانخدع له ثم سأله عن
أمواله فأوضحها له وكانت شيئاً كثيراً من الذهب والفضة فضبطت كلها
وصودرت لجانب بيت المال

وبعد استصفاء أمواله طرح منفرداً في إحدى غرف السجن ومنع عنه
الطعام والشراب حتى توفي بعد بضعة ليال وكان طويل القامة بدين الجسم
شديد سواد اللون وكان غير مصدق بدعوى المهديّة وكثيراً ما رأيت
منه محاباة لجانبى في أمور احييت محاكمتي فيها عليه بسبب فلتات من اللسان
عقوبتها الجلد بالسياط عند الدراويش

ذ كر تولية الشيخ الحسين الزهراء (القضاء وقتله صبراً)

تقدم لنا في الجزء الاول من هذا الكتاب شيء من أخبار الشيخ
الحسين بن الزهراء وما كان من أمر قصيدته الهمزية التي نصح بها المهدي
وقد نشرناها برمتها وأن المهدي أنقذه الى كسلا وقد كان التعايشي
حاقداً عليه بسبب النصيحة المذكورة اما هو فقد رجع على نفسه باللائمة
لما فرط منه من الميل الى دعوى المهديّة التي انكر كل اعمالها وجاهر
المهدي بانكاره والمهدي يفضى عن عقابه رعاية لجلالة قدره وتقواه حتى
توفي المهدي وخلفه التعايشي الذي كان ذاميل شديد للانتقام من الشيخ
الحسين المذكور

وقد كان التعايشي استقدم الشيخ الحسين من بلده في الجزيرة وعهد
إليه بالقاء دروس في علمي الحديث والمواريث في المسجد ولما قبض على القاضي
احمد بن علي ولاء القضاء بدله

ولما ولي القضاء قال لخواصه اني لأريد المحابة بل أريد الوقوف عند
حد الشرع وكل أمر يعرض عليّ لأقول فيه غير الحق وأنا لا أجهل ان
عاقبة ذلك ستكون الموت

وبعد أن تولى القضاء عرضت عليه مسألة وهي (ان رجلاً من الموسرين
اسمه عوض الكريم من أهالي قرية (التمة) بمقاطعة بربر هجر دياره
فراراً من ظلم المهديّة ولحق بالحرمين الشريفين وتوفي هناك فافتي القضاء
بكفره ووجوب مصادرة أمواله) فقال الشيخ الحسين لم يكفر هذا الرجل ولا
تجوز مصادرة أمواله أبداً فحقد التعايشي عليه وأضمر له سوء

وفي ذات يوم دعاه ومعه قاضيان هما حسين جزو ومحمد حمدان وكلاهما من
أهالي السودان الغربي لا يعرفان شيئاً من الاحكام الشرعية ولكنهما يحفظان
الفاظ القرآن وكانا من اكبر قضاة الجهل والظلم ومعهما أمين بيت المال ولما
استقر بهم الجلوس بين يدي التعايشي خاطبهم قائلاً « أيها القضاة ان بيت
المال ليس فيه نقود وان الانصار يطلبون أعطيتهم فماذا نضع » فاجابه محمد
حمدان بما يأتي

انني سمعت المهدي عليه السلام يقول ان الناس بايعوني على ان
اتصرف في رقابهم واموالهم تصرف المالك فيما يملك لانني خليفة رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعليه فيجوز لامين بيت المال ان يكره ذوى اليسار على
ان يقرضوه ما يطلبه منهم وليس بيت المال مازماً بالسداد ولكن يعد الدائنين

بالوفاء تطيبوا لخواطرهم فاحتدم الشيخ الحسين غضبا وضرب بيده محمد
حمدان قائلا

استغفر الله مماقلته فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقترض ويوفي
دائنيه ولا يجوز ابدا أخذ اموال الناس بالطريقة التي قلها فساء ذلك التعايشي
واحتدم غضبا وقال مخاطبا الشيخ الحسين

لقد كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يكن ملزما بتأدية
ما يقترضه وقد اباح الله اخذ اموال الناس ثم أمرهم بالانصراف وقال
للقاضيين الضالين حسين جزو ومحمد حمدان احكما بكفره لانكما قاضيان
يجب انفاذ ما تحكما به فاخذاه وذهبا به الى السجن وامرا بوضع ثلاثة
قيود في رجله وغل في عنقه ثم ذهبا الى منزل يعقوب اخي التعايشي
ليتداولوا في الامر ثم رفا الى التعايشي حكما فحواه ان الشيخ الحسين كفر
وان عقوبته احدى ثلاث اما ان يتنى واما ان تقطع يده ورجله من خلاف
واما ان يسجن مؤبداً فاختر التعايشي هذه ظاهرا واضر قتله فاعزز الى
السجان بوضعه في احدى غرف الاعدام ومنع الاغذية عنه فنقله اليها بعد ان
وضع في رجله اثني عشر قيودا وجزيرين ومنعوا عنه الماء فكان يستغيث من
الظما وفي ذات ليلة رفع صوته بالاستغاثة طالبا شربة ماء ليستعين بها على معالجة
سكرات الموت فلم يعطوه شيئا وكانت ليلة شديدة الحر فلم نشعر الا بالمطر قد
هطل على السجن كافواه القرب مع اننا في فصل لا تمطر السماء فيه في السودان
ابدا وتداعى ركن من اركان الغرفة المسجون بها فامتلات بماء المطر فشرب
الشيخ واغتسل وتوضأ وملا ابريقه وفاض الماء حتى تجاوز ركبته

وفي الغد دخل عليه السجانون واوسعوه ضربا قائلين انك ساحر فقال

لهم لست بساحر ولكن الله سقاني الماء لما طلبته منه فاخذوا منه الابريق
واصلحوا ماتداعي من ركن الغرفة وبعد ليلتين دخلوا عليه فألقوه في سكرات
الموت بثبات جاش غريب ولما توفى أمر التعايشي بعدم غسل جثته وتكفينها ودفنها
وصرح بان تلقى على وجه الارض لانه كافر بزعمه وأمر بكتان أمر وفاته عن
ذويه الذين ظلوا يروحون ويندون الى السجن حاملين له الاطعمة والملابس
فكان السجنانون يأخذونها منهم ويعودون لهم قائلين ان الشيخ يأمركم
باحضار كذا وكذا من الاطعمة والملابس فيسرعون باجابتهم وهم لا يعلمون
ان الشيخ مضت على مفارقتها الحياة بضعة أسابيع وجثته قدمت غذاء لانسور
وظلوا على هذا الحال زهاء شهر من الزمان حتى أمر التعايشي عقيبها بمصادرة
امواله وأخذ نسائه فعلم ذووه انه فارق الحياة

أما وفاته فقد كان لها تأثير سيء عند الاهلين واطهر المسجونون حزنهم
عليه وكان له تلامذة عديدون اختفوا وخافوا الايقاع بهم. ولا بأس بايرادلمعة
من ترجمته اتماما للفائدة فنقول. هو من قبيلة صغيرة في الجزيرة قدم القاهرة
صغيرا وتلقى العلوم بالازهر الشريف وبرع في العلوم العقلية وكان ذا ذكاء
عظيم ودين متين حتى قال أحد مشايخه الازهريين انه لم ير سودانياً مثله ذكاً
ولما قفل راجعاً الى دياره وهبت ثورة المهديّة صادفت هوى في قلبه
لانه كان ناظراً اليها من الوجهة السياسية وقد تقدم أنه لما قابل المهدي
ونصحه بقصيدهته التي أودعها مغامز كثيرة ندم ولم يعد قادراً على احتمال
معاشرة المهديّة فكان يقضى اكثر أوقاته في قرينته بالجزيرة راضياً بالحمول
والبعد عن المهديّة وشروطها حتى استدعاه التعايشي وكلفه قراءة درسين
في الحديث والموارث وكان قصده من ذلك الحجر عليه بام درمان تمهيداً

لما حل به من القضاء المحتوم

وعلى ذكر الشيخ الحسين نقول ان من الوشايات التي كان التعايشي يقبلها ويبطش بالموثى به ان يقال له ان فلانا من أهل العلم لانه يوقن اذ ذاك بان من كان عالماً لا بد ان يكون غير راض بالمهدوية وفي ذات يوم قال ان العلماء مفسدون في الارض ولا امان لنا من مفسدهم التي يفرسونها في افئدة الناس الا بقتلهم ومثل العالم في البلاد كمثل شجرة في وسط مزرعة تاوى العصافير اليها وتقتات بثمار المزرعة وهكذا العالم ياوى اليه الناس ثم يبيت فيهم معارفه التي تأكل ايمانهم وتصديقتهم بالمهدوية كما تأكل العصافير ثمار المزرعة فكما انه لا سبيل لحفظ المزرعة من عبث العصافير الا بقطع الشجرة كذلك لا سبيل لحفظ عقائد الناس في المهدوية بغير قتل العلماء

وخلاصة القول ان الشيخ الحسين كان اعلم أهل السودان ومن اكبر الذين شايعوا المهدوية في بدايتها وقد رأيت ما حل به من الانتقام مثل كثير من الذين ساعدوا المهدي وأعانوه على دعوته ومن اعان ظالماً سلط عليه

خفراء السجين

كل خفراء السجين والسجانين من أقارب السائر السجان أى من قبيلة الجوامعة التي عرفناها فيما تقدم من هذا الكتاب وجلهم من أبناء السفاح الذين يقال لهم (عينة خاله) فاذا سألت واحداً منهم عن اسم أبيه يجيبك بقوله «أنا ابن أخت فلان» ولم اسمع بواحد منهم اسمه من الاسماء المألوفة والاعلام المعروفة كمحمد واحمد وغيرهما بل لهم اعلام هي في الحقيقة صفاتهم مثال ذلك ان احدهم اسمه (شقيب) ومعنى هذا الاسم «الصارع أى انه

يصرع كل من صارعه وآخر اسمه « كبه كاه » ومعناه ان خلاله كلها مما
يمجه الانسان ولا يقبله احد وقس على هذين العامين سائر اسماء الخفراء
والسجانين

وهؤلاء لا يدفع لهم التعاشى مرتبا ولا يجرى عليهم رزقا فاذا ذهبوا
الى بيت المال طالبين اعطية قابلهم موظفوه بالاستغراب قائلين كيف تطلبون
عطاءً من بيت المال وعندكم من الناس المسجونين من يمكنكم ابتزاز المال
منهم وضرب الضرائب عليهم وهم مرغمون على اجابة مطالبكم فكان امير
السجن يفرض الضرائب على كل مسجون بما يزيد عن طاقته وكان ابراهيم
حمزة عميد قبيلة (الانقرياب) الذى ذكرت امر سجنه كثيراً ما يؤدى تلك
الضريبة عنى اذ لم اكن املك درهما منها وكنافى ايام الاعياد والمواسم تؤدى
ضريبة فوق العادة عدا الضريبة الشهرية التى لامناس من دفعها وعدا
ماندفعه كل يوم وليلة للسجانين الذين كثيرا ما كانوا يأخذون ملابسنا بدل الرشوة
ومن نظامات السجن ادخال المسجونين فى الغرف التى لا منفذ فيها
ليقضوا الليل فى فصلى الصيف والربيع فى الحر الشديد أما فى فصلى الخريف
والشتاء فينامون تحت السماء مقرنين فى الاغلال فراشهم الارض وغطاؤهم
السماء يحيط بهم السجانون بايديهم السياط ويأمرونهم بالاضطجاع على جنب
واحد فاذا تحرك احد منهم حركة ولو خفيفة اوسعوه ضربا بالسياط

الايام الاولى فى السجن

لما ادخلونى السجن ضاعفوا قيودى حتى بلغت ستة قيود ثم
انتدبوني مع آخرين لحفر بئر فى منزل امير السجن المجاور للسجن فكان

اثنان يحفران بداخل وأنا أجذب الاناء الذي يضعان فيه التراب وكان هذا الاناء من الحديدورنه لا يقل عن خمسين رطلا والحبل الذي أجذبه به جنزير من حديد فتورمت ككفأى بسبب ذلك وسالت الدماء منهما والسجانون حولي يضربوننى بالسياط فددت يدي لهم با كيا مسترحما من ألم الجروح التي بهما فما كان منهم الا ان ضربونى بالسياط عليهما فوعدت مغشيا على فاخذوا يضربوننى ضربا مبرحا

شارل نيوفيلد

والمؤلف مقرونان في القيود

ذكرت اننى فى اللية الاولى التى سجت فيها كنت مع شارل نيوفيلد ثم فرقوا بيننا وكان كثيرا ما يجتمع بى كلما لاحت له فرصة فى غفلة السجانين الذين كانوا قد تلقوا عن التعايشى تعليمات سرية بالحيلولة بيننا خشية ان تنفق على الهرب

وفى ذات يوم كان السجان الاكبر مارا فوق نظهه علينا فامر بجعلنا فى قيد واحد زيادة فى تمديننا وبعد بضعة أيام أصبت بحمى شديدة كادت تودى بحياتى وأصيب شارل نيوفيلد بأسهال شديد يضطره الى الذهاب الى المرحاض كل خمس دقائق وأنا بسبب شدة الحمى لا أقدر على القيام من مضجعى وكان الفصل صيفا شديد الحر فتقب ثوبا فى الارض بجوار مضجعتنا لقضاء حاجته فكنت على ما بى من الم الحمى فى أشد حالة من نتن رائحة المرحاض الذى بجانبى وظللنا على هذه الحالة السيئة مدة خمس ليال

ثم مرت بنا ذات يوم أم احدي نساء أمير السجن وكانت مصرية من أهل

الخرطوم فوقفت وسلمت علينا وهي باكية متحسرة وسألنا لماذا قررتما في قيد واحد فقلنا لها هكذا أمر أمير السجن فذهبت متشفعة ومسترحمة لنا فقبل شفاعتها وأمر بوضع كل واحد منا في قيود على حدته

أمير السجن في منزله ونسائه

لامير السجن دار بالقرب من المسجد لم ينفق في تشييدها قرشاً بل كان يشغل المسجونين في بنائها

وكان عنده من النساء خمس عشرة امرأة منهن واحدة مصرية من اللواتي أخذن مسبيات من الخرطوم والبقية من أجناس مختلفة من السودانيات وكان له حارس اسمه طنبل الشايقي يجلس على باب المنزل وله سلطة كبيرة في السجن اذ لا يؤذن بادخال طعام الى أحد المسجونين الا اذا رآه طنبل فاذا كان جيداً أمر بادخاله الى منزل أمير السجن واذا كان متوسطاً دعا بقية الخفراء الى الاكل منه وقل ان يتركوا صاحبه ربه وقد أطلق المسجونون على طنبل لقب (شنفل منقل) ومعناه المنشار يأكل صاعداً ونازلاً

هذا وقد ذكرت الضريبة الشهرية التي كنا نؤديها الى أمير السجن وعدا ذلك فانه كان يجمع المسجونين كلما أراد ان يشتري محظية أو يتزوج امرأة جديدة أو يولد له ولد ويخاطبهم قائلاً انكم لا تجهلون اني لست تاجراً ولا زارعاً بل انتم زراعتي وتجارتى فعليكم ان تجموا الى مائة ريال لاننى أريد الزواج أو ولد لي ولد نم يضرب لهم موعداً للدفع فاذا تأخروا أمر السجنانين بتعذيب المسجونين فاذا كان الفصل شتاءً يكون التعذيب بصب الماء البارد

على اجسامهم ليلا مع الضرب بالسياط واذا كان الوقت صيفا وضعوا الاغلال في اعناقهم وجردوهم من ملابسهم واجلسوهم في الشمس مع الضرب بالسياط أيضا كل ذلك عدا ما تؤديه الى السجناء والخبراء فلكل واحد الحق في طلب ما يريد من المسجونين مثل مطالب اميرهم التي هي الضريبة الشهرية وضريبة المواسم والاعياد وضريبة الزواج وضريبة الاولاد وعدد الخبراء يبلغ المائة ورؤساؤهم اربعة لكل واحد منهم نوبة يوم وليلة يتصرف في خلالها التصرف المطلق بدون ادنى معارضة من امير السجن

صلاة المسجونين

من نظمات السجن ان المسجونين يصلون الصلوات الخمس جماعة ولهم امام منهم وفي كثير من الاحيان نكون وقوفا في الصلاة فيهجم علينا الخبراء بالسياط ويضربوننا بحجة اننا لم نحسن الصلاة فنفرع وترك الصلاة ونهرب مذعورين

وفي احدى ليالى الصيف قنا الصلاة المغرب التي بعد انتهائها يدخلوننا الى الغرف التي تقدم لنا وصفها فرجونا الامام ان يطيل القيام والسجود لنتمكن من استنشاق النسيم في خلالها ففعل وكان الخبراء ادركوا ذلك فوثبوا علينا بالسياط واوسعونا والامام ضربا ففترقنا شذرا مذر واسرعنا الدخول الى الغرف

ضريبة ريال كل يوم على المولف

قلت ان المسجونين يدخلون الغرف في ليالى الصيف وفي كل ليلة

يموت بعضهم اختناقاً وفي إحدى الليالي اتفقت مع أمير السجن على أن ادفع له في كل ليلة ريالاً وهو في نظير ذلك يأمر بتركي جالساً عند باب الغرفة لاستنشق الهواء من شقوق الباب

ولقد كنت لأملك قرشاً من هذا الريال ولكنني أقدمت على الاتفاق معه رجاء تركي تلك الليلة فنعى الخبر إلى أحد معارفه وهو يوناني اسمه الخواجه مانولى دياكوبيني كان تاجراً في الخرطوم وله في معي صداقة قديمة ومعاملات مذ كنت حاكماً على أقاليم خط الاستواء وبعد سقوط الخرطوم وقع أسيراً في قبضة المهدوية فاستعمله التعالشي في صناعة الصابون فأرسل إلى أمير السجن وتعهد له بتأدية الريال في كل يوم وإن لا يطلبني به بل يدفعه هو في نظير مطالب قديمة كانت لي في ذمته وبذلك تمكنت من الجلوس خلف الباب كل ليلة واستمر الخواجه مانولى يؤدي عني ضريبة الريال حتى من الله عليّ بالخلاص لما دخل اللورد كتنشر أم درمان فأتحا

النادرة العباسية في السجن

رأيت أن أعنون هذه النادرة بهذا العنوان لما تراه فيها من الخبر الغريب الذي أقصه عليك وقد كنت ذكرت أن التعالشي زوجني امرأة من نساء الخرطوم اللاتي كن عنده وكانت لها أخت متزوجة بسوداني اسمه «عباس» وفي ذات يوم دخل عليّ بضعة أشخاص من البقارة وكنت وقتئذ جالساً بالقرب من عبد متهم بقتل واسمه (عاكيش) نخطبني أولئك الأشخاص فائلين يافوزي فقلت نعم فقالوا أصدقنا ما هي قرابتك من عباس فقلت انه عديلي فقالوا كلا بل هو ابن أختك فقلت كلا كيف يكون ذلك وأنا

مصرى وهو سودانى فقالوا وضح لنا الحقيقة فقلت لهم ان خليفة المهدي عليه السلام زوجنى امرأة عباس هذا زوج أختها فقالوا يظهر انك لم تفهم كلامنا لانا نسألك عن (عباس خديوى مصر) وفي غضون ذلك كان شارل نيوفيلد قد وقف بجانبنا فالتفت اليه وقلت ان الفرق بينى وبين عباس خديوى مصر كالفرق بين خليفتم وبين «عاكيش» هذا وأشرت الى العبد السالف الذكر فقالوا كذبت فقد علمنا انك حاله ثم انصرفوا عنى وذهبوا الى امير السجن فقصوا عليه ما دار بينى وبينهم من الكلام فغضب وامر الخفراء باحضارى فساقونى اليه بعد ان اوسعونى ضربا ولما وقفت بين يديه امر الخفراء بضربى حتى صرت استغيث فلا اغاث وبعد ان مزقوا جسمى امرهم بالكف عنى وقال لى يا كافر انت شاك في خليفة المهدي عليه السلام فقلت ياسيدى ما الدليل على ذلك فقال انك قلت للذين كانوا يجادونك «خليفتم» ولم تقل خليفة المهدي عليه السلام وهذا يدل على كفرك فانكرت اننى قلت هذه الكلمة واستشهدت بشارل نيوفيلد فاحضره بحالة تشبه الحالة التى احضرونى بها وبعد ان اوسعوه ضربا سألوه فانكر انه سمع هذه اللفظة منى وأصر على الانكار فقال له انت تشهد لابن عمك وامر امير السجن بجلد شارل نيوفيلد خمسين جلدة وضاعفوا قيوده

اما انا فقد وضعت قيودى واغلالى وغللت يداى الى عنقى وامر بوضعى فى الفرفة المعدة لمن يراد قتله وهى التى اعدم فيها القاضيان احمد بن على والحسين بن الزهراء اللذان تقدم لنا ذكرهما وهم امير السجن بالذهاب الى منزل التعايشى لاستصدار امر باعدامى وفي الحقيقة لو ابلغه القصة لامره بذلك فترامى المسجونون على اقدامه يرجونه الصفر عنى فقال لهم لا بد من

ان يحضر عشرين ريالاً فدخل على صديقي ابراهيم حمزه ومحمد الشافعي عميدا
 بربر اللذان سجنا من أجل تهمة الاشتراك في تهريب سلاطين باشا وقالوا
 ان أمير السجن وعدنا بالصفح عنك على ان تدفع له عشرين ريالاً فقلت لهما
 كيف ذلك واتما لا تجهلان اني لا املك قرشا من العشرين ريالاً وليس
 عندي متاع ولا أرقاء غير عبدي المسمى «لدوم» وهو لا يبلغ ثمنه عشرين ريالاً
 مع ان قيمته الهديية عند توازي الآلاف من الريالات لانه كما تعلمان يطوف
 على منازل اصدقائي واخواني المصريين يجمع منهم ما تجود به مروءتهم
 لغذائي وغذاء زوجتي وولدي فاذا كان لا يعفني فاني اختار الموت لارتاح
 ويقي عبدي «لدوم» ليقوم بحمل تغذية عائلتي الشقية اذ هو ينفق كسبه
 عليها زيادة على ما تبرع به المصريون لي فرقالي ورثيا لحالي ودفعا العشرين
 ريالاً من مالهما وخلصاني من هذه الورطة التي لا ارتاب ان التعايشي يأمر
 باعدامي لو وصلت اليه هذه القصة فجزاها الله خيرا الجزاء وعوضهما عن ثروتها
 وما خسراه من الاموال الطائلة التي انفقها في السجن خيرا أما مشار القصة
 فان احد اعدائي وشي بي عند اقارب التعايشي وافهمهم اني خال مولانا
 الخديوي عباس حلمي باشا وقصده من ذلك زيادة تعذيبي او اعدامي لان
 اتسبابا كهذا عما يضر ضررا ليعابل يكون سببا للمهلك فتأمل في غباوة هؤلاء
 المهديين وظلمهم

ذكر ابطال القهوة

من غرائب احكام التعايشي انه امر بابطال الاماكن العمومية التي تباع
 فيها القهوة ويجلس الناس فيها للسمر واصحابها في الغالب من المصريين وهي عبارة

عن اكواخ من الخوص فيها كراسى من الخشب والجلد تشبه (العقرب)
 وفي بداية الامر اصدر امرا بابطال المقاعد وان لا يجلس شاربو القهوة الا على
 الارض فاستعاض اصحاب القهاوى عن المقاعد بالحصر السودانية التى تسمى
 (برشا) ثم وشي له واش بأن الذين يتسامرون فى القهاوى جلمهم من المصريين
 وانهم اذا جلسوا فى تلك الاماكن يخوضون ويتحدثون فى شأنك وهم يطلقون
 عليك اسم (الزر) فاذا جلسوا تحدثوا مع بعضهم ماذا فعل الزر فيحيون
 بعضهم فعل كيت وكيت فاصدر امرا بابطال القهاوي وجرت فى ذلك محادثات
 ومداولات كثيرة وكان التعايشي ميالا الى وضع قانون يحرم به القهوة كتحريم
 الدخان الا انه عاد الى الصواب وقال لولا انى رأيت المهدي يشربها لحرمتها
 ولاغرابة فى ذلك فان اعراب السودان الغربى الذين منهم التعايشي
 لا يعرفون القهوة ولا البن ولما قدموا الى الخرطوم ورأوا الكثيرين من
 الاهلين يشربونها كانوا يجاهرون بانكاز ذلك ويمعدونه من دلائل
 قلة العقل وفقدان الرشد فيقولون ماهى الفائدة من شرب شىء شديد الحرارة
 مر الطعم أسود اللون وبعضهم يسميها «القطران» ومن الشتائم التى
 يشتمون بها الاهالى (ياشاربى القطران) ولهم نوادر كثيرة فى القهوة لا باس
 من ايراد بعضها لما فيها من التفككة. منها ان اعرابيا قدم له «فنجال قهوة» ففتح
 فاه فلما وصل جوفه كان سببا فى موته ومنها أنه نزل اضياف من أهالى السودان
 على أحد امراء البقارة فقال لهم اتم اضيافى وانا ابذل الجهد فى اكرامكم اكراما
 حقيقيا اقدم لكم فيه الاغذية من الخبز واللحم واللبن والعسل اما الشىء
 القبيح الاسود فانه يدل على قلة عقل من يستعمله فلذلك لا اقدمه لكم ابدا
 فضحكوا وقالوا نحن لانكلفك ذلك بل نصنعه بايدينا وتتناوله فقال لهم لو لم

يكن قدركم معظما عندي لما سهجت لكم هذه الدنيا في منزلي
وقس على ذلك وقد ذكرنا ان التعايشي كان يريد ان يجرمها لو لم يعارضه الناس
ويخبرونه بان تجارة البن منبع ثروة عظيمة لبيت المال وانه هو رأى المهدي يشربها
ولولا ذلك لحمل الناس على تركها فتأمل

ذكر ختان المسيحيين واجبارهم

على تعدد الزوجات

كان في السودان تاجر من اهل حاب الشهباء مسيحي اسمه «جورج
اسلامبوليه» يتردد بالتجارة بين الخرطوم وكردفان حتى ادركته الثورة
المهدية في مدينة الابيض فغادرها واسلم نفسه للمهدي صيانة لامواله وجاهر
باعتراف دين الاسلام ولكنه مالبث طويلا حتى نكب وصودرت امواله
واتهم بانه يبطن النصرانية ويقلد اطفاله الصلبان من داخل الملابس وانه
يراسل الحكومة في الخرطوم فضبط كتاب منه باحدي اللغات الاجنبية
فطلب التعايشي مترجما لترجم له الكتاب فتصدي للترجمة يهودي اسمه
(داود منديل) مع انه لا يعرف لغة اجنبية وتوعد جورج بانه اذا لم يدفع له
خمسمائة ريال ترجم الكتاب بما يوجب قتله فاسرع جورج باجابة ماطلبه
اليهودي الذي ترجم الكتاب بان جورج يدعو الحكومة للتسليم للمهدوية
ويحذرهما مغبة عدم التسليم فسجن الرجل وصودرت امواله ثم اطلق سبيله
وقدم الخرطوم مع المهدي وهناك اجتمع برجل آخر حلبي ايضا
اسمه (نعوم المعجي) وتصاهرا بزواج اولادهما وكان نعوم مدعيا انه يعلم
بمض العلوم الكيماوية فذهبا الى التعايشي ذات يوم وقالوا انهما يعرفان

بصناعة صك النقود وانهما قادران على تحسين حالة المعاملة فقبول طلبهما من التعاشي بالاستحسان فكتب الى أمين بيت المال يأمره بمساعدتهما على جلب ما يطلبانه من القوالب بواسطة الترسانة فاخذ يماطلها ويعدهما من يوم لا خر حتى يدبر حيلة للايقاع بهما تخلصا من استيلائهما على دار الضرب الذي يتسرب من ايرادها شيء كثير الى جيب النور الجريفاوي امين بيت المال واقاربه القابضين على منابع تلك الايرادات. وبالجملة فانه اخذ يقرر بهما حتى اتفقا نحو مائة جنيه من مالهما في سبيل تهية القوالب واعداد المعدات

ولما يسا وايقنا انهما خدعهما النور الجريفاوي ذهابا متظلمين الى الطاغية التعاشي الذي استدعى النور وعنفه على ما ارتكبه فاخذ يعتذر بان ابدال المسكوكات يقع بيت المال في أزمة مالية شديدة اذ تكون النقود القديمة بأيدي الناس ثم يطلبونها مما ضرب حديثا ثم ذبل اعتذاره بأن ذينك الرجلين لا يزالان نصرانيين فسأله التعاشي كيف يكونان كذلك وما هو الدليل على صدق هذا القول فقال الجريفاوي انهما وسائر الذين أسلموا على يد المهديوية لا يزالون غلغا لم يختنوا حتى الآن وهناك دليل آخر وذلك انهم لا يزالون يحافظون على توحيد الزوجة ففضب التعاشي وأرغى وأزبد واستدعى القضاة وسائر المسيحيين الذين تظاهروا باعتناق الاسلام وفي مقدمتهم جورج ونعموم فسألوه هل أنتم غلف فاعترفوا بذلك فدخل القضاة على التعاشي وأخبروه بهذا الاعتراف فخرج علي عاداته متسر بلاسربال القهر وخاطبهم بمبارات التعنيف ولم يسكن غضبه حتى بالغوا في الاعتذار بانهم لم يمنهم من الاختتان غير الخوف من ألم الجروح فقال لهم اذهبوا واختنوا على يد متطبب اسمه شعبان فذهبوا وهم لا يصدقون بالنجاة

وشرعوا في الاختتان وكانت عدتهم نحو أربعائة فكان الرجل يختن مع ابنه وأخيه ومنهم من قاسوا الآلماشديدة من الجروح ومكثوا نحو شهرين طريحى الفراش

ثم بعد ذلك ذهبوا الى التعايشي اليه متظلمين من عدم مقدرتهم على نفقات اكثر من زوجة لما هم فيه من شظف العيش والفقر المدقع فلم يقبل منهم بل توعدهم فعادوا وشرعوا يفتقون الجوارى ويتزوجون بهن لان المسلمين لا يرضون بمصاهرتهم وعلى ذكر ختان هؤلاء نورد هنا قصة مصرى مكث عدة سنوات لا يعيش له ولا كسب الا من تهديد جماعة المسيحيين بأنه سيعرض على التعايشي أنهم غلف فكانوا يدارونه ويؤدون له ماشاء من المال حتى جاءت حادثة جورج ونعوم بما لا يستطيعون دفعه فكانوا يذمرون منهما ويسخطون عليهما زيادة على ما أصابهما من ضياع مالهما ومقاساتهما الآلام الجروح وزد على ذلك اضطرارهما الي تعدد الزوجات التي لم يجدوا منه مفرًا

مبكرة

ذكر سجن ابن المؤلف

مر الكلام على ان زوجتى كانت على وشك الوضع لما سقطت مدينة الخرطوم وفي شهر ذى القعدة سنة ١٣٠٢ سكنت بالخرطوم ابتغاء الحصول على قابلية مصرية تساعد على الوضع وقد تقدم انى بسبب ذلك وشى بنى للتعايشي واهمت باننى انما قدمت الخرطوم لتدبير مكيدة ضد المهديوية ولذلك أمرت أناسا من المصريين بمغادرة الخرطوم وسكنى أم درمان التي بعد ان وصلت اليها بايام قلائل وضعت زوجتى غلاما سميته (محمد فوزى) ولما أن سجنى كان عمره زهاء عشر سنوات فوتمت عائلتى في

الشقاء الاليم ولما مضى عليّ ثلاث سنوات ونصف في السجن كان سن ابني هذا عشر سنوات وشهورا فذهب في أحد الايام الى التعايشي باكيا مسترحما يسأله ان يطلق سراحي فرق له وقال له اذهب الى أهلك وأخبرهم انني سأطلق عقل أبيك في الغد فاقضوا ليلتكم هذه بفرح وسرور فذهب الولد واخبر اخوته بذلك فقضوا تلك الليلة بفرح وسرور

وفي الغد ذهب الولد مستنجزا للوعد فاعرض عنه التعايشي فصار يتعرض له حتى التفت اليه غاضبا وقال لمن حوله « هل يلد الثعبان الا ثعبانا » فقالوا نعم فقال « وهل يحسن بالانسان ان يربي ابن الثعبان » فقالوا كلا فقال أليس هذا الولد ابن المنافق ابراهيم فوزى فقالوا بلى فقال لا بد من الحاقه بابيه فاستدعى كاتب أخيه يعقوب المسمى « بان النقاموسى » وقال له خذ هذا الولد الى بيتك وضع في رجليه القيود ووكل به غلمانك يحرسونه ويشغلونه بسياسة خيلك ودوابك

فأخذ به بان النقا ووضع في رجليه القيود ومع كونه كان يراعيه ويرأف به في السر فإنه كان يلاقى من عييده وخدمه المذلة وسوء المعاملة

والسبب في اخلاف التعايشي ما وعد به وعدوله الى حبسه انه في نفس اليوم كانت جواسيسه قبضت على واحد من جواسيس اللورد كتشنر جاء أم درمان من قبل سلاطين باشا لارسال مكاتيب الى بعض الناس وكان ذلك الجاسوس يسأل بعض الناس هل ابراهيم فوزى حي يرزق وهل شارل نيوفيلد على قيد الحياة وسأل عن بقية المسجونين بتهمة تهريب سلاطين باشا كبراهيم حمزة وغيره من الذين مر ذكرهم فقبض علي ذلك الجاسوس وكانت الحملة المصرية وقتئذ في دنقلة

والخلاصة ان الولد بقي محجورا في منزل بان النقا الى يوم دخول اللورد
كتشنر أم درمان ظافرا حيث أصيب بان النقا بجروح بليغة كانت من أقوى
الاسباب على نجاة الولد لانه لما انهزم التعاشي وركن الى الفرار اتقد الى بان
النقا يأمره باللاحاق به مستصحباً الولد فلم يستطيع مغادرة فراشه بسبب الجراح
ولما دخل كثير من اخواني الضباط المصريين منزل بان النقا ورأوا
الولد فيه وضعوا الحراس علي المنزل فحفظ من عبث بعض الاعراب
الموالية للحكومة وهم الذين اعملوا النهب والسلب على أتر دخول الجنود المدينة
أما تأثير حبس ابني علي فكان سيئاً جداً حيث فقدت الرشد ولقد أخبرني
من كانوا حولي أنه لما فاجأني ذلك الخبر قطعت سبحتي وقلت وأنا ذاهل يا الله
رضيت ببلاتك في نفسي ولزمت طاعتك شاكر ا على السراء والضراء فابتليتني
بحس ابني لا تركن الصلاة وسائر العبادات

ولما عدت الى صوابي واخبروني بما قلت أسرعت بالتوبة والاستغفار وعدت
الى ما انافيه من ملازمة الفكر والانتطاع الى الذكر ولم أعلم أن رحمة الله تعالى
ستدركني وابني الذي صار حبسه سببا لصيانة من حبس عنده فالحمد لله
الذي اتقذني وابني وجعل لنا بعد الضيق فرجا وبعد الخوف أمنا ونجاة

التعايشي قبل حملة دنقلة

لما تمكن التعاشي من قهر أقارب المهديّ وسجن مناظره الخليفة
شريفاً كما تقدم اطلق لاقاربه البقارة العنان في البلاد يظلمون وينهبون
وعكف على شهواته وصار يركب العربة التي ذكرنا في اخبار فتوحات خط
الاستواء ان الطيب الذكر غردون باشا جلبها من القاهرة ليقدمها هدية الى

الملك « اميتسه » صاحب أوغنده وقتئذ
على ان هاته العربة لم تكن مقصورة على ركوبه بل كانت تسير في
شوارع المدينة ليلا فيها الخصيان ليقبضوا على النساء البارعات في الجمال
ويعضوا بهن الى دارالتعايشى فيلبتن بها حتى اذا قضى وطره منهن أعادوهن
الى بيوتهن وقد كانت بداية عملهم هذا اثر القبض على الخليفة شريف
وسائر أقارب المهدي الذين نفوا وقتلوا في زمن تلك الحوادث المريرة
ولا فرق بين امرأة ذات بعل أو أيم أما ذات البعل فان الخصيان
يفهمون بعلمها أن خليفة المهدي يريد اسماعها مواعظه التي يسمونها (المذاكرة)
وأما التي لا بعل لها فليسوا في حاجة الا الى أخذها وادخالها العربة

ومن اللواتي أخذن بهذه الصورة زهراء بنت محمد شقيق المهدي الذي
تقدم انه قتل يوم الهجوم على الابيض عاصمة كردفان وكانت تحت أحد
أقاربها الذين تفاهم التعايشي الى خط الاستواء وكذلك فعل بنات حامد
شقيق المهدي وفد مر أنه قتل في احدى وقائع جبال قدير

وقد كان التعايشي متزوجا بأمة كلثوم بنت المهدي وأولدها بضعة أولاد ثم
طلقها لغير ذنب جنته غير انه أراد الاقتران بابنتها مريم لجمالها المفرط حيث
تزوجها ودخل بها بعد وقوع الطلاق بيوم وليلة

أما المظالم فقد تضاعفت ويئس الناس من الخلاص بثورة داخلية
حيث تمكن الطاغية من القضاء على كل قوة يتوقع منها القيام للخلاص
من ظلمه

وبالجملة فان حلقات المصائب قد استحكمت ولم يبق للناس صبر على
الخطوب المتوالية والمصائب النازلة على رؤسهم حتى أنهم كانوا ينقطعون في

الخلوات يضرعون الى الله أن يخلصهم من هذا البلاء واذا سمعوا بشيء من أخبار الحملة ظهرت عليهم علامات الفرح والسرور وبذلوا الصدقات للفقراء والموزين شكرا لله تعالى وقد كان التعايشي أول من أنبأ بتقدم الحملة علي دنقلة قبل تقدمها ببضعة شهور وسيأتي ذكر ذلك

جواسيس المهديوية

قلنا فيما مر ان أهالي مديرية الحدود كانوا ميالين الى دعوة المهديوية في بداية امرها وخصوصا (البرابرة) الذين يسكنون بين أسوان وحلفا وقد أشرنا الى العذاب المهين الذي أرهقهم به النور الجريفاوى في بربر اذ كانت منغبه نفورهم عن المهديوية وانحراف جلمهم عن موالاتها وقبل ذلك كان جلمهم يتقربون الى المهديوية بابلاغها أخبار الحكومة بغلوا فاحش في اسناد العيوب اليها ونسبة الوهن الى حامياتها في الحدود وبقي كثير منهم على الولاء حتى قتل عبد الرحمن النجومى حيث كانوا يستعدون لمعاونتته والانضواء الى لوائه بالرغم عن فظائع النور الجريفاوى التي عامل بها تجارهم لولا الحيلة التي اتخذها السير غراتفيل باشا سردار الجيش المصري وقتئذ ويقال ان الاسباب التي دعت هؤلاء الى التمسك بولاء المهديوية والانحراف عن الحكومة هي تحرير الارقاء وابطال النخاسة واذ ذلك أى في بداية دعوة المهديوية كان كبراء مديرية الحدود كما قلنا يرسلون أمراء المهديوية بالاخبار ويتطوعون لهم بالتجسس وفي كثير من الاحيان كانت أخبار سواكن وما يقع فيها من الحوادث تبلغ التعايشي قبل وصول بريد سواكن اليه فكانوا اذا حملها البرق من سواكن يتلقاها الروادفي

الحدود فيذهبون بها على ظهور الهجن الى بربر وقد اتهمت الحكومة
كثيرين من هؤلاء الكبراء وحاكمتهم أمام المجالس العسكرية ولكنها لم تتمكن
من قطع دابر جاسوسية التعايشى التي لم تعد بفائدة عليه

وفي الايام الاخيرة صار للمهاوية جواسيس بعضهم يتجسسون ليونس
الديكيم أمير دنقلا وبعضهم للتعايشى وآخرون للزاكى أمير بربر
وكان من أشهر جواسيس التعايشى رجل يدعى ولد الحسين وأصله سوداني
وآخر يدعى أبو شعبان وهو مصرى من سكان مديرية الحدود وللأول منها
نادرة مع سلاطين باشا وهي أنه وشى به الى التعايشى بأنه على أهبة الفرار حتى
خيف من التعايشى على سلاطين باشا الذى تمكن من استمالة القضاة الى
جانبه حتى وشوا بولد الحسين الجاسوس عند التعايشى فخبسه وارتاب فى
صديق مارفعه اليه من الانباء

أما أبو شعبان فكان التعايشى ذائقة عظيمة به وكان يتردد على
الحدود المصرية ومع شهرته التي لا يجهلها جواسيس قلم المخابرات كان يعود
دون أن يصيبه مكروه حتى ذهب بعض الناس الى انه مأجور لقلم المخابرات
ومتواطىء معه على ان لا يبلغ التعايشى خبرا الا بموافقة
والحاصل انه كان للتعايشى جواسيس ولكنهم قلما يرفعون اليه
ما يستفيد منه العلم بشيء قبل وقوعه

على ان جواسيسه رفعوا اليه قبل حملة دنقلا ببضعة شهور ان الحكومة
مصممة على الزحف الى دنقلا واستدلوا على ذلك بانها جمعت الملاحين الذين لهم
خبرة بالشلالات الواقعة جنوب وادى حلقا ولما اتصل به هذا النبأ أمر باخراج
تجار المصريين من البلاد وضرب لهم موعداً يخرجون فيه ومن تخلف منهم

صودرت أمواله ونفى الى أعلى النيل

هذا ما فعله حينما اتصل به الخبر وهو يدل علي ما مر من عدم حصول

فائدة للتعايشي من هذا التجسس

ويقولون ان أغلب جواسيسه متفقون مع الحكومة عليه ومنها يتلقون

ما يرفعونه اليه ولا ينافي ذلك ما قلناه من ابلاغهم اياه أمر الحملة قبل حركتها

ببضعة شهور اذ يحتمل انهم موعز اليهم بهذا الامر ليرى الموعزون ما يكون

من وراء ذلك

والخلاصة ان رواد التعايشي كان جاهم من أهالي مديرية الحدود وأخبارهم

ملفقة مبالغ فيها كقولهم للتعايشي ان حكومة مصر في رعب شديد وكلما طرق

آذان رجالها ذكرك ارتبكوا وكذلك أهلها فانهم يصرعون خوفا وجبنا كلما

سمعوا بذكرك فيتمائل طربا ويظن أن ما قالوه حق

علي انه يوجد في البلاد رواد ولكنهم قاصرون في ارتيادهم علي ضبط

السكيرين وصناع البوطة والمدخنين والذين يتاجرون بالدخان

وفي كثير من الاحوال يتناولون الرشاش منهم ويتركونهم ويلفقون

الدعاوى الكاذبة علي من كانوا مظنة المال ليتوصل بيت المال الي مصادرة

أموالهم بمجرد اتهامهم بوجود دخان أو بوطة في منازلهم وقد خطب التعايشي

يوما فقال ان القدر الذي يوجب مصادرة المال من الدخان هو ربع درهم

ومن البوطة ربع رطل وربما دفع المتهمون الالوف من المال بغية النجاة

من الضرب والتعذيب والاهانة ومصادرة المال

ذكر جلب المنوعات من مصر

ومن أنواع جواسيس التعايشى ناس يجلبون له «المنوعات» من مصر وهي الذخائر الحربية التي منعت الحكومة ارسالها الى السودان ولذلك أطلقوا عليها اسم «المنوعات»
وقد تقدم ان التعايشى أنشأ معامل لتعبئة الخرطوش وغيره من ذخائر الحروب

وقدم الكلام على الرصاص فى قصة الايقاع بالمقدم عمر الجملى وكذلك ما أتاه المسمى كمال الدين الهندي الذى أحرق رفات قتلى الخرطوم ومثل باشلائهم أبشع تمثيل مدعيا أنه يستطيع اخراج صنف البارود من تلك العظام وقد ذكرنا فشل جميع هؤلاء الدجالين ماعدا اليونانى برديقاجى فانه وفق لاستخراج صنف البارود ثم احترق هو وواعوانه لما انفجرت عليهم آنية البارود

وقد كان نجاح هذا اليونانى متوقفا على ايجاد شيء كثير من العقاقير الكيماوية التي لا توجد فى السودان لاتمام تجهيز «عجينة الكبسون» و(ملح البارود) وغيرهما من المواد القابلة للانفجار التي على محورها يدور عمل المعامل الحربية ولا سبيل الى ذلك الا بجلبها من القاهرة فاهتم التعايشى بهذا الامر واستقدم اليه النور الجريفاوى وكان يومئذ أمينا لبيت مال بربر وفاوضه فى ذلك الامر فأشار عليه بالاتفاق مع جماعة من تجار بربر وأم درمان للاستماتة بهم على التحايل على تهريب تلك «المنوعات» وهؤلاء التجار هم (عمر كشه) وأصله من أهالى سواكن (وعلى محمود الضوى) وأصله مصري من مديرية الحدود

استوطن أبوه بربر (وعبدالرحمن منصور) من أهالي أم درمان وصهر النور
الجرىفاوى فصار هوّلاءالتجار ينفذون أعوانهم الى مصر فيتاعون المنوعات
ويحتالون على تهريبها بوضعها في أكياس الارز ومن العجيب ان الحكومة
لم توفق لاحباط أعمالهم حتى استنروا تلى ذلك عدة أعوام وجابوا
مقادير عظيمة من الرصاص وغيره من العقاقير وتمكن أعوان على محمود
الضوى من استحضار ذخيرة من خرطوش مدفع « المترليوز » الانكليزي
الذى غنمته المهدوية من حملة الجنرال هيكس وكان التعايشى يؤدى لهم الاثمان
مضاعفة ويتجاوز لهم عن مكوس سلمهم التى يصدرونها الى مصر أو يجلبونها
منها تنشيطا لهم فكانوا يجلبون هذه الاشياء دفعتين فى العام وفي بعض
المرات بلغ ما جلبوه مقدارا عظيما من الرصاص وارتقت همة على محمود
الضوى الى انه ابتاع نحو ألف وعاء من الاوعية التى يسمونها « شنطه » وضع فى
كل واحدة خمسين خرطوشة جالها من مصوع ويقال ان الحكومة لم
توفق الى معرفة حيلهم واحباط أعمالهم الا فى الايام الاخيرة
والحاصل ان هوّلاء التجار كانوا من أقوى الاسباب فى تقوية المهدوية
وامدادها بالذخيرة التى لولاها ما استطاعت محاربة الاحباش فى القلابات
والشلك فى فشوده وغيرهما من الحروب الاهلية التى شبت نيرانها فى دارفور
وأكثر انحاء السودان وكان أبو شعبان الجاسوس الآنف الذكر بمن يجلبون
المنوعات أيضا

ذ كر غارة الدراويش على الواحات

لما افلح عثمان ازرق فى الغارة على (آبارالمرات) وقتل صالح بك خليفة

كحما مر وكان يونس الدكيم أميرا على دنقلة وقتئذ من قبل التعايشي وثمان
ازرق قائد الدر او جيش المعسكرين في الجهات الشمالية بالقرب من ضواحي حلقا
وكان عثمان هذا لا ينفك عن الفارة علي الجهات الواقعة شمال حلقا طمعا
في السلب والنهب وكان يونس الدكيم يرسل الكتب تباعا الى التعايشي
مفعمة بالثناء على عثمان ازرق واقدمه وما حازه من النصر المتتابع في
وقائمه وسطواته التي أضربنا صنعا عن جملها ولم نذكر الا القليل منها اذ هي
أشبه بما يجري من عصابات السطو واللصوصية

وفي أوائل سنة ١٣١١ هجرية كتب التعايشي الى يونس الدكيم كتابا
يأمره بانفذ عثمان ازرق في الف راكب علي ظهور الابل للفارة علي الواحات
وكان ذلك اجابة لالتماس يونس الذي كان يشحن كتبه الى التعايشي بذكر
الواحات وما فيها من المال الذي سينفقه اذا أغار عليها فتحركت اطماع
التعايشي وأمره بالفارة عليها وأوصاه أن يفاجئها تحت ظلام الليل
فسار الالف راكب يقودهم عثمان ازرق وبعد ان مضى عليهم بضع ليال في
السير واقربوا من الواحات أنفذ عثمان العيون ليأتوه بالخبر ففضوا الليلة
وعادوا في الغد وأبلغوه ان اعراب الواحات كثيرون جدا وأن أطنابهم
متدانية من بعضها وعندهم الاسلحة النارية وليس بينهم حامية للحكومة بل
هناك ضابط للشرطة ومهندس لحفر الآبار فخاف عثمان ازرق مغبة محاربة
أهل الواحات فعول على خديعتهم حيث زحف في مقاتلته حتى بات قريبا
من احياهم ثم تقدم اليهم في الغد بصفة سلمية وأفهمهم ان يونس الدكيم
أمير دنقلة نازل علي مسافة مرحلة من حيمم وانه قادم لفتح مصر عن طريق
الواحات وانه جاء من قبله لبذل الامان لهم فانخدع الاعراب وراجت

عليهم حيلته ثم قال الخمسة عشر عميدا من رؤساء القبائل وللمهندس اذهبوا
معي لمقابلة الامير فامتطوا الحمر وذهبوا معه وهو يخدعهم بقوله هو نازل وراء
هذه الربوة أو الغابة حتى مضى النهار كله وحينذاك ايقنوا بانهم خدعوا وان
القصص من ذلك ايصالهم الى دنقله التي بلغوها بعد بضعة ليال

ولما وصلوا دنقله استقبلهم يونس الدكيم وأطلق واحدا وعشرين
مدفعا علامة الاتتصار وكانوا في حالة سيئة من شدة ما نالهم من وعناء السفر
الفجائي ثم لم يلبثوا في دنقله الا ليلة وبمض يوم ثم أرسلوا الى أم درمان
تحت الحفظ

ولما مثلوا بين يدي التمايشى عاتبهم وألأناهم القول قائلا نحن واياكم
اعراب وكلنا نبغض الترك الكفار وننفر منهم فلماذا لم تنضوا الى لواء
المهدوية وتحاربوا الترك الكفار الذين نبذوا الشريعة وتمسكوا بالبدع
وأصروا على الكفر

فأجابوه بقولهم نحن نتوب الى الله مما سلف ونحمد الله الذي قدر لنا
الخلاص من ربقة الكفار ومن علينا برؤية وجه خليفة المهدي عليه
السلام فأمرهم ببايعته فبايعوه ثم استدعى أحد التجار وأمرهم بالاقامة في
داره وخصص لهم مرتبات من بيت المال فقام التاجر بكل لوازمهم بجد
وسخاء أما بيت المال فانه كان اذا نقدهم مرتب شهر ما طلبهم ثلاثة شهور
وهذا التاجر اسمه (البلال الاسيده) وهو رجل سخي مشهور بالرافة بالمصريين
الاسرى وخصوصا المؤلف وقد مكثوا على هذا الحال زهاء عامين كانت
حالتهم فيهما تنتقل من سيء الى أسوأ

وفي ذات يوم استدعاهم التمايشى الى منزله بمحضرة القضاة وأهل

الشورى وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم أخبره بان
سرايرهم قد ملئت بالاخلاص للمهدوية وانه عليه الصلاة والسلام امره ان
يعيدهم الى اوطانهم دعاة للمهدوية وأمراء على عشائرهم ليصدقوا في الواحات
بدعوة المهديّة ويناوؤون الحكومة المصرية فرقصت افئدتهم طربا لما لاحت
لهم بارقة النجاة ولكنهم بكوا وانتحبوا وأظهرا كراهة ان يكونوا بعيدين عن
خليفة المهدي الذي كان يكثر الاحاح عليهم بوجوب الامثال لما اشار به الرسول
صلى الله عليه وسلم وهم يتأسفون وينتجبون وما زال بهم حتى تابوا
الى الطاعة وكتبت لهم صكوك الامارة وتلقوا التعليمات ونقدم بيت المال
نفقات السفر وشدد عليهم في موافاته بالضرائب التي يجلبونها من أعمالهم
فغادروا أم درمان وهم وجلون لا يصدقون بالنجاة حتى بلغوا الحدود المصرية
وهناك مزقوا المرقعات ودفعوا للحكومة صكوك الامارة ومنشورات
الدعوة واعلموها بما وقفوا عليه من ضعف المهدوية وانحراف الناس
عن طاغيتها وكانت نجاتهم في الزمن القريب من حملة دنقلة

دنقلة قبل الحملة عليها

انتهينا في الكلام عن دنقلة فيما مضى من الكتاب الى ذكر المجاعة التي فشت
فيها سنة ١٣٠٦ والى ذكر عزل عبد الرحمن النجومي عن امارتها وولاية
يونس بن الدكيم
وهنا نشرع في الكلام على مدة يونس التي ابتدئت من ذلك العهد
تبييننا للمظالم التي دمرتها فنقول

لما تفشت المجاعة في دنقلا وغادرها عبد الرحمن النجومى الى حيث لاقى حتفه
 فى (طوشكى) ضعف أمر الاحزاب التى كانت متشعبة له وهجر أهالى
 دنقلا الشمالية أو طانهم فارين من وجه الظلم حيث لحقوا ببلاد مديرية الحدود
 وكان يونس قد عزل كل الجباة الذين أصلهم من أهالى السودان الاوسط
 أى الذين لم يكونوا من البقارة وعين نحو سبعين جايبا من عبيده بدلهم
 أما طريقة جباية الخراج فقد ذكرنا فيما مر من هذا الكتاب أن الضريبة
 فى دنقلا منذ دخول السودان تحت طاعة مصر كانت عقارية ولما كانت بلاد
 دنقلا خصبة ومن حاصلاتها القمح والذرة واللويبا التى هى متعددة الاصناف
 عدا التمر وريها بالآلات كالسواقى والشوايف فقد اخترع يونس لجباية
 ضريبة الجبوب طريقة سماها (التخريص) وهى ان الجابى يذهب الى المزرعة
 ويقدر ان محصولها يبلغ كذا فيلزىم الزارع بتأدية نصف التخريص الذى
 لا يقل عن ثلثى المحصول ثم يلزم صاحب الزرع بتأدية ريال مجيدى عن كل
 أردب من المطلوب تأديته وهذه الضريبة ليست لبيت المال بل هى للجابى
 ويسمونها (ضيافة العامل) وزد على ذلك أنهم كانوا يطالبون من كل زراعة تبلغ
 مساحتها فدانين فأقل نحو عشرة ريالات قيمة ثمن التبن اذا كان المحصول
 قححا وقيمة ثمن البوص اذا كان من الذرة أو الجذور اذا كان من اللوبياء
 وهناك ضريبة أخرى تجبى لغذاء الامير يونس الحكيم وتتجدد كل
 شهرين أو ثلاثة وهى ضريبة المسلى والاغنام وهى لا تقل عن عشرة ارطال
 وخروفين عن كل مزرعة فيرسل السبعون جايبا للامير ما يجتمع عندهم وأقل
 ما يتحصل من ذلك عشرون قنطارا من السمن ومائة راس من الاغنام
 أما الضرائب التى لا تدخل تحت قيد فكثيرة منها ما سببه اعسار بيت المال

الذي يضرب بسببه على كل شخص قدر من المال يؤدي له وثقات البعوث
والسرايا وهي أجل من أن تدخل تحت حصر
وإذا سافر جيش أو سرية من الدراويش من مكان لا خرفانهم لا يحملون
ميرة ولا علفا لدوابهم بل يهبون ويأكلون وينبجون قطعان الماشية في
الطرق ولا يستطيع أحد من الأهلين منعهم أو الحيلولة بينهم وبين ما يريدون
وعلى أثر ذلك استأثر يونس ومواليه بخيرات البلاد وانطلقت أيديهم
في أموال الناس وبات الأهلون تحت ائقال هذا الظلم يتنون
وقد مدّ موالي يونس أيديهم إلى الاعراض واستحلوا نكاح الحرائر
المسلمات بملك اليمين فكانت تجد عند الواحد منهم أكثر من أربع حرائر
وكانوا يعثون بالنساء الحسان إلى التعاشي وأخيه يعقوب وابنه شيخ الدين
وجميع كبراء البقارة

ومكث يونس علي هذه الحالة ثلاث سنوات ثم عزله التعاشي وولى
بدله محمد خالد زقل الذي كان أميراً علي دارفور وقد ذكرنا شيئاً كثيراً
من سيرته فشرع في تخفيف الوطأة عن الدنقابين لانه دنقالي منهم ولكن
مدته لم تطل حيث عزل بعد سنة وسجن ثم نفى إلى خط الاستواء
وقد أعيد يونس إلى الولاية وعادت كل المظالم التي ابتدعها ومكث كذلك
إلى ما قبل الحملة عليها ببضعة شهور

ويونس هذا أصله من قبيلة (التعاشية) التي منها التعاشي وكان
زوجاً لام التعاشي وكان قصير القامة جداً وجسمه ضئيلاً نحيفاً
وكان أمياً لا يعرف الكتابة والقراءة يأتيه الناس فيقولون له انك شجاع
وان الاسود في آجامها تفرغ منك وان ملامح وجهك ترعب من ينظر إليها

وانه اذا ذكر اسمك في مصر ولو ندره يموت الناس فرعا فينتفخ من هذا الثناء الكاذب ويلتفت لمن حوله من الرجال والمشيرين فيقول لهم أما سمعتم ما يقول هذا الرجل فيقولون سمعنا فيقول وهل صدق الرجل فيقولون على أقدامهم ويرفمون أصواتهم قائنين ياسيدنا الامير اتطلب منا دليلاً على الشمس والى متى تنكر صفاتك التي لا يجهلها أحد وانت فوق الاسود شجاعة وعزيمة ويحلقون انهم في حالة وجل وروع شديدين من رؤية وجهه والدنومنه فيطير سروراً ويأمر في الحال بضرب الطبول ودعوة المقاتلين للاستعراض ثم ينعم بالمال على الرجل الذي اثنى وعلي الذين ايدوا أقواله

هذامع انه جبان لم يذكر بمنقبة في حرب وقد ظهر جبنه في سنة ١٣٠٣ لما أتته العياشي لقتال عساكر بن كلام زعيم قبيله (الجمع) شرق كردفان لما خلع طاعة المهديوية وكان عساكر هذا فارساً مقداماً يشق صفوف الرجال ويزحزح الابطال وكان كلما حمل ليبارز يونس يحتفي منه ويقول لمن حوله اياكم ان تتركوني ابارز هذا الشقي ثم يتظاهر بانه سيهجم عليه فيتعلق الناس بدابته فيرجع قائلاً أما لو تركتموني لمبارزته لجندلته لكم علي الارض بغير سلاح بل كنت اختطفه من قربوس سرجه واجلد به الارض وكان هذا حاله طول الايام التي نشبت فيها الحرب بين الجمع حيث انتهت بقتل عساكر وعودة قومه الى الطاعة

أما قسوته وغلظته فحدث عنهما ولا حرج فانه كان اذا أمر بحبس واحد أمر خمسين من عبيده بالاحاطة به وضربه بالعصي والسياط حتى يبلغ السجن وهم يسمون هذه العادة (الفرقة) أي المسافة ما بين منزل الامير والسجن وهي لاتقل عن ميلين وقد لا يصل المسجون حيا بل يقضي عليه وهو في الطريق

ونقل لى أحد الثقة ان يونس أمر بسجن على بن الامين أحد صغار القواد
وابن الشيخ محمد الامين رئيس علماء السودان الذى ذكرناه مرارا فى هذا
الكتاب فاحدق به مائة وخمسون عبدا وأخذوا يضربونه (الفرقة) حتى بلغوا
به السجن مغشيا عليه ومكث يوما وليلة لايمى شيأ فيئسوا من حياته وبعد
أيام أمر بالنقل أيضا الى السجن لذنوب طفيف فاسرع الى الاقتراب منه ووقع
على الارض وانكنا على بطنه وقال له ياسيدى الامير اتوسل اليك ان
تأمر بضربى (الفرقة) أمامك ثم تحظر على الحراس أن يضربونى فى
الطريق فضحك وقال أنت خائف من الفرقة فقال كيف لا أخاف فقال
له أتوب فقال تبت الى الله والرسول والمهدى وخليفة المهدى ومولاي
يونس فقال قد عفوت عنك فانمض ولا تخف .

هذا قليل من كثير من أخبار يونس التى لا تسعها الجملدات الضخمة
أوردناه للدلالة على ما كان يقاسيه الدنقايون من حيفه وسوء معاملته
وقد هلك نحو ثلاثة أرباع السكان وأمست أراضهم فقرا بلقما. وكانت
وفودهم تشخص تباعا الى التعايشى متظلمة من جور عماله فلا تجديهم الشكوى
ولا ينفعهم اتظلم وكثيرا ما كان يسجن الشاكين وينكل بالتظلمين والخلاصة
انهم انقطعوا عن الشكوى وصبروا على مر البلوى حتى أراد الله تعالى انقاذهم
فحملت الحكومة على دنقلة وأجأت الدراويش عنها فخرجوا منها مذمومين
مدحورين كما سياتى ذكر ذلك فى مكانه والله الهادى الى سواء السبيل

ذكر مسألة العقرب مع التعايشى

يوجد بام درمان الحشرات السامة بكثرة فوق التصور وخصوصا نوع

العقرب لانها كانت قبل اتخاذها عاصمة للمهدوية برية ليس فيها زرع ولا ضرع وأرضها مكسوة بالحجارة ويستجيل نجاة من لسعته عقرب الا اذا كانت صغيرة وكثيرا مارأيت عقربا يبلغ طول ما بين رأسها وذيلها عشرين سنتمرا

وفي ذات يوم وقف التعايشي لصلاة المغرب فابصر بعد تكبيرة الاحرام وقراءة أم الكتاب عقربا تدب نحوه فارتاع وصار يكرر قراءة الفاتحة ويشير بيده الى من خلفه من المصلين فلم يفهموا قصده بل ظلوا وقوفاً في الصلاة ولكنهم ادركوا انه لم يكرر قراءة الفاتحة الا لسبب قوى من الاسباب فقطع المدعو (الحاج الزبير) أحد حراسه الصلاة ولحقه في حالة الاضطراب والفرع الشديد من العقرب ووقف بازائه فأشار بيده الى العقرب فقتلها ثم ان التعايشي خرج من الصلاة بتسليمه وهو في خجل شديد من اعتقاد الناس جنبه الى هذا الحد فجلس مضطرباً وقد بلل العرق جبينه وبعد ان تاب اليه رشده قليلا عزم على التخلص من ذلك بوضع اكذوبة في غاية الغرابة حيث جلس وألقى على الناس خطبة هذا نصها.

اعلموا يا أصحاب المهدي عليه السلام ان هاته العقرب لم تجسر على الدخول في هذه المقصورة الا لان ساعة انقضاء حياتي كانت وشيكة غير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهدي والخضر عليهم السلام حضروا في هذه اللحظة واخبروني انهم سألوا الله عز وجل تأخير منيتي لان الامة في حاجة شديدة الى هذا التأخير وقد أمروني بقتل هذه العقرب . أما الدهشة التي ظهرت علاماتها على فانها نتيجة أسرار لا يمكن اخباركم بها كانوا يخبرونني بها حتى ودعوني وانصرفوا فاشرت اليكم فلم تفقهوا اشارتي حتى ألهم الله الحاج الزبير فهمها فهم من الشهداء

الكبار ومن خيرة أصحاب المهدي جعلكم الله مثله ومكث نحو ساعتين يقرر هذه الخرافة ولم يصل المغرب الا في آخر الساعة الاولى من الليل

أما الحاج الزبير هذا فانه رجل كثير التملق والاحتيال وقد ذكرنا فيما مضى ان التعاشي كان يشاوره في بداية خلافته ويستمد منه الآراء ولكن مدته لم تطل حيث نكبه وصادر أمواله بعد خلافته بعامين اظهر خيانه مع عمه عبد الله الطريقي الذي كان عاملاً للمهدوية على القصارف وقد نكب عبد الله المذكور وسائر اقاربه أيضا وحبسوا وعذبوا ليظهروا خبايا أموالهم

وقد ذكرت ان عبد الله الطريقي هذا وشي بي عند التعاشي لما كان ينوي انفاذي مع دراويشه الى خط الاستواء وقد كافأته علي هذا حيث نصحت التعاشي أن لا يولي غير اقاربه البقارة ومكث الحاج الزبير مسجوناً نحو عام ثم اطلق سراحه ولكنه لم يعد الى منزلته الاولى

وكان اذا ناداه التعاشي يرفع صوته قائلاً (لييك يا خليفة المهدي عليه السلام) ثم يظهر التغير في صوته والاضطراب في جسمه كأن هيبه خليفة المهدي ونور محياه هما اللذان نشأ عنهما ما اعتراه وقد مكث بعد اطلاقه من السجن محفوا من التعاشي الذي لم يعده الى منزلته الاولى الا بعد حادثة العقرب التي شرحناها في هذا الباب وأخيراً توفي حتف انه قبيل فتح أم درمان وكان أبوه عبد الرحيم الطريقي أميناً من قبل التعاشي على احدى الورش الحربية التي تصنع بها الذخيرة والمعدات الحربية

وبالجملة فان الحاج الزبير هذا هو الذي قوى عزم التعايشي علي البقاء
بام درمان وثناه عما كان عازما عليه في بداية خلافته من ان يأخذ نصيبا
من الاسلحة وينادى أم درمان ويؤسس دولته بفرب السودان

﴿ انتهى الجزء الثاني من كتاب السودان بين يدي كتشنر وغردون ﴾

« ويليه الجزء الثالث وأوله البدء بحملة دنقلة »

(كل نسخة من هذا الكتاب تكون محتومة

بختم المؤلف الذي هو هذا)



جمعية الإخاء البركسية

٣٠ شارع غيط العدة
عابدين : القاهرة

- ١ - تأسست « جمعية الإخاء البركسية » سنة ١٩٣٢ بالقاهرة . وتفيد اسمها ضمن أسماء الجمعيات المعترف بها من الحكومة .
- ٢ - أغراضها : إيجاد رابطة تعارف وتعاون بين الأعضاء ، واتصال باخوانهم في الأقطار المختلفة ، للتعاون الاجتماعى والثقافى ، وللعمل على دوام حسن التفاهم بين أولئك الاخوان والأمم التى يقيمون بينها .
- ٣ - قامت الجمعية وتقوم بالصراف على طلبة العلم فى الأزهر الشريف ، وفى مختلف المدارس الحكومية والأهلية ، وفى وجوه البر والعناية بالمرضى والمحتاجين ، وبالضيافة فى دارها .
- ٤ - أموال الجمعية تتكون من الاشتراكات والتبرعات والاعانات .
- ٥ - لا دخل للجمعية فى السياسة .
- ٦ - لجنة الجمعية تقرر قبول الأعضاء ومن ترى أن من المصلحة انضمامه للجمعية .

تاريخ القوقاز

هذا الكتاب هو الأول من نوعه باللغة العربية ، وهو مترجم من كتاب للمرحوم عزت باشا الجركسى الأصل ، وقائد سلاح السوارى بالجيش التركى الحديث ، والذي أبلى بلاء عظيماً فى حرب الاستقلال التركى مع الغازى مصطفى كمال باشا .

والكتاب مدعم بالمستندات التاريخية واللغوية ، وهو صاحب النظرية التاريخية القائلة بأن الحيثيين القدماء هم أجداد الجراكسة ، حيث يدل على ذلك بالأدلة الأثرية والانتروبولوجية ، وهى النظرية التى افنت نظر المؤرخين ورجال الأنساب والآثار من علماء أوروبا .

وقد أراد « أتاتورك » ، فيما بعد أن يجعل من وجود آثار للحيثيين فى بعض جهات الأناضول سبباً لآخذ هذه النظرية وتطبيقها على تاريخ الأتراك .

والكتاب مجموعة تاريخية نفيسة عن بلاد القوقاز من عصورها الغابرة إلى هذه العصور الحديثة ، وعمن سكنها ومن لا يزال يسكنها من الأمم ، وما لهم من عادات وتاريخ تليد .

وهكذا وُفقت « جمعية الأخاء الجركسية » ، فى نشر هذا الكتاب بين الناطقين بالاضاد ؟

يناير سنة ١٩٤١

﴿ فهرست الجزء الثاني من كتاب السودان بين يدي غردون وكتشتر ﴾

| صحيفة | صحيفة |
|-------------------------------------|---------------------------------------|
| ٣٣ الكتاب الاول من المهدي | ٧ قيام دولة المهدي في السودان |
| لمصطفى باشا | ٨ ذكر مقابلة المؤلف مع أمين بيت المال |
| ٣٤ الكتاب الثاني « » » | ٩ ذكر ماغنمه المهدي من الاموال |
| ٣٧ واقعة كورتى وقتل الشيخ الهدي | والذخيرة من الخرطوم |
| ٣٧ ذكر وصول كتشتر باشا الى دنقلة | ١٠ ذكر قتل فرج باشا الزين |
| ٣٨ وصول الحملة الانكليزية الى دنقلة | ١١ ذكر مقابلة المؤلف للمهدي |
| ٣٩ جملة الجنرال ارل وقتله بواقعة | ١٢ مقابلة المؤلف للتعايشي |
| كربكان | ١٤ ذكر دخول المهدي مدينة |
| ٤٠ واقعة أبو طليح | الخرطوم |
| ٤٣ ذكر تعيين عبد الرحمن النجومي | ١٥ القبض علي المؤلف وسجنه في |
| لقتال الانكليز في المتمة | الخرطوم |
| ٤٥ ذكر عودة الحملة الانكليزية الى | ١٦ ذكر أهالي الخرطوم بعد ذلك |
| دنقله | ٢٣ ذكر مقابلة الشيخ محمد الامين |
| ٥٤ ذكر فداء القسس والمسيحيين | للمهدي ووفاته |
| ٥٥ ذكر توجيه الجيش لمحاربة سنار | ٢٥ ذكر انتقال المهدي الي أم درمان |
| ٥٥ ذكر انتداب الشيخ حسين | ٢٦ حوادث دنقلة |
| زهراء الى كسلا | ٢٧ ذكر الشيخ الهدي |
| ٥٦ ذكر وفود عوص الكريم أبي | ٢٨ ذكر واقعة الشيخ الهدي |
| سن زعيم الشكرية على المهديوية | مخبرات المهدي مع مصطفى ياورد باشا |

| صحيفة | صحيفة |
|---|---|
| ٩٢ شأن أهل الخرطوم بعد ذلك | ٥٧ ذكر تعيين حسين باشا خليفة |
| ٩٤ ذكر الاجتماع للعيد الاضحى | داعية للمهدى في قبيلة العباددة |
| ٩٧ ذكر وفود الهنود على التعايشى | ٥٨ ذكر ضرب نخانة نفود المهدي |
| ٩٧ ذكر انتفاض الاشراف وسليم الرايات | ٥٨ ذكر ختان اولاد المهدي |
| ٩٩ القبض على امرء سنار وفرار الشيخ مضوى | ٥٩ ذكر تعيين حمدان ابي عنجه على جبال كردفان |
| ١٠١ ذكر عصيان الجهادية بالايض وقتل امير كردفان | ٦١ ذكر مرض المهدي ووفاته |
| ١٠٢ ذكر أعمال ابي عنجه في الجبال | ٦٥ ذكر طرف من سيرة المهدي |
| ١٠٣ ذكر اشخاص محمد خالد زقل من دارفور وسجنه | ٧٣ ترجمة التعايشى |
| ١٠٤ القبض على احمد سليمان امين بيت المال وعزله | ٧٦ خلافة التعايشى |
| ١٠٧ الاشاعة بعودة الانكاز الى دنقله | ٧٩ اول اكاذيب التعايشى |
| ١٠٩ انقاذ عبدالرحمن النجومى الى دنقله | ٨٢ دعوة التعايشى اهالى السودان لاداء فريضة الحج بأم درمان |
| ١٠٩ انتفاض درافور على التعايشى واخضاعها | ٨٣ ذكر مسألة الشعرة من حية المهدي |
| ١١٠ ذكر لحاق قبيلة الشكرية بالحبشة وقتل زعمائها | ٨٤ ذكر وقائع سنار وسقوطها |
| | ٨٧ حوادث كسله وسقوطها |
| | ٩١ اول واقعة بين الدراويش والاحباش |
| | ٩١ ذكر قتل المدير احمد عفت ومن معه من القواد |

| صحيفة | صحيفة |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| ١٤٨ ذكر ضربخانة التعايشي | ١١١ ذكر قبيلة الضبابية والقبض |
| ١٤٩ ذكر انشاء دارللذخيرة والبارود | على زعيمها في الجهات الجنوبية |
| ١٥١ ذكر موت لبن بك مدير بحر | ١١٢ ذكر انتفاض قبيلة جهينة |
| الغزال | ١١٣ ذكر حرب قبيلة الكبايش |
| ١٥١ المقدم عمر الجعلي واستخراج | ١١٥ ذكر القبض علي شارل نيوفيلد |
| الرصاص | ١١٧ ذكر حروب الاحباش الى قتل |
| ١٥٣ ذكر احراق عظام قتلى الخرطوم | النجاشي يوحنا |
| ونبش القبور | ١٢٨ ذكر فتح قندر بالجيشة |
| ١٥٤ ذكر تخريب بلاد الجزيرة | ١٢٩ وفاة أبي عنيجه وولاية الزاكي |
| وحشد أهلها بام درمان | طمل |
| ١٥٦ ذكر تخريب الخرطوم | ١٢٩ وياقمة القلابات وقتل النجاشي |
| ١٥٦ ذكر فرار المؤلف وارجاعه الي | ١٣٢ شأن خط الالواء مع المهديين |
| أم درمان | ١٣٩ ذكر عزل محمد الخير من بربر |
| ١٦٣ ذكر احتراف المؤلف | وموته |
| ١٦٦ ذكر عثمان الملقب بشيخ الدين | ١٤١ النور ابراهيم الجريفاوي وتجار |
| ابن التعايشي | المصريين في بربر |
| ١٧٠ الكلام على الخراج والجبابة | ١٤٢ السودان الشرقي |
| والعمال | ١٤٤ ظهور المهدي أبو حمزة في |
| ١٧٢ ذكر المختين | درافور |
| ١٧٥ حوادث دنقله وقتل ابن النجومي | ١٤٥ شأن التعايشي وقبيلة التعايشة |

| صحيفة | صحيفة |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| ٢٠٤ ذكر فرار الغزالي وقتله | ١٨٠ زواج المؤلف باحدى نساء |
| ٢٠٦ ذكر صلب ابراهيم عدلان أمين | التعايشي |
| بيت المال | ١٨٥ ذكر الميرالاي حسن البهنساوي |
| ٢٠٩ ذكر بقية أخبار ابراهيم عدلان | بك |
| ومسألة مصادرة العاج | ١٨٨ ذكر مالفية المؤلف في مقابلته |
| ٢١٠ حادثة العباددة وابعادهم | بعض الامراء |
| ٢١٣ ذكر غارة العباددة علي أبو حمد | ١٨٩ ذكر نفى عبد القادر ابن أم مريم |
| وقتل سليمان نعمان قر | ١٩٢ ذكر قصة المرأتين |
| ٢١٤ ذكر موت الحاج علي سمد | ١٩٣ ذكر رسالة محمد ماهر باشا |
| ٢١٥ ذكر موت عثمان آدم وتولية | للمؤلف |
| محمود أحمد بدله | ١٩٥ ذكر مسألة الشيخ محمد عبد |
| ٢١٧ ذكر صفة معيشة التعايشي | الماجد وصلبه |
| ٢١٩ ذكر حادثة البطاحين | ١٩٧ ذكر تشييد قبة المهدي |
| ٢٢٢ شأن محمد خالد زقل بعد ذلك | ١٩٨ ذكر المجاعة في في سنتي ١٣٠٦ |
| ٢٢٥ ذكر استخراج الرصاص | و١٣٠٧ |
| والنحاس والكحل من معادن | ١٩٨ المجاعة في ام درمان والجزيرة |
| حفرة النحاس | ٢٠٠ المجاعة في اقليم بربر |
| ٢٢٥ ذكر بنات الجعلين | ٢٠١ المجاعة في دنقلة |
| ٢٢٦ ذكر انسحاب الجيش من | ٢٠١ المجاعة في كسلة |
| القلابات | ٢٠١ المجاعة في القضارف |

| صحيفة | صحيفة |
|--|--|
| ٢٢٧ ذكر شأن نساء المهدي مع التعايشي | ٢٢٧ ذكر غارة الزاكي طمل علي الشلاك |
| ٢٨١ ذكر سجن أولاد المهدي | ٢٣٧ ذكر بقية أخبار عثمان دق |
| ٢٨٣ ذكر مؤامرة عبدالمولى صابون | ٢٤٢ ذكر هزيمة الدراويش من هندوب وأخبار أمارار |
| على قتل التعايشي | ٢٤٣ ذكر هزيمة عثمان دقنه من طوكر |
| ٢٨٤ ذكر قدوم محمود أحمد من دارفور | ٢٤٨ شأن عما دقنه بعد ذلك |
| ٢٨٦ ذكر القبض علي أمراء اعلين ونقيهم | ٢٤٩ حالة السودان بعد ذلك علي الاجمال |
| ٢٨٨ ذكر نفي الامير أبي قرجه | ٢٥٨ ذكر تعيين المؤلف وجماعة من المصريين أمراء |
| ٢٨٩ عودة الي ذكر بيت المال | ٢٦٢ ذكر ملازمتي الصلوات في المسد |
| ٢٩٢ ذكر سور أم درمان | ٢٦٥ ذكر انتفاض الخليفة شريف وأولاد المهدي |
| ٢٩٥ ذكر قدوم الزاكي طمل من فشودة الي أم درمان | ٢٧١ ذكر القبض علي كبار حزب الخليفة شريف وقتلهم |
| ٢٩٦ الزاكي في أبي حراز | ٢٧٥ ذكر القبض علي الخليفة شريف وحبسه |
| ٢٩٧ علائق التعايشي ومنليك | ٢٧٧ ذكر القبض علي عبد القادر ساتي ومحمد عبد الكريم وقتلها |
| ٢٩٩ ذكر سجن الزاكي طمل وقتله بام درمان | |
| ٣٠١ ذكر قتل صالح حسين خليفه | |
| ٣٠٢ ذكر واقعة (غوردت) بين | |

| صحيفة | صحيفة |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| ٣٣١ ذكر تولية الشيخ الحسين | الايطاليين والمهدين |
| الزهراء القضاء وقتله صبها | ٣٠٣ ذكر احتلال الايطاليين كسله |
| ٣٣٥ خفراء السجن | ٣٠٥ ذكر معسكر أصوبرى وأخبار |
| ٣٣٦ الايام الاولى في السجن | حامد علي وأحمد خليل |
| ٣٣٧ شارل نيوفيلد والمؤلف | ٣٠٨ اجمال حال السوء ان بعد ذلك |
| مقرونان في قيد | ٣١١ ذكر قراءة الناس بالالواح |
| ٣٣٨ أمير السجن في منزله ونسائه | ٣١٣ ذكر بقية أخبار سلاطين باشا |
| ٣٣٩ صلاة المسجونين | وفراره |
| ٣٣٩ ضريبة ريال كل يوم على المؤلف | ٣١٦ ذكر نبي أحمد الفحل والذين |
| ٣٤٠ النادرة العباسية في السجن | ساعدوه على فرار سلاطين باشا |
| ٣٤٢ ذكر ابطال القهوة | ٣١٨ ذكر سجن ابراهيم حمزة وجماعة |
| ٣٤٤ ذكر اختتان المسيحيين واجبارهم | من اعيان بربر |
| على تعدد الزوجات | ٣١٩ تمهيد في ذكر السجن ونظاماته |
| ٣٤٦ ذكر سجن ابن المؤلف | واطلاق اسم السائر علي كل سجن |
| ٣٤٨ التعاشي قبل جملة دنقاة | ٣٢١ ذكر سجن المؤلف |
| ٣٥٠ جواسيس المهدوية | ٣٢٣ أول ليلة في السجن وأخبار اثنين |
| ٣٥٣ ذكر جلب المنوعات من مصر | يدعيان النبوة |
| ٣٥٧ دنقلة قبل الحملة عليها | ٣٢٦ انذار المؤلف بالاعدام |
| ٣٦١ ذكر مسألة المقرب مع التعاشي | ٣٢٧ ذكر قتل القاضي أحمد بن علي |